جيلبرت سينويه

ابن سينا

أو

الطريق الى أصفهان

رواية

ترجمة: آدم فتحي

منشورات الجمل

جيلبرت سينويه: روائيّ فرنسيّ وُلد بالقاهرة ١٨ فيفري شباط. (١٩٤٧ زاول دروسه الأولى بإحدى مدارس اليسوعيّين بمصر. ثمّ انتقل إلى معهد الموسيقى بباريس حيث تحصّل على شهادة الأستاذيّة في آلة القيثارة. يهتمّ أيضًا بكتابة الحوار والسيناريو للسينما والتلفزيون. من رواياته: المصريّة (١٩٩١)، ابنةُ النيل (١٩٩٣)، الفرعون الأخير. (١٩٩٩)

آدم فتحي: شاعر تونسيّ. (١٩٥٧) له اسهامات في المقالة الصحفيّة والدراسة النقديّة والقصّة. أشرف على عدّة صفحات ثقافيّة. له العديد من المؤلّفات والترجمات منها: أناشيد لزهرة الغُبار، شعر(١٩٩٢)، يوميّات شارل بودلير، ترجمة (١٩٩٩)، نعيم قطّان: وداعًا بابل، رواية، ترجمة (١٩٩٩).

جيلبرت سينويه: **ابن سينا أو الطريق الى أصفهان**، ترجمة: آدم فتحي

الطبعة الأولى، كولونيا، ألمانيا

Gilbert Sinoué: Avicenne ou la route d'Ispahan

Postfach 600501
50685 Köln . Germany
Tel: 0221 736982
Fax: 0221 7326763
E-Mail: KAlmaaly@aol.com

مقدّمة لابدّ منها
الكتابة كترجمة... الترجمة كعودة...

لم يُعرَف جيلبرت سينويه كروائيّ إلاّ انطلاقًا من بلوغه سنّ الأربعين (١٩٨٧)، تاريخ نشره أُولَى رواياته التي اهتمّ فيها بسيرة البابا السادس عشر، ثمّ صدرت له الرواية التي بين أيدينا سنة ١٩٨٩، ثمّ ظهرت له روايتان: "المصريّة" سنة ١٩٩١ و"ابنة النيل" سنة ١٩٩٣، وفيهما انكبّ على الحياة المصريّة فيما بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ثمّ ظهرت روايته الخامسة "كتاب الحَجَر الكريم" سنة ١٩٩٦، وفيها تعرّض إلى طليطلة سنة ١٤٨٧ ميلاديّة، وما شهدته من قلاقل ونزاعات ومحاكم تفتيش، ثمّ توالت الروايات إلى حدّ ظهور "الفرعون الأخير" سنة ١٩٩٩، وهي آخر عمل قرأناه له إلى حدّ الآن.

قد يصعب على ملتمسي الآثار الكبرى، المحتكمين إلى مقاييس المقارنة مع أعمال الروائيّين الكبار الذي أثروا المكتبة العالميّة، أن يجدوا ضالّتهم في أعمال سينويه. إلاّ أنّ رواياته تختصّ في مجملها بطرح أسئلة الكتابة من زاوية علاقتها بالتاريخ، بشكل متميّز لا يخلو من طرافة وتجريب. وقد ترجمت أعماله في أغلبها إلى العديد من لغات العالم، وتحصّل عدد منها على جوائز مرموقة.

ويبدو أنّ طفولته المصريّة أمدّته بجذور شرقيّة" غَلاَبَة "ظلّت تفعل فعلَها في شخصيّته كروائيّ، فإذا هو يستفيد من الأجواء الشرقيّة بما تعنيه في جانبها الفولكلوري من سحر وروائح وأعاجيب، وبما تعنيه في جانبها المعرفيّ من مرجعيّات سرديّة (كتُب السيرة، الخرافة الشعبيّة، ألف ليلة وليلة، إلخ)...، وتقنيّات (المقامة مثلاً، وإن كان قد استعملها في هذه الرواية بتصرّف كبير)... وتيمات أو شخصيّات (ابن سينا، مصر، الأندلس، الفرعون، إلخ.)...

وقد استخدم سينويه هذه الأجواء والمرجعيّات والتقنيّات والتيمات وكأنّها تراثه الشخصيّ وجزء من تاريخه الخاصّ، بعيدًا عن زخارف "الإكزوتيزم" التي يجنح إليها بعض الكتّاب الغربيّين لمجرّد التنويع أوالإبهار. ممّا جعله يقف على

أرضيّة غربيّة ووجهه إلى الشرق، انطلاقًا من مزاج تهجينيّ واضح ومتوازن، لئن لم يخل نهائيًا من الإتّكاء على بعض المستشرقين ومراجعهم (خاصّة في بعض فصول هذه الرواية)، فإنّه أفلح في تجنّب الكثير من مزالق النظرة الاستشراقيّة الكلاسيكيّة المعروفة بارتهانها إلى عقدة التفوّق.

ابنُ سينا واحدٌ من بين قلّة من نوابغ العصور السالفة الذين وصلتنا أهمّ مؤلّفاتهم، إضافةً إلى صورة واضحة عن حياتهم الشخصيّة، وذلك من خلال الصفحات التي تركها لنا تلميذه وتابعه أبو عُبيد الجوزجاني الذي صاحبه في حلّه وترحاله، والذي وصف لنا في قرابة العشرين صفحة ما تعرّض إليه معلّمه من ظلم الملوك وسطوة الأمراء وتعب الجسد في مرام النفس الكبيرة. ويبدو ابن سينا من خلال" سيرة "الجوزجانيّ شخصيّة مأساويّة جاهزة للتنفيذ الروائيّ، بما تتضمّنه من تفاصيل وتقلّبات وتشويق ونهاية يتعارض فيها القدر مع الإرادة وفقًا لشروط المأساة الإغريقيّة.

وقد استغلّ جيلبرت سينويه هذه السيرة القصيرة لإنجاز عمله الضخْم، فأَجْرَى نَصَّ هذه الرواية على لسان "أَبي عبيد الجوزجاني"، وأورد عددًا من الحواشي ذَيّلها باسم هذا التابع الوفيّ الذي رافق ابنَ سينا طيلة خمسة وعشرين عامًا، وأردفها بحواشٍ أخرى ذَيّلها بإمضاء "المُترجم"، وذلك لإحكام الإيهام بنسبة هذا النصّ إلى تلميذ ابن سينا وكاتب سيرته المعروف، ولمزيد الإقناع (إقناع القارئ) بأنّ المؤلّف (الفرنسيّ) ليس أكثر من" مُترجم "لسيرة ابن سينا كما كتبها الجوزجانيّ، وهذا يعني أيضًا أنّه ليس سوى "ناقلٍ" أمينٍ لنصٍّ كُتب في الأصل بالعربيّة.

ولمّا كان ذلك من جوهر "لعبة" السرد المتوخّاة في هذا العمل، فقد رأينا أن نحترم قواعد اللعبة أثناء الترجمة، مذيّلين حواشينا الخاصّة بإمضاء "المعرّب"، وكأنّنا لا نترجم نصًّا، بل نعيده إلى لغته الأمّ. وقد تطلّب منّا هذا الأمر أن نعود إلى نصّ رسالة أبي عُبيد، وأن نرجع إلى مؤلّفات ابن سينا نفسه: خاصّة كتاب القانون وكتاب الشفاء والأرجوزة الطبيّة، وأن نثبت الكثير من الآيات القرآنيّة والأحاديث النبويّة والأمثال والأبيات الشعريّة، للدنوّ قدر المستطاع من "نصّ

أصليّ"، هو أقرب إلى الحقيقة الافتراضيّة منه إلى أيّ شيء آخر.

هكذا يجد القارئ نفسه أمام لعبتين: لعبة الكتابة باعتبارها ترجمة، ثمّ لعبة الترجمة باعتبارها عودة بالنصّ إلى "أصلٍ ما."

كان ذلك أوّل الأسباب التي أغرتنا بترجمة هذه الرواية.

يسند جيلبرت سينويه إلى أبي عبيد الجوزجاني دورًا مزدوجًا أو لنقل دورين متعاضدين في عمليّة السرد: دور "الراوي المُعلَن" المعتمد على ضمير المتكلّم، الذي يصف الأحداث من زاوية نظره الشخصيّة، ودور "الراوي المُستتر" الذي يتقمّص دور المؤلّف ويدّعي "الحياد" بتقديم نفسه ضمن سائر الشخصيّات المتحرّكة داخل دائرة الأحداث المرويّة.

لكلّ من هذين الشخصيّتين خطابها الخاصّ. بالإضافة إلى خطاب "سينويه" الذي هو "المؤلّف" الحقيقيّ للعمل وقد "انتحل" صفة "المترجم". هذا التنوّع في مستويات الخطاب يضع المترجم (الحقيقيّ هذه المرّة) أمام تحدّ ممتع: كيف ينقل هذه المستويات بتنوّعها إلى العربيّة؟ أي كيف يجعل خطاب أبي عبيد "الراوي" مختلفًا عن خطاب أبي عبيد "المَرْوِيّ"؟ ثمّ كيف يجعل هذين الخطابين مختلفين عن خطاب "سينويه" كلّما عنّ له أن يورد حاشية بإمضاء "المترجم"؟ ثمّ كيف يضيف إلى كلّ ذلك مستوى آخر من الخطاب، خاصًّا به كمعرّب، يجعل لغته مختلفة حين يعنّ له أن يلحق بالنصّ هامشًا خاصًّا بالنقل إلى العربيّة؟ كلّ هذا مع المحافظة على "انسجام" اللغة السرديّة، ومع وضعها في سياق العصر الذي تدور فيه الأحداث، دون أن يكون في ذلك "تقعّر" أو "حذلقة"، ودون أن يدفعه واعز تحديث اللغة إلى استعمال "نسقٍ" غير متّسق مع روح العصر الذي يحيل إليه السرد.

نحن إذن في مفترق طرق بين ثلاثة أزمنة: الزمن الذي تدور فيه الأحداث، وزمن السرد، والزمن الذي يصل فيه هذا السرد إلى القارئ. ولكلّ زمن لغتُه بالضرورة. إذَنْ، كيف تكون اللغة حديثة دون أن تتناقض مع عصر الأحداث؟ وقديمة دون أن تنتمي إلى الحوشيّ من الكلام؟ ومحايدة دون أن تفقد تميّزها كخطاب؟

تحدٍّ ممتع كان ثاني الأسباب التي دفعتنا إلى ترجمة هذا النصّ.

في هذه الرواية، يستند جيلبرت سينويه إلى الوقائع والشخصيّات التاريخيّة لكنّه يزاوجها بأحداث وشخصيّات فرعيّة متخيلَة. كما أنّه يجمع بين متابعة الأحداث بشكل خطّي حسب تسلسلها التاريخيّ، ومتابعتها بشكل اعتباطيّ، وفقًا لإرادة الراوي.

هكذا نرى "أبا عُبيد" يتدخّل هنا وهناك ليذكّرنا بأنّ زمن "رواية الأحداث" مغاير لزمن "وقوعها"، مستبقًا الأحداث، أو متراجعًا إلى أحداث سابقة. بل إنّنا نقف على عمليّة مزج بين سيرة ابن سينا وسيرة أبي عبيد نفسه، حتّى أنّنا قد نستطيع اعتبار الرواية سيرة ذاتيّة للجوزجاني قبل أن تكون تأريخًا لسيرة ابن سينا.

انطلاقًا من كلّ ذلك، يمكن القول إجمالاً إنّ روايات جيلبرت سينويه تطرح في معظمها سؤال الرواية التاريخيّة الأهمّ: أين يقف التأريخ وأين تبدأ الرواية؟ كما تطرح في بعضها (وخاصّة في هذه الرواية) سؤال العلاقة بين الرواية التاريخيّة من جهة وأدب السيرة من جهة أخرى. وقد كان الروائيّ الفرنسيّ في إجابته عن هذين السؤالين أقرب إلى ما عهدناه في تجارب نجيب محفوظ (رادوبيس، كفاح طيبة) وجمال الغيطاني (الزيني بركات خاصّة) منه إلى أعمال سليم البستاني أو فرح أنطون أو جرجي زيدان مثلاً.

وإذا كانت الفوارق كبيرة بين هذه الروايات من جهة، وبينها وبين رواية سينويه من جهة أخرى، فإنّها تشترك في كون التاريخ ليس هدفًا في ذاته لغاية تعليميّة أو توثيقيّة، وليس مجرّد وسيلة للحديث عن الحاضر. التاريخ تعلّة لكتابة رواية. تعلّة للكتابة. حيلة من الحيل التي تتوسّل بها الكتابة لإدارة لعبتها وتحقيق ذاتها في السرد.

وذاك ثالث الأسباب التي أغرتنا بترجمة هذه الرواية.

ثمّة سبب رابع لعلّه الأهمّ، كون ترجمة هذه الرواية كانت بالنسبة إلينا أيضاً تعلّةً للكتابة. الكتابة بوصفها ترجمة في المُطلق. وهو موضوع يخصّ نظرتنا إلى الترجمة، وفهمنا لها، قد لا يتّسع المجال لإيفائه حقّه في هذه العجالة، هذا إذا لم

يكن طرحه من طرفنا على جانب كبير من الزهو السابق لأوانه.

بقي أن نشير إلى نقطة أخيرة.

حين أفصح إينشتاين لصديقه رومان رولان عن انفعاله برواية "الإخوة كارامازوف" لدوستويفسكي، حدّثه عن إحساس "مضيء"، إحساس "بهيج"، لعلّه غير بعيد عمّا يخامرنا عادة ونحن أمام "حلم" يوقظ فينا ما توقظه ذكرى قديمة، أو أمام ذكرى نسترجعها وكأنّنا نحلم بما قد يأتي...

ثمّة إحساسٌ بالألفة يشعر به الآخر المتلقّي للنصّ المُترجَم، فكأنّه يذهب إلى مكان غريب، يحسّ مع ذلك بأنّه لم يغادره قطّ....

ذاك في نظر الكثيرين أحد أكبر البراهين على أدبيّة نصٍّ ما.

ولكن ألا تعني تلك "الألفة" أنّ ثمّة "لغة أخرى"، عابرة للغات، ننصت إليها في كلّ ما نقرأ؟ نذهب إليها كما نذهب إلى مكان لم نطأه قَطُّ، لكنّنا بشكلٍ ما، "نعود إليه" دون أن "نحقّق" فعلاً تلك العودة؟

هل هي لغةُ ما قبل سقوط برج بابل التي يدافع عنها دعاة البحث عن ميتافيزيقا للترجمة؟

لا نعتقد ذلك.

تلكد "لغة أمّ" يحنّ إليها كلّ من يراوده داعي العودة إلى ما قبل تشرذم اللغات، إلى ما قبل تعدّدها.

اللغة التي نقصدها هي على النقيض تمامًا، تلك التي ينتجها التشرذم والتعدّد. تلك التي تُفرزُها النصوص وهي تُهَجَّرُ من لُغة إلى أخرى كما تُفرزُ الأوصال دمًا وهي تُقَطَّع. تلك المنصرفة عن "الأصل" الملتفتة إلى "المآل" العصيّ أبدًا. تلك التي لا تورق إلاّ بين الشظايا ولا تنشر عروقها إلاّ في الشذرات. تلك الرافضة للعودة والمحتفية بالضلالة والترحال دائمًا وإلى الأبد... تلك التي تستعيد الترجمة بها مفهومها الإيتيمولوجيّ كوسيط للعبور بين الضفاف والحدود... يهرّب النصوص من "غيتو" أقاليمها وأقفاصها ويعبر بها الحدود ويغافل معها عيون الحرس والجمارك، ليسرّحها في أرض الله الواسعة ويمنحها هويّتها الأدبيّة الكونيّة حيث يتسنّى لها أن تحتفل بوطنها الحقيقي:

المنفى، دائمًا، أبدًا...

ولعلّ ما تخسره هذه النصوص في ترحالها (منفاها) من لغتها وثقافتها إلى لغات وثقافات أخرى، ليس في الحقيقة سوى ما يجب أن تخسره وتتخفّف منه لتستقيم خلْوًا من أيّ ترهّل أو حشوٍ أو بهرج زائف...لعلّها لا تخسر سوى "لكنة" اللهجات، في طريقها إلى الإلتحاق بـ"فصاحة" اللغة...

وقد يكفي الروايةَ التي بين أيدينا أن تكون فرصة من أجمل الفرص المتاحة لمعاشرة مثل هذه الهواجس، أو لطرح مثل هذين السؤالين:

هل الكتابة إلاّ ترجمة؟

هل الترجمة إلاّ عودة بالنصّ إلى لُغةٍ لا تُطال؟

* * *

تنويه: لا يفوتني في هذا المقام أن أتوجّه بالشكر إلى الأصدقاء:

– الشاعر والناقد حكمت الحاج: الذي راجع الرواية بصبر كبير وأرشدني إلى العديد من المراجع لإحكام ترجمة أسماء الأماكن والشخصيّات التاريخيّة.

– الروائيّ والقاصّ فؤاد التكرلي، لتحمّله أعباء قراءة الترجمة وإبداء العديد من الملاحظات التي أفادت العمل.

– الشاعر والناشر خالد المعالي الذي أمدّني بالعديد من الوثائق، والذي أحاطني بـ"محاصرته" الحازمة والمرحة.

آدم فتحي

تونس. صيف ١٩٩٩

المقامة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

«أمّا بعد فهذا أنا العبد الفقير إلى ربّه تعالى أبو عبيد الجوزجاني، أضع بين يديك هذه الكلمات التي عهد بِها إليّ ذاك الذي ما انفكّ معلّمي وصاحبي وقرّة عيني طيلة خمسة وعشرين عاما، أبو علي بن سينا، أفيسين عند الفرنجة، أمير الأطبّاء الذي بَهَرَتْ حكمته ومعرفته الجميعَ خلفاءَ ووزراء وأمراء وشحّاذين وقادة حرب وشعراء.

لم يزل اسمه ملفوظا وذكره محفوظا من سمرقند إلى شيراز، ومن أبواب المدينة المدوّرة، بغداد، إلى أبواب الإثنتين والسبعين أمّة، ومن فخامة القصور إلى ضواحي طبرستان الوضيعة، ولم يزل الصدى يترسّل بأخبار عظمته في أرجاء المعمور.

أحببته كما لا يحِبّ أحدٌ غيرَ السعادة والعدل، فكأنّما أحببتُ المحال. وإنّك ما أن تقرأ ما في يديك حتّى تعرف أيّ صنف من البشر كان، فتثني على رأيي. كان الله رفيقك في مسعاك.

أُسلمك اليوم إلى معلّمي.

اتبعه بلا خوف ودع يدك في يده وإيّاك أن تتركها أبدا. سيأخذك في دروب فارس عبر محطّات القوافل إلى أطراف واحات سجديان الفسيحة على تخوم تركستان.

اتبعه عبر الهضبة الشاسعة المحرقة الثلجيّة التي هي بلدي، وعبر مسافاتها الصحراويّة ذات الملح الأجاج، حيث تتمتّع عيناك بمنظر الواحات الغنّاء وهي تتفتّق عن مدن ذات جمال عجيب، يوشك الناظر أن يجزم بأنّها مدن من الخيال. لك ستفتح القوافل صناديقها عن جواهر البلد الأصفر وتوابله. لك ستكشف عن دروع سوريا وعاج بيزنطة. سترى

عند قدميك في بازارات أصفهان الفراءَ والعنبر والعسل والجواري البِيض، وستنتشي ملامس أنفك في أسواقها الفرعيّة بأنفس العطر وأكرم الطيب.

ستنام تحت النجوم في صحارى من الحجارة، أو على سفوح سلسلة جبال البُرْز حيث لا شيء سوى قمّة الدماوند وقد وخطها نُثار الثلج عند انحداره، كأنّه يحاول التشبثّ بما تبقّى من نور في السماء.

ستختلف إلى الصعاليك وتنعم في أبّهة القصور وتعبر قرى منسيّة ذات شوارع ضيّقة وبيوت عمياء. ستتكشف لك أسرار الحاكمين وبواطن السرايا وملاذّ الحريم، فترى الأمراء والشحّاذين يعانون الألم نفسه، وتقتنع (إن ساورك الشكّ) بأنّنا أبدا سواسية أمام الألم. فإذا رأيت صَغار القادرين تعلّمت الاحتقار وإذا رأيت عظمة الصغار وقّرتَ وقدّرت. وسيثب قلبك في صدرك كالفرس الجموح لحظةَ تكشف لك حبيبتك عن كنز وجهها العاري تحت ضوء النجوم. ذلك أنّك أكثرَ من واحدة ستعشق وستعشقك أكثرُ من واحدة.

أُنظر، ها نحن اليوم في بخارى حاضرة خراسان شماليّ نهر أمودريا. إنّه صيف ٩٩٨م، ولم يكد معلّمي يبلغ الثامنة عشرة من عمره...»

*

كان العجوز العروضي طريحا على حصير من القشّ المضفور، شادًا يديه إلى أسفل بطنه، ممتقع الوجه يعتصره الألم.

همست سلوى زوجته، وهي كرديّة داكنة البشرة من منطقة هركي أوره مار:

– هكذا هو منذ أيّام.

وأضافت منحنية على زوجها بلهفة:

– ها قد وصل الشيخ.

أنّة ألم كانت الجواب الوحيد الذي قدر عليه أبو الحسين.

جثا ابن سينا على ركبتيه حذو المريض، وأمسك بيده جاعلا الراحة إلى أعلى، جاسًا النبض في الموقع المحدّد حيث تلامس الشرايين سطح الجلد. أغمض عينيه

من أجل المزيد من التركيز، وظلّ هكذا برهة، ساكنا مشدود القسمات.

سألته سلوى:

– هل الأمر خطير؟

لم يجبها أبو عليّ بشيئ. رفع القميص المبلّل بالعرق، ونحّى اليدين اللتين كان المريض يشبكهما بتشنّج أسفل بطنه، وأخذ يجسّ بحذر المنطقة المصاقبة للعانة. كانت منتفخة مثل قِربة.

– يا عروضي يا أخي، منذ متى لم تتبوّل؟

– ثلاثة أيّام... أربعة... ستّة... لم أعد أعرف، مع أنّي واللهُ شاهد على ذلك، لم أعدم الرغبة ولا ادّخرت الجهد.

– هل الأمر خطير؟

جاء السؤال هذه المرّة على لسان ابنة العروضي، التي كانت قد دخلت الحجرة على استحياء. لم تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها، ومع ذلك فقد امتلكت كلّ أسرار المرأة البهيّة. كانت سمراء مثل أمّها، وذات عينين لوزيّتين ووجه صافي البشرة، يغطّيه شعر كثيف وفاحم يتهدّل حتّى الخصر.

هشّ ابن سينا في وجهها بابتسامة مطمئنة، وعاد يفحص المريض، ممعنا النظر هذه المرّة في عضو الرجل. فتح خرجه وأظهر مسبرا من الحديد الصلب مثلّث الذؤابة حادًا مثبتا إلى مقبض من خشب، ثمّ ناول الفتاة حفنة من زهور الخشخاش الأبيض والبنج والصبر:

– خذي يا وردة، أعدّي لي خليطًا من هذا وأغلِي قليلا من الماء.

أطلق الكرديّ زفرة ممسكا بطرف ثوب ابن سينا متوسّلا وقد أشرف

على اليأس:

– ارحمني بالله عليك يا ابن سينا وخلّصني من هذا العذاب.

– إن شاء الله يا شيخ أبا الحسين.

سألته سلوى وهي تفكّ وتعقد أصابع يديها بتوتّر:

– مِمّ تراه يشكو؟

– من انسداد في مجرى البول.

– وكيف حصل ذلك؟

– ينجم الانسداد أحيانا عن تضخّم بالغ للموثة التي تغلّف عند الذكور عنق المثانة[1]، لكنّه يحدث في أحيان أخرى بسبب حصاة تنشأ عن تخثّر الأملاح المعدنيّة، وتلك علّة زوجك.

– اسمع يا ابن سينا، أنا لا أفهم شيئا من هذا التخثّر ولا من هذه الموثة التي تغلّف المثانة، وما دمت تقول ما لا يفهمه الفانون أمثالي، فلا شكّ أنّ كلماتك هي الهام من الله سبحانه وتعالى، و معنى هذا أنّك ستنقذ زوجي.

كرّر ابن سينا متلطّفا:

– إن شاء الله.

كانت وردة قد عادت بجلاّب طينيّ تترجرج فيه الطباخة، مع إناء كبير من الماء المغليّ.

رفع أبو عليّ رأس المريض بلطف وأدنى الإناء من شفتيه.

– يجب أن تشرب من هذا.

– أشرب؟ ألا ترى أيّها الشيخ الرئيس أنّ مثانتي تشبه ضرع البقرة الجاهزة للحلب؟ إنّها لن تتحمّل قطرة أخرى.

– لا تخش شيئًا. ستكون هذه القطرة خيرا إن شاء الله.

أتى أبو الحسين عليالسائل كالقطّ الظمآن، ثمّ تداعى على ظهره وقد أنهكه الجهد.

– الآن علينا أن نترك الوقت للدواء كي يفعل فعله.

غطّس الطبيب آلته في الماء المغليّ، ثمّ جسّ مرّة أخرى نبض المريض. لاحظ أنّ النبض قد انتظم وأنّ قسمات المريض التي كانت مشدودة من فرط الألم قد ارتخت. كانت وردة جاثية قرب أبيها تنظر إلى أبي عليّ، وفي عينيها كلّ إعجاب الدنيا.

– تعالي يا وردة، ساعديني على نزع ثيابه.

بعد لحظة كان العروضي كيوم ولدته أمّه.

فتّش أبو عليّ في الخرج مرّة أخرى، وأخذ سلكا سميكا بعض الشيء لفّه حول العضو، وبعد أن أحكم ربط العقدة، تناول المسبر.

كان أبو الحسين مغمض العينين كالنائم.

سألت سلوى بقلق:

– لماذا عقدت عضوه؟

– كي أمنع الحصاة في مجرى البول من الانفلات إلى الداخل نحو المثانة. والآن أحتاج إلى مساعدتكما أنت يا سلوى وأنت أيضًا يا وردة، لتمسك كلّ منكما بإحدى يديه.

وبعد أن تثبّت للمرّة الأخيرة من أنّ زهور الخشخاش قد فعلت فعلها في جسم المريض، رفع العضو، وفرّج فتحة الإحليل بواسطة الإبهام والسبّابة، ثمّ أولج بهدوء رأس المسبر في مجرى البول إلى أن أحسّ باعتراض.

– أظنّني وقعت على الحصاة. عليّ الآن بثقبها أو تفتيتها.

أدار المسبر حول نفسه مرّات متتالية من اليمين إلى اليسار ثمّ من اليسار إلى اليمين، متوقّفًا بين الآونة والأخرى، كأنّه يحاول النظر إلى داخل جسم المريض.

نزّ جبينه عرقًا واعتراه بعض التوتّر، لكنّ الحركة ظلّت شديدة الدقّة.

– أظنّها ثُقبت الآن.

وبالاحتراس نفسه الذي اتّبعه عند الإيلاج، أخرج أبو عليّ المسبر،

فسالت من فتحة العضو بعض قطرات من البول مجرّحة بخيوط من الدم رفيعة، ثمّ حلّ الرباط فاندفع السائل العضويّ بدفْق قويّ ومنتظم، عند ذلك ضغط على العضو، فطفرت مع البول نشارة داكنة اللون.

قال وهو يجسّ بارتياح أسْفلَ بطن العجوز:

– سيكون كلّ شيء على أحسن حال الآن.

كان الانتفاخ قد زال وعاد إلى منطقة المثانة مظهرها الطبيعيّ.

هتفت سلوى:

– أنت حقّا جدير بلقب الشيخ الرئيس سيّد العلماء. مدّ اللهُ عمرَك ألف عام.

– جازاك الله خيرا يا امرأة، ولكنّي قد أكتفي بنصف هذا القدر.

تململ العروضي قليلا على فراشه ثمّ غرق في خدره من جديد.

أخذ ابن سينا حفنة من بذور الخشخاش وأشار بها إلى سلوى.

– اسقيه غلوة أُخرى عند الغروب وشيئا من الماورد. الشرب بالنسبة إلى علّته عاملُ شفاء.

– حين أفكّر في أنّك أنت من كان بالأمس القريب ينحني أمام الكهول، وأنّك الآن تحكم سيّدًا على هذه الجماجم البيض.

– عفوا يا سلوى العزيزة، لكنّي لا أذكر البتّة أنّي انحنيت أمام أحد.

– لو لا خوفي من أن أداعب غرورك يا ولدي، لقلت إنّك لم تنطق بغير الحقّ، فقد كانت لك وأنت في قماطك مهابة الملوك. ولكن لا بأس، كلّ شيء مغفور لك، أ لم يجئ في كتاب الله «أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْس أَوْ فَسَاد في الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَاسَ جَمِيعًا، وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا...».

أخذ أبو عليّ يرتّب آلته في الخرج.

قالت المرأة:

– انتظر قليلا. لك عندي حاجة.

أراد أن يعترض لكنّها كانت قد غادرت الحجرة.

وقفت وردة بدورها وقالت بخجل:

– لم أشكرك بعد.

– لا حاجة بك إلى ذلك. أعرف أنّ قلبك يحمل كلّ الكلمات في صمته.

غضّت الفتاة بصرها كأنّها تداري خجلها وهي تلاحظ مرّة أخرى بأيّ يسر هو قادر على قراءة ما يعتمل داخلها.

– هذا لك.

كانت زوجة العروضي قد عادت من الداخل وفي يدها "كرمك"، كرة بلّوريّة زرقاء مشدودة في خيط، وقبل أن تصدر منه أيّ حركة طوّقته بذراعيها وعلّقت الخيط في عنقه.

– هكذا لا نميمة الأشرار تقدر عليك، ولا الشياطين، وإن كانوا في قوّة العفريت الذي صرعه رستم.[٢]

– تعلمين أنّي لا أقول بعين السوء، ولكنّي أعدك ما دامت تلك رغبتك، بأنّ هذه القلادة لن تفارق عنقي ما حييت.

– صدّقني يا ولدي، حين يتيح الخالق لمخلوق واحد أن يكون له جمال الآلاف وذكاؤهم، فإنّ على هذا المخلوق أن يخاف حتّى شعاع الشمس.

ثمّ أضافت وهي تجلس إلى جوار زوجها:

– وردة، اسقي ضيفنا قدحًا من الشاي فلا شكّ أنّه ظمآن.

– لا تؤاخذيني، ولكنّي تأخّرت عن ضيوف أظنّهم الآن مع والدي في الدار.

أومأت سلوى مجيبة:

– إذا كان الأمر كذلك فلترافقك السلامة يا ابن سينا. أنت حقًا صنف خاصّ من الرجال.

قال ابن سينا:

– في أمان الله.

ثمّ التفت إلى وردة:

- هل ترافقينني إلى الباب؟

أومأت موافقة بعفويّة أخّاذة.

ما أن صارا إلى الخارج وطالعتهما بشائر الغروب، حتّى عرفت دون أن يتبادلا كلمة واحدة، أنّه هو أيضاً قد تمنّى تلك اللحظة.

سألته بشيء من الارتباك:

- عملك في المستشفى، أليس متعباً كثيراً؟

- العلم والعمل في مقام الصلاة يا وردة، إنّهما يمهّدان لنا طريق الجنّة وينجّياننا من متاهات الخطيئة. ولكن...

وأضاف بسرعة:

- ولكن للخطيئة مذاق الصلاة أحياناً... وردة، حبيبتي...

أرخت جفنيها مضطربة ملتصقة به أكثر، حتّى صار بإمكانه أن يحزر تحت غلالة الثوب استدارة نهديها المشدودين، وهما يتحرّكان على إيقاع أنفاسها المتلاحقة.

منذ أن غادرت عائلة ابن سينا أصفهان، لتستقرّ هنا في بخارى على مرمى حجر من دارهم، وهي تشعر نحوه بميل لا يقاوم. وهاهي خمس سنوات تمرّ على ذلك الآن. خمس سنوات حافلة بذكريات في طعم العسل.

همست بلهفة:

- اسقني ماءَ فمك.

قبض على فخذها تحت خشونة الصوف وارتفعت يداه ببطء في اتّجاه انحناءة الخصر وضمّها إليه. التقت شفتاهما بلطف ثمّ افترقتا ثمّ التقتا ثانية بعنف. أصبحت ثيابهما إساءَة لا تُحتمل، وتمنّى للحظة لو أنّه ذاب فيها، مطيحاً بذاك السور الدقيق من النسيج الذي هو آخر الحواجز الفاصلة بين بشرتيهما. وكان في شبه غيبوبة حين أراد التنحّي جانباً، لكنّها تشبّثت به بكلّ قوّة سنواتها الخمس عشرة.

– لا تبتعد أرجوك، ليس الآن.

– لقد ارتويت من فمي يا وردة وها أنا الظمآن الآن. إنّه ظمأ يحرق جسدي ويلهب شفتيّ وعليّ أن أحرسك منه يا وردة. علينا أن نحترس من حُمّى جسدينا. غدًا... فيما بعد.

هتفت متوسلّة:

– اِشرب، اِرتَوِ بي.

– كلاّ يا روحي، لن يكتفي جسدي بجداول شفتيك بعد الآن، لابدّ له من البحر كي يشفي غليل رغبته المتأجّجة، وعلينا أن نحذر وإلاّ فقدنا السيطرة...

ثمّ أضاف مكرّرا:

– غدا... فيما بعد.

– ولكنّي أريد... حبّي...

أشار برأسه، ثمّ رسم قبلة على جبينها قبل أن يلوذ بالفرار.

*

تحلّق المدعوّون حول المائدة، تحت عريشة العنب، في حديقة البيت الصغير المبنيّ من الآجرّ.

كان عبد الله والد أبي عليّ يتصدّر المجلس. هو في الستّين من العمر. تسمه نحافة نادرة المثال وبناء جافّ لم يزده الزمن إلاّ جفافا. اللحية شديدة البياض مدبّبة تحيط بوجه حادّ الزوايا، وفي العينين طيبة طبيعيّة يبدو أن لاشيء قادر على محوها. كان من أهالي بلخ إحدى عواصم خراسان الأربع. غادرها مبكّرًا إلى قرية من ضياع بخارى يقال لها خرميثن، وهي من أمّهات القرى بتلك الناحية، فأقام فيها خمس سنوات. ومن ثمّ انتقل إلى قرية مجاورة يقال لها آفشنة، فتزوّج بتلك التي ستصبح أمّ ولديه ووُلد له فيها أبو عليّ وأخوه. ثمّ انتقلوا إلى بخارى في أيّام الأمير نوح بن منصور الملقّب بنوح الثاني، و هناك ظلّ من وقتها ملازمًا بيت المال

يشتغل بالتصرّف.

إلى جانبه جلس ولده الأصغر محمود. فتى في الثالثة عشرة من العمر، شديد النحافة إلاّ أنّه يبدو على الرغم من نحافته أكبر من سنّه بكثير. كان وجهه المدوّر وشعره المجعّد يمنحانه للوهلة الأولى مظهر الولد العفريت والمرح غير المبالي بشيء.

– هل ثمّة من يرغب في فطيرة أخرى؟

كانت تلك ستارة أمّ أبي عليّ. سمراء فارعة تكاد تكون مفرطة الطول، تتحرّك ببطء في ثوبها الصوفيّ المجعّد، في حين يشعّ وجهها الخالي من الغضون أو يكاد، بهالة من النبل. كان اسمها يعني النجمة.

عرضت طبقا على المدعوّين فكان محمود أوّل من مدّ يده.

سأله أبو عليّ ساخرا:

– ألا تشبع يا أخي؟

فقالت ستارة معاتبة:

– أنت قصير الذاكرة ياولدي، كنت في مثل سنّه تلتهم نخلة بأكملها وقد لا تترك من جذعها شيئًا.

ردّ أبو عليّ متظاهرا بالزهو:

– ربّما كان ذلك صحيحًا، لكنّي انتفعت بما أكلت، أمّا هذا – وأضاف مشيرًا إلى أخيه – فإنّه يلتهم و لا ينتفع بشيء. إنّه رفيع كالشعرة، لو هبّت ريح لكنسته.

انفجر المدعوّون ضحكًا، وهم يرون إلى سحنة محمود وقد عقدها الغضب.

منذ زمن وفي مطلع كلّ شهر، اعتاد أغلب مثقّفي بخارى أن يجتمعوا في بيت عائلة ابن سينا. كانوا أربعة تلك الليلة:

الحسين بن زيّان أقرب تلاميذ ابن سينا إلى قلبه.

وشيخ اسمه الفردوسيّ يقال إنّه شاعر لا يبارى، وهو في الستّين من

عمره، تعتّم سحنته لحية رماديّة في شكل طوق رفيع. لم يكن من ضيوف البيت المعتادين، لكنّه وفد من طوس أحد أعمال خراسان لقضاء حاجة ذات صلة بالأرض والعقارات.

وكان هناك أيضا موسيقيّ اسمه المغنّي. فيما كان الضيف الرابع شخصا ذا مكانة خاصّة، فالجميع هنا يعتبرونه أحد أكثر العقول نبوغا في عصره: إنّه البيروني، الذي لم يكن يفوق أبا عليّ إلاّ بسبع سنوات ومع ذلك ينادونه بالأستاذ المعلّم، وقد غادر مسقط رأسه الأوزبك ليلتحق بخدمة الأمير نوح الثاني.

وكان هو الذي هبّ إلى نجدة محمود قائلا:

– ما حكّ جلدك مثل ظفرك

فتولّ أنت جميع أمرك

محمود يا ولدي، دعك من هؤلاء الحاسدين ولا تأبه لهم.

– الحقّ معك يا معلّم، فأنا لا أرى كلماتهم إلاّ كما أرى البعوض على منقار الصقر.

ثمّ التفت إلى أمّه بابتسامة ماكرة:

– مامك، فطيرة ثالثة من فضلك.

تدخّل الموسيقيّ قائلاً:

– لا بدّ من الاعتراف بأنّها فطائر لذيذة، وما كنت أظنّ الفطائر تلذّ بهذا الشكل وهي بدون خميرة. من أين جئت بهذه الوصفة يا أمّ أبي عليّ؟

غضّت والدة ابن سينا من طرفها، كأنّ السؤال أحرجها.

– أوه... إنّها عادة قديمة، ورثَتْها أمّي عن والدتها، التي ورثتها هي بدورها عن الأسلاف الأوائل.

قال الفتى محمود:

– غريب هذا الأمر، لا تعدّين هذه الفطائر إلاّ مرّة في السنة، وكان أجدر بك أمام ترحابنا بها أن تكوني أكثر كرمًا.

حدجت ستارة زوجها بنظرة قلقة، ولإخفاء اضطرابها، تشاغلت بإشعال بعض عيدان الندّ.

فتدخّل عبد الله بتوتّر:

– هكذا هو الأمر. ثمّ لماذا لا تدع أمّك وشأنها؟ إنّ أسئلتك مضجرة مثل طنين الذباب.

فوجئ الفتى بردّة فعل أبيه، فانكمش في ركن الديوان متجهّم الوجه.

قال البيروني سائلاً:

– كيف حال مدينة طوس يا فردوسيّ؟

التقط الفردوسيّ بعض حبّات اللوز من أحد الصحون الصغيرة الموضوعة على طبق من النحاس المنقوش، قبل أن يجيب بشيء من الملل:

– مازال نهر هرات يتحدّى الشمس، ومازالت أبراج بنالوند تشرف على قبر المنعّم هارون الرشيد. طوس بخير يا بيروني.

سأله محمود بلهفة:

– وماذا عن السلاحف؟ يقال إنّها هناك في حجم الخرفان، وإنّها...

قاطعه أبوه ساخطا:

– كفّ يا ولد، وليكن عذرك على سخافة هذا السؤال في صغر سنّك. هل يكون من حظّنا الليلة أن نستضيف أحد أكبر شعراء الزمان، فلا نسأله إلاّ عن أحوال بلده؟ اسأله عن العمل العظيم الذي هو بصدد إتمامه، أم أنّك لا تعلم عنه شيئا؟

هزّ محمود رأسه بالنفي خجلا.

– إنّها قصيدة يا ولدي، قصيدة تفوق في أهمّيتها كلّ تصوّر.

ثمّ التفت إلى الفردوسيّ سائلاً:

– من كم بيت تتألّف القصيدة؟

– من خمسة وثلاثين ألف بيت إلى حدّ اليوم، لكنّي لم أبلغ غير نصفها.

سأله أبو عليّ مندهشًا:

– بلغني أنّك اعتمدت في تأليفها على خداي نامة، تاريخ ملوك فارس وأساطيرها منذ القدم، أصحيح ذلك؟

– أجل، وإنّي لأجد مشاكل عديدة في ترجمة هذا النصّ من البهلويّة.

– ومتى تتوقّع أن تفرغ من هذا العمل؟

– للأسف، ليس قبل حوالي عشر سنوات، وهكذا يكون هذا العمل قد استغرق خمسة وثلاثين عامًا من عمري، وهي على أيّ حال ليست سوى حبّة أرز بالقياس إلى الأبديّة.

سرت همهمة إعجاب في الجمع، وهمس الموسيقيّ:

– خمسة وثلاثون عاما في الكتابة... أظنّ أنّي لو عزفت على عودي طيلة هذه المدّة لغنّى لوحده، وإنّي لأسأل من أين يأتي الإنسان بالطاقة الضروريّة لإنجاز عمل مثل هذا؟

أجاب الفردوسيّ في حركة غامضة:

– إنّه الحبّ يا ولدي، الحبّ وحده. لقد هجمت على هذا العمل من أجل عيني ابنتي الوحيدة. وحين بعته لأحد الأمراء كنت أتصوّر أنّي أضمن لابنتي مهرًا لا بأس به. وها هو المهر يتحوّل للأسف إلى ميراث.

– وهل اخترت عنوانًا لعملك هذا؟

– الشاه نامة، كتاب الملوك. والحقّ أنّي كلّما فكّرتُ في الطريق الطويلة التي تنتظرني تملّكني الرعب، فلنغيّر الموضوع. حدّثنا يا بيروني عن أحوال الأمير، هل حقًّا أنّ صحّته تتعكّر يومًا بعد يوم؟

– هو كذلك، ولا أحد يفهم من الأمر شيئًا.

– لأنّه محاط بجهلة وزواحف سافلة.

وأضاف مشيرًا إلى أبي عليّ:

– ومع ذلك فهو موجود ذاك القادر على انتزاع نوح من بين مخالب المرض،

ولا شكّ أنّك تعرف ذلك أيّها المعلّم البيرونيّ، وأنت القريب من أسرار

البلاط، فماذا ينتظرون للإرسال في طلبه؟

- للأسف، أنا لا أعرف أكثر ممّا تعرف، لم يتركوا حكيمًا إلاّ استشاروه.

ثمّ التفت إلى عبد الله:

- وحين عرضتُ عليهم الاستعانة بولدك تجهّمت وجوههم كأنّي شتمت اسم النبيّ الطاهر. لم أعد أفهم شيئًا من موقفهم.

قال الفردوسيّ هازًّا رأسه بأسى:

- إنّها الغيرة والغباء. هؤلاء لم يعودوا صالحين إلاّ لمد الأعناق[٣]، ولم تعد تقودهم سوى مآربهم الشخصيّة.

- ومصلحة مريضهم؟ هذا غباء، إنّه ضدّ مبادئ الطبّ المقدّسة.

قال أبو عليّ مبتسمًا:

- ربّما كان صغر سنّي هو الذي يخيفهم.

أضاف البيروني:

- بل قل إنّه يرعبهم. فلو شاء سوء حظّهم أن يتمّ إنقاذ الأمير على يديك، لأصبحت إقامة هؤلاء العجّز المعمّمين في القصر قصيرة العمر. ومع ذلك فإنّي لا أعتقد أنّ هذا الأمر هو السبب الوحيد. ثمّة لاشكّ سبب آخر.

- وهل الأمير على بيّنة ممّا يحدث؟

- نوح على حافة الغيبوبة، وهو بالكاد يسمع دقّات قلبه.

أضاف البيروني:

- ولكن ليست صحّة الأمير وحدها في خطر، سلطانه أيضًا لم يعد في مأمن.

قال عبد الله:

- ذاك أمر متوقّع، فمنذ مدّة طويلة وهو لا يكفّ عن الاستدانة، لقد توسّل للغزنويّين[٤]، هؤلاء الأتراك القذرين، كي يمدّوا له يد المساعدة ففعلوا، واضطرّوه مقابل ذلك إلى التنازل عن ولاية خراسان لسبكتكين

وولده محمود الُملقّب بملك غزنة، وها قد مات سبكتكين ليكشّر محمود عن أنياب شهيّته المتوحّشة.

تنهّد الفردوسي قائلاً:

– نحن لا نكفّ عن الركض نحو الهاوية منذ الفتح العربيّ ومنذ سقوط العبّاسيّين، وها هي أرضنا يتنازعها في فوضى شاملة ملوكٌ صغار وعائلات حاكمة بعدد الحصى، بين سامانيّين وبويهيّين وزياريّين وكاكويّين، بينما يتربّص النسر التركيّ في الظلّ عابثًا بسلاطيننا مستفيدا من تناحرهم، وما كان هذا ليحصل لو لم يبحثوا عن تقوية جيوشهم بشراء هذا العدد الهائل من العبيد الأتراك في أغلبهم، تركوهم يحتلّون أعلى المناصب دون رادعٍ، وسمّوهم بلا حساب قادة جند ووزراء وحجّابًا، ملبّين لهم كلّ رغبة، والحقّ أنّ أمراءنا أنجبوا غولاً ها هو الآن يتأهّب لافتراسهم.

تنهّد عبد الله مسندًا رأسه إلى الوراء:

– آه، لكم كان صادقًا من قال: "كما تكونون يُوَلَّ عليكم."

ثنّى الجميع على كلام مضيفهم، واتّصل الحديث في شؤون البلد ومصيره المجهول، وكانت تلك هي اللحظة التي اختارها البيروني وابن سينا للانزواء في ركن

من الحديقة. كان نسيم الليل لطيفًا مفعمًا برائحة المسك الجافّ. أشار أبو عليّ

إلى موقع في السماء:

– الحجاب ذو الألوان السبعة.

نظر إليه البيروني وسأله مندهشًا:

– ولماذا تقول ذلك ؟

– من اعتقاد العامّة أنّ الكون سبع سماوات، الأولى من حجر صلد والثانية من حديد والثالثة من نحاس والرابعة من فضّة والخامسة من

ذهب والسادسة من زمرّد والسابعة من ياقوت.

– اعتقاد لا يخلو من طرافة، ولكن لنعترف بأنّه ليس من العلم في شيء.

كانت أصوات الجماعة تصلهما من بعيد، صرخات متحمّسة، وشذرات من الجمل تتطاير في الهواء، مخلوطة بخرير المياه المنحدرة في اطمئنان من العين القريبة.

وضع البيروني يده بحنان على كتف أبي عليّ:

– دعنا من التفلسف الآن فهو عمل يعكّر المزاج، وحدّثني عن مشاريعك. بلغني أنّك بصدد تأليف كتاب، أم أنّها إشاعة؟

– لا أنكر أنّي مسكون بهاجس الكتابة، لكنّي لا أجرُؤ على ذلك بعد، وإنّ من عرف أرسطو و أبوقراط وبطليموس لا يملك إلاّ أن يحسّ بالصغر والضآلة.

– لم تعوّدني على مثل هذا التواضع يا ابن سينا، هل عليّ أن أذكّرك بنبوغك؟ ألست أنت من حفظ القرآن كاملاً عن ظهر قلب ولمّا يتعدّ العاشرة؟ دون أن أنسى ما صنعته بمعلّمك المسكين.

– الناتلي؟ لم يكن غيرحمار جاهل.

– ومن الذي لا يُمسخ حمارا جاهلا أمامك؟ أم تحسب من الهيّن أن يفهم التلميذ ما يُعرض عليه من مادّة في يسر غريب، ثمّ لا يكتفي بذلك، بل يصلح أخطاء معلّمه، ويحقّق له في الأمر بما لم يسمع مثله، ويوضّح له ما شقّ عليه، وأيّ مسألة قالها له يتصوّرها خيرا منه؟

– الحقّ انّه لم يحفظ عن أرسطو العظيم غير التفاصيل، أمّا هندسة أقليدس فلم يكن يفقه منها شيئًا.

– لننس الناتلي المسكين إذن، فهو على أيّ حال سرعان ما طلب من والدك إعفاءه من تدريسك. ولكن ماذا عن يوم امتحانك في الطبّ في مدرسة جنديسابور؟ لن تخالفني الرأي إذا قلت إنّ هذا اليوم لا يزال محفورًا في ذاكرة الكثيرين.

– كان ذلك منذ عامين.

– في العشرين من ذي القعدة، أذكر كلّ التفاصيل. كانت القاعة مزدحمة بالناس، وقد هبّوا عديدين من كلّ الأنحاء يحدوهم الفضول للإنصات إلى هذا التلميذ المعجزة في السادسة عشر من عمره. كان هناك كما قيل لي أطبّاء من كلّ ملّة، يهود ومسيحيّون ومندائيّون، من أولئك العلماء الهرمين ذوي الوجوه المغضّنة التي وخطت سحنتها المعرفة. تذكر، أليس كذلك؟

– أذكر قلبي خاصّة، وهو يركض في صدري كالحصان.

– إلاّ أنّك قد تكلّمت يومها، فملكت القلوب وسلبت العقول بالعرض الذي قدّمته عن طرائق جسّ النبض، والدقّة العجيبة التي تحدّثت بها عن مظاهره المختلفة، مضيفًا خمسة على المظاهر التي عدّدها جالينوس.

– كان ذلك رؤيا وحدسًا، ولاشكّ أنّ الله سبحانه وتعالى كان يومها يلهمني الكلمات.

– وآليّة الهضم؟ والتشخيص بفحص البول؟ والحمّى؟ وحمية العجز؟ وجدوى تسريح المجرى التنفّسي؟ هل كانت رؤى أيضًا وحدوسًا؟ وماذا بشأن داء النقطة حين قلبت مفاهيم الحضور رأسًا على عقب، معارضًا نظريّة جالينوس، معلنًا أنّه ناشئ عن انسداد في عرق بالدماغ؟ هل كان ذلك عن رؤيا وحدس؟

– ليس لمثلك يقال إنّ السهولة الظاهرة ليست سوى ثمرة عمل دؤوب، ولكن لنغيّر الموضوع. حدّثني عنك أنت، أ مازلت تفكّر في مغادرة بخارى؟

– اسمع، أنا لا أنكر أنّ نوحًا الثاني وليّ نعمتي، بل إنّه وليّ نعمتي الأوّل، ولكنّي في الخامسة والعشرين من عمري، ومازال داعي السفر يستحثّني على الرحيل. وحتّى لا أخفي عنك شيئًا، أنا مسافر من غد.

بهت أبو عليّ وقد أدهشه الخبر.

– من حقّك الدهشة، والحقيقة أنّك أوّل من يعلم، أنا راحل إلى بلاط

جرجان عند الأمير قابوس العائد من المنفى، هناك يبدو لي أنّ المناخ سيكون ملائمًا للكتابة، إذ لا أخفيك أنّي أنا أيضًا أزمع جادًا على التأليف في أغراض شتّى، من بينها الآثار الباقية عن العهود الخالية والمسائل الرياضيّة والفلكيّة والمناخيّة، بعدها...

– هكذا إذن؟ ستضع نفسك في خدمة «صائد السماني»؟ ألا تعلم أنّ الجميع يصف هذا الأمير بالوحشيّة؟

– ربّما كان ذلك صحيحا، ولكن هل لمثلي ومثلك خيار في حكّامهم؟ نحن لسنا سوى عيدان من القشّ تلهو بنا رياح أولياء النعمة.

– قد يكون ذلك صحيحا بالنسبة إليك يا بيروني، ولكن ثق بأنّ ثمّة ملوكا لن يظفروا بخدمتي أبدا مهما بلغ من كرمهم. والأتراك يا بيرونيّ، الأتراك من هؤلاء. ابن سينا لن يحني ظهره لغزنويّ أبدا.

– لكلّ أن يرى الشمس حيث يريد، ولكن لنعد إلى صائد السماني، ثق أن الوحشيّة ليست ميزته الوحيدة، فقد طبّقت شهرته الآفاق كعالم وشاعر، ولو صحبتني إلى جرجان لأكرم قابوس وفادتك دون ريب، ولخصّك براتب أفضل ممّا تحصل عليه من مستشفى بخارى.

– شكرا لك على دعوتك هذه يا بيرونيّ، لكني لم أتجاوز بعد الثامنة عشرة من عمري، وأرى لزاما عليّ أن أبقى مع والديّ لوقت آخر، فلو غادرت خراسان الآن لأحسست بأنّي أهملهما وأذنب في حقّهما أيّما ذنب، ولكن ثق بأنّي حيثما كنت ومهما حصل، فإنّك لن تبرح مكانك في قلبي.

– ثق من جهتي بالشيء نفسه، فلنبق على صلة، وبيننا الرسائل إن شاء الله.

فجأة، قطع حديثهما صوت عبد الله:

– هل فرغتما من إصلاح العالم؟

أجاب أبو عليّ مبتسما:

– كلاّ يا أبي، لقد رأينا من الأفضل أن نصنع عالما جديدا.

– إذن فلتنسياه قليلا ولتستمتعا بعود المغنّي، لقد صدق من قال: "روّحوا عن النفس ساعة بعد ساعة، فإنّ النفوس إذا كلّت عميت."

كانت الأنغام قد بدأت تبعث الحياة في الليل، فاقتربا من الجماعة. جلس أبو عليّ قرب ستارة، ودون تفكير، أمسك بيد أمّه وأغمض عينيه مستسلما لسحر الموسيقى.

تمايلت أشجار العنب تحت النسيم الخفيف المفعم بروائح الليل، وكان يمكن الحدس من بعيد بخرير مياه العين الصافي، وهو ينحدر خفية باتّجاه العود، ليلتحم به معانقا أوتاره مضيفا شيئا آخر إلى سحر اللحظة. عند ذلك ومن تحت جفنيه المسدلين، أخذ ابن سينا يحلم بوجه وردة الملائكيّ.

الهوامش:

١– لاشكّ أنّ ابن سينا يقصد البروستات (prostate) بهذا التعبير. (المترجم)

٢– نظير هرقل أو أخيل عند الغربيّين. (المترجم)

٣– تعني هذه العبارة، إلى جانب الخنوع، التطلّع إلى السلطة والتهافت عليها. (المترجم)

٤– اسم هذه السلالة مشتقّ من مدينة غزنة، وهي اليوم غروزني، الواقعة جنوبيّ كابول بأفغانستان. (المترجم)

المقامة الثانية

أطفأ أبو عليّ المصباح الزيتيّ ونحّى جانبًا الكتاب بحركة مباغتة.

انتابته سورة غضب فسرّح نظره في الحديقة التي كان الفجر قد بدأ يرفرف عليها بأجنحته المبكّرة.

للمرّة الأربعين يعيد قراءة كتاب «ما بعد الطبيعة» لأرسطو، حتّى صار له محفوظا، وهو مع ذلك لا يفهم ما فيه ولا ينفذ إلى ما التبس عليه منه ومن غرض واضعه. وقد اتّفق له قبل عامين أن رأى دلاّلا في سوق الورّاقين في بخارى، وبيده كتاب الفارابي «في أغراض ما بعد الطبيعة» فاشتراه بثمن زهيد، ورجع إلى داره فأسرع يقرأه وهو يظنّ لحين أنّ سرّ الفيلسوف اليونانيّ منفتح عليه، ولكن سرعان ما خاب ظنّه، فما كاد النقاب يرفع حتّى أُسدل من جديد غامرًا عقله بالظلماء.

يقرأ في الكتاب فإذا هو أمام تناقض والتباس. هل يعقل ذلك؟ كان أرسطو في نظره النابغة الذي لا يقارع و آية كمال العلم وروعة الإتقان. إنّه معلّمه منذ البداية. فهل يخيّب المعلّم آمال تلميذه؟ كانت تلك الفكرة وحدها كافية لتبعث في أبي عليّ شعورًا بالثورة والغضب، وكان يفضّل إقناع نفسه بأنّ المريد هو الذي قصر عن فهم المعلّم.[1]

انقضّ على إبريق الشراب الحامض وأتى على قطراته الأخيرة. تردّد لحظة ثمّ فتح صندوقًا من خشب الصندل كان جنب الحائط، وأظهر سجّادة من الحرير.

الصلاة. إنّها سبيله إلى النجاة منذ القديم. كلّما تحيّر في مسألة أو ضاق بأمر تردّد إلى بيت الله، وفي مهابة صمت الجامع صلّى وابتهل إلى مبدع الكلّ، حتّى يفتح له المغلق منه ويسهل المتعسّر. الله هو المرآة. إنّه تجلّي الحقيقة الذي لا يفوقه تجلٍّ.

بسط السجّادة ووقف مسبل اليدين مستقبلاً الكعبة.

أغمض عينيه وكبّر ثمّ قرأ الفاتحة، وبحركة مرنة ومسترسلة سجد حتّى كادت يداه تلامسان ركبتيه، بعد ذلك ركع ثمّ قام من جديد، رافعًا يديه، مجريًا لسانه بالشهادتين:

– أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أنّ محمّدا رسول الله.

هناك في البعيد كانت بخارى تنهض من النوم. لم يسمعها أبو عليّ ولم ينتبه إلى الباب يُفْتَحُ عن والده.

دخل عبد الله الغرفة وجلس على حافة السرير، منتظرا بصبر أن يكمل ابنه أداء فريضته، وما أن رآه يفعل حتّى انتفض في وجهه صارخا:

– يكاد صبري ينفد وأكاد أيأس منك.

بوغِت أبو عليّ، فالتفت مندهشا إلى أبيه الذي أضاف قائلا:

– لا أدري إن كنت تعي ما تفعل بحياتك؟ لا تنام قبل الفجر إلاّ نادرا، وإذا نمت فليس أكثر من ساعة أو ساعتين.

ثمّ أضاف مشيرا إلى المخطوطات المتناثرة على الطاولة:

– الله وحده يعلم إلى أين ستصل بك رحلتك نحو المعرفة، ولا أظنّها تأخذك إلاّ إلى خير، أمّا هذا...

وأومأ بسبّابته إلى الإبريق:

– هذا... هو الشيطان. هل تظنّ أنّك ستحافظ طويلاً على صفاء ذهنك؟

حرّك أبو عليّ رأسه يمنة ويسرة، وقال بين المازح والمتعض:

– أبي، قلت لك قبل الآن إنّ الخمر عامل مساعد على التركيز، وإنّي ما عدلت إلى شرب قدح من شراب إلاّ ريثما تعود إليّ قواي فأرجع إلى القراءة أو الكتابة.

– ولكنّك تعرف ردّ النبيّ حين سُئِل في الأمر: الخمر ليس دواء بل علّة.

– في العلم بيّنة على أنّ ما كان مضرًّا لهذا قد يكون نافعًا لأخيه.

– "تشارتا بارتا"، كلام فارغ، لا تنس أنّ محمّدًا كان يرى أن يُجلد السكّير العنيد أربعين جلدة بجريد النخل، ولتعلم أنّ يدي مازالت قادرة

على تسليط العقوبة نفسها عليك، بالرغم عن سنواتك الثماني عشرة وقامتك الشبيهة بقامة الجمل.

رمق أبو عليّ والده بنظرة حنون:

– أعرف شدّة بأسك يا أبي، لذلك سأعمل على إرضائك، وسأعوّض من يومي هذا نبيذ التمر بنبيذ البسر، فهو كما يبدو أخفّ وطأة.

لازم عبد الله الصمت للحظات، قبل أن يقول بصوت أكثر لطفًا:

– الحقّ يا ولدي أنّك لست وحدك المسؤول عمّا أنت فيه، فما كانت موبقات الخمر لتتفشّى فينا لو لم يتعاضد هؤلاء التجّار النصارى واليهود على جلب هذا المنكر من أقاصي مصر أو من دمشق، ولولاهم لظلّ الإسلام محافظًا على نقائه، فلينقلبوا إلى جهنّم جميعًا، ولتحوّل أجسادهم القذرة إلى رماد في أتون الجحيم.

ثنّى أبو عليّ على كلام والده مبتسمًا قبل أن يقول:

– وددت لو يطول بنا هذا الحديث يا أبت، لكنّي تأخّرت عن موعد البيمارستان[٢]، كما أنّ عليّ أن أمرّ بجارنا في الطريق.

همس عبد الله بنبرة استسلام:

– صاحبتك السلامة يا ولدي، وليحرسك الله من مغريات هذه الدنيا الفانية.

مرّت ساعة قبل أن يُصبح أبو عليّ على مشارف المستشفى. شمس هذا اليوم القائظ من أوائل ذي الحجّة لم تصل بعد إلى ذروتها في السماء، ومع ذلك فقد انتشرت حرارة دبقة في كلّ أرجاء المدينة. فكّر في المرضى الراقدين على بُسُطِهم غير المُريحة فانقبض صدره.

«الصيف أكثر قسوة على البؤساء»

وإذا كانت الراحة ضروريّة للمرضى، فإنّ مستشفى بخارى لم يكن يملك منها الكثير، إذ لا مقارنة بينه وبين مستشفى الريّ أو بغداد اللذين كانا مفخرة البلاد كلّها.

اجتاز العتبة ومرّ بالمستوصف المتنقّل ثمّ دخل الساحة التي كانت في حركة غير عاديّة. كان هذا اليوم الثالث من ذي الحجّة، يوليو عند المسيحيّين، يوم امتحانات. وكان الراغبون في حرفة الطبّ مصطفّين في طوابير مكتظّة، في ظلّ الإيوان الكبير، وهو قاعة واسعة مكشوفة تحفّها جدران ثلاثة.

خيّم الصمت على الجميع لمرأى ابن سينا، ثمّ سرت بين الحضور همهمة احترام وإعجاب.

حيّى الجمع بحركة من رأسه ثمّ دخل المبنى. عليه أن يعترف بأنّ لبريق التبجيل الذي كان يقرأه أحيانًا في عيون الآخرين بعض الأثر في نفسه.

سار في الممرّ الطويل المفضي إلى قاعة الحراسة، حيث وجد زميله أبا سهيل المسيحيّ ينظر مستغرقا في أحد الدفاتر.

– صباحك سعيد إن شاء الله، شغلت بالنا يا شيخ، فليس من عادتك أن تتأخّر عن مواعيدك.

– أسعد الله صباحك يا مسيحيّ. لقد كان عليّ أن أعود جارنا العروضيّ. أخبرني، هل تمّ قبول مرضى جُدُد منذ أوّل أمس؟

– أعاذنا الله من المرضى الجدد، فنحن لا نكاد نفي مرضانا الحاليّين حقّهم من الرعاية.

– وكيف حال الصغير مأمون الآن؟

– لم يتغيّر من أمره شيء، للأسف.

– سأغتنم الفرصة لأعرضه على الطلبة، هل حضروا؟

أغلق المسيحي كتابه أخيرًا وقال بابتسامة جانبيّة:

– باستثناء المجانين منهم، لا أظنّ أنّ في فارس كلّها طالب إجازة واحد، بإمكانه أن يتأخّر عن درس يقدّمه ذائع الصيت ابن سينا.

– ها أنّي أرى تلك السخرية التي عرف بها أهل الذمّة، فلتحذر أيّها النصرانيّ، قد يكون لك مصير نبيّك.

هزّ المسيحيّ كتفيه بلامبالاة:

– إذا كنت تحاول إثارتي يا ابن سينا، فاعلم أنّك متجرّع مرارة الخيبة.

في الأيّام الأولى كان مجرّد ذكر كلمة ذمّي كافيًا لجعل المسيحيّ يدخل في سورة غضب عارم. الآن لم تعد هذه الكلمة تحرّك له ساكنًا، فتلك هي كنية النصارى واليهود وغيرهم من الغرباء الذين كان يُسمح لهم بالمكوث إلى حينٍ في دار الإسلام. ولمّا كان على بعض صلة بالنسطوريّين، فقد وجد المسيحيّ في البداية صعوبة كبيرة في تقبّل هذا النعت، لما رآه فيه من تمييز، بالإضافة إلى ما وراء هذه الكلمة من تبعات وإجراءات مغيظة، من عدم ارتداء الملابس العربيّة، إلى أداء ضريبة أهل الذمّة. ولعلّ أشدّ هذه التبعات على النفس، تلك العلامة المميّزة التي لابدّ من حملها: شريط أصفر لليهوديّ وحزام أسود للنصرانيّ. ولولا عمله كطبيب، لما حال شيء بينه وبين حمل تلك الشارة المهينة.

قال بصوت هادئ:

– أنتم المسلمون، تتناسون دائمًا أنّ الأطبّاء النصارى واليهود هم الذين سهروا على ترجمة أمّهات الكتب اليونانيّة، وأنّهم كانوا معلّميكم.

– على رأس كلّ طبيب نصرانيّ ألف طبيب عربيّ أو فارسيّ: الرازي و ابن عبّاس و...

– رفقًا بأخيك أيّها الشيخ الرئيس، فأنا أحفظ هذه القائمة عن ظهر قلب.

انفجر ابن سينا ضاحكا لملامح الرعب التي علت سحنة صديقه. وكان من ميزات هذا الرجل الثلاثينّي القصير القامة الممتلئ ذي البطن المكوّرة والوجه المدوّر الخالي من الذقن، أنّ أيّ تغيير يطرأ على قسمات وجهه يتحوّل على الفور إلى تعبير مضحك. ومنذ لقائهما الأوّل، وعلى الرغم من فارق السنّ، أحسّ أبو عليّ نحوه بميل جارف سرعان ما تحوّل إلى صداقة يسودها الاحترام، خاصّة بعد أن اكتشف أنّ وراء الإنسان عالمًا ومعلّمًا.

والحقّ أنّه لم ينتظر الالتقاء به حتّى يكتشف ذلك، فقد خبر مهاراته منذ قرأ له كتاب «الحِكَم المائة»، ذاك المؤلّف الطبّي الذي ذاعت شهرته في أنحاء فارس كلّها، والذي كان المسيحيّ كاتبه الماهر. ثمّ التقيا ووجد أبو عليّ عند الرجل النصيحة فسار على هديه خطواته الأولى. ولليالٍ طوال ظلّ المسيحيّ يشرح له ما أغلق عليه من أعمال جالينوس وأبوقراط وبول دوجين وأوريباس، كما شرح له الكتاب الملكيّ ذائع الصيت، الذي ألّفه الطبيب الزردشتي ابن عبّاس. وإذا كان أبو عليّ يمارس اليوم بهذه المهارة ذاك الفنّ المقدّس المتمثّل في دفع الموت، فإنّه مدين بالفضل الكبير إلى صديقه النصرانيّ.

لذلك قال مغيّرًا موضوع الحديث:

– إطمئنّ، سأرفق بك مادمت قد توسّلت إليّ، ولكن عليّ أن أشرع في عيادة مرضاي، هل ترافقني؟

كان المسيحيّ قد نهض بعدُ قائلا في شبه ابتسامة:

– صمدنا تحت التعذيب، ولن يقال إنّ سليل النسطوريّين قد استسلم تحت نير الإسلام.

ما أن اقتربا من القاعة الأولى حتّى أزكمت أنفيهما رائحة كريهة. رفع أبو عليّ الستارة الحمراء المسدلة على العتبة، وألقى نظرة على صفوف المرضى الممدّدين على طول الجدران الحجريّة.

– نحن في خدمتك أيّها الشيخ الرئيس.

لم يغب عن أبي عليّ أنّ المتكلّم ليس سوى الحسين بن زيلة، زردشتيّ أصيل أصفهان، أحد أكثر تلاميذه انتباها له وإعجابًا به. كان فارسيًّا من أتباع شريعة النار، ديانة زردشت، ومازال يرفض اعتناق الإسلام.

– حسنًا، سنبدأ بحالة تهمّني كثيرًا.

دعا الجمع الصغير الذي كان ينتظره بإجلال إلى السير على إثره. وإذا لم يكن ابن زيلة يفوق معلّمه إلاّ بأربع سنوات، فإنّ الكثير من زملائه طالبي

الإجازة، كانوا في سنّ تتعدّى الأربعين.

التحقوا بابن سينا مسرعين، وتوقّفوا عند سرير المريض الذي اختاره الشيخ الرئيس. كان طفلا في العاشرة من عمره، ممتقع الوجه، مخلدا إلى النوم.

– أصغوا إليّ جيّدًا، لقد فحصت بنفسي هذا المريض أوّل أمس، وها هي الأعراض التي سجّلتها: حمّى شديدة، هذيان، نفس سريع وغير منتظم، كما لاحظت تشنّجات عامّة وغير محدّدة بموقع، نومه متقلّب تصاحبه كوابيس، والمريض كثير الصراخ لا يتحمّل النور. والآن من منكم يشخّص لي هذا المرض؟

خيّم الصمت، وتحلّق الطلبة بعفويّة في شكل هلال حول السرير.

قال أحدهم بصوت متردّد، وكان أكبرهم سنّا:

– أظنّ أيّها الشيخ الرئيس، أنّها علامات شلل وجهيّ.

– وهل تعرف حقًّا أعراض هذا المرض؟

– أ..أ...إنّها ما ذكرت تحديدًا أيّها الشيخ الرئيس، تشنّجات موضعيّة وشاملة، و...

– هل تثبّتت إن كان الطفل يشكو من خلل في الحساسيّة؟ هل نظرت إن كان جفنه الأسفل خفيضًا؟ هل تيقّنت من زيادة اللعاب لديه؟ هل رأيت إن كانت إحدى وجنتيه قد ارتخت؟

– أنا... يبدو لي...

– أجبني، هل لاحظت هذه الأعراض؟

– كلاّ أيّها الشيخ الرئيس، ولكن...

– إذن فأنت مخطئ يا أخي، لقد اشتبه لديك الجمل بالصقر.

نكس الرجل رأسه تحت نظرات السخرية التي تبادلها الزملاء، فيما واصل ابن سينا قائلاً:

– والآن، أما من أحد قادر على تشخيص حالة هذا الطفل؟

– ربّما كان يشكو من حمّى انفجاريّة.

جاء الاقتراح هذه المرّة من فتى مدوّر القسمات، ذي لحية خفيفة لم تفارق خضرتها بعد.

– خطؤك مقبول يا هذا، ففي بعض حالات المرض الذي تذكره ثمّة أيضاً صداع حادّ، ونوم متقلّب مصحوبان بالحمّى، ولكن لو شكا هذا الطفل من العلّة التي ذكرتها، لدمعت عيناه واحمرّتا، ولعسر عليه التنفّس وبحّ الصوت، وهي أعراض لم أذكرها، أمّا من ناحية أخرى...

– أعرف ممّ يشكو هذا الصبيّ.

التفت أبو عليّ إلى المتكلّم، إنّه ذو الفقار، الرجل نفسه الذي اقترح منذ لحظات الشلل الوجهيّ.

أحدّ ابن سينا بصره في الطالب المتهوّر قائلاً:

– أنا مصغٍ إليك يا أخي.

– إنها الأفتيسيا.

– هذا جميل، بل هو رائع، لاشكّ أنّك تملك موهبة التنجيم، يالها من موهبة تستحقّ الإعجاب.

شعّ وجه الرجل بابتسامة عريضة ونفخ صدره بزهو، فواصل ابن سينا قائلاً:

– إنّها موهبة تثير الإعجاب حقًّا، لكنّ العلم المتقن الذي هو الطبّ لا حاجة به إلى مثل هذه المواهب، الطبيب ليس منجّماً، ولا هو خيميائيّ، إنّه عالم.

نطق بالكلمة الأخيرة كمن يصرخ، عاصفاً بقسمات تلميذه.

– عن طريق أيّ سحر أمكن لك أن ترى التهاباً في الطحال انتقل إلى الرئة؟ أنت حمار يا أخي، أنت حمار.

انكفأ الرجل الخمسينيّ على نفسه وهو على حافة الإغماء، وكأنّه ورقة لامستها النار، ثمّ صرخ منقضّاً على يد ابن سينا محاولاً تقبيلها:

– الرحمة أيّها الشيخ الرئيس، الرحمة، ولكن لابدّ من إجازتي، فلديّ امرأة وستّة عيال.

تراجع أبو عليّ مشدوها وقد انعقد لسانه برهة، ثمّ قال:

– حسنًا. لتكن طبيبًا، ولكن على عيالك فحسب، وشرط أن لا تصف لأحد دواءً غير ماء زهر البرتقال.

قام الرجل مخذولاً محنيّ الظهر، وألقى نظرة على الطفل الراقد، ثمّ اتّجه نحو الباب. وسرعان ما تبعه تلميذ آخر، أصغر منه سنًّا، فسأله ابن سينا:

– إلى أين؟ لم أقصد بحديثي غير هذا الرجل.

– أعلم ذلك أيّها الشيخ الرئيس، ولكنّ هذا الرجل هو الذي علّمني كلّ ما أعرف من الطبّ.

– إذا كان الأمر كذلك...

قال المسيحيّ معلّقًا على ما حدث:

– صحّ قول أبوقراط: «العمر قصير لكنّ الفنّ طويل، والصدفة عابرة، والتجربة خطرة، والحكم صعب».

– كلامك من ذهب يا أبا سهل، ولكن لنعد إلى مريضنا، هل عليّ أن أعيد على مسامعكم ذكر الأعراض؟

– لا ضرورة إلى ذلك أيّها الشيخ الرئيس، فأظنّ أنّي عرفت العلّة.

التفت ابن سينا مصغيًا إلى ابن زيلة.

– أظنّ أنّه يشكو من التهاب في أغلفة الدماغ، وعلى الصدغين تحديدًا.

– سكتّ دهرًا لكنّك تكلّمت درًّا يا ابن زيلة، نحن حقًّا أمام سرسام حادّ، حمّى دماغيّة، فهل تعرف إن كانت العلّة في آخر مراحلها؟

فكّر ابن زيلة مليًّا قبل أن يسأل:

– هل شُلّ اللسان؟

– كلاّ.

– هل فقد الحساسيّة بالكامل؟

هزّ ابن سينا رأسه بالنفي.

– هل ابتردت الأطراف؟

– لا شيء من هذا.

– في هذه الحال، بالإمكان القول أيّها الشيخ الرئيس إنّ المرض لم يصل بعد نقطة اللارجعة.

شبك ابن سينا يديه ورمق تلميذه بنظرة رضا.

– اقتدوا بتحليل هذا الفتى، فهذه هي طريقة رجل العلم: الملاحظة فالتأمّل فالاستنتاج، وذاك ما يجب أن تسيروا عليه مدى حياتكم، إن كنتم ترغبون يومًا في إتقان هذا الفنّ الكامل الذي هو الطبّ. بقي أن ألفت انتباهكم إلى أنّ السرسام كان يشتبه لدى القدماء بالالتهابات الحادّة التي يصاحبها الهذيان، فاحرصوا على التمييز جيّدًا بين العلّتين. والآن إلى الحالة الموالية.

كانت الشمس قد آذنت بالمغيب حين وقفوا عند سرير آخر المرضى. امرأة في الأربعين من العمر، سمراء البشرة، قد هرّأ وجهها الخمر والشقاء، لكنّ مسحة من الجمال ظلّت تطلّ من تحت الأنقاض. ولم تكن بطنها المنفوخة تترك أيّ مجال للشكّ في سبب مجيئها إلى البيمارستان.

قال أبو عليّ مبتسمًا:

– أوشك طفلك على الوصول يا امرأة.

فجأة ودون سابق إنذار، أطلقت المرأة صيحة اهتزّت لها أرجاء المكان، وأخذت تولول وتشقّ ثوبها في سورة عارمة. انحنى عليها أبو عليّ سائلاً:

– ماذا دهاك يا امرأة؟ هل أصابك المكوث طويلاً في بيت غاسل الموتى بالعدوى؟ ألا تعلمين أنّ صنيعك هذا علامة حِداد؟

حدجته المرأة بنظرة ازدراء صائحة في وجهه:

– وأنت، ألا تعلم أنّ المرأة التي تخشى العقم وحدها هي التي تذهب للنوم في بيت المغسّل؟ أمّا بالنسبة إلى امرأة مثلي فالخصوبة هي المصيبة، إنّي مثل القطّة التي لا تني تحبل، يكفي أن ينزع رجل ثيابه أمامي حتّى

أحبل، إنّني في حملي الخامس.

قال المسيحيّ:

– الولادة سعادة، إنّها نعمة من نعم الله، ومن الأجدر بك أن تحمدي الله تعالى على نعمته.

– وزبائني؟ هل تظنّ أنّهم سيشبعونني شكرًا وحمدًا؟ وأطفالي، حين أرجع إليهم ليلاً بدون درهم واحد يسدّ رمقهم، هل تعتقد أنّهم سيحمدون الله؟

جثا ابن سينا حذو المرأة والتفت إلى المسيحيّ قائلاً:

– ناولني قضيب الحكومة.

لم تبد أيّ دهشة على الطبيب وهو يسمع طلب زميله الغريب، ذلك أنّ العاهرات تعوّدن أن يطلقن هذا الاسم على الآلة التي بها يفحص الأطباء عورات الجسد(٣)، وما أن سمعت المرأة قوله حتّى ضمّت فخذيها صارخة:

– أبعد عنّي هذا الشيء الحقير أيّها الطبيب وإلاّ جعلتك تندم.

سألها ابن سينا كمن نفد صبره:

– وماذا تريدين إذن؟

– أن تفرغوا أحشائي، أن تخلّصوني من هذا الفم الذي لن أقدر على إطعامه.

– كما تشائين، ولكن هل تعرفين كيف سأفعل إذا رأيت أن أطرد عنك هذه الحياة؟

حرّكت رأسها بالنفي.

– إذن دعيني أشرح لك الأمر...

وأخذ يتكلّم بتأنٍّ مقصود:

– سيكون علينا في البداية أن نناولك عقّارًا صالحا لهذا الأمر، والعقاقير في هذه الحالات لها طعم غير لذيذ، وما أن يسري الغثيان في كامل جسمك حتّى يصيبك الدوار، عندها أفتح مهبلك، وأولج فيه مخطافًا حتّى أغرزه في مجري طفلك أو في فمه أو في ذقنه.

توقّف عن الكلام لحظة ليرى وقع حديثه على المرأة، فإذا هي مضطربة وقد انقشعت ملامح اللامبالاة عن هيئتها، فواصل قائلاً:

– ولمّا كنت أخشى أن يميل رأس الجنين في الاتّجاه المقابل للمخطاف، فإنّي سأغرس مخطافًا آخر في الجنب المقابل، ليكن في أذنٍ أو وجنة، بعد ذلك سأحاول إخراج الجنين، ملطّخًا بدمه وبأنواع المخاط واللعاب، وستنهرس عظامك لذلك، فإذا بصراخك يصل أبواب المدينة المدوّرة، ولن تكفي حقول خشخاش أصفهان كلّها للتخفيف من عذابك.

سدّت المرأة أذنيها بيديها صارخة:

– كفى أيّها الفتى المشؤوم، كفى.

لكنّ أبا عليّ واصل قائلاً:

– ولمّا كان جنينك قد اكتمل وبلغت أعضاؤه صورتها الأخيرة، فإنّه لاشكّ سيستعصي على الخروج، وقد يكون رأسه أكبر من المهبل، فأضطرّ إلى تمزيقه إربًا. هل تريدين أن أصف لك تفاصيل هذه العمليّة الأخيرة؟

هزّت المرأة رأسها بالنفي، وقد تملّكها الرعب، فدفنت جسدها تحت اللحاف.

– حسنًا، ها أنت ترجعين إلى الجادّة، ولكن لا تنسي ما سأقوله لك الآن: إنّ الموت يقوم بمهمّته على أحسن وجه، فلا تطلبي من رجل، خاصّة إذا كان طبيبًا، أن يكون عونا للموت.

الهوامش:

١- الحقّ أنّ ما ظنّه ابن سينا تيولوجيا أرسطو لم يكن سوى مقتطفات من تساعيّات أفلوطين، المنسوبة خطأ إلى الفيلسوف اليونانيّ. وسيكون لهذا الخطإ تأثير كبير على كلّ عمل ابن سينا الفلسفيّ. (المترجم)

٢- المستشفى، من الفارسيّة إستان وتعني المكان، وبيمار وتعني المريض. (المترجم)

٣- ما يسمّيه أطبّاء اليوم المنظار المهبليّ. (speculum) (المترجم)

المقامة الثالثة

كانت وردة هناك... عارية، مستلقية على صدره، تفوح بشرتها برائحة الخوخ والرمّان، ولوز عينيها نائم تحت عينيه. من أين هبّت عليهما تلك الرغبة الجامحة في التحام الجسدين بكلّ ما فيهما من حياة؟

همس بصوت يكاد لا يسمع:

– أنت الطمي الذي جئت منه يا وردة، ومنك أستمدّ حياتي هذه اللحظة.

ظلّت صامتة. ضمّت نهديها إلى صدره قبل أن تلقي برأسها على كتفه، وبدا لأبي عليّ أنّ نفَسها على وجنته أكثر نعومة من بطن حمامة.

هل كان في مقدوره أن يصمد أمامها أكثر ممّا فعل؟ كان عليه إذَنْ أن يغرز خناجر حادّة في بؤبؤي عينيه أو أن يموت، فالموت وحده يشفي من الحبّ.

ضغط بيديه على ردفيها الرائعين. لامسهما برفق ثمّ ربت عليهما بوقاحة، إلى أن بلغ الخصر، فالظهر، إلى أن استلم جموحُ سنواته الثماني عشرة زمام اللحظة، فأمسك بها من كتفيها وأنهضها ليصبح جسدها تحت جسده، ثمّ هزّها هزّاً، يريد أن يهبها فحولته كاملة دون نقصان.

أحسّت وهي في غمرة الاضطراب بالجمرة التي تقتحم أسرار جسدها لأوّل مرّة، تتقدّم ملهبة أحشاءها في ذاك المكان الذي لم يزل بكرًا، جامعة هناك بين الألم واللذّة، فأغمضت عينيها وضمّت فخذيها دون وعي، وقد داخلها الخوف من أن تضيع الليلة من بين يديها فجأة، وتمتمت شفتاها بكلمات، كلمات غامضة وبعيدة، تشبه ثمارًا لها طعم الحبّ والخوف.

عند ذلك بدأت أوّل أمواج النشوة تحتلّ مكان الألم الذي كان يعصف بجسدها حتّى اللحظة. الآن لم تعد وردة شخصين. لقد تفوّقت المرأة على الطفل لتحتلّ كيانها كلّه، وتهمس لها أنّ هذا الالتحام السحريّ وعد بنشوة أكبر بكثير. كانت تحدس بذلك غريزيًا، وكأنّها على سفح جبل يمكن للناظر

أن يحرز قمّته الغامضة من بعيد.

هل قرأ هو ما يجول بخاطرها؟ أم أنّها عثرت على الطريق لوحدها؟ لم يكن في وسع أحدهما أن يجيب. ولحظةً تفجّرت النشوة هادرة في جسدها كالموج، أطلقت وردة صرخة عظيمة، وهي ترتجف بكامل جسدها، وتراجعت إلى الخلف تحت نطحات اللذّة تائهة خائرة القوى، ولم ينتبه أبو عليّ إلى أنّها كان تبكي، إلاّ حين ألقت بنفسها على صدره.

– أحبّك يا وردة، أحبّك كما أحبّ السعادة والشمس.

التصقت الفتاة به أكثر.

كان الوقت فجرًا، موعد الشعرى، وكانا قد قضيا الليلة على حصير متواضع في هذه الخيمة الصغيرة خارج المدينة.

من هنا، كان يمكن للناظر من بين القصب أن يلمح ظلّ خوهنديس العبوس، قلعة بخارى المشرفة على أعلى المدينة، وشرقيّها سهم المئذنة الماضي في اتّجاه السماء بجامع قتيبة، الذي أصبح بيت المال، حيث يعمل والد أبو عليّ.

هوى على شفتيها من جديد، واختلط لعابهما مفعمًا بالدعة مثل مياه عيون مازندران.

– أبا عليّ يا أخي، أين أنت؟

ارتعشا للنداء في اللحظة نفسها، وابتعدت وردة عن رفيقها، تحاول بارتباك أن تستر عريها.

ارتفع الصوت بإلحاح أكبر:

– يا أبا عليّ، هذا أنا محمود.

ألقى ابن سينا على جسدها باللحاف، وهمس مهدّئًا من روعها:

– لا تخافي، إنّه أخي.

نهض وارتدى جبّته، ثمّ ألقى على كتفيه عباءة من الصوف، وأخرج رأسه من خصاص الخيمة.

– أنا هنا، ماذا تريد؟

كان الفتى قد أصبح على بعد خطوات من الخيمة. توقّف فجأة وأرخى يديه بارتياح:

– الحمد لله، ها أنا أجدك أخيرًا.

– ماذا هناك؟

– المدينة كلّها تسأل عنك، لقد فتّشوا البيوت وكادوا يهدّونها على أهلها، إنّهم...

– عمّن تتحدّث؟

– عن الحرّاس، حرّاس القصر، إنّهم يريدونك في السراي.

انقبض وجه أبي عليّ دفعة واحدة.

– الأمير؟

– إنّه يحتضر.

*

كان الوجوم مخيّما على غرفة نوح الثاني، ابن منصور، فيما كانت عطور نادرة تتصاعد من مجمرة برونزيّة، في شكل لولب دخانيّ يغمر المقرنات، التيجان الحجريّة المنقوشة التي تضيئها ثريّات من النحاس وشمعدانات فضيّة كبيرة. كان المكان بجدرانه المزخرفة بالتجويفات، يشبه خليّة نحل برّاقة معلّقة تحت سماء من اللآلئ.

توسّط نوح الغرفة، مضطجعًا على سرير خشبيّ واسع مرصّع بالعاج والصدف. كان ضامر الوجه، مغمض العينين، لولا أنّه يفتحهما بين الآونة والأخرى، وكأنّه يحاول أن يتهجّى الآيات القرآنيّة التي كانت تزيّن إفريز السقف. حذو السرير وقف أشخاص بسحنات متجهّمة: الحاجب والقاضي[1] وبعض القادة والأعيان، في قفاطين سماويّة اللون، والفقيه البرقي والوزير ابن الصبر، في بردته الدمشقيّة ذات الأسود المذهّب. وقف ابن سينا قرب الأمير وهو يحسّ بأنّ كلّ الأنظار مصوّبة إليه. كان الجميع

يتابعون أدنى حركاته، محاولين النفاذ إلى تفاصيل ما يجول في خاطره.
أقبل ابن سينا على ابن خالد، طبيب القصر، وهو رجل صارم في الستّين من عمره، فسأله:

– من فضلك يا رئيس، هلاّ أعطيتني فكرة عن تاريخ المرض؟

بدا أنّ لقب الرئيس الذي استعمله ابن سينا قصداً، قد فعل فعله في نفس الطبيب، فقد لمعت عيناه فجأة ببريق آخر غير بريق الحذر الذي كان ينظر به إلى الزائر الشابّ.

أجابه بشيء من الاهتمام:

– بدأ كلّ شيء منذ شهر. أفاق أميرنا المحبوب من النوم على مغص حادّ وحرقة في المعدة، فحصته فلم أكتشف شيئًا واضحًا، فوصفت له قليلا من غلوة المِلْيَا، وهي كما تعلم مسكّن فعّال، كما نصحته بجوز الهند، فهو...

قاطعه أبو عليّ:

– عفواً يا شيخ ابن خالد، ولكن دعنا مع تاريخ المرض، هل لاحظتَ أعراضًا أخرى عدا المغص والحرقة؟

– سرعان ما قبضت بطنُ الأمير.

– فهل فحصت جدار البطن؟

– لم يفتني ذلك، وقد لاحظت أنّه كان متورّما في مجمله، ومؤلما عند اللمس.

– فوصفتَ له مسهلا.

– وهو كذلك، نصحته بالراوند.

قطّب ابن سينا حاجبيه ممتعضا، فسأله ابن خالد:

– هل أنت ضدّ استعمال الراوند؟

– المسهل هو الذي يبدو لي وصفة في غير مكانها.

أراد الطبيب الاعتراض لكنّ أبا عليّ واصلا قائلاً:

– وماذا بعد ذلك؟ كيف تطوّر المرض؟

- صارت الأعراض إلى قيء شديد.

- فهل نظرت فيه؟

- كان قيئًا سوداويّ اللون.

- ثمّ؟

هنا أحسّ أبو عليّ بشيء من الحرج يعتري الطبيب، فكرّر السؤال.

- عقب ذلك إسهال، إسهال لا إراديّ، لكنّي أستطيع التأكيد، بل أؤكّد أنّ هذا الإسهال لم يكن بسبب الراوند بأيّ حال من الأحوال.

- لا يهمّ يا شيخ ابن خالد، فلنواصل.

- فجأة حدث شيء مذهل، اختفت هذه الأعراض دفعة واحدة، كأنّه السحر، بل فكّرت أنّها رحمة الله ومعجزاته قد أخذت المرض إلى غير رجعة، لكن وا أسفاه، لم تمض أيّام قليلة حتّى رجعت الدورة كلّها، مغص فالتهاب فعسر فإسهال فقيء.

- هل قمت بفصده؟

- مرّات عديدة، ولكن دون جدوى.

بدا على ابن سينا الامتعاض من جديد، فسأله أحد الحاضرين بنبرة لا تكاد تخفي حدّتها:

- هل أنّ الشيخ الرئيس ذائع الصيت، ضدّ الفصد؟

- من أنت؟

- ابن السوري، وقد أرسلوا في طلبي من دمشق.

- ألا يُعلّم الطلبة في سوريّة أنّ الفصد قد يقتل المريض أحيانًا؟

أجاب الطبيب ضاحكًا:

- في الثامنة عشرة وتزعم أنّك أعلم من جالينوس؟ مازال الفصد منذ القدم علاجًا لا يعلى عليه.

- لست هنا لإبداء الرأي في جالينوس، ولا لتعليمك كيفيّة استعمال الفصد، لكن إذا كنت تريد أخذ دروس، الأمر الذي يبدو ضروريًا لمن كان

مثلك، فلتعلم أنّي أدرّس يوميًا بالبيمارستان.

ثمّ توجّه إلى ابن خالد دون أن ينتظر ردّ السوريّ:

– وماذا بعد؟

لزم الطبيب الصمت، ثمّ أمسك بيد أبي عليّ واقترب به من السرير، هناك رفع اللحاف بحركة سريعة كاشفًا عن جسد المريض:

– أنظر.

لم يلحظ شيئًا للوهلة الأولى، لكنّه اكتشف بعد لحظات من التمعّن، الوضع الغريب الّذي عليه أصبعا المريض الوسطى والخنصر من كلّ يد. كانًا شديدي التقوّس معقّفين. أراد فتحهما فلم يستطع، فرفع ذراعي الأمير وأرسلهما فإذا بهما تقعان على جانبي السرير كتلتين بلا حياة.

– شلل جانبيّ متوازٍ للأعضاء العليا؟

– أجل، وأخشى أن يكون الأمر بلا رجعة.

– لست واثقا من ذلك.

– إذن، فهل بإمكان الشيخ الرئيس أن يعرض علينا تشخيصه؟

لم يكن أبو عليّ محتاجًا إلى الالتفات لمعرفة طارح هذا السؤال. رمق السوريّ بنظرة لامبالاة، وانزوى في ركن من الغرفة، مغرقًا في التفكير، ثمّ سأل:

– هل بإمكان أحدكم أن يخبرني، في أيّ شيء يشرب الأمير؟

نظر إليه الجميع بدهشة:

– في قدح بالطبع.

– من أيّ نوع؟

أجابه ابن خالد بشيء من العصبيّة:

– ومن أيّ نوع تريده أن يكون، من الفخار، مثل معظم الأقداح.

– أريد أن أراه.

– لا أرى أيّ جدوى من وراء ذلك.

لكنّ أبا عليّ أصرّ على طلبه. فصفّق ابن خالد وقد نفد صبره، مشيرًا إلى أحد الخدم:

– أحضر لنا أحد الأقداح التي يشرب فيها الأمير.

فقال السوريّ بشيء من الإزدراء:

– ولا تنس أن تملأه نبيذًا، فصاحبنا هذا كما يبدو، من هواة الخمر الكبار، على الرغم من صغر سنه.

قال أبو عليّ وعيناه تحدّقان في الرجل:

– «والله مُحيطٌ بِالكَافِرينَ، يَكَادُ البَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ...».

فردّ السوريّ ساخرًا:

– هاهو الآن يلجأ إلى الكتاب.

كان الخادم قد رجع بالكوب المطلوب. نظر فيه أبو عليّ مليًّا، وقلّبه بين يديه، ثمّ أرجعه إلى الخادم، وقال بصوت هادئ:

– حسنًا.

ودون أن ينتظر، انطلق نحو السرير، تحت نظرات الريبة التي كان يحدجه بها الجميع، مشيرًا إلى فم الأمير:

– هنا سنعثر على ما يثبت تشخيصنا.

ثمّ جثا على ركبتيه ورفع شفة الأمير العليا.

قال السوريّ ساخرًا:

– ها أنّ طفل خراسان المعجزة يتحوّل إلى طبيب أسنان أيضًا.

قال ابن سينا دون أن يعبأ بأحد:

– لو تجشّمتم مشقّة فحص لثّة المريض لرأيتم قروحًا عدّة.

صرخ السوريّ وهو يكاد يختنق:

– هل أصمّوا آذاننا منذ سنتين بمزاعمهم عن عبقريّة ابن سينا، ليأتي فيحدّثنا عن اكتشاف قروح في الفم الملكيّ؟ إنّه لأمر مضحك، بل إنّه إهانة لنا جميعًا.

سرت همهمة بين الحضور، فقال ابن سينا بهدوء، متجاهلاً الكلّ:

– إنّه تسمّم بالرصاص.

فرقعت الكلمات كالرعد فغلبت على الضجّة. كرّر أبو عليّ:

– إنّه تسمّم بالرصاص، وها هو المسؤول.

قال ذلك مسترجعًا القدح من الخادم.

– لاحظوا الزخارف المحيطة بالكوب من الخارج، أي نعم هي جميلة ورائعة وأنيقة، ولكنّها قبل كلّ شيء مصبوغة، وكلّكم يعلم بلا شكّ أنّ الأصباغ تعمل من الرصاص، ولم تكن أصباغ هذا الإناء استثناء، هل فهمتم الآن؟

لم ينبس أحد بكلمة، فواصل حديثه:

– كلّما شرب الأمير شيئًا من هذا الإناء، شرب معه شيئًا من الأملاح السامّة، وبطول المدّة، لم يكن أمام تراكم هذه الأملاح غير أن تقوّض بنيانه.

ثمّ أشار إلى الأمير:

– وتلك هي النتيجة.

كان صمت بهيم قد خيّم على الجميع، ولم يجرأ على قطعه سوى ابن خالد سائلاً:

– أ واثق أنت من تشخيصك؟

– لن يكون دليلي سوى شفاء الأمير، وأسأل الله أن لا يكون الأوان قد فات بعد، فمثل هذه العلّة يستوجب الإسراع بالفعل، كي يكون الحظّ أوفر في الشفاء.

ضاعفت الملاحظة الأخيرة من حرج الجميع.

– وأيّ علاج تصف لهذه الحالة؟

– يجب أن توضع ضمادات ساخنة على المعدة كلّ ساعة، ثمّ لا بدّ من تحضير خلطة من ستّ الحسن والبنج وقلويد الأفيون والعسل، حتّى يحصل منها معجون يترك ليتصلّب ثمّ يُناول للمريض عن طريق الشرج،

وهذا لمرّتين في اليوم، مع عدم الرجوع إلى استعمال هذه الأكواب في شرب الأمير، وسنرى على ضوء تطوّر المرض فيما بعد، أيّ أدوية نضيف، ممّا سيكون تعداده مملاً في هذا المقام.

قال ابن خالد:

– سيكون لك ما تريد.

وأضاف بسرعة وكأنّه خجل من نفسه:

– أيّها الشيخ الرئيس...

في تلك اللحظة، اختار الوزير الذي ظلّ صامتًا طيلة الوقت أن يخرج من صمته، واقترب من ابن سينا:

– أرى من الأفضل أن تشرف بنفسك على تطبيق علاجك لأميرنا أبقاه الله، وهكذا، سيكون لك وحدك أن تجني حلاوة النصر أو مرارة الهزيمة.

فكّر ابن سينا للحظات ثمّ قال:

– أوافقك الرأي يا مولاي الوزير، لكنّ لي شرطًا.

– وما شرطك؟

– أن أشرف على علاجه بمفردي، وأن لا يتدخّل أحد في أمر من الأمور.

أطرق الوزير، وكأنّه يحصي الشعرات الذهبيّة التي تزيّن لحيته، قبل أن يقول:

– لك ذلك.

أرسل ابن سينا عينيه بحثا عن الطبيب السوريّ، لكنّه كان قد غادر الغرفة.

*

في الأيّام الموالية أمسكت إمارة خراسان أنفاسها. هل ينجح الشيخ الرئيس أمير الأطبّاء، حيث فشلت أكبر عقول البلد؟

في رحاب مدرسة بخارى، لم يكن من شاغل للأساتذة والتلامذة غير الخوض في حقيقة مواهب ابن سينا، وكلّ يوم جمعة، لم يكن من حديث

للعامّة وهم خارجون من الصلاة غير الأمر نفسه، وحيثما كحّل الفجر قباب القلعة، كان خبر زيارة الطبيب للقصر يغذّي أحاديث فلول الشحّاذين.

في الثالث عشر من محرّم، أي بعد حوالي أثنين وعشرين يومًا، توقّفت بعثة مكوّنة من القاضي ومجموعة من المماليك[٢] من حرس الأمير، أمام دار عبد الله.

ولم تمض ساعة إلاّ وكان أبو عليّ يدخل القصر. لم يُصحب كالعادة إلى سرير المريض، بل اقتيد إلى قاعة أخرى لم يرها من قبل، أكثر أبّهة من غرفة نوم الأمير. أخذه الدوار عنوة وهو يلج هذه القاعة الفسيحة الملبّسة، ذات السقف المقبّب الذي يعلو غابة من الأعمدة الرخاميّة البيضاء. كانت الشمس تندلق من النوافذ الأبنوسيّة المفتوحة على السهل، فتلتمع لها مخروطات العاج، والنجوم الفيروزيّة، والزخارف البنفسجيّة، والخزفيّات الزرقاء النيليّة، التي كانت هي بدورها تضيء مرآة الأرضيّة بألف شعاع. في آخر الغرفة، شرقًا، قامت ستارة من دنتيل الخشب الثمين، ومن خلال الفرْجات المرصّعة بعرق اللؤلؤ، لمح أبو عليّ العرش المغلّف بألواح الذهب والفضّة، والمقام على منصّة من البرونز.

– «ولَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَمَاءِ بُرُوجًا وزَيَّنَّاهَا لِلنَاظِرِين»... .

بلغه صوت نوح الثاني دون أن يسعه تحديد المكان الذي هو فيه، فأخذ يتلفّت يمنة ويسرة. لمح في البداية طيفًا غامضا خلف الستارة، ثمّ سمع حفيف ثوب يكمش، على إثره ظهر الأمير. كان يرتدي جوخة واسعة، ومعطفًا عريض الأكمام، ويضع على رأسه عمامة ملفوفة بإحكام.

– مرحبًا بك يا ابن سينا.

جثا ابن سينا على ركبتيه وأراد بعفوية أن يقبّل الأرض بين يدي الأمير، لكنّ هذا منعه قائلاً:

– أنت عالم يا أبا عليّ بن سينا، بل سيّد العلماء، لكنّك طفل أيضًا ولا

علم لك بمراسم البلاط. لا تقبّل الأرض إلاّ بين يدي الخليفة، مع أنّ هذا التقليد مثل أغلب تقاليدنا، يكاد يندثر منذ الفتح العربيّ.

صمت لحظة ثمّ أضاف بشيء من المرارة:

– هذا إذا أبقيت لنا فرصة لتعظيم الخليفة، فمنذ ساد البويهيّون على بغداد، ونحن كما يقال، نصحو كلّ يوم على خليفة يقتل وآخر يولّى مكانه.

صمت مرّة أخرى، ثمّ انفرجت أساريره فجأة:

– على أيّ حال، نحن لسنا هنا لنرثي لحال المدينة المدوّرة، أريد أن أكافئك يا ابن سينا، أريد أن أعبّر لك عن امتناني، لقد أبلغني بعض حاشيتي بمهارتك وأياديك البيضاء. لم يفعلوا ذلك عن طيب خاطر، لكنّهم لم يجدوا بدّاً من الإذعان للحقيقة.

– ليست مهارتي وحسناتي يا مولاي، سوى هبة من الله خالق كلّ شيء، له وحده الشكر والحمد، فأنا لا أملك إلاّ ما أعطاني.

– لكنّ الله يخصّ بعض عباده بأضعاف ما يمنحه للآخرين، وعلى هذا حقّ علينا حمده أيضًا، أمّا وأنا مدين لك بحياتي، وهي أعزّ ما أملك، فلا بدّ من مكافأتك إيفاء بالدَّيْن، ونحن نعلم حقّ العلم أنّه لا كنوز سمرقند ولا خزائن أصفهان تكفيك حقّ قدرك، ولكن أطلب ما شئت، فسنكون من المجيبين إن شاء الله.

– مولاي، لا طمع لي في هبة أغلى من عافيتك وقد رُدَّت إليك، وهذا كافٍ لسعادتي.

قال الأمير متجهّما:

– وهل فكّرت في سعادتي أنا؟ هل تريد أن يهجرني النوم؟ ألا تكفيني دسائس محمود الغزنوي ومؤامرات البويهيّين حتّى تزيدني أرقًا بالتفكير في رفضك التمنّي عليّ؟ كلاّ يا ابن سينا، إذا كانت سعادتي تهمّك حقًّا فتمنَّ عليّ.

– لكنّي لا أعرف...

الأيونيّ، فأدهش إذ رآه يعرض لمقولات هندسيّة، لن يضبط أقليدس قوانينها إلاّ متأخرا عنه بقرون ثلاثة. كما اطّلع على كتابات أيراطوسطين الذي كان يدير مكتبة الإسكندريّة، والذي سمّاه أحد الحاسدين من مجايليه «بيتا»، الحرف الثاني في الأبجديّة الإغريقيّة، لأنّه على حدّ زعمه؛ الثاني في كلّ شيء».

وقد قال لي معلّمي بعد ذلك بمدّة، ليغفر لي الله يا أبا عبيد، لكنّ هذا الزعم لا يصدر إلاّ عن جاهل، وإنّي لا أرى أحدا أجدر من أيراطوسطين بلقب «ألفا».

فهو أوّل من حاول قيس طول الأرض ونجح في ذلك، كما أنّه أوّل من أثبت انحناء هذا العالَم.

ثمّ انّ الشيخ وقع على كتاب آخر عجيب، يبدو أنّ نسخة منه وجدت في مكتبة الإسكندريّة، يزعم فيه صاحبه أريستارك أنّ الأرض ليست سوى كوكب يدور حول الشمس مثل الكواكب الأخرى.[٣]

كما تمّ له ما أراد من الفلسفة، فأحاط بها من جوانبها، وأكمل الاطّلاع على ما كتب فيها حتى ذلك الحين، محاولاً قدر طاقته أن يحلّ ما ظلّ مغلقا عليه من كتابي أرسطو «الميتافيزيقا» و«التيولوجيا».

وقد جدّت في أثناء هذه السنوات الثلاث سلسلة من الأحداث الجسام لا أرى بدّا من ذكرها. كان أولّها وليس أقلّها وطأةً موتُ نوح الثاني في إحدى المعارك التي ما انفكّ يخوضها ضدّ أعدائه. أفل نجم الأمير المصلح بعد واحد وعشرين عاماً من الحكم، في الأيام الأولى لسنة ٩٩٧ ميلاديّة، أي بعد حوالي عشرة أشهر من شفائه على يد أبي عليّ، وخلَفَهُ ابنه منصور.

ولأسباب عديدة، مثل جشع رجال الدولة وصراعات أصحاب المصالح المتضاربة وغير ذلك ممّا يطول شرحه، تمّ خلع منصور وسمِلَتْ عيناه، ونُصّب أخوه عبد الملك على عرش خراسان. والحقّ أنه لم يكن وراء كلّ تلك القلاقل المتوالية سوى شبح محمود الغزنويّ.

الريّ التي كانت حديث الناس وشغلهم الشاغل. وقد دأب نوح الثاني على مدّها بأنفس النصوص وأندرها، ممّا كانت تحمله القوافل القادمة من بغداد أو الصين على طريق خراسان.

– لاشكّ أنّ علم الدنيا كلّه مجتمع في هذا المكان.

هكذا فكّر معلّمي وهو ينظر إلى الرفوف المصنوعة من خشب السدر، وإلى صناديق الكتب منضدّة بعضها على بعض تكاد تبلغ السماء.

كان كلّ كتاب مدرجاً ومرتّباً وفق نظام معيّن، وكانت الفهارس تُحيّن أوّلاً بأوّل، في حرص على تعهّدها شديد، وكانت المخطوطات مكتوبة على مختلف أنواع المحامل، من البابيروس المصريّ إلى رقّ الشارتا إلى الورق القادم من البلد الأصفر أو بغداد.

وليتك تتصورّ بأيّ عين كنّا ننظر إلى الورق في ذلك الحين. تفحّص الأوراق التي بين يديك وتملّ منها والمسها وشمّ رائحتها، وانظر كم هي ضاجّة بالحركة وكم هي محرقة أو باردة وفقاً لما ضمّنها صاحبها من أفكار. ولعلّك إذا فعلت تنتبه إلى الحياة تنبض بين أصابعك، فتكاد تجزم مثلي بأنّ بلاد العرب ما كانت لتعطي هذا العطاء من الكتابة إلاّ بعد أن صنعت هذه المادّة، فإذا بالكتب تتعاقب وتتوالى، حتّى غدا النسّاخ الكتبيّ يكسب فلا يقلّ كسبا عن الفقيه.

ثمّ توالت على معلّمي بعد ذلك سنوات ثلاث أخصاب، نهل فيها من المعرفة ما شاء الله، فتبحرّ في الفقه حتى تمكّن منه، وأخذ بناصية الأدب والموسيقى بمقاماتها المختلفة، حتى لم تبق فيهما خافية تخفى عليه. ولمّا كان قد وقف من قبل على ما جاء به بطلّيموس في علم الفلك، فقد سهل على معلّمي أن يفرغ إلى ما جاء به ذاك النابغة في أسرار الكون وسير الكواكب في مداراتها المخصوصة، وانفتحت أمام عينيه خرائط المجرّات كما رسمها هيبارق، وطالع تقديره لإشعاع النجوم.

وكان يبحث عن إحكام معرفته بالرياضيّات حين قرأ أعمال طاليس

الأيونيّ، فأدهش إذ رآه يعرض لمقولات هندسيّة، لن يضبط أقليدس قوانينها إلاّ متأخرا عنه بقرون ثلاثة. كما اطلّع على كتابات أيراطوسطين الذي كان يدير مكتبة الإسكندريّة، والذي سمّاه أحد الحاسدين من مجايليه «بيتا»، الحرف الثاني في الأبجديّة الإغريقيّة، لأنّه على حدّ زعمه؛ الثاني في كلّ شيء».

وقد قال لي معلّمي بعد ذلك بمدّة، ليغفر لي الله يا أبا عبيد، لكنّ هذا الزعم لا يصدر إلاّ عن جاهل، وإنّي لا أرى أحدا أجدر من أيراطوسطين بلقب «ألفا».

فهو أوّل من حاول قيس طول الأرض ونجح في ذلك، كما أنّه أوّل من أثبت انحناء هذا العالَم.

ثمّ انّ الشيخ وقع على كتاب آخر عجيب، يبدو أنّ نسخة منه وجدت في مكتبة الإسكندريّة، يزعم فيه صاحبه أريستارك أنّ الأرض ليست سوى كوكب يدور حول الشمس مثل الكواكب الأخرى.[٢]

كما تمّ له ما أراد من الفلسفة، فأحاط بها من جوانبها، وأكمل الاطّلاع على ما كتب فيها حتى ذلك الحين، محاولاً قدر طاقته أن يحلّ ما ظلّ مغلقا عليه من كتابي أرسطو «الميتافيزيقا» و«التيولوجيا».

وقد جدّت في أثناء هذه السنوات الثلاث سلسلة من الأحداث الجسام لا أرى بدّا من ذكرها. كان أوّلها وليس أقلّها وطأةً موتُ نوح الثاني في إحدى المعارك التي ما انفكّ يخوضها ضدّ أعدائه. أفل نجم الأمير المصلح بعد واحد وعشرين عاماً من الحكم، في الأيام الأولى لسنة ٩٩٧ ميلاديّة، أي بعد حوالي عشرة أشهر من شفائه على يد أبي عليّ، وخَلَفَهُ ابنه منصور.

ولأسباب عديدة، مثل جشع رجال الدولة وصراعات أصحاب المصالح المتضاربة وغير ذلك ممّا يطول شرحه، تمّ خلع منصور وسمِلَتْ عيناه، ونُصّب أخوه عبد الملك على عرش خراسان. والحقّ أنه لم يكن وراء كلّ تلك القلاقل المتوالية سوى شبح محمود الغزنويّ.

إلاّ أنّ شيئا من أمر ابن سينا لم يتغيّر، فقد جدّد له خليفتنا نوح الثقة التي وضعها فيه والدهما، وتصرّفت به الأحوال على خير وجه. وما أن وقف على عتبة عامه العشرين، حتّى سأله الفقيه أبو بكر البرقي أن يؤلّف له في شرح الكتب التي وقع عليها، فقرّر أن يحمل القلم، وفي مدّة لم تتعدّ الأسابيع، كان قد صنّف له كتاب «الحاصل والمحصول» في قريب من عشرين مجلّدة، كما صنّف له في الأخلاق مؤلّفا سمّاه كتاب «البرّ والإثم».

في الوقت نفسه، سأله جاره أبو الحسن العروضيّ أن يصنّف له في الفلسفة كتابا جامعا، فصنّف له المجموع وسمّاه باسمه «العروضيّة»، أتى فيه على سائر العلوم سوى العلم الرياضيّ، وكان في عمق «الحاصل والمحصول».

ولم تسؤ الأمور إلاّ في مطلع اليوم السادس عشر من شهر ربيع الأوّل لسنة ٣٧٩ هجريّة. كان عبد الملك لا يزال على عرش بخارى، وكان معلّمي في مطلع الحادية والعشرين من عمره.

كان يومها جالساً إلى المسيحيّ على مدرج المكتبة الملكيّة، وقد تسلّل الغروب إلى الحديقة، حائلاً بين العين وحدود الأشياء...»

– أصبحت عرضة لأسوإ الإشاعات يا أبا عليّ يا ابن سينا.

– إلى متى وأنت تصمّ أذنيّ بهذه الترّهات يا عزيزي المسيحيّ؟

– ألا تعلم أنّ شفاء الأمير نوح الثاني على يديك، قد أوغر عليك صدور الحسد والحقد؟ منذ ثلاث سنوات وألسنة السوء تحوك حولك أبشع الإشاعات، ولا أستبعد أن تلصق بك تهم الضحّاك العشرة.[٤]

– أقبل بكلّ التهم، عدا الدمامة والقصر.

– اسمع يا أخي، كأنّي بك تصرّ على الاستخفاف بالأمر، ولكنّي أعذرك على ذلك، فأنت كما يبدو لا تعرف كلّ الحقيقة.

– وماذا يمكن أن يُضاف إلى ما ذكرته لي منذ حين؟

غضّ المسيحي بصره ولم ينبس بكلمة.

– أبا سهل، بدأت تشغل بالي، ما هذه البشاعة التي ألصقوها بي؟ سحنتك المتجهّمة تشي بشيء جادّ.

– وهو كذلك.

– قلت أكثر ممّا ينبغي أو أقلّ ممّا يجب، تكلّم إذن يا مسيحيّ.

– يهوديّ.

همس الطبيب بهذه الكلمة في صوت يكاد لا يبين، حتّى خيّل لابن سينا أنّ صديقه قال شيئًا آخر.

– يهوديّ... يزعمون أنك يهوديّ.

جمد ابن سينا في مكانه للحظات، وفجأة، انتصب واقفًا وأخذ يصرخ:

– يهوديّ؟ من الذي يقف وراء تهمة بهذه الدناءة؟ أناشدك أن تتكلّم، من؟

بحركة حميمة، وقف المسيحي أيضًا وقال ممسكًا بيد صديقه:

– هدّئ من روعك يا صديقي، إنّها إشاعات على أيّ حال.

– أنت من يخرف الآن، فهذه أخطر من مجرّد إشاعات، ولكن كيف أمكن لفكرة خبيثة مثل هذه أن تعشّش في العقول؟ أنا شيعيّ، أليس هذا معلوما لدى الجميع؟ هذا غباء، إنّه أمر غير معقول.

– بل هو معقول أكثر ممّا تتصوّر، فعائلتك تحوم حولها الشبهات، أما قلت لي بنفسك منذ سنوات، إنّ والدك التحق بالدعوة الإسماعيليّة وناشدك أن تتبعه؟

– تلك حكاية قديمة، ثمّ إنّ معتقدات والدي أمر يهمّه وحده، فأنا لم أتخلّ عن تشيّعي يومًا واحدًا.

تنحنح المسيحيّ قبل أن يسأل:

– وستارة؟

امتقع وجه ابن سينا بشكل مرعب.

– ماذا تقصد؟

– ربّما كنتَ من أمّ يهوديّة.

الفطائر بدون خميرة، ودائماً في اليوم ذاته من كلّ سنة...لم يتمالك نفسه عن البحث في الأمر منذ أسابيع، وبدافع لم يحدّده، فاكتشف أنّه اليوم الموافق للسادس عشر من نيسان حسب التقويم اليهودي، "يوم تقديم بواكير الحصاد"، حفلة تلي البساه، الفصح بالنسبة لأبناء إبراهيم... هو ذاك إذنْ؟

واصل أبو سهل، بصوت أراده لا مباليًا:

– على أيّ حال، ما أهمّية هذا الأمر؟ ليكن أنّك يهوديّ، ألست أنا نصرانيًا؟ ولا شكّ أنّ هناك مقاعد شاغرة في الجحيم تسع المزيد من الكفرة أمثالنا.

– أيّها الكلب، ألن تخرس؟

وبقسوة غير متوقّعة، أمسك ابن سينا بتلابيب الطبيب وأخذ يهزّه كما يهزّ جذع النخلة:

– أمنعك أتفهم؟ أمنعك من أن تنعتني بالكافر، لا كافر هنا إلاّ أنت.

وأضاف مكرّرًا:

– أيّها الكلب.

كان الغضب قد أعماه عن كلّ شيء، فلم ينتبه إلى نفسه وهو يدفع بصديقه من أعلى مدرج المكتبة.

في تلك اللحظة، تفطّن إلى الدخان الكثيف المتصاعد نحو السماء، فحاول إيهام نفسه بأنّه ضحيّة هلوسة، لكنّه سرعان ما فهم جليّة الأمر. كانت دار الكتب تحترق.

التهبت السماء في لحظات. تجلّلت الحديقة والساحة والقباب وحتى مياه الأحواض والعيون بالأحمر والأصفر.

– أبا سهل.

كالمجنون، هرع أبو عليّ إلى صديقه المنهار دون حراك أسفل المدرج. كان الحرّاس يهرولون هنا وهناك.

– أبا سهل.

لاحظ أنّه مغمى عليه، فأخذه من إبطيه وجرّه إلى أقرب حوض. هناك غرف قليلاً من الماء براحتيه ورشّ وجهه. طرف أبو سهل بعينيه وانتبه إلى عيني أبي عليّ المفزوعتين في ضوء ألسنة النار.

– هل وصلنا بعد إلى الجحيم؟

– ليست جهنّم بعد، لكنّنا غير بعيدين عنها، هل تستطيع المشي؟

– عليك بالابتعاد عن هذا المكان أيّها الشيخ الرئيس.

تعرّف ابن سينا على زيّ الحرس الخراسانيّ، ذي اللون الأسود.

– ساعدني على حمل صديقي، إنّه جريح.

صرخ المسيحيّ محتجًا:

– لم أكن في يوم من الأيّام أحسن حالاً منّي الآن.

لكنّه ما أن وقف حتّى أطلق صيحة ألم:

– آه، كعبي...

دون انتظار، أشار ابن سينا على الجنديّ بإسناد المسيحيّ، وانطلقوا في اتّجاه ساحة رجستان.

في الخارج كان الرعب قد عمّ الجميع، وكأنّ سكّان بخارى كلّهم قد خرجوا من بيوتهم، وتجمّعوا في الساحة يتصايحون، مشيرين بأصابعهم إلى عمود الدخان وهو يكحّل السماء.

استطاعا بفضل المملوك أن يجدا لهما طريقًا بين الجموع، إلى أن بلغا البازار الكبير المسقوف. هناك أيضًا كانت الحشود تتجمّع. سارا بمحاذاة الدكاكين الفارغة، فكادت تدهسهما كوكبة من الخيّالة انبثقت من الليل، مطلقة الأعنّة لخيولها في الساحة.

صرخ المسيحيّ:

– إنّها القيامة والله، هل جنّوا؟

ردّ ابن سينا بصوت مكتوم:

– لا أعلم إن كانت نهاية العالم، لكنّ هذه المكتبة الملتهبة جزء من معرفة

هذا العالم يتحوّل إلى دخان. مزيداً من الصبر، ها قد وصلنا.

ظهر البيت المبنيّ من الآجرّ في آخر الشارع الصغير، ولمحا محمودا يركض باتّجاههما وخلفه عبد الله وستارة. صرخ الفتى وهو يكاد يرتمي على أخيه:

– أبا عليّ.

ثمّ شاهد المسيحيّ فهتف سائلاً:

– ماذا حدث له؟

وقبل أن ينطق أبو عليّ بكلمة، غمغم المسيحيّ:

– دفعني أحد الأغبياء.

خفض ابن سينا عينيه متحرّجًا، وكانت ستارة قد لحقت بهم، فهتفت بدورها:

– ظننت أنّك هلكتَ يا ولدي.

– لا بأس مامك، لا بأس، أنا بخير.

تخلّص من يدي أمّه بشيء من الحرج، ودلف إلى الداخل. أخذ عبد الله مكان الحارس، ومدّدا المسيحيّ على ديوان.

– أمّي، ناوليني إبريق خمر، سيساعده الكحول على تحمّل الألم.

مال ابن سينا على صديقه يفكّ له رباط نعليه، كانت القدم اليمنى محمرّة ومتورّمة إلى حدّ الأصابع، فرمقه أبو سهل بطرف عينه وقال ساخرا:

– وماذا بعد أيّها الشيخ الرئيس، ها أنّي أكتشف أنّك بيطريّ أيضًا.

– ماذا تعني؟

– أليس البياطرة هم الذين يعالجون الكلاب؟

سأل محمود:

– بماذا يخرف؟ هل أصيبت ساقه أم طار عقله؟

فقال عبد الله مازحًا:

– هكذا الأمر مع النصارى.

أمّا أبو عليّ فقد اكتفى بصرّ أسنانه. كانت عيناه مترعتين بالليل.

*

عاد الهدوء إلى بخارى.

جلس أبو عليّ قبالة والده وعبّ ما تبقّى في الإبريق من نبيذ. كان الجميع قد ناموا، ولم يبق غيرهما تحت عريش العنب.

– إذن، لم يكن الأمر إشاعة...

– اسمع يا ولدي، عليك أن تذكر ما جاء به الرسول أفضل من أيّ كان، وأنت من حفظ القرآن في العاشرة من عمره.

– أنا منهك ولا طاقة لي بشيء هذه الليلة.

– إذن دعني أكن ذاكرتك للحظة، أ ليس هو من أُنزل عليه: «وَاذْكُرْ في الكتابِ إبراهيمَ إنّهُ كانَ صِدّيقًا نَبيًّا...».

فردّ أبو عليّ فورًا، بصوت كئيب:

– «سَلْ بَني إسرائيلَ كَمْ آتيناهُمْ مِنْ آيةٍ بَيّنةٍ ومَنْ يُبَدّلْ نِعْمَةَ اللهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءتْهُ فإنَّ اللهَ شديدُ العِقاب...».

ابتسم عبد الله مضيفًا:

– «ومَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلّةِ إبراهيمَ إلاّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ...»، ألم يقل ذلك أيضا؟

تناول أبو عليّ بشيء من التبرّم حفنة من حبّ الرمّان في إناء كان أمامه، قائلاً:

– أبي، في وسعنا أن نتبادل آيات القرآن إلى الفجر، ولكنّنا في هذا الموضوع، وليغفر لي الله قولي هذا، لن نجد سوى الشيء ونقيضه في السور المائة والأربعة عشرة. إلاّ أنّ هناك آية لا لبس فيها: «يا أيُّها الذينَ آمنُوا لا تَتّخذُوا اليَهُودَ والنَصارى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فإنّهُ مِنْهُمْ إنَّ اللهَ لا يَهْدِي القَوْمَ الظالمين...».

حدج عبد الله ابنه بنظرة حزينة قبل أن يسأله:

– إذن، فهل تمنح أبا سهل النصرانيّ ما تمنعه عن أمّك؟

انتفض أبو عليّ مرّة واحدة، غير منتبه إلى وعاء الرمّان يسقط ويتحطّم، صارخًا:

- كأنّي بك لا ترى يا أبي، افتح عينيك جيّداً وانظر، لقد منعوني من دخول القصر على الرغم من أنّ الأمير كان يحتضر، هل فهمت الآن لماذا؟ وسيكون ذلك في كلّ مكان، اليوم في بخارى، وغداً في بغداد أو نيسابور، ألا تفهم؟ أنا يهودي، وسأظلّ في نظر فارس كلّها يهودياً.

وقف عبد الله بدوره، وقد غشى نظرته الغضب، فأمسك بكتفي ولده وجذبه إليه بشدّة:

- أصغِ إليّ جيّداً يا أبا عليّ يا ابن سينا، ولتبق كلماتي محفورة إلى الأبد في رأس الطائر المجنون هذه، أنت مؤمن، وابن الإسلام، وشيعيّ، ولا شيء غير ذلك، وأمّك امرأة شريفة وطيّبة، وأنت ثمرة أحشائها، وإذا سوّلت لك نفسك أن تخجل من هذا في يوم من الأيّام، فها أنا أقول لك يا أبا عليّ بن سينا، اهرب، اهرب إلى أقصى مكان تقدر عليه، غادر هذا البيت، اركض إلى آخر بقعة عرفها البشر في هذا العالم، وليبتلعك بحر الظلمات إلى الأبد.

الهوامش:

١- القاضي في الاسلام هو الحاكم بين الخصوم وصاحب القول الفصل في المسائل المدنيّة والجزائيّة، وقد بيّن لي معلّمي أنّ صلاحيّاته تمتدّ إلى كلّ ما له علاقة وثيقة بالشرع، كالحقوق العائليّة والوراثيّة والأحباس. (الجوزجاني)

٢- ليغفر لي الله زهوي إن كان، ولكنّي أزعم أنّ روماً كثيرين سيذهب بهم الظنّ إلى أنّ لكلمة مملوك بعض صلة بألقاب التشريف، لذلك وجب التنويه بأنّها من ملَكَ الشيء يملْكه أي احتواه وقدر على التصرّف فيه، وليس المملوك سوى عبد في حوز سيّده. (الجوزجاني)

٣- ولاشكّ أنّك لم تغفل عن خطل هذا الرأي، فنحن نعلم كما جاء في تعاليم بطليموس العظيم، أنّ الأرض هي مركز الكون، وأنّ الشمس والقمر وسائر الكواكب هي التي تدور حول الأرض..(الجوزجاني)

٤- حدّثت الأساطير أنّ الضحّاك هو الأمير الذي أسر جمشيد ملك الفرس وعذّبه، ويمثّله الفنّانون حاملاً الأفاعي، وينسبون إليه عيوباً عشرة هي: الدمامة والقصر والتكبّر والوقاحة والرقاعة والنهم والنميمة والاستبداد والتهوّر والدجل، ولا شكّ أنّ كلام المسيحيّ لم يخل من مبالغة ذلك اليوم. (الجوزجاني)

المقامة الرابعة

– ما أشدّ نتانتها، لم أر شيئًا أبشع من رائحة براز الجمال القادمة من بلاد الأتراك.

كان صالح الخيّاط، منهمكًا في قصّ شريط من القماش الهنديّ الملوّن، لذلك أومأ برأسه معلّقًا في لا مبالاة:

– اسمع يا أخي، براز الجمال هو دائمًا براز جِمال، سواء أخرج من مؤخّرة ديلميّة أم من مؤخّرة كرديّة.

– كلاّ، هذه القوافل القادمة من وراء أمودريا، تفوح منها روائح لا تحتمل.

– عجبا منك يا أخي، في هذا المكان الذي يختلط فيه الصندل بالصبر والقرفة بالزنجبيل ولبان جاوة بالزعفران، لا أرى حقّا كيف تستطيع التمييز بين رائحة روث بقرة وبعر بغلة وسَلَح نسرٍ ملكيّ، لا شكّ أنّ لديك حاسّة شمّ جبّارة.

هزّ سليمان كتفيه واستمرّ يجدل غصون الصفصاف. كان السوق المسقوف يمور من حولهما تحت شمس الظهيرة الحارقة، وكانت أصوات الديكة والطيور تردّ على حمحمة البغال، بينما تشبّكت في زحمة الغبار والشمس، نداءات باعة الماء ومشاجرات الشحّاذين وخليط الروائح الذي كان يتحدّث عنه سليمان.

على مسافة من هناك، في ظلّ سُجُفٍ بلون الرمل والبخور وأمام أكياسٍ منفوخة مثل القِرب وسلالٍ مكدّسة بعضها فوق بعض، كان تجّارٌ ذوو كروش ضخمة ووجوه متغضّنة يمتدحون بضاعتهم رافعين أكمامهم في حركات واسعة. في هذا العالم المتموّج، اصطفّت الجرار الأثينيّة وزرابي الصوف أو الحرير الأصفهانيّة وفرو تركستان والأقمشة المقصّبة بالذهب وأنواع الديباج وكشمير الهند وأباريق سوريا وأواني الفخّار والمزهريّات

المنقوشة والفولاذ المُدمْشق، جنبًا إلى جنب ودون أيّ نظام، مع الملح والتمر والقمح والعسل والعنبر واللؤلؤ. وعلى مسافة أبعد، كانت تُعرض صقلبيّات لَمّع وجوههنّ العرق، وقد قدمن توّا من سهول الشمال في طريقهنّ إلى بحر الخزر.

مال سليمان على صديقه متكتّمًا وسأله:

– هل عرفت ذلك الرجل؟

– أرى رجلين، من منهما تعني؟

– أصغرهما سنًّا، فهل عرفته؟

ورفع رأسه من جديد، مضيفًا:

– يبدو لي أنّه فعلاً الشيخ الرئيس.

– حقًّا، إنّه أبو عليّ ابن سينا، هل علمت بآخر الأخبار؟

أشار سليمان أن لا.

– يُقال إنّه هو الذي أضرم النار في المكتبة الملكيّة.

– الشيخ الرئيس؟ ولأيّ سبب يفعل ذلك؟

– ليقطع أنساب تلك الفوائد عن أربابها، ويضيف علومها ونفائسها إلى نفسه. ألا تراه عملا فظيعًا؟

– هو كذلك لو ثبت أنّه قام به فعلاً، فالعلم ملكٌ لله وحده.

مرّ أبو عليّ يتبعه المسيحيّ من أمام الرجلين وواصلا طريقهما عبر السوق، ولم يلبثا أن صارا على مرأى من المستشفى، فقال أبو عليّ بمرارة:

– لا أدري من هو الأشهر في بخارى هذه الأيّام، الطبيب أم مضرم النار؟

– وددت لو أنّ حوار هذين الأحمقين لم يلفت انتباهك، ولكن ماذا في وسعي أن أقول لك؟ لم تزل ألسنة البعض تقطر سمًّا، فذرهم يموتوا غيظا.

– لو أحصيناهم عددا، بدءًا من الوزير وصولاً إلى خصيان القصر، لطالت قائمة الموتى يا مسيحي، وإذا كان أكثرهم لا يجزم في الأمر، فإنّ الشكوك تساور الجميع.

– ما دام الأمير لا يعبأ بألسنة السوء فإنّك لا تخشى شيئًا.

– سمع الله منك يا مسيحيّ، ولكن حتّام تسلم الجرّة؟ هل فهمت الآن سبب غضبي في حديقة المكتبة الملكيّة؟

حدج المسيحيّ صديقه بنظرة جانبيّة وقال بشيء من السخرية:

– يا أبا عليّ يا ابن سينا، هب أنّ معجزة منعت عقلي من التمييز، فلا شكّ أنّ كعبي المؤلم سيتكفّل بذلك.

– سكن الجنّ[1] رأسي ذلك اليوم فهل تغفر لي أبدًا جنوني ذاك؟

– هوّن عليك يا ابن سينا، فما من حاجة لنغفر ما نسيناه.

لم يتبادلا كلمة واحدة بعد ذلك إلى أن بلغا مدخل المستشفى. اجتازا سقيفة الباب الكبيرة واستعدّا لتحيّة مجموعة من الطلبة كانت تسير في اتّجاههما، ففاجأهما أن يعرض عنهما الجميع بسرعة، ملفتين وجوههم وقد تملّكهم الرعب.

غمغم المسيحيّ:

– ماذا أصابهم؟ كنت منذ قليل تتحدّث عن الجنّ فهل رأوا جنيًّا؟

– الأمر غريب حقًّا.

ساورتهما الظنون وارتابا في الأمر، فعبرا الإيوان بسرعة، وقصدا غرفة الأطبّاء. هناك شاهدا المماليك، وقد وقف ثلاثة منهم على الباب لمنعهما من الدخول، فيما بادرهما الرابع، وهو كما يبدو قائد المجموعة، فخاطبهما بنبرة لا تخلو من فظاظة:

– من منكما الشيخ الرئيس؟

أجابه أبو عليّ بعفويّة:

– هذا أنا، فما الذي حدث؟

– بأمر من القاضي، صار حضورك إلى البيمارستان غير مرغوب فيه، ومن اللحظة يمنع عليك دخول هذا المكان منعًا باتًّا.

– ولكن بأيّ حقّ؟ ماذا صنعت؟

– أنا هنا لتنفيذ الأوامر ولا علم لي بأيّ شيء آخر.

قال المسيحيّ محتجًا:

– ومرضانا؟ من الذي يعالجهم في غيابنا؟ القاضي؟

ردّ المملوك متملّصا:

– لا علم لي بشيء من هذا، وعلى أيّ حال، فالمنع يهمّ الشيخ الرئيس وحده، أمّا أنت ففي وسعك أن تواصل عملك.

بحركة مباغتة، دفع أبو عليّ الجنديّ واتّجه نحو الباب صارخًا:

– هذا غير معقول، دعني أمرّ.

إلاّ أنّ محاولته انتهت عند أقدام الحرّاس، وحاول المسيحيّ التدخّل فنهره القائد فورًا:

– أنت أيّها الذميّ، إمّا أن تنصاع وإمّا أن تلقى مصير صديقك.

– وأنت أيّها المملوك، إمّا أن تراقب كلماتك وإمّا أن يقطع أحدهم لسانك.

تجاهل الرجل ردّ المسيحيّ وسأل ابنَ سينا:

– هل تريد أن تغادر المكان فورًا أم أطلب من رجالي أن يلقوا بك خارجاً؟

عبثًا بحث أبو عليّ عن إجابة في عيني صديقه، فقال هذا الأخير:

– وما العمل إذا كان خصمك هو القاضي؟ هيّا يا صديقي، لقد أصبح الجوّ خانقًا في هذا المكان.

عبرا من جديد الفناء المشمس وخرجا إلى الشارع الصغير.

سأل أبو عليّ بصوت متهدّج:

– والآن؟

– أن تعصي أمر الأمير معناه أن تبيح دمك بنفسك، فلنلزم الهدوء قبل كلّ شيء.

– ولكن، ألا يكون الأمير عبد الخالق على جهل بكلّ هذا؟ ألا يذكر أنّي أنقذت حياة أبيه منذ ثلاث سنوات؟

– «إذا كنتم أصدقاء الأمير قطع أرزاقكم، وإذا كنتم أعداءه قطع رؤوسكم».

– كأنّي بك قد نسيت أنّي مازلت طبيبه الخاصّ، وقد لا يكون لإبعادي عن البيمارستان صلة بمكانتي في القصر؟

– لا تتظاهر ببراءة الأطفال، فأنت تعلم جيّدًا أنّ هذه تعني تلك.

– ولكنّي أريد أن أكون على بيّنة من أمري. سأذهب لمقابلة البرقي، فهو لا يزال الفقيه المفتي، ولا إخاله ناسيا الليالي البيضاء التي سهرتُها أدوّن له كتاب «الحاصل والمحصول»، بل لا شكّ عندي أنّه لن يبخل عليّ بالمساعدة.

– لو كنت مكانك لما صنعت شيئًا من هذا القبيل، أنت على حافة هاوية يا ابن سينا، فكّر في والديك، أبوك طاعن في السنّ، فلا تحمّل عائلتك عواقب تهوّرك.

– لا تخف يا مسيحيّ، قد أكون مجنونًا، لكنّي مازلت أحتفظ بلحظات من الوعي.

*

بحرج ظاهرٍ، وضع المفتي مرفقه على مسند الكرسيّ المصنوع من خشب الصندل، وأسند وجنته اليمنى على قبضة يده المغلقة، وقال متمهّلاً في إرسال الكلمات:

– لا أستطيع لك شيئًا أيّها الشيخ الرئيس، فالقضيّة التي تشغل بالك ليست من اختصاصي.

– الآن فهمت، لقد جاء أمر إقالتي إذن، ممّن هو أعلى درجة من القاضي.

– ها أنت قد قلت.

– ولكن كيف يمكن للأمير أن يصدّق بأنّي أضرمت النار في المكتبة الملكيّة؟ إنّه أمر من السخف بمكان.

غيّمت عين الفقيه اللامعة في العادة، وأرسل أصابعه عفوا في شعره

المصبوغ بالحنّاء، قائلاً:

– نحن محاطون بالسخافات يا ولدي، وغير خاف عليك أنّ الوضع السياسيّ بات غير مأمون، فمنذ أن مات نوح والسلالة السامانيّة فريسة للأطماع من كلّ جانب، ولن يلبث النسر التركيّ أن ينقضّ على خراسان، وليس من الغريب على أمرائنا في مثل هذه الظروف أن يضيّعوا رجاحة العقل وسداد النظر، فإذا بأيّ شبهة تتحوّل عندهم إلى تهمة ثابتة، ثمّ لا بدّ من الإشارة إلى أنّك قد ساهمت أنت أيضاً، ومنذ ثلاث سنوات، في فقدان الحظوة الذي تشكو منه اليوم، إذ أنّك لم تحاول ولا مرّة التخفيف من غيرة أعدائك وحسدهم، وهم على ما تعلم من القوّة والمكر.

انحنى في أثناء حديثه على طاولة صغيرة من الخشب المطعّم، وتناول طبقاً من المكسّرات، أشار به إلى ضيفه.

– بارك الله فيك، ولكنّك تفهم بلا شكّ ذهاب شهيّتي في مثل هذه الظروف، والحقّ أنّي أعترف بأنّي لم أفلح يوماً في كتمان آرائي، ولكن ماذا كان عليّ أن أصنع؟ أن أغضّ البصر عن عدم كفاءة الأطبّاء المحيطين بالأمير؟ أن أصفّق للحماقة؟

– أنت تعرف المثل القائل: «قبّل اليد التي لا تقدر على عضّها»، ولكن يبدو أنّك أصغر سنّاً من أن تفهم مثل هذه المبادئ.

– لا أدري إن كنت سأفهمها يوماً.

مرّت برهة من الصمت، ثمّ التفت أبو عليّ مستوضحاً:

– وماذا لو طلبت المثول بين يدي الأمير؟

– لن يستقبلك، سيظلّ بابه مغلقاً في وجهك.

– وأنت؟ ألا تستطيع إقناعه ببراءتي من التهمة البشعة التي لُفّقت لي؟

– لا أظنّك تعتقد أنّ حكاية الحريق هي التي أثقلت وحدها كفّة الميزان.

قبض ابن سينا بعنف على مرفقي المتكأ، فيما واصل الفقيه الحديث بجديّة:

– أن تُتّهم في إيمانك أخطرُ بكثير، هل فهمت قصدي؟
امتقع وجه أبي عليّ ونهض كما لو أنّه يقفز من كرسيّه صائحًا:
– أصغ إليّ يا أبا بكر، ليس في هذا العالم ندّ لي فيما أنا عليه، فهل يُتَّهَمُ مِثْلي بالزندقة؟ إذن فليس في العالم كلّه مسلم واحد ليس بزنديق.
ربت المفتي على بطنه وقال مبتسمًا:
– هل هذا اعتراض مؤمن صادق، أم هي محاجّة معتنق للإسلام يريد أن يعمي عن أصوله اليهوديّة؟ على أيّ حال، ألم يتخلّ أبوك عن شيعيّته الإثني عشريّة ليلتحق بدعوة الإسماعيليّين؟
شعر أبو عليّ بأنّ جدران الغرفة تميد من حوله، وخيّل إليه في اللحظة نفسها أنّه يسمع صوت المسيحيّ: أنت على حافة هاوية يا ابن سينا...
نهض أبو بكر بتثاقل وقال:
– أراني أثرت حفيظتك إذ صارحتك بالحقيقة دون لفّ ولا دوران، ولكن ثق أنّي لا أحمل لك أيّ عداء، مهما بدا لك عكس ذلك، بل ثق أنّي لا أكنّ لك غير الودّ، الكثير من الودّ والتقدير، لذلك أريد أن أصدقك النصيحة أيّها الشيخ الرئيس، دع الآخرين يقتربون من الله بكلّ وسائل التقوى واقترب أنت منه بكلّ وسائل العقل، وستسبق الجميع، وفيما يعانون هم لمضاعفة أفعال العبادة، اهتمّ أنت بمعرفة العالم المعقول، هكذا ستحلّق أعلى من النسر الملكيّ، هل كنتُ واضحًا بما فيه الكفاية؟
– أشدّ الوضوح يا أبا بكر، ولن أنسى كلماتك، فلتسمح لي الآن بالانصراف.
– صحبتك السلامة يا صديقي.
– وعليك السلام يا برقيّ.

*

«عرفت خراسان عامها شتاءً رهيبًا لم تعهده من قبل، وبين جمادى الآخرة ورجب، تجمّدت الجداول على امتداد السهل، ونامت مياه زرافشان

في سريرها الكريستاليّ، حتّى ظنّ الكثيرون أنّها لا تستيقظ بعدها أبداً. وكان يخيّل إلى الناظر أحياناً من أعلى القلعة، حين ينحدر الضوء باتّجاه الليل، أنّ المشهد أشبه بمحيط من الزبد الأبيض والبنفسجيّ، تسمّرت سفنُهُ في مكانها. كان مشهداً رائعاً ومروّعاً في الوقت نفسه.

ثمّ أقبل شهر شعبان بجوّه المنعش. ومع شهر رمضان، أمكن للألوان، الأخضر والأرجوانيّ لون الورود والأحمر الناصع لون الرمّان المشقّق، أن تسفر عن بهجتها من جديد.

ما الذي جدّ في حياة معلّمي طيلة تلك الأشهر الستّة؟ لقد أُطرِد من المستشفى، وكان عليه أن يبذل قصارى جهده لمعالجة أولئك الذين ظلّوا مصرّين على الانتفاع بعلمه، من علية القوم وعامّتها الفقراء، فكان يتنقّل كلّما سمح الطقس إلى القرى المجاورة، لا يطلب مقابل ذلك ذهباً ولا فضّة، تاركاً أجره على الله تعالى.

وقد أسرّ لي أنّه كان يلوذ بين الحين والآخر بجسد وردة، قابسا منه بعض وميض السعادة، عارفا بجوارها لحظات قصوى بعيداً عن دناءات البشر.

كما أمكن له في تلك المدّة أن يفرغ إلى التبحّر في دين إبراهيم لساعات طوال، ولطالما كرّر على مسمعي هذه الآية: "وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ دينِ إبْراهِيمَ إلاّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ"...، وقد أضحت حقيقة إيمانه منذ ذلك الحين، أشبه بريح الشمال التي تنفخ في الدروب دون أن يراها أحد، ذلك أنّ ضيقه بتعصّب الآخرين، لم يكن أقلّ من ضيقه بتعصّبه هو.

إلاّ أنّ الساعة لم تعد للهمّ والغمّ، فها نحن في اليوم الأخير من شهر رمضان المعظّم، يوم العيد الصغير الذي يختم ثلاثين يوماً من الصيام، وقد أعدّت ستارة خروفاً مشويّاً يعبق برائحة القرفة والكمّون البريّ، محشوّاً بنوى الصنوبر والزبيب واللوز، بينما انتصب على الخوان طبق نحاسيّ كبير منقوش، مثقل بعدد مدهش من الصحون الصغيرة.

حضر جميع الأصدقاء، عدا البيروني الذي كان في جرجان في خدمة صائد السماني، والفردوسي الذي التحق بطوس مسقط رأسه، لإتمام تأليف الشاهنامة، كتاب الملوك.

كان ثمّة حرشف وفول وسميذ ظلّت ستارة تعجنه طيلة ساعات في زبدة من حليب النعاج، وسمك مطعّم بالزعفران ورزّ بلا حصر ولبن رائب، كما كان في انتظارهم من المرطّبات هرمٌ من الحلوى الملبّسة بالعسل، وبطّيخات لذيذة أتى بها محمود من السوق، وكانت قد جلِبت من فرغانة محفوفة بالثلج في صناديق رصاصية، كي تتحمّل السفر.

لم يكن على هذه المائدة خضر مثل اليقطين أو الطماطة ولا لحم الأرنب أو الغزال، فهذه الأغذية كلّها ممنوعة في معتقدات الشيعة، وفي المقابل كان الثوم والبصل متوفّرين بكثرة، على الرغم من أنّ النبيّ كان لا ينصح بهما كثيراً، ولا شكّ أنّه لم يستنكف منهما إلاّ لرائحتهما الكريهة، التي لم يكن يحبّ أن تعبق بها أماكن الصلاة...».

هتف محمود وهو يغمس قطعة من خبز الشعير في اللبن الرائب:

– لقد تفوّقت على نفسك الليلة يا مامك، إنّها مأدبة حقيقيّة.

أضاف المسيحيّ:

– بل هي أكثر من ذلك، فنادراً ما حضرت وليمة عرس أضخم من هذه.

وهتف المغنّي:

– أنا مستعدّ لتناول قطعة أخرى من لحم هذا الخروف الرائع.

سألته ستارة:

– وأيّ جزء من الخروف تفضّل هذه المرّة؟

– ما يفضّله النبيّ، الكتف والقائمتين الأماميّتين.

قال ابن زيلة معلّقا:

– ثمّة في الحقيقة شيء مدهش حين نفكّر في كلّ هذا الذي يستنبطه البشر من ألوان الطعام، والساعات التي يقضيها في إعداده، لإشباع رغبة

جزءٍ ضئيل من ذاته: الفم، وإنّي لأراها كنوزا من المهارة تُهدر لا من أجل شيء، سوى تلك اللحظات العابرة التي نحمل فيها الطعام إلى الفم.

اعترض عبد الله قائلاً:

– أخالفك الرأي يا ابن زيلة، فليست طقوس الطعام بغاية متعة الذوق وحده، بل انّ العين تستمتع أيضًا.

وأضاف مستنجدًا بابنه:

– أظنّك لا تعترض على رأيي يا ولدي، خاصّة وأنّك لم تقف عند الطعوم الذوقيّة الأربعة التي ذكرها معلّمك أرسطو، بل أردفتها بالغثاثة والمذاق الكريه وغيرهما.

– معك حقّ يا أبت، وفي وسعنا إغناء هذه القائمة بسائر الحواسّ من نظر وشمّ ولمس، فثمّة شيء حسّيّ في إحاطتنا بوجبة من الوجبات، وثمّة عناصر أخرى تساهم في استطابة صنف من أصناف الطعام.

وأضاف مشيرًا إلى المغنّي:

– ألا يمكن أن تكون الموسيقى من بين هذه العناصر؟

وضع المغنّي كوز شراب النخيل من يده، وكأنّه لم يكن ينتظر غير تلك اللحظة، وتناول آلته، كانت نوعًا من العود يقال له كمنجا عجوز، فحصر بين فخذيه القصبة المعدنيّة البارزة أسفل الصندوق، ووضع القوس على أحد الأوتار، وبمهارة فائقة أخذ يدير الآلة يمنة ويسرة، حتّى غمرت الموسيقى الغرفة.

– اِعزف يا مغنّي، اعزف.

همس عبد الله مرخيًا رأسه إلى الوراء، مغمضًا عينيه.

– أستغفر الله، ولكن ماذا نطلب من الحياة أكثر من هذا؟ أن نكون محاطين بمن نحب، أمام مائدة تليق بالأمراء، وإلى جانبنا الأولاد، وزوجة نحبّها، أليست هذه هي السعادة الغامرة؟

ثنّى الضيوف على كلامه دون احتراز، فيما أخذ المغنّي وقد فعل به

الشراب، يعزف بهمّة مضاعفة وشغف أكبر، ولم يختم تقسيمه إلاّ وقد انتزع من الجميع عاصفة من التصفيق.

هتف ابن سينا معجبًا:

- عزف رائع، أنت حقًّا فنّان عظيم يا مغنّي.

والتفت مستطلعًا رأي أبيه، فلاحظ أنّ رأس الشيخ قد تهالكت على صدره، مائلة إلى الجنب قليلاً، فيما تدلّت اليدان على طول الجسم.

- أبي.

دوّت الصرخة في أرجاء الغرفة والتفت الجميع ناحية عبد الله، فيما كان أبو عليّ يهبّ مسرعًا إلى جسّ نبضه.

سأل المغنّي وقد امتقع لونه:

- هل يكون قد...

قاطعه أبو عليّ بعنف، وقال وهو ينظر إلى المسيحيّ الذي كان قد جثا على ركبتيه في الطرف المقابل من السرير:

- القلب مازال ينبض.

طيلة الوقت الذي استغرقه الفحص، خيّم الصمت على الغرفة، حتّى أنّ حفيف الهواء كان يُسمع بوضوح. أنصت أبو عليّ إلى نبض الدم في أماكن مختلفة من الجسم، وتأمّل في الأعضاء واحدًا بعد الآخر، وفي بريق العينين، وراقب لون الأطراف ودرجة حرارتها، وحين نهض أخيرًا كان يتفصّد عرقًا، فناشد الجميع أن يغادروا الغرفة، ما عدا المسيحيّ.

كانت ستارة قد أمسكت بيد زوجها، وبدا واضحًا أن لا قوّة في الأرض تستطيع فصلها عنه. أغلق محمود الباب دون الضيوف، وقرفص دامع العينين إلى جانب أمّه، فيما انتحى أبو عليّ والمسيحيّ جانبًا قرب النافذة المفتوحة على الغروب.

- ماذا هناك؟

مسح المسيحيّ بظاهر يده قطرات العرق التي كانت تتهاطل على شفتيه،

ورمق صديقه بنظرة حائرة مكرّرًا السؤال.

– لا شيء.

– ماذا تقول؟

– لا شيء، لا شيء في دماغي غير الظلماء.

أمسك المسيحيّ بكتفيه وهزّه هزًّا وهو يهمس:

– هل جننت؟ ألم تقم بفحصه منذ قليل؟

أومأ ابن سينا بالإيجاب كالمذهول.

– فما الذي لاحظت؟

– يبدو لي... يبدو لي أنّ شللاً طال النصف الأيمن بكامله.

حملق المسيحيّ بعينيه.

– يبدو لك؟

– لم أعد أسمع شيئًا، لم أعد أرى شيئًا، ألا تفهم؟

كان يكاد يصرخ، كابتًا قدر جهده الدموع التي غصّت بها حلقه.

– تمالك نفسك بحق الله، تمالك نفسك، أعرف أنّه أبوك، لكنّه قبل كلّ شيء مريض، مريض مثل الآخرين، مثل كلّ المرضى الذين تعالجهم كلّ يوم.

تعلّق أبو عليّ بتلابيب المسيحيّ:

– افحصهُ بالله عليك، افحصه أنت.

ظلّ المسيحيّ حائرًا، وبدا عليه شيء من التردّد قبل أن يتّجه صوب السرير.

دنت ستارة من أبي عليّ، قرب النافذة.

– ستنقذه يا ولدي... ستنقذه أليس كذلك؟

نكس أبو عليّ رأسه محاولاً الإفلات من نظراتها.

– أنت الشيخ الرئيس، أنت ابن سينا كبير الأطبّاء، لا بدّ أن تنقذه.

«...لم ينقذ أبو عليّ بن سينا أباه. لم يقدر على ذلك. أخبره المسيحيّ

بنتيجة فحصه. حدّثه عن فقدان للحساسيّة وعن برودة في الأطراف وعن عين عبد الله الجامدة، التي كانت بلا شكّ قد انفتحت بعدُ على الموت. وعبثًا حاول معلّمي أن يجمع شتات معارفه، وأن يستذكر كلّ ذاك العلم الذي أُقِرَّ به للشيخ الرئيس أمير الأطبّاء، لكنّه لم يفهم من الأمر شيئًا، ولم يشخص إليه من كتبه غير صفحات بيضاء.

وأعلم حقّ العلم أنّه تمنّى وقتها، لو أنّ الله تعالى أخذ من عمره وأمدّ في عمر أبيه، وأنّه لم يجد العون إلاّ في الصلاة.

اقترح المسيحيّ الفصد، وكان يتوقّع احتقانًا وريديًّا، وربّما نجا عبد الله لو وافق أبو عليّ على الفصد، وربّما ظلّ مشلولاً ولكن حيًّا، إلاّ أنّ أبا عليّ رفض ذلك. ولعلّه لم يكن ليتردّد في ظروف أخرى، بل ربّما قام بنفسه وعلى الفور بالعمليّة دون أن يرفّ له جفن، إلاّ أنّه لم يتحمّل يومها فكرة أن يرى دم أبيه.

توفّي عبد الله بعد أيّام، وهو يرقد اليوم في مقبرة بخارى، على جنبه الأيمن، ووجهه إلى الكعبة، دون قبّة على قبره، عملاً بالتقاليد، كي لا يحول شيء دون جريان الماء على الحجر.

وعزم معلّمي على الرحيل. سيرحل تاركًا ستارة في رعاية محمود، ولا شكّ أنّهما بفضل القطع الذهبيّة، آخر هدايا الأمير نوح، سيظلاّن طويلاً في منأى عن الفقر والحاجة.

لم يعد ينتظر شيئًا من هذا الإقليم. أصبح القصر والقلعة والجامع الكبير والجداول إهانة لعينيه، وكان قلبه ينشج كلّما لمح من شبّاك الدار بيت المال، حيث لن يذهب أبوه بعد اليوم.

عزم على الرحيل وحدّث المسيحيّ في ذلك، فما كان من هذا الأخير إلاّ أن طلب الصحبة، فهو يتوقّع أنّ السلالة السامانيّة تشهد نهايتها، وغدًا أو بعد أسبوع أو ربّما بعد شهر، لن تلبث بخارى أن تسقط هي وإقليم خراسان كلّه، فريسة سهلة بين أنياب الأتراك.

ودّع وردة، وأعرف أنّ الدموع التي ذرفتها قد أترعت قلبه. ولم يكن أحد منهما يعلم هو وصاحبه، إلى أين يأخذهما الرحيل، فأرض الفرس واسعة وفصولها عديدة ومدنها لا تحصى. لعلّهما يلتحقان بالبيروني في بلاط صائد السماني، لعلّهما ينحدران جنوباً، نحو بلاد فارس أو كرمان، أو لعلّهما يصعدّان أبعد نحو الشمال،

إلى حدود تركستان، حيث تجري عيون النسيان...».

الهوامش:

١- أظنّ أنّ الشيخ استعمل كلمة الجنّ وهو يقصد الشيطان. علماً بأنّه في مقدّمة كتابه الشفاء، ميّز بين أنواع ثلاثة من الجنّ، إلاّ أنّ ذلك قد تمّ في سياق بحث فلسفيّ لا علاقة له بهذا الحوار (الجوزجاني)

المقامة الخامسة

تعاقب التوّابون على ساحة دارجان صفوفًا متراصّة، تصحبها طبول الحداد بقرعها الذي يصمّ الآذان. دارجان القرية السمراء ببيوتها الطينيّة وآجرّها المشويّ ومصيرها المرتبط بنهر أمودريا، الذي بدت عليه يومها علامات الساعة.

ازدحم القرويّون على جانبي الشارع، واضطرّ الزحام ابن سينا والمسيحيّ ودليلهما الشابّ إلى الوقوف عند المنارة، برج المراقبة العالي.

عشرات الرايات المزخرفة بآيات من الكتاب الكريم ترفرف فوق رؤوس المنشدين، الذين كانوا يتقدّمون وقد تعالى أنينهم وهم يقرعون صدورهم، فيما كان حامل اللواء يفتح الطريق، وقد رُسِم على الخرقة المرفرفة عاليًا شكلُ قبضة يدٍ مفتوحة، رمز الشيعة.[1]

انهمك بعضُ الرجال والمراهقين بتشجيعٍ من الحشد في جلدِ صدورهم العارية بعنف فوق التصوّر، وقد صبغوا وجوههم بالأحمر. كانوا يستعملون خناجر فولاذيّة وسكاكين حادّة لإثخان رؤوسهم الحليقة جراحًا، ملطّخين بالدم جبهاتهم ووجناتهم وعباءاتهم الصوفيّة البيضاء. فجأة أطلقت إحدى النساء وهي على حافة الجنون صرخة هائلة، وكان على المسيحيّ أن يبذل قصارى جهده كي يكبح جماح حصانه المفزوع.

– هل نكون قد بلغنا الجحيم؟

ردّ أبو عليّ صارخًا ليعلو صوتهُ على الجلبة الصاخبة في كلّ مكان:

– إنّه اليوم العاشر من محرّم الحرام، يوم كربلاء.

رمقه الدليل بنظرة استغراب سائلاً:

– يوم كربلاء؟

– على أيّ دين أنت يا غلام[2]، كي تجهل ما هي كربلاء؟

دوّت صرخة امرأة أخرى، فوضع الدليل يديه أمام فمه في شكل بوق

ليجيب:

– أنا مجوسيّ، مجوسيّ على دين أبي.

– لتعلم إذَنْ أنّه في العاشر من محرّم، كان الحسين أصغر أحفاد النبيّ في كربلاء يطالب بالخلافة، فهُزِم وقُطِّعت أوصالُه، ليصبح بذلك أكبر شهداء الشيعة، الشهيد الأوّل.

ثمّ أشار إلى التوّابين:

– وهؤلاء، إنّما يشهدون كلّ عام على موت الحسين.

قال المسيحيّ مستغربًا:

– كنت أظنّ أنّ المراجع الشيعيّة العليا قد شجبت هذه الممارسات.

– لم تشجبها فحسب، بل حظرتها أيضًا، ولكنّ ذلك لم يمنع العامّة هنا أو هناك من إحياء ذكرى كربلاء على هذه الطريقة، و...

توقّف فجأة عن الكلام. كان أحد المراهقين قد اصطدم توًّا بحصانه وهو يترنّح، ثمّ تهالك إلى الخلف جاحظ العينين، مدوّمًا في الهواء، قبل أن يقع على الأرض مثل ورقةٍ مقطوعة.

سأل الدليل مفزوعًا:

– هل مات؟

– بل أُغمِي عليه، ولن تغيب شمس هذا النهار قبل أن يلتحق به الكثيرون.

التفت أبو عليّ من جديد إلى الموكب الهادر الذي كان يواصل الزحف على القرية بشريطه الدمويّ. لفت انتباهه أحدُ التوّابين وهو يجلد نفسه بشراسة، وقد كساه الدم وشُجَّت رأسهُ، وتطايرت أجزاء من الجلدة ورديّة دامية، لكنّه لم يكفّ عن صنيعه، بل أخذ يواصل الجَلد، ممزّقًا وجنتيه بضربات من سكّينه الحادّة، وهو في شبه غيبوبة.

هتف أبو عليّ مذهولاً:

– سيفرغ من دمه.

ثمّ صرخ مشيرًا إلى التوّاب، على الرغم من أنّه كان واثقًا من أنّ أحدًا لن يسمع:

– يجب إيقافه، هذا جنون.

وقبل أن يتيح للمسيحيّ أو الدليل أيّ فرصة للاعتراض، ترجّل مسرعًا واتّجه صوب الرجل. في اللحظة نفسها تعالى غبار كثيف وعجّت الساحة فجأة بفرسان طلعوا من لا مكان. كانوا معمّمين، يلفّون أعناقهم بمناديل سوداء، ويسوطون جيادهم بشراسة، مجتازين طرف القرية.

ومع انعكاس الضوء، لمع وميض الشمس على خدّ سيفٍ بتّار.

كان الدليل أوّل من أطلق صيحة الإنذار:

– إنّهم الغُزّ.

ثمّ أدار لجام جواده صارخًا من جديد:

– الغزّ، لا بدّ من الهرب.

كان المسيحيّ قد تسمّر في مكانه، وعيناه مثبتتان على صديقه ابن سينا، فيما كان هذا الأخير يقترب من التوّاب، دون أن يبدو عليه ما يفيد أنّه سمع إنذار الدليل.

– بحقّ النار المقدّسة، هل أصابك الصمم؟ سيجهزون علينا إذا لم نغادر القرية.

– وأنت، هل جننت؟ لن نغادر بدون أبي عليّ.

وبضربة جافّة على كفل الحصان، اتّجه نحو صديقه. كان هذا الأخير قد خاض غمار الحشد المتلاطم، وأفلح في انتزاع السكّين من يد الرجل، وأخذ يحاول إبعاده عن الموكب.

من حولهم، اكتسحت العصابة الساحة، وكان فرسان المقدّمة شاهرين سيوفهم، يتدافعون موجة بعد أخرى على القرويّين.

– أبا عليّ.

دفع المسيحيّ حصانه بين أمواج الحشد المفزوع، محاولاً قدر جهده

الاقتراب من ابن سينا، الذي كان قد أسند الجريح، محاولاً الخروج به من الزحمة. فجأة، وكأنّه في كابوس مقيت، شاهد المسيحيّ سيفًا مصلتًا يأخذ طريقه إلى رأس صديقه.

– أبا عليّ، حذار...

لا شكّ أنّ نظرة الرعب التي ملأت عيني الجريح، هي التي أتاحت لابن سينا التفطّن إلى أنّ الموت كان يوشك أن يجثم عليه. كان السيف هابطًا من علٍ، يشقّ الهواء في صفيرٍ حادّ، ولم يكن في وسع ابن سينا سوى أن ينطّ إلى الوراء، شاعرًا بلسعة فظيعة في مستوى الساعد.

– اركب.

تعرّف إلى صوت الغلام، فأسرع بالتقاط اليد التي امتدّت إليه.

الآن كان الرعب قد عمّ كلّ أرجاء القرية، وكان أبو عليّ مقرفصًا على ظهر الحصان، ملتصقًا بظهر الدليل، يحاول جاهدًا أن يحافظ على توازنه، فيما هما يشقّان الحشد. ألقى نظرة إلى الخلف من على كتفه، فرأى التوّاب وقد انفجرت رأسه في دوّامة من الغبار. ودون أن يعرف كيف تمّ الأمر، استطاع هو ودليله أن ينفذا من القرية، وعلى إثرهما المسيحيّ. هناك امتدّت أمامهما حقول القطن الناضج، مصطفّة بمحاذاة الضفّة اليمنى للنهر.

كان صدى المعارك يصلهما مع هبوب الرياح الحارّة، وظلّ يدوّي طويلاً في قلب السهل، ولم يكفّ إلاّ وقد صار بينهما وبين دارجان قرابة الفرسخين.[٣] آنذاك خفّفا من سرعتهما، فاغتنم المسيحيّ الفرصة ليلحق برفيقيه، وهو يسأل لاهثًا:

– ما الذي حدث؟ لم أر في حياتي...

لكنّه قطع سؤاله وهو يتفطّن إلى عباءة ابن سينا الملطّخة بالدم.

– هل أُصبت؟

– ألقى أبو عليّ نظرة على الجرح البليغ الذي يحفر ساعده.

– لا أعتقد أنّ في الأمر خطورة، وهو على أيّ حال، أهون شرًا من

الحصان الذي خسرناه، ومعه الخرج الذي يحتوي على آلاتي وأوراقي. من حسن الحظّ أنّي احتفظت بكيس النقود في حزامي.

– بل قل إنّه أهون ممّا لو قطعت رأسك، ولكن عليك مع ذلك أن تطهّر الجرح، فمعي كلّ ما يلزم.

– سنقوم بذلك عندما نتوقّف عن السير، أمّا الآن، فمازلنا لم نبتعد عن القرية بما فيه الكفاية.

ثمّ توجّه إلى دليلهما بالسؤال:

– والآن اِشرح لي، من هؤلاء المجانين؟

قال الدليل موضّحًا:

– إنّهم أفراد قبيلة من شرق تركيا يعيشون في سُهْبِ الشمال، كانوا في البداية يتاجرون في وفاق تامّ مع سكّان خوارزم، ثمّ سرعان ما كشّروا عن أنيابهم. اقتصر الأمر في البداية على معارك محدودة مع الغزاة، مسلمي الحدود، ثمّ تحوّل إلى غارات أكثر أهميّة. لقد بلغت بهم الجرأة أن يهجموا على ضواحي الكثّ، أكبر مدن الناحية، أبعد إلى الشمال، على الضفّة الأخرى من النهر.

– وبماذا ردّت السلطات.

– تقصد قوات الأمير ابن مأمون، سيّد خوارزم؟ لقد ردّوا عليهم طبعًا، لكنّ الأمر ليس بهذه البساطة، هجمات الغُزّ عنيفة وغير مُتوقّعة.

قال المسيحيّ:

– والآن ما العمل؟ يبدو أنّ القدر ضدّنا هذه الأيّام.

أجاب أبو عليّ بلهجة حازمة:

– ما زالت دارجان غايتنا، ولن نسمح لعصابة نهّابين أن تحوّلنا عن طريقنا.

أومأ الدليل موافقًا:

– ولكنّي أرى أن نقضي الليل خارجًا، عسى أن يعود كلّ شيء إلى

نصابه في الغد.

– أفهم من قولك أنّك تقترح علينا النوم في العراء مرّة أخرى، إنّ هذا أكثر ممّا تحتمله عظامي المسكينة.

– يا مسيحيّ يا أخي، لم تكفّ عن الشكوى طوال الطريق، ألا تعلَمُ أن لا شيء يفيد الصحّة مثل النوم في الهواء الطلق؟

– لكنّ هذه الليالي شديدة البرودة، حتّى أنّ العقارب نفسها تتجمّد، بالإضافة إلى...

هتف الدليل:

– يا ساتر يا ربّ! كفّا عن هذا الجدل العقيم وإلاّ جلبتما لنا النحس، اسمعا، يوجد خان على بعد فرسخين أو ثلاثة من هنا، إنّه خان الزفرانيّ، هنالك نستطيع أن ننام الليلة ونعالج الجرح، وغداً يقضي الله أمراً كان مفعولا.

أطلق المسيحيّ زفرة وهمهم قائلاً:

– لكم تثير هذه المراحل قرفي، إنّها لا تعبق بغير رائحة رجيع البقر، ولكن هل لنا خيار آخر؟

تجاهل الدليل تعليق الطبيب، وأعطى إشارة الانطلاق، فاتّجهوا من جديد صوب الشمال.

لم يقطع مسيرتهم شيء غير صفير الرياح الدافئة ووقع حوافر الخيل، وحيثما حطّ البصر، لم يكن من شيء سوى السهل المتموّج، والسُهْبِ الجرداء الموحشة، الممتدّة إلى ما لا نهاية، الملوّنة في بعض الأماكنَ بخصلات من العشب الجافّ، النادر، الهشّ إلى حدّ أنّه يبدو شفّافاً.

بدا لهم الخان في ضوء الغروب، بناية مربّعة ذات طابقين مع برج ضخم في كلّ زاوية، وحيطان من الآجرّ المشويّ مُقوّاة بعضادات الدعم، ولولا العرصتان المحيطتان ببوّابة كبيرة يعلوها قوس مزخرف بالأرابيسك، لخيّل إليهم أنّه حصن.

توغّل الفارسان في ما يشبه الردهة، كانت تنفتح عليها من الجانبين غُرف الحرّاس، ودكاكين امتلأت بسطاتها بالضروريات الأولى من البضائع، ثمّ ظهر في نهايتها الفناء الفسيح، وحوضه الكبير.

في الطابق الأرضيّ، اصطفّت تحت أروقة مظلمة بيوت شبيهة بالمخازن أو الغرف، وعلى اليمين، بين محلّ البيطرة والاسطبلات، لمحا رجلاً مجدور الوجه يومئ إليهما من بعيد. بعد التحايا التقليديّة، استودعاه جواديهما ثمّ اتّجها إلى قاعة المسافرين.

كانت الغرفة الفسيحة المقبّبة تعجّ بدخان رماديّ كثيف، وكانت خيالات غامضة، متّكئة على الجدران أو جالسة على مقاعد مؤقّتة، تنكشف للعين ببطء من خلف وميض الشمعدانات المترنّح في أرجاء المكان. ديالمة سود العيون يعبقون برائحة بحر الخزر، ورحّلٌ صينيّون صُفرُ الوجوه، ضيّقو العيون، يعلو سحنتهم ذاك التعبير الغامض الخاصّ بسكّان ما وراء البامير، وأكراد بأنوفهم الصقريّة المعلّقة تحت جبهات عريضة، مجعّدة، ممصوصة، شبيهة بالرقّ.

أشار أبو عليّ إلى المجمرة الكبيرة، التي وضعت عليها غلاّية نحاسيّة مليئة بالشاي، قرب لاعب الأقداح، وقال طالبًا من المسيحيّ:

– اِعطني خنجرك.

– وهل نسيت أنّي طبيب أيضًا؟ دعني أهتمّ بك.

بعد برهة، كان قد مزّق كُمّ القميص وغسل جرح ابن سينا بالخمر، ثمّ أمسك بالخنجر، وكان قد تركه في النار إلى أن ابيضّ حدّه، وهمس:

– صرّ على أسنانك يا أخي، إنّها لنارٌ كاوية.

عبقت الغرفة برائحة اللحم المحروق، حين ألصق الشفرة الحامية على الجرح الفاغر، فأطلق ابن سينا وابلا من اللعنات وقال بتشنّج:

– ليغفر لك الله يا ذمّي، كأنّي بك تستمتع بهذه اللحظة.

أجابه المسيحيّ مبتسمًا:

– كعبٌ بساعد، لا أدري من منّا الرابح في هذه المقايضة.

فتّش قليلاً في خرجه، ثمّ أخرج مسحوقًا أصفر اللون، وذرّ منه على الجرح الفاحم بسبب الاحتراق.

سأله الدليل بفضول:

– هل تضعُ كبريتًا على الجرح؟

– كلاّ يا صديقي، تلك حنّاء، فللحنّاء قدرة لا تُضاهى على تيسير اندمال الجرح، وأذكر فتى في السادسة عشر من عمره، دهسته حوافر الخيل ذات شجار، وكان جرحه على امتداد المساحة العضليّة للذراع، فاندمل جرحه في خلال اثني عشر يومًا، بفضل ضمادة من الحنّاء.

اضاف أبو عليّ قائلاً:

– لأوراق الآس أيضًا الفعاليّة نفسها، لكنّي أشكّ كثيرًا في أن نجد منها شيئًا في هذا المكان.

وأضاف ملقيا نظرة ارتياح على جرحه:

– والآن، ما رأيكم لو بحثنا لنا عن مكان مريح، لقد أيقظت هذه الانفعالات ظمئي.

لم يتّخذوا لهم مكانًا في زاوية من القاعة الفسيحة، حتّى أقبل عليهم رجل جافّ الهيئة، يتمنطق بمنديل أسود، وسألهم بأدب:

– السلام عليكم، أرى أنّكم جائعون.

سأله أبو عليّ:

– وماذا عندك؟

– عندي ما لذّ وطاب، هريسة ورزّ ولحم خروف وسحليّات، وخاصّة، عنب الطائف.

– دع السحليّات للعرب، لكنّي لا أعرف الهريسة، ماذا تعني؟

– هي لحم مدقوق مع قمح مقليّ في الدهن، إنّها لذيذة جدًّا.

– أتمنّى أن لا يكون خروفك من الميتة[٤] مثل السحليّات.

توغّل الفارسان في ما يشبه الردهة، كانت تنفتح عليها من الجانبين غُرف الحرّاس، ودكاكين امتلأت بسطاتها بالضروريات الأولى من البضائع، ثمّ ظهر في نهايتها الفناء الفسيح، وحوضه الكبير.

في الطابق الأرضيّ، اصطفّت تحت أروقة مظلمة بيوت شبيهة بالمخازن أو الغرف، وعلى اليمين، بين محلّ البيطرة والاسطبلات، لمحا رجلاً مجدور الوجه يومئ إليهما من بعيد. بعد التحايا التقليديّة، استودعاه جواديهما ثمّ اتّجها إلى قاعة المسافرين.

كانت الغرفة الفسيحة المقبّبة تعجّ بدخان رماديّ كثيف، وكانت خيالات غامضة، متّكئة على الجدران أو جالسة على مقاعد مؤقّتة، تنكشف للعين ببطء من خلف وميض الشمعدانات المترنّح في أرجاء المكان. ديالمة سود العيون يعبقون برائحة بحر الخزر، ورحّلٌ صينيّون صُفرُ الوجوه، ضيّقو العيون، يعلو سحنتهم ذاك التعبير الغامض الخاصّ بسكّان ما وراء البامير، وأكراد بأنوفهم الصقريّة المعلّقة تحت جبهات عريضة، مجعّدة، ممصوصة، شبيهة بالرقّ.

أشار أبو عليّ إلى المجمرة الكبيرة، التي وضعت عليها غلاّية نحاسيّة مليئة بالشاي، قرب لاعب الأقداح، وقال طالبًا من المسيحيّ:

– إعطني خنجرك.

– وهل نسيت أنّي طبيب أيضًا؟ دعني أهتمّ بك.

بعد برهة، كان قد مزّق كُمّ القميص وغسل جرح ابن سينا بالخمر، ثمّ أمسك بالخنجر، وكان قد تركه في النار إلى أن ابيضّ حدُّه، وهمس:

– صرّ على أسنانك يا أخي، إنّها لنارٌ كاوية.

عبقت الغرفة برائحة اللحم المحروق، حين ألصق الشفرة الحامية على الجرح الفاغر، فأطلق ابن سينا وابلا من اللعنات وقال بتشنّج:

– ليغفر لك الله يا ذمّي، كأنّي بك تستمتع بهذه اللحظة.

أجابه المسيحيّ مبتسمًا:

هيئة طائر بنغاليّ، محفور في الخشب، كأنّه يمسك بالأوتار في منقاره. وسرعان ما غمرت القاعة موسيقى غريبة مخدّرة، ووجد أبو عليّ نفسه محمولاً بالرغم عنه إلى ذكرياته، فانقبض قلبه.

مرّ شهران على مغادرته إقليم خراسان، ظلّ خلالهما تائهًا من دشرة إلى قرية، ومن واحة إلى قافلة، معالجًا هنا وهناك كلّ من كان في حاجة إلى علاج. شهران مرّا عليه كأنّهما الأبديّة. لكم اشتاق إلى ستارة ومحمود. ومازالت صورة عبد الله تجتاح لياليه. لقد خيّل إليه مائة مرّة وهو نائم في عراء أوزباكستان أنّه يسمع صوت أبيه مع صفير الرياح، وخيّل إليه مائة مرّة أنّه يرى شبحه في منعطف رابية من الروابي الغامضة. وها هو الليلة هنا، في هذا الخان، في أقصى العالم، وما من غاية له إلاّ الهرب باتّجاه المجهول.

– هل ترغب في نَفَسٍ أيّها الشيخ الرئيس؟

انتزعه الصوت من تهويمه فانتفض كالملسوع. وكرّر الغريب سؤاله وهو يمدّ إليه قصبة النارجيلة المغلّفة بالجلد المغربيّ الأحمر.

أومأ بالإيجاب ورفع القصبة إلى فمه، فسحب نفَسًا من الأفيون بتمهّل، منصتًا إلى الماء يبقبق في الآنية.

– لماذا ناديتني بهذا الاسم؟

– ألا ينادونك بهذا الاسم في المصر كلّه؟ أنا أبو نصر العرّاق، عالم رياضيّات وأشتغل بالرسم أحيانًا.

قطع حديثه فجأة وانحنى على كيس من الجلد، فأخرج منه تصاوير تمثّل في معظمها خيولاً ومشاهد طبيعيّة، فلم يتمالك أبو عليّ عن إظهار إعجابه بمهارة صاحبها.

واصل الرجل ما انقطع من حديثه:

– لمحتك يومًا في مأدبة من مآدب الأمير نوح، كنت يومها في ذروة مجدك.

سحب أبو عليّ نَفَسًا آخر قبل أن يعلّق باقتطاب:

شبك الرجل يديه وقال بابتسامة ماكرة:

– وكيف تتأكّد من صحّة كلامي إن أنا أجبتك بالنفي؟ لا تشغل بالك إذن فإنّ الله غفور رحيم.

– لكنّه يبطش بكلّ من يخالف تعاليمه عن قصد. اعطنا شيئًا من هريستك مع قليل من التمر، ولكن قل لي قبل كلّ شيء، أين الشراب؟

– لديّ أيضًا أقراص صغيرة من الخشخاش، خشخاش أصفهان، إنّه الأفضل.

علّق المسيحيّ بنبرة يائسة:

– لا شكّ أنّ خلاصته قد عُجنت بالماء.

رفع الرجل ذقنه كمن لحقته إهانة:

– لا نستعمل الماء مطلقًا يا أخي، بل العسل فحسب، عسل بخارى.

أضاف الدليل مازحًا:

– وهو الأفضل طبعًا.

قال الرجل في كامل الجدّ:

– وإنّه لكذلك.

سأله المسيحيّ:

– وكيف هي غرفك؟ أرجو أن لا تكون شبيهة بغرف خانات الجبال، التي ليس في الغرفة منها سوى دكّة بائسة لقضاء الليل، أو مصطبة، تنام عليها بأقلّ راحة ممّا للدوابّ في الاصطبلات.

– لا تخف، سنضع على ذمّتكم غرفة وحصائر من السمار.

قال أبو سهل مغمضًا عينيه محاكيًا لهجة كبراء القوم:

– إذا كان الأمر كذلك فلا بأس، نحن باقون.

على مبعدة منهم بخطوات قليلة، شرع رجل متغضّن الوجه في العزف على الصاروح. كانت تلك الآلة نادرة الوجود في الناحية، وهي في شكلٍ مُعَيّنٍ، يذكّر بسمك الورنك، وكانت آلة الرجل تتميّز بدسارٍ في طرفها، في

تجاهل المسيحيّ نعت الذميّ والتفت إلى العرّاق:

– دعني أعرّفك بنفسي، أنا أبو سهل المسيحيّ و...

قاطعه الرجل مندهشاً:

– الطبيب؟ صاحب كتاب المائة؟

شعر المسيحيّ بالاعتزاز، فقال مازحاً:

– أراك من قرّاء الكتب القيّمة... ولكن أخبرني، لماذا قلت إنّك تستطيع التوسّط للشيخ؟

– لأنّي أقيم في بلاط كركانج، والحقّ أنّ البلاط المأمونيّ قد أصبح منذ سنوات قبلة علماء شرقيّ بلاد الإسلام وأدبائها، وبحرص من وزيره السهيليّ، أحاط الأمير نفسه بجمع لامع من نخبة أهل العلم والقلم، ويبدو أنّنا سنستقبل في الأشهر القادمة شخصاً لعلّكم تعرفونه هو ابن أحمد البيروني.

انتفض أبو عليّ سائلاً:

– البيرونيّ؟ ولكنّي حسبته في جرجان عند صائد السماني.

– هذا صحيح، لكنّ الأحداث هناك أصبحت تبعث على الانشغال، والبعض يتحدّث عن تمرّد الجند بسبب طغيان حاكم أستراباد، وقد عبّر البيروني في آخر رسائله عن اعتزامه مغادرة الديلم.

غمس أبو عليّ قطعة من الخبز في طبق الهريسة ورفعها إلى فمه قائلاً:

– يبدو أنّ سلالاتنا الحاكمة تتحرّك مثل هضاب الرمل.

قال المسيحيّ وهو يبادر إلى الطعام بدوره:

– لنعد إلى نصيحتك، أعلم أنّ لدى الأمير طبيباً، فما الفائدة من وجودنا أنا وابن سينا في البلاط المأمونيّ؟

فرغ العرّاق من سحب نفسٍ آخر من الأفيون، وقال بابتسامة ماكرة:

– تواضعكما كبير لكنّ شهرة الشيخ أكبر، ولن يكون للبلاط شرف استقبال الطبيب فحسب، بل والعالم أيضاً، والمفكّر الذي طبّقت شهرته

الآفاق. أنا راجع من فرغانة حيث ذهبت لقضاء بعض الشؤون العائليّة، ولكنّي راحلٌ غداً إلى كركانج، وفي وسعنا إذا شئتم أن نرحل معًا.

هزّ المسيحيّ رأسه مفكّرًا:

– الفكرة تغريني، فما رأيك يا ابن سينا؟

فرغ أبو عليّ من شرب آخر قطرة، وأخذ يحرّك الإبريق على باطن يده.

– إذا كان الأمير في حاجة إلى فقيه فأنا صاحبه، أمّا إذا كان في حاجة إلى طبيب فليعوّل على أبي سهل، وعلى أبي سهل وحده، لقد غيّر مصيري وجهته منذ مدّة.

ألقى العرّاق نظرة قلقة على المسيحيّ، فأشار إليه هذا الأخير مطمئنا:

– لا عليك، فدماغ صاحبنا فريسة الآن للفأر والباز.

ردّ أبو عليّ بصوت متهدّج بفعل الكحول:

– كلامك صحيح ولكن إلى حدّ، وأنا حريص على تصحيح الأمر.

ثمّ نهض وكأنّه استعاد حيويّته صارخًا:

– عليّ بالشراب يا صاحب الخان.

على بعد خطوات، توقّف عازف الصاروح الذي لم ينقطع عن مداعبة أوتاره، وقال بصوت خيّل إلى الجميع أنّه قادم من أقصى الأرض:

– السوداء هي همُّ النفس يا أخي، وضدّ هذا العدوّ لا نفع في ماء النسيان.

هبّ أبو عليّ واقفًا وانفجر قائلاً:

– ومن أدراك بأمر النفس يا صديقي؟ هل تعرفها كما أعرف أنا الموسيقى؟ ذلك أنّي أعرف الموسيقى، بل وأعرف الكثير عن موسيقى بلدك بالذات، ألم تكن تعزف أنغامًا من وحي الإله شيفا؟ ألستُ على حقّ؟

لم ينبس الرجل بكلمة، اكتفى بهزّ رأسه في حركة هادئة ورتيبة، مواصلاً العزف، فيما واصل ابن سينا حديثه بلسان أثقله الخمر والأفيون:

– أعرف عن ظهر قلب نظام البهاراتا الموسيقيّ، الساجراما والسلّم

الأوّليّ والسلّم التكميليّ. أستطيع...

– إذنْ فأنت تعرف أنّ الموسيقى بالنسبة إلى أهل بلدي هي في جوهرها فنّ ربّانيّ، وأنّ كلّ موسيقيّ يحمل في ذاته جزءًا من شيفا أو الله.

أخذ أبو عليّ يضحك بهدوء:

– أنت فيلسوف أم موسيقيّ؟

ولمّا لم يجبه الموسيقيّ بشيء، اقترب منه أبو عليّ عازمًا على مواصلة الجدل، إلاّ أنّ شيئًا في نظرة الرجل سمّره في مكانه. كانت نظرة ثابتة بيضاء لا حياة فيها، تتوسّط وجهًا مخرّبًا تخطه آلاف التجاعيد، ففهم أنّه أمام رجل أعمى، واكتفى بالوقوف أمامه، ناظرًا بصمت إلى الأصابع المعروقة تجري على طول الأوتار الحريريّة.

قال الرجل بعد برهة:

– والآن هل تعترف بأنّ الموسيقى فنّ ربّانيّ في جوهره؟

ثنّى ابن سينا على كلامه.

– إذنْ، فلماذا أدهشك قولي إنّي أعرف النفس؟ إنّ نفسك حزينة، بل إنّها أكثر حزنًا من ذوبان الثلوج على جبال بامير. اعطني يدك.

تردّد قليلاً ثمّ مدّ إليه راحته اليمنى، فأخذها الرجل بين أصابعه المعروقة واضعًا آلته أرضًا، ومرّر ببطء خلاّب سبّابة يده الطليقة على راحة ابن سينا.

لحظتها، كانت كلّ الوجوه تتطلّع إليهما.

شرع الأعمى يتحدّث بصوت خفيض:

– لست من دم ملكيّ ولكنّك أمير، إذ بين أصابعك تتوهّج نعمة الحياة، أُحِسّ بشبابك، إنّه يخفق ويصهل تحت جلدتك ومع ذلك فأنت شيخ، عرفت الكثير من التكريم والخيانة، والحقّ أقول إنّك ستعرف تكريمًا أفخم وخيانات أكبر.

ضغط بقوّة على يد أبي عليٍّ، وأضاف بصوت أكثر توتّرًا:

– أنت محبوب لكنّك لم تعرف الحبّ بعد، سيعترض طريقك، سيكون له لون بلاد الروم(٦) وعينا أرضك، ستنعمان بالسعادة طويلاً، ستتنكر ذلك لكنّه سيكون حبّك الدائم، سيحتفظ بك لأنّك ستكون قد عثرت عليه، إنّه ليس بعيدًا، إنّه نائم في مكان ما بين تركستان والجبال.

توقّف الرجل لحظة ثمّ واصل قائلاً:

– وستلامس النجوم، ستدنو منها أكثر من أيّ بشر آخر، وسيلعنك البعض بسبب ذلك، سيخلد ذكرك لكنّ خلودك سيكون ثمنه تيهًا أبديًا.

تشنّج فجأة ثمّ واصل بشيء من التأثّر:

– احذر يا صديقي، احذر من سهول بلاد فارس ومن قباب أصفهان المذهّبة، فهناك سيقف بك الطريق، يومها سيكون إلى جانبك رجل، رجل أسود الروح، لتحلّ لعنة شيفا على ذكراه إلى أبد الآبدين.

أكمل نبوءته، ثمّ تناول الصاروح، وعاد إلى العزف كأنّ شيئًا لم يكن.

امتقع وجه أبي عليّ ولم يستطع إخفاء اضطرابه. جفّ ريقه في حلقه، ولم يعد في وسعه أن ينطق بكلمة، وكان لا بدّ من صوت المسيحيّ كي يخرج من خَدَرِه.

قال أبو سهل متظاهرا بالمزاح:

– وحقّ الله إنّ هذا السحليّة العجوز ممثّل بارع، ومن يراك لا يشكّ لحظة في أنّ كلامه قد انطلى عليك.

قال ابن سينا بابتسامة مصطنعة:

– إنّه حقًّا ممثّل بارع.

حاول العرّاق بدوره أن يخفّف من توتّر الجوّ:

– هؤلاء المبصّرون يشتركون في شيء واحد: أنّ حديثهم ذو طابع عامّ، لا أهميّة له بالنسبة إلى العلماء.

أومأ أبو عليّ بالإيجاب وقد عشيت عيناه:

– على أيّ حال ثمّة شيء أفلح فيه هذا الرجل، لقد طيّر عليّ السكرة، وعليّ

الآن أن أبدأ كلّ شيء من جديد، أين الإبريق يا غلام؟

وقبل أن يتحرّك الدليل، سبقه المسيحيّ بالكلام:

– اسمع يا ابن سينا، لن أقضي حياتي تائهًا في سُهْب أوزباكستان، وعمّا قليل ستقع أرضًا فأخبرني الآن عن قرارك، هل نتبع صاحبنا إلى كركانج؟

مدّ أبو عليّ يده إلى الإبريق، قائلاً بابتسامة غامضة:

– إلى كركانج؟ طبعًا، وهل يمكن لي أن أهرب من الحبّ؟

الهوامش:

١– أصابع اليد الخمسة تمثّل النبيّ وابنته فاطمة وصهره عليّ وحفيديه الحسن والحسين. (المترجم)

٢– لتطمئنّ بالاً، فليس في تسمية غلام ما يشين، فهي تعني في العربيّة الفتى أو الشابّ، كما أنّها قد تعني الخادم الحرّ، وكانت تُطلق بالأمس القريب علياليافعين من الأمراء العبّاسيّين، ولا أخفي عليك انّي رأيت الكثير من الأمراء في إهاب الخدم والكثير من الخدم في إهاب الأمراء. (الجوزجاني)

٣– يساوي الفرسخ الواحد ما يقارب الكيلومترات الستّة. (المترجم)

٤– كثيرًا ما أدهشني أن أرى معلّمي لايتورّع عن تعاطي الخمر والاستمتا ع بملذّات الجسد، مع حرص على تنفيذ ما جاءت به الشريعة الاسلاميّة من تحريم أكل الميتة، ولعلّه في ذلك أقرب إلى اتّبا ع مبادئ الصحّة، منه إلى تنفيذ تعاليم الدين. (الجوزجاني)

٥– تعبير يعني الشرب إلى آخر قطرة. (المترجم)

٦– يقصد الروميّين، وتحديدًا سكّان الامبراطوريّة الرومانيّة الشرقيّة، أي بيزنطة وتوابعها. (المترجم)

المقامة السادسة

كان القمر بدرًا في السماء، حين اجتازوا باب الفرّ، أحد الأبواب الأربعة المحفورة في السور العالي المحيط بكركانج.[1]

عبروا الشوارع الصغيرة النائمة للمدينة الداخليّة يتقدّمهم العرّاق، واتّجهوا يمينًا عند ساحة السوق الكبيرة، قاصدين باب الحجيج حيث ينتصب قصر الأمير ابن مأمون.

أمام البوّابة الأبنوسيّة استقبلتهم فرقة من الجند المحشوّين في أزيائهم الخضراء، وقد علموا بوصولهم عن طريق الحارس الكامن أعلى برج المراقبة، وبعد أن قدّم العرّاق نفسه للقائد، أشار هذا الأخير على الدليل بالمكان المخصّص له، ثمّ رافق الرجال الثلاثة عبر الحدائق إلى أن بلغوا المبنى الرئيسيّ. هناك كان في انتظارهم خادم أسود، يرتدي سروالاً فضفاضًا، ويحمل في يده مشعلاً متوهّج الألسنة.

انحنى الخادم أمام الرياضيّ باحترام قائلاً:

– السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، كلّفني رئيس حجّاب القصر بمصاحبة ضيوفك إلى غرفهم، وبإحاطتكم علمًا أنّ وزيرنا المحبوب أحمد السهيليّ يستقبلكم غدا إن شاء الله.

– ليكن الأمر كما شاء رئيس الحجّاب، سر ونحن على إثرك.

اقتفى العرّاق خطى الخادم ملتفتًا إلى ابن سينا قائلاً بارتياح:

– خشيتُ للحظة أن لا تكون رسالتي إلى الوزير قد وصلت في الإبّان، وإنّي لسعيد بأنّ نظام البريد عندنا على أحسن حال.

أومأ أبو عليّ برأسه:

– سيكون من المؤسف أن نقف على عكس ذلك، بالنظر إلى شبكة العنكبوت الهائلة، المتمثّلة في مراكز البريد الألف المبثوثة في أنحاء البلاد.

– ثمّ إنّ أبراج المراقبة لا تقلّ فعاليّة، فمن النادر جدًّا أن يتسرّب أحد

عبر عيون الشبكة.

لاحظ المسيحيّ بسخرية:

– ما عدا الغزّ.

بدرت من العرّاق حركة استسلام:

– لكلّ دفاع نقاط ضعفه.

– أصدقك القول، لقد ظننت طويلاً أن لا غاية من هذه الأبراج سوى إرشاد القوافل من بعيد.

– ولستَ على خطإ تماماً، فهي تحقّق أيضاً هذا الغرض، كما أنّها تبنى أحيانًا كشارات للنصر.

كانوا قد بلغوا نهاية مدرج كبير من المرمر الورديّ، وانفتح أمامهم رواق طويل زيّنت حيطانه بجداريّات كبيرة انعكست عليها ظلال الشمعدانات. توقّف الخادم أمام أحد الأبواب مشيراً في الوقت نفسه إلى بابٍ آخر أبعد بقليل إلى اليسار، وقال منحنياً:

– لكلّ من ضيفيك أن يختار الغرفة التي تروق له.

قال العرّاق:

– حسنًا، هنا تفترق طرقنا أيّها الشيخ الرئيس، فغرفتي في الطابق العلويّ، أتمنّى لكما ليلة سعيدة.

– شكراً لك يا أبا نصر، ولْيسعد الله صباحك.

تابع أبو عليّ بعينيه عالِم الرياضيّات وهو يسير في إثر الخادم الأسود، وحين التفت ناحية المسيحيّ كان هذا الأخير قد اختفى. أحدّ بصره قليلا في العتمة بحثا عنه، ثمّ لم يلبث أن سمعه يغمغم بصوت خافت من وراء أحد الأبواب:

– الحمد لله، الحمد لله، سرير، أخيراً سرير.

*

كانت الشمس في ذروتها حين فتح ابن سينا عينيه. أرمش برهة وقد

داخله شيء من الارتباك، ولزمه بعض الوقت كي يدرك أنّه في كركانج، عند الأمير ابن مأمون. غادر الفراش مشتملاً باللحاف المنسوج من وبر الجمل، واتّجه إلى النافذة، حيث كان في انتظاره مشهد مدهش.

حديقة.

حديقة لا شيء يميّزها للوهلة الأولى عن حدائق الأمير نوح الثاني أو غيره

من الأعيان، التي أُتيح لابن سينا أن يراها. وكان لا بدّ له من إمعان النظر ليكتشف الفروق التي أبهرت عينيه وقطعت أنفاسه.

مئات من النخيل تحفّ بالممرّ الرئيسيّ ليس فيها نخلة واحدة حقيقيّة. أشجار الزان كذلك لم تكن أشجار زان، ولا الزهور زهورًا، ولا الأعشاب الخضراء كانت من النبات. حيثما سرّح بصره وباستثناء الرمل والحجارة في الممرّات، لم يتعرّف على شيء طبيعيّ في هذا المشتل الغريب. جذوع الأشجار كانت من الفضّة المصمّتة، بل أن بعضها كان من العاج. وكانت أشعّة الشمس تنسكب خلال آلاف الورود، التي صُنعت كلّها من شذرات البلّور المطليّ بالمينا، فيما صنعت سيقانها من خزف الريّ. وكانت غصنيّات مدهشة من الخزف هي أيضًا، تحيط بحوض كبير فرشت حافاته بالخزف القاشانيّ فيروزيّ اللون. ولم يكن في الحوض ماء بل زئبق، بحيرة من الزئبق تسبح فيه قوارب صغيرة ذهبيّة الأشرعة. قوارب آليّة، مثل تماثيل الجنود العشرة الذين كانوا يحرّكون رؤوسهم برفق، شاهرين خناجر مرصّعة بالزمرّد.

كان المشهد بديعًا وفظيعًا في الوقت نفسه. في برودة الكبرياء وفي سخونة جهنّم. فكّر عليٌّ في الأمر، وتساءل إن كان عملٌ كهذا دليلاً على جنون أم على سذاجة، أم أنّه مجرّد نزوة من نزوات الملوك.

انتزعته من تأمّلاته طرقات خفيفة على الباب. التفت فرأى بين العارضتين خادمين أثقلت أيديهما الثياب. قالا كأنّهما كورس:

– خلعةٌ من مولانا الوزير، هديّة إلى سيّدنا الشيخ.

أضاف أحدهما قائلاً:

– كلّفني معاليه بإبلاغك أنّه يستقبلك صحبة الأمير ابن مأمون على مائدته بعد ساعتين، وإذا شئت، أخذتك إلى الحمّام.

لم يكن ليرفض دعوة مثل هذه، فهو منذ قرابة الأيّام العشرة لم يعرف غير ماء الينابيع.

أشار إلى الغرفة في نهاية الرواق حيث ينام المسيحي:

– أبلغا رفيقي بالأمر فلا شكّ أنّه سيرافقني بكلّ سرور.

انسحب الخادمان بعد أن انحنيا للتحيّة مرّتين، وأمكن لأبي عليّ أن يتفحّص الهديّة التي قدّمت إليه.

لا شكّ أنّ الوزير كان أرهف ذوقًا من أميره.

كانت الأقمشة من النوع الرفيع الذي لا عيب فيه، سواء تعلّق الأمر بالمئزر الذي يحلّ محلّ اللباس الداخليّ، أم بقمصان الجسد الشفيفة الناعمة. لم يغفل الوزير شيئًا، لا الجبّة من الصوف الأبيض الخالص، ولا البردة، ولا العمامة التي لم تكن بعيدة عن" السحاب"، الاسم الذي يطلق على قطعة القماش التي كانت تحيط برأس النبيّ. كان ثمّة أيضا صندل من الجلد، وحذاء نصفيّ، وزوج بابوج موشّى بخيوط الذهب، وقفطان مطرّز بالفضّة، وخاصّة القباء، ذاك الثوب الرائع من الإستبرق ذي الكمّين المشقوقين من أمام. كانت كلّ قطعة تحفة رائعة الذوق.

لم يفت أبا عليّ أنّ إحدى الجُبّتين قد استُعملت من قبل، ولم يفاجئه ذلك، بل شعر بالاعتزاز، فهو يعلم أنّ إهداء ثوبٍ شخصيّ عربون صداقة ومودّة.

لمست يده اللؤلؤة الزرقاء الصغيرة، هديّة سلوى، فضمّها بقوّة راجيًا من الله تعالى أن لا يعيد عليه أشهُرَ بُخارى الأخيرة.

*

كان أحمد السهيليّ رجلاً خمسينيًا بشوشَ الهيئة منبسط القسمات، تبدو عليه سيماء النبل، وكانت عيناه بلون التمر تشعّان فطنة وذكاءً، ولم يكن يخفى على أحدٍ من زوّاره أنّه رجلٌ يفرض على مساعديه الاحترام والوفاء بطيبة خاطرٍ، وأنّه تدرّج في المراتب العليا للدولة حتّى نال منصب الوزارة، فلم يَدِن بذلك إلاّ لحنكته، وكياسته الكبيرة، ووضوح رؤيته الأكيدة، ومقاربته الأحداث السياسيّة فيما يمكن اعتباره ضربا من استباق الرؤية، وهو إلىٰ جانب ذلك كلّه، من أصحاب تلك الملكة النادرة، التي تسمح لبعض الرجال أن يقرؤوا ما يعتمل في قلوب الآخرين بنفاذ بصر وبصيرة.

وعلى الرغم من أنّ الأمير كان يجني كلّ الثمار، على حدّ قول العرّاق، فإنّ لهذا الوزير كلّ الفضل في أن يغدو البلاط المأمونيّ قبلة علماء شرقيّ بلاد الإسلام. وكان الضيوف المجتمعون في هذه اللحظة، في قاعة الطعام الفسيحة للقصر، أفضل تجسيد لذلك.

كان هناك العرّاق بالطبع، والطبيب ابن الخمّار، الذي درس في بغداد، وكان أبوه تاجر خمر، والثعالبيّ، الفقيه اللغويّ المولود في نيسابور، وهو نديم الأمير[٢]، وآخرون كثيرون لا يقلّون عنهم شهرة.

أمام أنظار هذا الجمع التي ملأها الفضول والإعجاب، نهض السهيليّ من مجلسه، وأقبل على ابن سينا والمسيحيّ، خارجا على المراسيم المألوفة، واضعًا يده على موضع القلب من صدره:

– مرحبًا بكما في تركستان، مرحبًا بكما في كركانج، وليجعل الله مقامكما بيننا هانئا مثمرا.

ردّ الصديقان التحيّة بإجلال، وقال ابن سينا مجاملاً:

– إنّ صيتك كأديب وراعٍ للعلماء قد اخترق حدود البلاد، فليحفظ الله ذكرك وليوفّقنا كي نليق بضيافتك.

– لا يخامرني في ذلك أدنى شكّ، وقد حدّثني العرّاق مطوّلاً عن نبوغك

وأيضاً عمّا تعرّضت إليه في بخارى، ولعلّك تبتسم إذا قلت لك إنّ لدينا هنا «ملاكًا يحرس كلّ روح»، وثق أن لا غاية لبلاط المأمونيّين سوى أن يظفر أمثالك بأسباب السعادة.

لم يفت الوزير وهو يتحدّث أن يلتفت إلى المسيحيّ، فأيقن الطبيب أنّه معنيّ مثل صديقه بحرارة هذه الكلمات.

– والآن لكما أن تستريحا، فلن يتأخّر الأمير.

خفّ الرجلان إلى حذو العرّاق، الذي كان جالسًا إلى الطبيب ابن الخمّار وضيوف آخرين، على وسائد من الحرير المقصّب.

وما أن تمّ التعارف حتّى انقضّ ابن الخمّار على ابن سينا بألف سؤال وسؤال، وسرعان ما احتدم بينهما جدل محموم في مسائل عزيزة على كليهما، مثل استعمال الفصد، ومحاسن الشعير، وخصائص حليب الأتان، وطرائق إعداد أصناف المعجون، وإمكانيّة علاج إظلام عدسة العين عن طريق الامتصاص، أو بربط الشرايين كما جاء في كتاب التصريف، أحد الكتب الثلاثين التي ألّفها الجرّاح الشهير أبو الكسيس.[٣] ولم يضع حدّاً لحوارهما غير الدخول المباغت للأمير.

لم يحتج ابن سينا إلى أكثر من نظرة وحيدة، كي يجزم بأنّ ابن مأمون ووزيره لا يشتركان إلاّ في خصلة واحدة: التقدّم في السنّ. أمّا في ما عدا ذلك فقد كان الأمير قصير القامة، باهت السحنة، مقلوب الشفتين، مطأطئ الجبين، مع بطن هائلة منتفخة، كان يبدو عليها الأمير أنّه ينوء بحملها قانطًا، كي لا تتعدّى مستوى الفخذين.

استمدّ ابن سينا القليل الذي يعرفه عن الأمير ممّا ذكره له العرّاق، وهكذا علم أنّه ورث العرش قبل بضع سنوات عن أبيه مؤسّس السلالة، وأنّه تقلّد بدوره اللقب التاريخيّ "خوارزمشاه"، فأُوهم بأنّ الشرق كلّه، بل العالم من أدناه إلى أقصاه، راكع تحت قدميه لامحالة، وظنّ أنّه يلقى الحماية المطلوبة بزواجه من خديجة، أخت محمود الغزنويّ، والحقّ أنّ

هذا الزواج لم يزده إلاّ خنوعا للتركيّ، وسرعان ما انتقلت وطأة ذاك الخنوع إلى عامّة الشعب، فكانوا يتدافعون بين الحين والحين إلى أبواب القصر، شاكين ما لحقهم بسببه من مهانة.

هبّ الجميع واقفين كالرجل الواحد لمقدم الأمير، وقد خيّم صمت مهيب على القاعة، فيما كان هو يتّجه إلى مجلسه، رافلا في ثوبه الأرجوانيّ الورديّ، وفي عمامته البيداريّة، إلى أن بلغ حيث العرّاق فتوقّف عن السير.

– أهلا بعزيزنا العرّاق، أرجو أن لا تكون الرحلة قد شقّت على صديقيك.

– رعى الله الخوارزمشاه، اسمح لي أن أقدّم لك الشيخ الرئيس أبا عليّ بن سينا، ورفيقه أبا سهل المسيحيّ، المؤلّف الشهير لكتاب المائة.

قال الأمير وقد ارتعش ذقنه:

– مرحبًا بكما في كركانج.

ردّ أبو عليّ، مقبّلاً بدوره اليد الأميريّة المترهّلة:

– أثابك الله على كرمك يا مولاي، ونحن شاكرون فضلك، وممتنّون كلّ الامتنان للضيافة التي أنعمتم بها علينا.

نظر ابن مأمون إلى ضيفه بتمعّن، كأنّه يسبر غوره، ثمّ هزّ رأسه بوقار، ودون أن يضيف شيئًا، توجّه إلى كرسيّ الصدارة وسط قاعة الطعام، حيث تهالك بتثاقل على الوسائد المُدمْقَسة، وما أن استقرّ في مجلسه حتّى التحق به فتَيان توأمان، من ذوي البشرة اللمّاعة والحيويّة المفرطة، لم يتجاوزا العشرين من العمر.

همس الرياضيّ متكتّمًا:

– هذان عنبر وكافور، الخصيّان بأمر الأمير، وهما بيزنطيّان اشتراهما من قافلة عابرة بأغلى الأثمان، وكانا لم يتجاوزا السادسة عشرة من العمر.

تلفّت الرياضيّ تحوّطًا من أنّ أحدًا لا يتنصّت عليه، قبل أن يواصل قائلاً بالصوت الخافت نفسه:

– عنبر خصيّ، وأنت تعلم لا شكّ أنّ هذه الصفة لا تطلق إلاّ على الغلمان

الذين بُترت خصيتاهما فحسب، أمّا أخوه كافور فهو مجبوب، أعني أنّه قد بترت كلّ أعضائه التناسليّة، وكان ابن مأمون هو الذي أشرف بنفسه على خصّهما بهذين الضربين المختلفين من الخصاء، وذلك حالما أصبح سيّداً لهما.

سأله ابن سينا بفضول:

– وما الغاية من ذلك؟

– على حدّ قول الأمير نفسه: "ليميّز حتّى في الليلة الظلماء بين الفرس والحصان، بين التفّاحة والرمّانة"...

– هذه حقًّا همجيّة بشعة.

كان أبو عليّ طبيبًا، وهو لذلك يعرف حقّ المعرفة ما ينشأ عن الخصاء من عذاب وعواقب وخيمة، وهو مازال يذكر ذلك الطفل الذي علقت خصيتاه من شدّة الخوف، فنجا بذلك من التشويه، وهو إذ يستعرض بخياله ضروب الخصاء، لا يتمالك عن الإحساس بالتقزّز البالغ، وسواءٌ تعلّق الأمر بالودجة، وهي ربط الحبل الذي يشدّ الخصيتين حتّى تجحظا فيسهل تطريقهما، أم بالخصّة التي تعرّض إليها أحد التوأمين، وتتمّ بفتح الجلدة الحاوية بواسطة شفرة محمّاة، وغلقها بعد إخراج الخصيتين، فإنّ هذا المساس بالفحولة، أي بكرامة الرجل، لم يكن يثير في أبي عليٍّ غير أحاسيس الثورة والاشمئزاز.

واصل العرّاق حديثه قائلاً:

– لم يقف الأمر عند هذا، فقد تعدّى شغف ابن مأمون بهذين الأمردين كلّ حدّ، وعلى الرغم من أنّ الخصيان يكلّفون عادة بالخدمة المنزليّة، فقد أوكل إلى كافور كتابة المجلس، بينما أصبح عنبر قهرمان القصر، ولم تمرّ أربع سنوات حتّى باتا ظلّ الأمير، ولا شيء يقال في القصر أو يحدث إلاّ أبلغاه به في التوّ واللحظة.

كان أبو عليّ يهمّ بالردّ حين دوّى صوت الأمير في أرجاء القاعة:

– أيّها الشيخ الرئيس، لقد حدّثني العرّاق مطوّلاً عن مآثرك وعلمك الواسع، وإذا صدقني القول، فأنت من أكبر علماء هذا الزمان، أليس كذلك؟

نهض ابن سينا وقال مبتسمًا:

– إنّ علم أحدنا يقاس أحيانًا بجهل الآخرين، يا مولاي.

قطّب الأمير حاجبيه، وقد بدا جليًا أنّ إجابة ابن سينا الغامضة لم ترق له:

– وهل ترى الرأي نفسه في الطبّ؟ هل تعتقد أنّ الطبيب الحاذق هو ببساطة، من يملك قدرًا من العلم أكثر من غيره؟

– مولاي، لا صلة للطبّ بالأدب أو الفلسفة، إنّه علم دفع الموت، لذلك فهو يتطلّب إحاطةً أخرى، إحاطة كاملة.

– إذا احتكمنا إلى صيتك الذائع في الأمصار، فأنت تمتلك إذن هذه الإحاطة الكاملة؟

تساءل ابن سينا إلى م كان الأمير يرمي بكلّ هذه الأسئلة، ثمّ سمعه يقول مضيفًا:

– ذلك أنّي كما تعلم، أملك في بلاطي عددًا من الأطبّاء، من بينهم ابن الخمّار كي لا أسمّي الجميع، وكلّهم يدّعي المهارة، وكلّهم يزعم حيازة هذه الإحاطة الكاملة التي تكلّمت عنها.

ردّ عليّ بعفويّة:

– ابن الخمّار ممّن يشرف بهم هذا البلاط، إنّه من أولئك الرجال الذي يصحّ فيهم القول "لعَلّ الله يرزُقُنا لِقَاءه فيكون إمّا إفادة وإمّا استفادة."

ثنّى ابن مأمون على كلام ابن سينا، شابكًا يديه الصغيرتين على بطنه المدوّرة، لكنّه واصل بالصوت المتمهّل نفسه:

– الغريب، وقد طرحت على نفسي هذه السؤال مرّات، أنّ الطبيب يموت بالعلّة نفسها التي اعتاد أن يشفي منها الآخرين، كلّهم يموت، من يصف

الدواء ومن يتناوله، فكيف يمكن لهذا أن يحدث؟

صمت الأمير لحظة، كأنّه يريد جني ثمار مقالته البليغة، وألقى نظرة جانبيّة على خصيّيه، فما كان من هذين إلاّ أن انفجرا ضاحكين، ضحكة سانجة حادّة غريبة، هي بين ضحكة المرأة وضحكة الطفل، عندها استأنف الكلام وقد رضي عن نفسه تمام الرضا:

– لهذه الأسباب، أرغب يا ابن سينا في أن تثبت لي تفوّقك، أريد أن أقف على سبب ذيوع صيتك.

– الطبيب ليس ساحرًا يا خوارزمشاه، إنّه عالم.

– هاتوا المريض.

كان ذلك كلّ جواب الأمير.

لمح ابن سينا نظرات العرّاق والوزير، وقد فاجأهما تصرّف الأمير، فبان على كليهما الحرج الشديد، أمّا المسيحيّ فقد احتقن وجهه، وبدا واضحًا أنّه مستعدّ للانفجار في أيّ لحظة.

بعد برهة، ظهر على مدخل القاعة مراهق نحيف شاحب الوجه، يرتدي سروالاً رماديًّا وصدريّة، ويلفّ حول رأسه عمامة سوداء، فسار بخطوات متعثّرة حتّى وقف بين يدي الأمير.

قال ابن مأمون:

– هذا ابن أخي، وهو كما ترى واهن القوى يذوي منذ ثلاثة أشهر، عجزت أجمل الدرر التي يغصّ بها حريم القصر عن إعادة توهّجه إليه، وهو إلى ذلك صامت منذ أيّام، أبكم مثل الصحراء، مطفأ كالليل، لا يقدر أحد على انتزاع كلمة منه، وها أنا أعهد به إليك أيّها الشيخ الرئيس.

صرّ ابن سينا على شفتيه محاولا السيطرة على الغضب المدمدم بين جنبيه، وقد خيّل إليه أنّه مُسِخ إلى ضارب أقداح بائس، عليه أن يعرض مهارته على المتفرّجين. قال وهو يضغط على الكلمات قصدًا:

– خوارزمشاه، هل أنت في حاجة إلى طبيب أم إلى مشعوذ؟ الشفاء من

الألم ليس تسلية يا مولاي، إنّه عمل مقدّس.

وهمّ بالجلوس، لكنّه أحسّ بيد العرّاق تشدّه من طرف ثوبه.

همس الرياضيّ وقد انخلع قلبه:

– يشهد الله أنّي أستنكر ما يحدث، وأراه إهانة كبرى، لكنّي أستحلفك بالله أن تحمل على نفسك، فكلمتي في الميزان، وربّما وضعي كلّه.

هتف أبو عليّ ثائرًا:

– وهل أعالج البكم؟

– من أجلي أيّها الشيخ الرئيس، حاول من أجلي بالله عليك.

ارتفع الصوت الأخنّ من جديد:

– كلّنا آذان صاغية يا ابن سينا، فلا تدع صبرنا ينفد.

استنشق ابن سينا طويلاً، ثمّ توجّه نحو الفتى على مضض، تعمّد أن يكشف عنه للجميع، فأجبره على التمدّد على دكّة مفروشة بطنافس من الحرير.

كانت الأنظار المصوّبة إليه تزيده توتّرًا.

بذل جهدًا خارقًا للتركيز واستعادة الحركات الأليفة في مثل هذا المقام، وأخذ يتأمّل قسمات مريضه. لفت انتباهه من الوهلة الأولى، تعبير الكآبة والأسى البالغ النائمين في عيني المراهق الغائرتين. جسّ مرونة الوجنتين، وفحص المقلة ولون الزاوية الداخليّة، وراقب توتّر جدار البطن وحرارة الأطراف وردود الفعل الانعكاسيّة، ولمّا لم يعثر على شيء يرشده إلى العلّة، عمد إلى الإنصات للنبض، فلم يلحظ أيّ علامة لافتة. كان النبض منتظمًا مرنًا خاليا من أيّ تعكير.

ألقى نظرة من على كتفه باتّجاه العرّاق، فأجابه هذا الأخير بحركة عجز، وكانت تلك هي اللحظة التي اختارها ابن الخمّار، كي يرفع صوته مخاطبا الأمير:

– عفوًا يا خوارزمشاه، ولكنّ ما تطلبه من الشيخ يكاد يكون المستحيل

عينه، فلا فرق بين أن نحرم طبيبًا من استجواب المريض وأن نقطع له أذنيه، إنّ هذه الحالة من اختصاص المنجّمين أقرب، وأنا أعلم أنّ...

– اسمع أيّها النصرانيّ، لقد طبّقت شهرة ابن سينا الآفاق، من خراسان إلى بلاد فارس ومن بغداد إلى سمرقند، ولعلّها جاوزت قرى سوجود، فهل تعني أنّ هذه الشهرة لا أساس لها من الصحّة؟ إذا كان الأمر كذلك فما حاجة بلاط كركانج إلى طبيب آخر؟ ألا تفي أنت بالحاجة وزيادة؟

– مولاي، يبدو لي بصراحة أنّ...

قال ابن سينا فجأة:

– صمتًا من فضلكم.

ودون أن يترك معصم المريض، واصل الكلام ملتفتًا إلى الأمير:

– خوارزمشاه، ماذا لو تفضّلت وأعدت على مسامعنا الكلمات التي قلتها منذ قليل.

أُذهل ابن مأمون وبدا أنّه لم يفهم، فأعاد ابن سينا بصوت أكثر لطفًا:

– أجل يا خوارزمشاه، ذاك ما أرغب فيه: أن تكرّر الكلمات التي نطقت بها اللحظة.

– أن أكرّر الكلمات؟ ولكن أيّ كلمات؟

– أسماء المدن، أسماء المدن لا غير.

بدا الأمير تائها تمامًا، فقال متملّصًا:

– لكنّي لم أعد أذكر.

– حاول رجاءً.

– خراسان؟

– واصل.

– سمرقند؟ بلاد فارس؟

أومأ أبوعليّ موافقًا، متابعا نبض المريض، وقد شُدّت قسماته في توتّر

بالغ، بينما واصل الأمير النهاق بتعثّر:

– سمرقند... بغداد...

توقّف برهة قبل أن يضيف:

– سوجود... الريّ...

قاطعه المسيحيّ بشيء من الغيظ:

– لم تذكر مدينة الريّ.

تلعثم الأمير، كما لو أنّه طفل ضُبِط متلبّسًا بخطأ:

– آ..آ.. بخارى؟

– ولا بخارى.

– ولكن...

قال أبو عليّ ناهضًا:

– لا بأس.

ثمّ التفت إلى الوزير وسأله:

– أين تقع سوجود؟

– سوجود؟ هي على مرمى حجر من كركانج، إنّها قرية صغيرة من قرى الأطراف.

– وهل لها دهقان أو شيخ؟

– صالح ابن بدر، هو دهقانها.

– حسنًا، هل بالإمكان الإرسال في طلبه؟

التفت الوزير إلى أميره، فأشار إليه هذا الأخير بالموافقة.

– سنعطي الأمر حالاً، وسيكون بيننا بعد ساعة.

– في هذه الحال على الفتى أن يبقى معنا، هل ترون مانعًا من ذلك؟

هزّ ابن مأمون كتفيه:

– لا مانع من ذلك، فربّما أثار مرأى الطعام شهيّته.

وفيما كان أبو عليّ يعود إلى مجلسه، أمر الأمير:

– إلينا بالطعام، فقد أثارت هذه الانفعالات جوعي.

ما أن جلسوا إلى الطعام، حتّى انقضّ المسيحيّ وابن الخمّار على ابن سينا بالأسئلة:

– هل حصّلت لك فكرة عن المرض؟

أومأ ابن سينا برأسه في حركة مبهمة.

– اشرح لنا جليّة الأمر.

– لنقل إنّي ألمح بارقًا ما، لكنّي لست واثقا من شيء حتّى الآن، علينا انتظار الدهقان.

ثمّ قال مائلاً على ابن الخمّار:

– شكرًا على تدخّلك منذ حين.

– أنا طبيب مثلك أيّها الشيخ الرئيس، ومثلك أعرف حدود قدراتنا.

– هذا الفتى، حدّثني عنه قليلاً.

– للأسف، أنا لا أعرف عنه الكثير، عدا أنّه يدعى الأمين، وأنّه قبل مرضه كان يبدو فتى في كامل عافيته، بشوشًا رقيقًا، لا يميّزه شيء عدا عاطفيّته الشديدة، ولا شكّ أنّ العيش تحت سقف واحد مع رجل كالأمير ليس أمرًا سهلاً، ولكن ليس إلى درجة الإصابة بالأمراض.

همس عليٌّ مفكّرًا:

– هكذا إذنْ...

كان الخدم قد شرعوا يجولون بين المقاعد المنجّدة، واضعين الصحون القرمزيّة، مالئين أطباق النحاس بألف روعة وروعة، مترعين الأقداح الذهبيّة بالشاي الساخن. وفجأة، اكتسحت القاعة روائح الكمّون البرّي، والقرفة، واللوز، والحمام الملبّس بالعسل، والحبوب المخلوطة بالكُزبرة.

بينما تمدّد ابن مأمون بتكاسل على حدة، وقد خلع بابوجه، وأخذ يحكحك أصابع قدميه دون انتباه، محادثًا خصيّيه، وكأنّه نسي القضيّة برمّتها.

قال العرّاق:

– هل تعتقد أنّك ستنجو بنفسك من هذا الفخّ؟

هزّ أبو عليّ كتفيه، مراقبًا الفتى الحزين، الذي جلس على طرف الدكّة، مخفيًا يديه بين ركبتيه.

– أرجو ذلك يا صديقي، يقيني الوحيد والهشّ إلى حدّ الآن، أنّ مريضنا لا يشكو من أيّ علّة عضويّة.

– ثمّة إذنْ أمراض أخرى غير أمراض الجسد؟

– بل أخطر يا أبا نصر، أمراض تصيب العقل والنفس، ألا تذكر الموسيقيّ

في الخان؟ لقد كان قادرًا في عماه على إبصار هذه الأمراض بوضوح.

أسرّ إليه ابن الخمّار في قنوط:

– لقد ظننت لوهلة أنّه مصاب بالأنيميا، وقد بلغ إلى علمي أنّك تنصح في مثل هذه الحالة بامتصاص الدماغ من العظام المقطوعة الطازجة٤، فأمرت له بهذه الوصفة دون جدوى.

– لعلّني كنت أفعل مثلك.

مرّ وقت، وعلى الرغم من إلحاح الجميع، لم يقرب أبو عليّ شيئًا من لحم الخروف ولا من كمإ الصحراء ولا من الفواكه الملبّسة بالسكّر والعسل. ظلّ طيلة الوقت كالغائب عن المكان، لكنّ الجميع كان يعرف أنّه لم يكن له من شاغل غير ذاك الفتى الحزين.

أخيرًا سرت همهمة بين الضيوف، واشرأبّت الأعناق ناحية الباب، ولم يلبث الوزير أن أعلن عن وصول شخص طويل القامة، نحيف:

– هاهو الرجل الذي أرسلنا في طلبه.

أخذ أبو عليّ مكانه قرب ابن أخي الأمير من جديد، وأمسك بمعصمه، ثمّ توجّه إلى شيخ القرية بصوت هادئ:

– أخي، منذ متى وأنت دهقان سوجود؟

– منذ حوالي العشر سنوات.

– قيل لي إنّها قرية صغيرة، تكاد تكون دشرة، هل هذا صحيح؟

أشار الدهقان برأسه أن نعم.

– فأنت تعرف إذنْ كلّ شوارع القرية؟

– الأمر سهل، فهي ليست أكثر من ثلاثة شوارع.

– هل تذكر لي أسماءها؟

– شارع النهر... شارع الجبال... ومقرن...

– أعدها عليّ من فضلك.

انصاع الرجل إلى الأمر، وبعد لحظة من التأمّل سأله أبو عليّ:

– وهل تعرف العائلات التي تسكن شارع الجبال؟

– بالتأكيد.

– أذكر لي أسماءها من فضلك، ودون عجلة.

– عائلة الحسين، وعائلة ابن الشريف، وآل الحلبيّ، عائلتي، وآل البدر، وعائلة السنجابين، و...

قاطعه أبو عليّ:

– أعد ذكر هذه الأسماء.

ومرّة أخرى لبّى الدهقان الأمر، وما أن فرغ من ذلك حتّى سأله أبو عليّ:

– قل لي يا ابن بدر، هل لديك أولاد؟

– لديّ ولد وبنت.

– ما اسمهما؟

– عثمان ولطيفة.

ردّد أبو عليّ مفكّرًا:

– لطيفة...

ثمّ أكبّ على أُذُن الفتى، وأخذ يهمس له بكلمات لم يسمع أحد منها شيئًا.

صرخ الأمير حانقًا:

– هلاّ شرحت لنا الأمر أيّها الشيخ الرئيس؟ ما الذي ترمي إليه من وراء كلّ هذا؟

تجاهل ابن سينا تدخّل الأمير، وظلّ يتحدّث إلى الفتى، حتّى طرأ على هذا الأخير أمر غريب، اغرورقت عيناه بالدموع، عندها فحسب، اقترب ابن سينا من الأمير وقال مبتسمًا:

– خوارزمشاه، كنت على حقّ حين رأيت أنّي لا أستطيع شيئًا لابن أخيك، فهو فعلاً يشكو من علّة مقدّسة قداسة العلم الذي أمارسه، علّة تصيب الجميع دون تفرقة، أمراء وشحّاذين، مراهقين وشيوخًا، وقد تكون أصابتك ذات يوم، لكنّ ما يجعل هذه العلّة فريدة من نوعها، أنّها قد تجعل من العذاب سعادة.

فغر الأمير فاه، وبدا كأنّه يزداد ضآلة بين مساند الحرير المقصّب.

– عن أيّ علّة تتحدّث؟

– عن العشق يا خوارزمشاه، أتحدّث عن العشق.

– العشق؟

– العشق يا مولاي. ابن أخيك بكلّ بساطة هائم بابنة الدهقان، ولأمرٍ لا علم لي به، بدا له هذا العشق مستحيلاً.

هبّ الأمير واقفًا، بل كاد ينطّ من مكانه:

– هل فقدت صوابك؟ هل جننت؟

أشار ابن سينا بسبّابته إلى الفتى:

– لا أدري إن كان سينكر ذلك، ولكن تلك هي حقيقة الأمر.

جثا الدهقان مفزوعًا، وأخذ يئنّ مواريا وجهه بيديه، فصرخ به ابن مأمون:

– احبس عنّا لهاثك[٥]، أمّا أنت يا ابن سينا فليغفر الله لك وقاحتك.

ظلّ ابن سينا رابط الجأش، ثابتا أمام نظرة الأمير، فقال هذا وكأنّه

يُشهد عليه الحضور:

- ابن أخي يعشق ابنة دهقان؟ لم أسمع في حياتي كلامًا أكثر مدعاة للسخرية.

بدرت من ابن سينا حركة استسلام:

- ثق يا مولاي أنّي لم أقصد الإهانة، أنا أنفّذ أوامرك، طلبت منّي أن أشخّص مرض قريبك وقد فعلت، وأؤكّد لك ثانية أنّه لا يشكو غير العشق.

اقترب الأمير من أبي عليّ ونتره من صدرته، صارخا، وقد احتقن وجهه:

- ابصق هذه الكلمات من فمك، فما أشبهها بالشفق الكاذب[٦]، ليس الولد مغرما بابنة الدهقان، إلاّ كما أنّ كرمان وجزيرة العرب بحيرة.

ثمّ أشار بيده إلى الباب قائلاً:

- اغرب عن وجهي، ولتمح ذكراك من تركستان إلى أبد الآبدين.

حافظ ابن سينا على هدوئه، وكان يهمّ بالامتثال، حين ارتفع فجأة صوت الفتى خافتًا يكاد لا يُسمع:

- أحبّها... أحبّ لطيفة... وأرغب في الزواج منها.

انتفض الجميع، بما فيهم الوزير، كما لو أن صاعقة وقعت عليهم، وغمغم

ابن مأمون:

- ماذا؟ ماذا تقول؟

كرّر الفتى غاضًا بصره:

- أحبّها... وأرغب في الزواج منها.

- تعني أنّك،كنت طيلة هذه المدّة، تموت عشقًا؟

- لقد قال الشيخ ذلك.

على حافة الانهيار، أدخل ابن مأمون يده في طرف كمّه، وأظهر منديلاً من الحرير، أخذ يمسح به العرق النازّ من جبينه، قبل أن يقول مغمغمًا:

- صلّ يا أمين... صلّ... عسى الله أن يغمرك بواسع رحمته ويغفر لك.

نهض الفتى محنيّ الظهر، واقترب من ابن سينا بخطوات بطيئة، وبحركة سريعة هوى على يده فقبّلها، ودون أن يلقي نظرة واحدة على عمّه، غادر قاعة الطعام.

أطبق الصمت من جديد على المكان ثقيلاً يكاد يكون خانقًا، وطال حتّى أمكن للأمير أخيرًا أن ينطق بجهد يكاد يكون مذلاً:

– بأيّ سحر؟ بأيّ معجزة؟ ألم تقل إنّك طبيب لا ساحر؟

شرح أبو عليّ بهدوء:

– ليس هناك سحر في تقلّب دقّات القلب، وكنت أنت يا مولاي من أعطاني المفتاح.

تدخّل الوزير قائلاً:

– منّ علينا بتفسيرك أيّها الشيخ الرئيس.

– في اللحظة التي ذكر فيها الأمير كلمة سوجود، أحسست بتسارع دقّات القلب، وفي الطبّ، يجب أن نعلم أنّ هناك دائمًا سببًا لعدم انتظام النبض، لذلك حاولت أن أحصر هذا السبب، وحين ذكر الدهقان اسم شارع الجبال تأكّد عدم الانتظام، وتأكّد أكثر مع اسم البدر، ثمّ مع ذكر لطيفة، وبالاستناد على معلومات ابن الخمّار عن طبع الفتى العاطفيّ، ورقّته الشديدة، اصبح التشخيص استنتاجًا خالصًا، وأنا شاكر للأمير فضله إذ أرشدني إلى الطريق.

توقّف برهة قبل أن يسأل:

– والآن هل مازال علينا، أنا ورفيقي، أن نسرع بالانصراف؟

حدجه الأمير بنظرة غائمة، ثمّ قال:

– هل تذكر الآية السابعة من السورة السابعة عشرة؟

أومأ ابن سينا بالإيجاب.

– «فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا...»، فلتقبل اعتذاري أيّها الشيخ الرئيس، ولتعتبر هذا القصر من اليوم دارك.

الهوامش:

١- أخشى أن لا تقرأ هذه الأسطر إلاّ وقد صارت هذه المدينة نسيًا منسيًا، إذنْ فلتعلم أنّها كانت واقعة على ظفاف أموديا، على بعد عشرة فراسخ من بحر خوارزم. (الجوزجاني)

كان الجوزجاني على حقّ، فقد اندثرت هذه المدينة، واليوم تقوم على أنقاضها مدينة صغيرة اسمها urgenc، وهي إحدى مدن جمهوريّة أوزباكستان، من جمهوريّات ما كان يسمّى إلى عهد قريب: الاتحاد السوفييتي، وهي على مسافة كيلومتر من بحر آرال، الذي يصبّ فيه نهر أموديا. (المترجم)

٢- سيقوم الثعالبي فيما بعد، بإهداء عدد من الكتب للأمير، من بينها كتاب "مرآة الأمراء"، الذي كدت أحصل مرّتين على نسخة منه دون أن أفلح. (الجوزجاني)

٣- مازال أبو الكسيس، واسمه الحقيقيّ أبو القاسم خلف بن عبّاس الزهراوي، يعيش في قرطبة إلى ساعة كتابة هذه السطور، وهو يناهز التسعين من العمر. (الجوزجاني)

٤- كان معلّمي فعلاً، أوّل من عالج مرضى فقر الدم بهذه الطريقة. (الجوزجاني)

٥- أي "أُصْمُت." (المترجم)

٦- هو الشفق الذي يسبق طلوع الشمس، وهو عكس ما يسمّيه الفُرْسُ الشفق الصادق، الحقيقيّ." ويقابل هذا التعبير عند العرب قولهم: السحاب الخلّب، في مقابل السحاب المحمّل بالمطر" (المترجم)

المقامة السابعة

كركانج، في الثالث من ربيع الآخرة.

«أخي البيروني، السلام عليك ورحمة الله وبركاته، وبعد:

هاهو الليل يهبط على حديقة ابن مأمون الثاني المضحكة، وعلى الرغم من أنّنا لم نتعدّ ربيع الثاني، فقد غمرت الثلوج كلّ شيء، الكائنات الآليّة وزهور البلّور المطليّ بالمينا وحوض الزئبق، كلّها أذعنت للهزيمة أمام هذا الشتاء المبكّر، وذاك أفضل بكثير.

وصلني خطابك صباح هذا اليوم، ففهمت منه أنّ إقامتك على ضفاف بحر الخزر كانت دون ما عقدتّه عليها من آمال، وأنّك عازم على مغادرة صائد السماني والقدوم إلينا في كركانج، وأنت تعلم لا شكّ أن لا شيء يفرحني مثل ذلك.

وإنّي لأذكر كلامك لي، ونحن نتباحث في أمور هذا الزمان وأحواله في بيت أبي، حين قلت: إنّنا لسنا سوى عيدان من القشّ تلهو بنا رياح ولاة النِعَم. لكم كنت على حقّ يا أخي، فها أنا أُضطرّ قبل أربعة أشهر إلى لعب دور مشعوذ تافه، ولكن هل كنت أملك من أمر نفسي شيئا؟

أمّا فيما عدا ذلك، فقد قدم علينا البريد منذ ساعة بأخبار ما حدث من عظائم الأمور في خراسان وفي بخارى تحديداً، فعلمنا أنّ النسر التركيّ قام بطرد عبد الملك آخر السلاطين السامانيّين، وخلعه عن العرش، ولا شكّ أنّ ساعة هذه السلالة قد دقّت، وأضحى بذلك كلّ إقليم خراسان في يد محمود الغزنويّ، الذي أعلن نفسه ملكًا على غزنة وخراسان، ويقال هنا إنّه نذر على نفسه أن يغزو الهند كلّ عام، وأن يؤدّب الكافرين، فهل تصدّق مطمحًا كهذا؟ ألن يرى جشع ابن الأَمَة هذا نهايةً أبداً؟

ولا يخفى عليك أنّ ابن مأمون قد تزوّج أختًا للغزنويّ، وظنّ بذلك أنّه في منجى من أطماعه، وإن كنت لا أستبعد أن تصبح كركانج وناحية خوارزم

كلّها مقصده عمّا قريب، فليغفر لي الله تشاؤمي هذا، لكنّي أتوقّع لهذه البلاد أوقاتًا عسيرة، كما أنّ من شأن ما حدث في بخارى أن يشغل بالي على أمّي وأخي.

كيف أصف لك فرحتي بخطابك؟ أعلم أنّ البريد نادرًا ما يحمل رسائل العامّة من الناس، فحمدا لله على ما خصّتنا به إقامتنا في بلاطات ذوي النفوذ. وقد اطّلعت بلهفة على النسخة التي بعثت بها إليّ من مختصر الهندسة وعلم الحساب الذي فرغت من تأليفه، كما وصلتني الأوراق الأولى من رسالتك في المعادن، وإنّي أغبطك على تمكّنك من تأليف مثل هذه الأعمال، فكم أنا الآن بعيد عن ذلك، ومنذ العشرين جزءًا من الحاصل والمحصول، وكتابي عن الفلسفة المسمّى بالعروضيّة، لم أخطّ سطرًا واحدًا ذا قيمة، باستثناء قصيدة في المنطق، ومختصر لأقليدس، ومقدّمة في الموسيقى، أوحى لي بها لقاء بشخص عجيب هو موسيقيّ أعمى.

أمّا فيما يخصّ حياتي وما أزمع عليه في مستقبل الأيّام، فإنّي لا أرى لي عوضًا ممّا أنا فيه حتّى الساعة، ولعلّي لازمٌ مكاني، حيث يتوزّع أيّامي التطبيب والتدريس، ذلك أنّي أعمل مع المسيحيّ في التدريس بمدرسة كركانج.

وهي مدرسة يؤمّها فتيان يافعون، وتقع في قلب الجامع، وفيها مرصد فلكيّ لو رأيته لأخذ بمجامع قلبك دون ريب، وبها مكتبة أيضًا، قد لا تضاهي مكتبة بخارى أو شيراز لكنّها لا تخلو من أهميّة، بل إنّي عثرت فيها على أعمال نادرة استُقدمت من الهند، تهمّ الأقرباذين وعلم الفلك.

وإنّي لم أستعرض ما وصلنا من أعمال الأقدمين في الطبّ، إلاّ خفق قلبي لكلّ أولئك المترجمين السريانيّين واليهود والنصارى، النكرات في معظمهم، الذين أمكن بفضلهم لأبوقراط وبول الإيجيني وأوريباس وجالينوس والأسكندر التريلي (الذي أعتبره أعظم جرّاحي العهد القديم)، أن يصبحوا اليوم في متناول أيدينا.

إلاّ أنّ سؤالا يؤرّقني ويشغل بالي: ما الذي ستؤول إليه هذه الثروة إذا لم يقم أحد بفهرستها وشرحها؟ ولا أظنّك تخالفني القول، بأنّه ليس لنا ما ننتظر من الغرب في هذا الشأن، فبلاد الروم تغرق وتوغل في انحطاط يرثى له، ولا بدّ ممّن يستلم المشعل ذات يوم.

وقد عثرت بخصوص علم الفلك على إحدى الترجمات الأولى إلى البهلوية، لكتاب المجسطيّ، كتاب بطليموس العظيم، ويبدو أنّ هذه الترجمة تعود إلى أكثر من ثلاثة قرون، ولعلّها كانت على ملك تلك المدرسة التي يطلقون عليها اسم منتصف الليل، وأنا أفكّر جدياً في وضع مختصر لها.

كما أمكن لي الاطّلاع على الألواح الفلكيّة الهنديّة، وأعترف لك في هذا الشأن، بأنّي على شيء من الارتياب في خصوص ما يسمّيه العلماء هناك بيوم البراهما، فهل يجوز علمياً أن نتصوّر أنّه بعد كلّ دورة ٤٣٢ ألف ألف عام، تعود النجوم إلى مواقعها من جديد؟ لكم أشتاق إلى معرفة رأيك في هذه المسألة...»

وضع أبو عليّ قلمه للحظة والتفت ناحية الباب. كان قد سمع صوت طرقات خفيفة.

– هذا أنت يا أبا سهل؟

ذهب يفتح للطارق، فإذا هو أمام امرأة فارعة القوام، محجّبة، لا يبدو منها غير عينيها. عينان واسعتان، عينا غزال أهيف، كان الكحل واللثام[1] المحيط بالوجه يزيدان سوادهما جلاءً.

– من أنت؟

ردّت بصوت خافت مسبلة عينيها:

– اسمي سنجة.

تكلّمت بلكنة خفيفة، غريبة، غامضة.

سألها أبو عليّ بشيء من الاستغراب:

– هل تريدين شيئًا؟

– أرسلني الأمير...

– الأمير؟ ولماذا؟ هل تشكين من شيء؟

– أنا سنجة.

أشرق وجه أبي عليّ بابتسامة مرحة وقال بلطف:

– ادخلي، والآن، ألا تقولين لي شيئًا آخر عدا اسمك؟

دخلت في حفيف محتشم، ووقفت صامتة وسط الغرفة. جلس أبو عليّ على زاوية مكتبه ونظر إليها.

– إذنْ، فالأمير هو الذي أرسلك؟

أجابت كأنّها تردّد درسًا محفوظًا:

– اعترافًا بجميل الشيخ الرئيس.

– اعترافًا بالجميل؟ أيّ جميل؟

قالت وهي تحاول فصل الكلمات عن بعضها:

– قال إنّ الراوند كان ناجعًا، وإنّه بات منذ ساعة لا يشكو أيّ مغص.

هزّ أبو عليّ رأسه وكأنّه لا يصدّق ما يسمع:

– لكنّه لم يشكُ من شيء، كان أمرًا بسيطًا.

– ومن أدراني يا شيخ؟

بدا عليه الانشغال ثمّ قال أخيرًا:

– حسنًا، عودي الآن إلى الأمير وقولي له إنّي أشكر فضله وكرمه، لكنّي الليلة عكر المزاج معطّل الحواسّ، اذهبي يا سنجة.

همّ بالاتّجاه نحو الباب، لكنّه فوجئ بها ترتمي على قدميه، ممسكة بذيل جلبابه.

– الرحمة يا سيّدي، لا تطردني، لا تطردني أتوسّل إليك، لن يغفر لي الأمير ذلك أبدًا.

حاول إنهاضها لكنّها تشبّثت به باكية.

– رجاءً سيّدي، يقولون إنّي جميلة، وحارّة، وأسعد الرجال.

– ما هذا يا سنجة؟ انهضي أرجوك.

رفعت نحوه عينين مغرورقتين، وكان ثمّة شيء مؤثّر في ضراعتهما.

– انهضي، أنا الذي يتوسّل إليك هذه المرّة.

أمسك بيدها وأنهضها، ولا حظ في الأثناء أنّ أظافرها وراحة يدها مخضّبة بالحنّاء.

وقفت.

مرّت برهة من الصمت، وفجأة نضت عنها حجابها، فأضافت إلى نور المصابيح الزيتيّة المنتشر في المكان، نور وجهها ذي الجمال الساحر.

كان عنقها طويلاً رفيعًا، وشعرها أسود فاحمًا في سواد عينيها، ولامعًا، وناعمًا شديد النعومة، وكانت أسنانها أنصع بياضًا من حليب النعاج، وكان الخال المتلألئ وسط جبينها، شبيها بقطعة هشّة من الليل على صفحة من نور النهار، أمّا ثغرها، فقد ذكّره بالجلّنار.

ظلّ برهةً واقفًا وقد انعقد لسانه، ثمّ قال مضطربا:

– أنت جميلة يا سنجة.

شجّعتها كلماته، فحلّت الإزار الذي كان يلفّ خصرها، وخلعت معطفها الرشيديّ الذي كان من الصوف الرماديّ، ثمّ تجرّدت من فستانها، ووقفت أمامه لا زينة لها غير عريها وحده.

ثمّ لم تلبث أن نكست رأسها فيما يشبه خجل الأطفال، شابكة يديها فوق صدرها، فانكشف خصرها في بهاء كماله الفتّان، ولاحظ أبو عليّ أنّها دهنت جسدها كلّه بغلالة شفّافة من الزعفران، ومع ذلك فقد ظلّ لنهديها توهّج عين الهرّ من الحجارة الكريمة.

فألفى نفسه يتمتم دون وعي بتلك الأبيات من الشعر الجميل:

قامتْ تَراءَى بينَ سجْفَيْ كلَّة

كالشمس يومَ طُلوعها بالأسْعُدِ

أو دُرّةٍ صدَفيَّةٍ غوّاصُها
بَهِجٌ، متى يرَهَا يُهِلَّ ويَسْجُدِ

ثمّ خفّ إليها، فألقى بعباءته على كتفيها، وأخذ بيدها، فأجلسها على الدكّة الوحيدة التي كانت تؤثّث الغرفة، وجثا أمامها وهو يكرّر:

– أنت جميلة يا سنجة.

– وأنت كريم أيّها الشيخ الرئيس.

– اسمي أبو عليّ، أبو عليّ بن سينا.

– أبو عليّ بن سينا.

دائمًا تلك اللكنة الغريبة.

– من أين أنت يا سنجة؟

– ولدت منذ ستّة وعشرين عامًا في جودبور، في البلاد المحاذية لبحر حرقند واللار، البلد الذي يسمّيه أكلة السحليّات السند، ويسمّيه الروم الهند.

أخذ يضحك:

– أكلة السحليّات؟

– هكذا اعتاد قومي أن يسمّوا العرب، و...

توقّفت عن الكلام فجأة وقد تملّكها الخوف:

– المغفرة، لقد أسأت إليك دون قصد...

– لا بأس عليك، فلست من أكلة السحليّات، أنا فارسيّ، وقد تدهشين إذا قلت لك إنّ أبي كان من بلخ، مدينة متاخمة لبلادك، ولكن أخبريني، لا شكّ أنّ الرحلة من جودبور إلى حريم ابن مأمون قد بدت لك طويلة، فأنت من حريم القصر أليس كذلك؟

– بلى، لقد جاء بي رجال من التركمان، وباعوني في ساحة كركانج منذ عامين.

– هل كنت ترتدين الحجاب أيّامها؟

أشارت برأسها نافية:

– لم أفهم لماذا يضطرّنا رجال هذه البلاد إلى التواري خلف هذه الخرقة، هل بلغ احتقاركم النساء حدّ إخفائهنّ عن الأنظار؟

– كلاّ يا سنجة، على العكس تمامًا، على الأقلّ في رأيي.

– اشرح لي الأمر.

– الحجاب مجعول للفصل بين المختار ونور الوجه الربّانيّ، وقد جاء في الكتاب "وما كان ليكلّم أحدًا إلاّ من خلف حجاب"، إنّ ما يوضع خلف حجاب هو مقدّس، ما يحجب هو محروس.

قالت بشيء من السذاجة:

– أنا إذن مقدّسة؟ أم أنّ من يضع عينيه عليّ هو المقدّس؟

أعجبه سؤالها، وقد رأى أنّه لا يخلو من منطق، فقال:

– لنقل إنّك محروسة.

اتّخذت هيئة الجدّ، كما لو أنّها طفل يغرق في التفكير، ثمّ سألته:

– لماذا يطلقون عليك اسم الشيخ الرئيس؟

– لا لشيء، ربّما لأنّي ألتهم الكتب، في الحقيقة أنا لست أكثر من طبيب.

– طبيب؟ آه... الآن فهمت.

– وماذا فهمت؟

– لقد أنقذت حياة الأمير، ولذلك رأى أن يكافئك.

ردّ أبو عليّ بشيء من السخرية:

– سنجة، أنا أنقذت مولانا الخوارزم فعلاً، لكن هل تعرفين ممّ أنقذته؟ لقد ظلّ يشكو طيلة أربعة أيّام من عُسْرَةٍ...ملَكيّة.

جحظت بعينيها كأنّها تظنّه يسخر منها، ثمّ انفجرت ضاحكة ببراءة طفلة صغيرة، ولم تلبث أن قالت:

– العفو، فأنا لا أضحك منك أنت.

طمأنها بحركة من يده، فقالت بعد برهة من الصمت:

– أنت طبيب، ومع ذلك لا تستطيع علاجًا لما تعكّر من مزاجك وما تعطّل من حواسّك؟

تبسّم، ثمّ أرسل راحته بلطف على وجنتها الورديّة:

– نكتب أحيانا إلى عزيز بعيد فتستيقظ فينا ذكريات وأحزان، ذاك ما كنت بصدده قبل قدومك، وأنا على يقين من أنّ مثل هذا الشعور ليس غريبا عنك.

– هذا صحيح، ولكنّك طبيب، وتعرف لاشكّ أنّ الاستسلام الطويل إلى الحزن يقود إلى ما لا يحصى من الأمراض، وقد قرّرت منذ مدّة طويلة أن لا أمرض، لذلك نسيت حزني.

– حسنًا فعلت يا سنجة، قومك مشهود لهم بالحكمة، وأنت فعلاً ابنة السند.

– أستطيع أيضًا شفاءك، إذا رغبت.

همّ بالإجابة، لكنّ قبلة سنجة ختمت شفتيه، وسرعان ما تحوّلت شفتاها إلى جمر وصبّتا فيه نارا لاهبة، فعادت به الذاكرة من جديد إليكلمات النابغة الذبيانيّ:

زَعَمَ الهُمَامُ وَلَمْ أَذُقْهُ أَنّهُ
يُشْفَى، بِرَيَّا رِيقِهَا العطشُ الصَدِي

عندها لم يملك صبرا، فنحّى العباءة عن جسدها بلطف، وذهب يبحث عن حرير البطن، فتركته يفعل ملقية رأسها إلى الخلف، متفتّحة تحت لمساته كما يتفتّح البحر للنهر، ثمّ قبضت على قفاه وقالت وهي تلهث:

– عليّ أنا أن أمنحك المتعة، عليّ أنا أن أذهب إليك.

تجاهلت الحركة التي كانت تضمّها إليه، وفكّت أزرار قفطانه، وسحبته من على رأسه، وما أن أصبح عاريًا حتّى نهضت معه في اللحظة نفسها، فضمّت جسدها إلى جسده.

فكّر أنّها:

"نظرتْ بمُقْلة شادنٍ مُتربّبِ
أحْوَى أحَمّ المُقلتين مُقلَّدِ."

وحين ضمّتهما الوسائد المدمقسة، خيّل إليه أنّه يلمح صورة وردة، في مثل البرق الخاطف.

فاجأهما الفجر متعانقين. كان هو قد استيقظ منذ برهة، غير أنّه لم يشأ أن يعكّر نوم رفيقته. ولكن، هل نام أصلاً؟

لم يعرف امرأة عدا وردة، وبسبب ذلك ربّما، أو بحكم فارق السنوات الخمس، أحسّ بأنّ لسنجة مهارة لا حدود لها، وظلّ جسداهما طيلة الليل لا يفترقان إلاّ ليلتقيا من جديد، وفي فوضى الجسد تلك، خيّل إليه أنه قد وقف أكثر من عشر مرّات على ذروة اللذّة، موقنا في كلّ مرّة أنّها المرّة الأخيرة، إلاّ أن لمسات سنجة كانت تبعثه من رماده من جديد، وحين عمدت في حركة تفانٍ قصوى، إلى اغتراف ماء اللذّة من أكثر ينابيعه حميميّة، اعتقد أبو عليّ أنّه قد بلغ جنّة عدن التي جاء ذكرها في الكتاب.

وهاهو الآن يشعر بالذنب. أليست العفّة التي أمر بها النبيّ علامة المؤمن؟ إنّه دنس الآن، وسنجة كذلك دنسة.

وغمغم بصوت يكاد يرتفع: "إنّ الله يحبّ العفو إنّ الله غفور رحيم."

تململت على الفراش بالقرب منه، وفتحت عينيها بصعوبة، هامسة بلطف:

- أسعد الله صباحك.
- وصباحك يا سنجة.

وضعت يدها على قفاه وضمّته إليها:

- أنا مترعة بك، وأنت يا أبا عليّ، هل أنت راضٍ؟

تراجع إلى الوراء بلطف، ساحبًا عنها اللحاف، واضعًا شفتيه على كريّة بطنها، وقال بشيء من المزاح:

- سرّتك قدح لا يفرغ من الشراب يا سنجة.

أشعّت عيناها ببريق الاعتزاز، لكنّ البريق ما لبث أن خمد وهي تراه مهموماً:

– ماذا؟ هل في كلامي ما أحزنك؟

– كلاّ، كلاّ، لا شيء.

– لا شيء؟

كان يهمّ بمواصلة الحديث، حين سمع طرقاً عنيفاً على الباب، متبوعاً بأصوات عالية:

– أبا عليّ، افتح بسرعة.

– أيّها الشيخ الرئيس.

تعرّف تباعاً على صوتي المسيحيّ وابن الخمّار، فلم يتوان عن القفز خارج الفراش، فيما كانت سنجة تستر عريها، ساحبة اللحاف إلى وجهها.

قال وهو يشرع فردة الباب:

– ما الأمر؟

أجاب المسيحيّ في اضطراب ظاهر:

– موتى... جثث...

وأوضح ابن الخمّار:

– هناك... على ضفّة النهر... أسفل هضبة البرج.

– عمّ تتحدّثان؟ ما حكاية هذه الجثث؟

– على مسافة ساعة من هنا، خبب حصان، اكتشف عامل بريدٍ صدفةً جماجمَ بشريّة لا تحصى، وهو مستعدّ ليدلّنا على المكان.

انفرجت أساريره دفعة واحدة.

– أنا قادم معكما، امنحاني فحسب الوقت الكافي لارتداء ملابسي.

انقضّ على ثيابه أمام نظرات سنجة، التي تنازعتها الحيرة.

– ما الذي يحدث؟

– الله أكبر، سأشرح لك الأمر في ما بعد.

فرغ من ارتداء سرواله الفضفاض، ونعليه الطويلتين، فيما هي تردّد وقد علا ملامحها حزن غامض:

– فيما بعد... فيما بعد...

*

يعتبر المؤمنون تشريح الجثث انتهاكًا حقيقيًا للحرمات المقدّسة، نوعًا من التدنيس، وقد جاء في بعض الكتب أنّ جالينوس نفسه كان يحجم عن تشريح البشر وينصح بالتمرّن على الحيوانات وبخاصّة القرد. وما كان لمثل هذه الظروف أن تساعد على تقدّم علم الجراحة وعلم التشريح. وقد ظلّت البنية الداخليّة للكائن الحيّ لغزًا مثل الكتاب المغلق، الذي تفتحه الصدفة وحدها بين الحين والآخر. واضطرّ العلماء طويلاً إلى التخمين أين تقع الأوردة الجوفاء والأحشاء الرئيسيّة والأربطة والعصب والعضلات. لذلك كانوا يحمدون الله ولا يفوّتون الفرصة، كلّما أتاح لهم الحظّ أن يعثروا على بقايا بشريّة.

كانت تلك الأمور تشغل بال أبي عليٍّ ورفيقيه، وهم يصعدون المنحدر العسير الموصل إلى هضبة البرج، وخلفهم بخطوات كان الجنديّان يجاهدان للحاق بهم، مسلّحين بالرفوش، محمّلين بأخراج الجلد المقلوب.

امتدّ السهل من حولهم أبيض حيثما حطّت العين، وأسفل الهضبة، كان يلوح للرائي وشمٌ كأثر الجرح: إنّه "الطريق التي تمشي"، نهر أموداريا، الذي كان يجرجر في صمت مهيب قوالب الجليد الهائلة، حتّى بحر خوارزم.

أشار رجل البريد إلى منخفض يشبه الحوض:

– هناك...

حثّ أبو عليّ ورفيقاه الخطو، وما هي إلاّ لحظات حتّى كانوا في مواجهة مشهد عجيب: بقايا بشريّة نصف مدفونة، تنكشف لعيونهم متداخلة متشابكة مبثوثة على مساحة شاسعة، وكأنّ الأرض قد خرّت من تحتها

فجأة، أو انفتحت عنها دون إنذار.

قال ابن الخمّار لاهثًا:

– أمر لا يصدّق.

كان أبو عليّ قد جثا على ركبتيه، فيما أمر المسيحيّ الجنديّين بكنس المكان بحذر شديد.

قال ابن سينا منحنيًا على جمجمة سدّ ثقوبها الثلج:

– إنّها فعلاً عظام بشريّة.

غمغم أحد الجنديّين:

– علينا أن نفرغ من الأمر بسرعة، قبل أن تطمرنا نُدَفُ الثلج المتساقط بلا انقطاع.

أغرق الأطبّاءُ الثلاثة في تأمّلاتهم، ولم يبد عليهم أنّهم سمعوا شيئًا ممّا قال.

همس ابن الخمّار فجأة، وقد بلغت به الحيرة كلّ مبلغ:

– إنّه حقًّا أمر غير معقول، ثمّة أكثر من عشرة آلاف جثّة، ويبدو من درجة تحلّلها أنّها هنا منذ سنوات عديدة، فما الذي حدث في هذا المكان؟ وكيف مات هذا العدد الهائل من البشر في المكان نفسه، في اللحظة نفسها؟

هتف ابن سينا لاهثًا، وقد ضيّقت أنفاسه الإثارة والاضطراب، وجلّل الثلج شعر لحيته وحاجبيه:

– أبا سهل، ابن الخمّار، انظرا.

خفّ إليه الرجلان فورًا، وانحنيا على ما كان يشير به إليهما: فكّ جمجمة.

قال بتهيّج:

– لم يزل علماء التشريح يقولون حتّى اليوم، إنّ الفكّ الأسفل يتكوّن من عظمين موصولين في مستوى الذقن، ولكن لاحظا معي، ألا تريان أنّ عظم الفكّ الأسفل مفرد لا توجد به وصلةٌ ولا درزْ.

– معك حقّ، ولكن، ألا يمكن أن يكون الامر استثناء؟ لابدّ من ملاحظة نماذج أخرى قبل البتّ في الحكم.

قال أبو عليّ ملاحظًا:

– يا ابن الخمّار يا أخي، لا يتعلّق الأمر هنا بتشوّه بل بوضع طبيعيّ، أنا واثق من ذلك.

ثمّ أظهر من التراب عمودًا فقريًّا، أو ما كان يشبه ذلك، وقال:

– هل عرفتما هذا؟

– بالتأكيد، إنّها الفقرُ العُلْيَا، الأربع الأولى في ما أعتقد.

– والآن تأمّلا فيها جيّدًا، ألا تريان شيئًا مميّزًا في بنية الفقرة الأولى؟

فحص ابن الخمّار وأبو سهل العظام برهة من الزمن، ثمّ قال المسيحيّ:

– يبدو لي أنّ الثقب الذي يخرج منه العصب، ليس له الموقع نفسه كما في الفقر الأخرى.

– أنت على حقّ تمامًا.

– أعتقد أنّ لك تفسيرًا للأمر.

بادر أبو سهل إلى الإجابة:

– يبدو لي الأمر في غاية البساطة، فلو كان الثقب في الموقع الذي يتشابك فيه نتوءا الرأس، وتنشأ عنه الحركات العنيفة، لأدّى ذلك إلى تلف الأعصاب، ويحدث الأمر نفسه لو وجد الثقب في الموقع الذي يوجد فيه مفصل الفقرة الثانية.

قال أبو عليّ موافقًا:

– هو ذاك، وبمثل هذه التفاصيل، نقف على كمال قدرة الخالق وفرادة صنعه، ولكن لنواصل البحث، آه لو عثرنا على هيكل عظميّ كامل.

وكاد يضيف: "أو جسم كامل، جسم مفتوح يخرج بنا من العتمة إلى النور"، لكنّه تمالك نفسه، نادمًا فورًا على الفكرة.

لم تنقطع نُدَفُ الثلج عن ترصيع المشهد، وما كان أحد الثلاثة يعثر على

عظم جديد بالاهتمام حتّى يعهد به إلى أحد الجنديّين، فيضعه هذا الأخير في الخرج.كان هذا الرواح والغدوّ الشبيه برقصة الأموات، يشعّ بهالة الخوارق. أشباح تنحني تارة وتجثو طورًا، وهي تلفظ مع كلّ نفس سحابات صغيرة سرعان ما تتلاشى في الهواء، وجياد ثائرة، تنفث زبدها المدخّن أو تحمحم راكلة الثلج بحوافرها، دافعة إلى أسفل الهضبة بعظم فخذ أو قطعة جمجمة، ونهر يواصل سيره البطيء والأبديّ. كلّ شيء كان يدعو إلى اعتبار المشهد سرابًا قادمًا من السهب البعيدة.

*

«... ها أنّي أستأنف الرسالة من حيث تركتها الليلة.

عدت منذ لحظة من رحلة أخذتني مسافة ساعة عن كركانج، سأحدثّك بتفاصيلها حين أراك، اعلم فحسب أنّي استطعت أن أفحص عن كثب بقايا آدمية، بمعيّة المسيحيّ وابن الخمّار.

وأنت تعلم مثلي أنّ فرصة مثل هذه لا تقدّر بثمن، وقد عثرت من بين كلّ الجثث، (قرابة العشرة آلاف)، على واحدة أو اثنتين أقلّ تفسّخًا من غيرها، وكأنّها قُبرت هناك منذ أقلّ من عامين. وقد تساءلنا طبعًا عن سرّ هذا الاكتشاف[2]، دون أن نتّفق على تفسير علميّ، فاقتصرنا على الرجوع بغنيمة لا بأس بها من العظام، وكلّفنا العرّاق، عالم الرياضيّات والرسّام الماهر في أوقاته، أن يضع لها ما يناسبها من رسوم.

لم يبق لديّ ما أحدثّك به من أمر ذي بال، عدا أنّ الصدفة، الصدفة الرائعة، أتاحت لي العثور على جمجمة لا تزال تحتفظ بقرنيّتيها، فأمضيت اليوم في فحصها، حتّى استقام عندي الاستنتاج التالي: علينا أن نضع قطب الإبصار في الشبكيّة لا في خرزة العين كما ظنّ الأقدمون، وقد توصلّت أيضًا إلى ضبط حركات تقلّص البؤبؤ وارتخائه، وسأحدثّك بذلك فيما بعد.

تأخّرت الساعة وما زال أمامي الكثير، فاسمح لي بتحيّة الأخوّة والشوق، ودمت في رعاية الله.

صديقك أبو عليّ بن سينا...»

نحّى عنه القلم جانبًا، وانتبه في اللحظة نفسها إلى غياب سنجة. تذكّر ملامحها الحزينة حين كان يهمّ بمغادرتها، وهي تهمس: «فيما بعد...»

نهض فجأة وقد انتابه توجّس غريب. أين تراها تكون في مثل هذه الساعة؟ لا شكّ أنّها في الجناح المخصّص للنساء، لكنّه محرّم عليه، فكيف يصل إليها؟ الشخص الوحيد الذي قد يملك الخبر اليقين هو سوسن، قيّم القصر، أو ربّما أحد الخصيّين. جالت به الهواجس، وفكّر أنّها ساعة متأخّرة من الليل، إلاّ أنّ القلق غلبه على أمره، فنفض عنه وساوسه، وهبّ متوغّلاً في أروقة القصر النائم.

– ليست هنا...

هكذا أجابه أحد الخصيّين، بصوت خدّره النوم.

– لم أفهم قصدك، هل تعني أنّها ليست في القصر؟

– بل أعني أنّها رحلت، رحلت هذا المساء مع قافلة الفرّوبي.

جحظ أبو عليّ بعينيه مدهوشًا.

– مازلت لا أفهم.

قال الخصيّ، وقد قوّص شفتيه في نبرة تبرّم:

– الفرّوبي هو الذي اعتاد أن يزوّد حريم القصر، وقد عرض علينا عذراوين من الجبال، صبيّتين في الرابعة عشرة، فقايضه الأمير عليهما بسنجة، و...

– وأين هي القافلة الآن؟ هل غادرت كركانج؟

– لا أظنّ، كان الوقت متأخّرًا حين غادر الفرّوبي القصر، وأعتقد أنّه سينتظر أن يتحسّن الطقس قبل أن يأخذ الطريق من جديد، فلا أظنّه من الجنون بحيث يسافر في ليلة مثلجة مثل هذه، بالإضافة إلى أنّ...

دون أن ينتظر أبو عليّ بقيّة الشرح، دار على عقبيه، وأسرع نحو الإسطبلاّت.

كانت كركانج مخلدة إلى النوم وقد طمرها الثلج، فيما تدلّت من الأشجار على حافات السطوح، أصابع مائيّة متجمّدة مثل أبَرٍ من الكريستال.

عبر السوق ركضًا الخبب، بحصانه، وحاذى الجامع الكبير ذا المنارة المتطلّعة إلى النجوم، ونفذ إلى دار الوكالة، دون أن يتوقّف لحظة تحت شرفة البوّابة.

إذا لم تكن القافلة غادرت المدينة، فلن يجدها إلاّ في هذا المكان، فهنا يقيم التجّار القادمون من بعيد لفترة قصيرة، مقابل مبلغ بسيط يعطونه للحارس، الذي كان يوفّر لهم بدوره بعض الحُصُر والتبن الجافّ، وهنا أيضًا كان باعة الجملة والدلاّلون والوسطاء وباعة التفصيل، يجدون ضالّتهم من البضاعة.

كانت الطريقة التي عثر بها على الفرّابي، في متاهة الروائح والأروقة تلك، أقرب إلى المعجزات، وقد توجّب عليه من أجل ذلك أن يوقظ الحارس، الذي أيقظ بدوره الجمّالين، الذين اقترحوا بدورهم، وهم يسبّون ويلعنون، أحد الأدلاّء ممّن يعرف التاجر، وحين وجده أبو عليّ وحدّثه عن سنجة، خيّل إلى هذا الأخير أنّه يحلم.

فغر عينيه وقطّب جبينه وقال أخيرًا، مسلما لغضبه العنان:

– أتعرض عليّ التجارة في مثل هذه الساعة المتأخّرة؟ هل سلبت هذه المخلوقة لبّك وعقلك، إلى حدّ أن اختلط عليك الليل بالنهار؟

لم يجب ابنُ سينا إلاّ بجملة واحدة:

– الأمر بالغ الأهميّة.

– ليس أهمّ من النوم بالنسبة إليّ.

– أنا مستعدّ لشرائها منك.

– ومن قال لك إنّها للبيع؟ لم أقل لك ذلك، فلترجع إلى بيتك صحبتك السلامة.

– وإذا قلت لك إنّي مبعوث السهيليّ.

– الوزير؟

– الوزير، لقد بيعت هذه المرأة خطأً.

– ومن أدراني أنّ السهيليّ هو الذي أرسلك حقًّا؟

– اسمي أبو عليّ بن سينا، وأنا طبيب القصر.

مع الإعلان عن الوظيفة، بدا على التاجر أنّه استردّ لباقته، حكّ ذقنه متردّدا، وغمس يديه في شعره الأشعث، وقال أخيرًا:

– وزير أم لا... هل لديك ثمن صبيّتين؟

– ربّما... الأمر متعلّق بتقديرك لثمنهما.

– عذراوان يا أخي، لؤلؤتان من اللؤلؤ النادر.

– أعلم ذلك، حدّثني الخصيّ بكلّ شيء، فهات ثمنك.

حدجه التاجر بنظرة مكر، قائلاً:

– سبعمائة دينار.

أخرج أبو عليّ كيس نقوده دون تردّد، وقال:

– في هذا الكيس ستّمائة وسبعون دينارًا، هي لك، أين الفتاة؟

– قلت سبعمائة.

– كن عاقلاً يا فروّبي وانس بخلك قليلاً، الأفضل أن تأخذ هذا المبلغ، فقد يذوب إذا أشرقت عليه شمس الغد بأسرع ممّا يذوب هذا الثلج المحيط بنا الساعة.

– ما الذي تريد أن تقول؟

– افتح أذنيك وعينيك جيّدًا، قلت لك إنّي طبيب القصر وصديق الوزير، ألا تريد أن تفهم؟

هرش التاجر لحيته من جديد، مقطّبًا حاجبيه، ثمّ تململ كما لو أنّه متحامل على نفسه، وأخذ النقود.

حين ظهرت في خمارها على عتبة القاعة المخصّصة للنساء، عرفها فورًا من عينيها ومن قوامها الرائع. تقدّمت خطوات، وبدا عليها التردّد، كأنّها

لا تصدّق ما يحدث:

- الشيخ الرئيس؟

- نعم يا سنجة، هذا أنا، أبو عليّ.

كرّرت غير مصدّقة:

- الشيخ الرئيس؟

- تعالي يا سنجة، لا مكان لك بين أكلة السحليّات.

الهوامش:

١- هو ما يُلفّ به الرأس والوجه. (المترجم)

٢- تحدّث الطبيب عبد اللطيف في كتابه" الرحلة المصريّة"، عن اكتشاف مماثل شهده بنفسه، في موقع يقال له مقس بدلتا النيل، وكتب يقول...: "وقدّرت الجثث التي أمكن رؤيتها بعشرين ألف جثّة". فهل يستطيع العلم اليوم أن يقدّم لنا شرحاً لهذا الأمر. (المترجم)

المقامة الثامنة

«...أكملت ساعة الرمل مدّتها وانسابت الحبّات الواحدة تلو الأخرى موغلة في ذاكرة الماضي...

إنّه اليوم العشرون من ذي الحجّة، وقد عبرت الشمس منتصف النهار منذ ساعة، وها نحن ندخل العام التاسع من إقامة الشيخ الرئيس بكركانج. تسعة أعوام انقطع فيها معلّمي للتأليف والتدريس، فألّف تباعاً مقالة في النبض بالفارسيّة، وأرجوزة في المنطق، ومقالة في تفنيد القول بالتنجيم، تسمّى أيضاً "إبطال علم النجوم"، وعشر قصائد، ورسالة في الزهد، فصّل فيها أحوال الزاهد وكيف تدرج به الأمور، كما وضع كتاباً في الفلسفة سمّاه في النفس الناطقة وأحوالها، وقصائد عديدة في الحكمة وعظمة الذات الإلهيّة، ورسالة في ماهيّة الحزن وأسبابه، لعلّ بعده عن بخارى وذكرى والده لم يكونا غريبين عن دواعي تأليفها.

وعاشت سنجة إلى جانبه طيلة هذه السنوات، تراقبه وهو يعمل يكاد لا يكلّ ولا يملّ، فإذا ورمت أصابعه أو تفلّقت تعهّدتها بالتدليك، وإذا أخذته سِنةٌ فأغفى مع طلوع الخيوط الأولى للفجر، مسنداً رأسه إلى طاولة من خشب الأرز، ألقت على كتفيه بمعطفها الطويل من الفشفش، ويشهد الله أنّها رأته أيضاً يتعاطى ما لا حصر له من شراب البسر.

والغريب أنّ الفتاة لم تدهش لشيء ممّا رأته طيلة تلك الأعوام، قدر دهشتها للسهولة المذهلة التي بها كان الشيخ ينجز أعماله، وكان شأنها في ذلك شأن المسيحيّ، حتّى تبرّم معلّمي بالأمر، فسألهما ذات يوم: وما الذي تنكرانه عليّ في هذا؟ هل تظنّان أنّ الإبداع هو دائماً مرادف للعرقِ والمعاناة؟ وهل للحمار فضل على الجواد الأصيل، لأنّه يعاني عشر مرّات أكثر عند تسلّق تلّة؟ إذا كان الأمر كذلك، فليشهد الله أنّي لن أدّعي أبداً مثل هذا الفضل.

والحقّ أن لا غرابة في دهشة الشهود على حياته من قدرته الخارقة على العمل، فقد كان معلّمي يجد دائماً ما يلزمه من التركيز لمواصلة عمله، سيّان لديه إن كان ملوّثا بغبار الطريق أو رافلا في ذهب القصور أو ممتطيا ظهر حصان. ولعلّ ذاكرته العجيبة كانت مثار دهشة أكبر لكلّ من خبره عن قرب، فهو لم يشعر قطّ بحاجة إلى تدوين ملاحظة أو تلخيص كتاب، سواء أدرس الفلسفة أم الفلك أم الرياضيّات أم الطبّ، وذلك منذ أن بلغ الثانية والعشرين من عمره. وقد استذكر تلك الأيّام من بعد ذلك بكثير، فقال لي: "كنت أيّامها قد طالعت فهرست كتب الأوائل، وطلبت ما احتجت إليه، ورأيت من الكتب ما لم يقع اسمه إلى الكثير من الناس، ولم أكن رأيته قبل ولا رأيته أيضا من بعد، فقرأت تلك الكتب وظفرت بفوائدها، وعرفت مرتبة كلّ رجل في علمه، وفرغت من هذه العلوم كلّها، وإذ ذاك كنت للعلم أحفَظَ ولكنّه معي اليوم أنضج، وإلاّ فالعلم واحد لم يتجدّد لي شيء من بعد". وأذكر أنّه أسرّ لي بذلك، فلم أتمالك عن التفكير في الكلمات التي قالها قبل سنوات الأمير نوح الثاني: "إنّ الله يمنح من يشاء من عباده أضعاف ما يمنحه لغيرهم."

وافق يومُ الجمعة الماضي ليلةَ السابع عشر من ذي الحجّة، ومن أعلى بيت الله صعد الأذان نحو السماء، وارتفع صوت المؤذّن بوحدانيّة الله وذكر رسوله. كان مؤذّن كركانج أعمى، وهو أمر نادر في بلاد الإسلام، ذلك أنّ الأمير سار فيه على إثر عادة محليّة قديمة، فأمر بأن يختصّ بالأذان من كانت لهم هذه العاهة دون غيرهم من المؤمنين، حتّى إذا ارتفعوا إلى ذلك المكان العالي، لم يتح لهم أن يتكشّفوا على ما يجري على السطوح أو في ساحات البيوت المجاورة للمئذنة.

توهّجت أنواع الطيب في المجامر النحاسيّة وسط الجامع، وكانت روائحها تضمّخ الأعمدة وفوانيس الفضة والأرضيّة المفروشة بالحُصُر.

منذ وفاة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، أصبح الخليفة هو الإمام الذي يؤمّ

المؤمنين في الصلاة، وينوب عنه ولاته وأمراؤه في مختلف الأمصار، أو أعلى الحضور مكانة إذا خلا المكان من والٍ أو أمير. وهكذا كان ابن مأمون هو الذي ألقى الخطبة من أعلى المنبر ذلك اليوم. ولمّا كان سيفه غير بعيد عن إيمانه، فقد خصّ بحديثه جنوده المسلّحين الذين دخلوا المسجد راكبين، وختم خطبته بالإعلان عمّا وصله من نتائج آخر المعارك مع الغزّ، ملقيا أوامره في هذا الشأن، دون أن ينسى توجيه اللعنات المعهودة على كلّ أعداء الإقليم.

أمّا اليوم، فقد أُخْلِيَ الجامع لطلبة العلم، وقد صلّوا الفجر حاضراً وجلسوا قرابة الثلاثين، متحلّقين في شكل دائرة وسط قاعة الدرس الملاصقة للمبنى، بين أيديهم ألواح صغيرة من الطين الليّن، يدوّنون عليها ملاحظاتهم بواسطة مسبر حادّ. ويتراوح معدّل أعمار الطلبة في العادة، بين العشرة أعوام والعشرين عاماً، إلاّ أنّه لا يندر أن يكون من بينهم طلبةٌ أكبر سنّاً وأكثر علماً، قادمون من مدن أخرى، وقد تنقّلوا من إقليم إلى آخر بحثًا عن معلّم ذائع الصيت. ذلك حال ابن زيلة، الذي كان قد أخذ العلم عن ابن سينا في بخارى قبل أن يتبعه إلى كركانج. بل إنّ من العلماء أيضاً من يتنقّل كالطلبة ليحضر دروس أحد زملائه النابغين. وثلاثون تلميذاً هو عدد متواضع بالنظر إلى مجانيّة الدروس، وبالنظر أيضاً إلى أنّ من حقّ أيٍّ كان الحضور والاستماع، فضلاً عن أنّ التلاميذ الفقراء يُطعمون، وأنّ الجامع يخصّص في العادة مِنَحاً للطلبة الغرباء.

وما أكثر الروم الذين ستدهشهم هذه السطور، لأنّهم يجهلون أنّ بيت الله ليس مكاناً للصلاة فحسب، بل هو المكان الأساسيّ للتعليم الإسلاميّ حيث تقوم المدرسة، كما أنّ به مكتبة ومجلساً للقضاء، وقد يدهشون أكثر لو علموا أنّه في حال خلُوّ المدينة من الفنادق، فإنّ بيت الله يؤوي الغرباء فإذا هم ينامون فيه ويطعمون، وقد حضرتُ فيه مآدب كثيرة، وكان معلّمي يقدّم فيها مثل اليوم، علامة على التقوى، ألواناً من الطعام يتقاسمها مع

تلاميذه.

لم يكن لأبي عليٍّ مجلس مرتفع، بل كان يفترش سجّادة، جرياً على مقتضى العادة التي تقول بأنّ على المعلّم أن لا يرتفع فوق حلقة سامعيه، ولم يكن من علامة على أهميّة وظيفته غير هندامه، كان على زيّ الفقهاء بطيلسان، ورأسه محاط بعمامة لُفّت بإحكام، وقد صارت به الهيئة خلال السنوات الأخيرة من شابّ يافع إلى كهل مكتمل الرجولة، وحفّت بوجهه لحية كامدة السواد مشذّبة بعناية، وإذا كانت عيناه قد احتفظتا بالبريق نفسه وبالحدّة نفسها، فقد انضاف إليها اليوم تعبير جديد.

كان منهاج التعليم في المدرسة واضحا، وكانت الدروس ذات أغراض عدّة، يقف على رأسها الأدب بما هو تقويم للسلوك ثمّ بما هو آداب وفنون، وكان لا بدّ للتلميذ من أن يعرف القراءة والكتابة وشيئاً من النحو، ويُعلّم الأطفال خاصّة حفظ القرآن عن ظهر قلب، كما يدرسون الحديث، أي سنّة الرسول في أفعاله وكلماته ومواقفه، لذلك لم يكن من الغريب صباح ذلك اليوم العشرين من ذي الحجّة، أن يستهلّ ابن سينا درسه بهذا السؤال...»

– ما هي قواعد الاسلام الخمسة؟ هل يستطيع أحدكم أي يجيب؟

ارتفعت الأيدي بتلقائيّة، فأشار أبو عليّ إلى أحد الأطفال كيفما اتّفق.

– الشهادتان والصلاة والزكاة والصوم والحجّ.

– أصبت، مع الإشارة إلى أنّ من إخواننا الخوارج من يرى في الجهاد الواجب الأساسيّ للمسلم، لكنّنا سنقتصر على التعاليم الأصليّة تجنّبًا للجدل. إنّ الكتاب لم يخصّ بالتفصيل غير الزكاة والصيام، وقد عرضنا إلى معانيهما في الدروس السابقة، ورأينا أنّهما من الفرائض التي على المسلم أن يحرص على القيام بها طيلة حياته. اليوم أريد أن نتعمّق في الصلاة وأصلها.

توقّف أبو عليّ برهة قبل أن يسأل:

– هل تعرفون كيف تمّ حصر عدد الصلوات في خمس؟

طغت تدخّلات الطلبة الأكبر سنّا عليصمت الأطفال، الذين اعتراهم الارتباك.

– هكذا أمرنا النبيّ.

– جاء ذلك في الكتاب.

اعترض جليس آخر:

– كلاّ، لم يذكر الكتاب غير صلاتين، صلاة الفجر وصلاة المغرب.

تلاحقت الإجابات والاعتراضات والتناقضات، إلى أن قال ابن زيلة:

– جاء في بعض الروايات أنّ هذا الرقم أوحى به موسى إلى النبيّ.

سرت همهمة بين الحضور.

– صاحبنا على صواب، وهذه هي الوقائع: بينا الرسول نائم في الحِجْرِ إذ جاءه جبريل بالبراق، وهو دابّة أبيض بين البغل والحمار، في فخذيه جناحان يحفز بهما رجليه، فحمله عليه، ومضى الرسول ومضى جبريل معه حتّى انتهى به إلى بيت المقدس، فوجد فيه ابراهيم وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء، فاستقبلوه بحفاوة، ثمّ أنّه لمّا فرغ من ذلك أُتِي بالمعراج، فأصعِد فيه سبع سماوات حتّى بلغ سدرة المنتهى، فإذا بها وقد غمرها النور الربّانيّ، وهناك أمِر النبيّ بأن يفرض عليشعبه خمسين صلاة في اليوم.

تلفّت المراهقون وقد هالهم الرقم، فأخذوا ينظرون بعضهم إلى بعض بدهشة واستغراب، فقال أبو عليّ مستأنفًا كلامه:

– أرى لزامًا عليّ في هذا المقام أن أخلص لما وصلنا من نصوص السلف الصالح، لذلك سأقتصر على رواية حديث الرسول صلّى الله عليه وسلّم إذ يقول: «فأقبلت راجعا، فلمّا مررت بموسى بن عمران، ونعم الصاحب كان لكم، سألني كم فُرِض عليك من الصلاة؟ فقلت خمسين صلاة كلّ يوم، فقال إنّ الصلاة ثقيلة وإنّ أمّتك ضعيفة، فارجع إلى ربّك فاسأله أن يخفّف

عنك وعن أمّتك، فرجعت فسألت ربّي أن يخفّف عنّي وعن أمّتي، فوضع عنّي عشْرًا، ثمّ انصرفت فمررت على موسى فقال مثل ذلك، فرجعت فسألته فوضع عنّي عشرا، ثمّ لم يزل يقول لي مثل ذلك، كلّما رجعت إليه قال فارجع فاسأل، حتّى انتهيت إلى أن وضع ذلك عنّي إلاّ خمس صلوات في كلّ يوم وليلة، ثمّ رجعت إلى موسى فقال لي مثل ذلك، فقلت قد راجعت ربّي وسألته حتّى استحييت منه، فما أنا بفاعل...»

تطلّع أبو عليّ إلى طلبته قلب أن يختم قائلاً:

– «فمن أدّاهنّ منكم إيمانًا بهنّ واحتسابًا لهنّ، كان له أجر خمسين صلاة مكتوبة.»

تواصل الدرس بعد أن انقشعت سحب الدهشة، وحدث لأبي عليٍّ أن كرّر حديثًا مرّتين أو ثلاثًا حتى يستوعب التلاميذ ما خفي من معانيه، ثمّ انتقل إلى درس الإملاء.

– أقترح عليكم قصيدة الآفرينامه لصاحبها أبي الصقور، وهو من بلخ، وقد توفّي منذ مدّة، لكنّي أعتبره أفضل من وضع للرباعيّة شكلها الفارسيّ الخالص، وسأملي عليكم بعد ذلك عددا من آيات الذكر الحكيم.

قال أحدهم مذهولاً، يكاد يغصّ بريقه:

– ولكن أيّها الشيخ الرئيس، ألم يغلب القول بعدم جواز أن يتمرّن الأطفال في الإملاء على كلمات الكتاب الكريم؟

هزّ أبو عليّ رأسه بلامبالاة:

– دعك من هذا، فإنّ الله أعلم بما هو حقّ وما هو باطل.

ما أن فرغ من الإملاء، حتّى أكبّ على الألواح يتفقّدها بانتباه واحدا واحدا، مصوّبا الكتابة، مبيّنًا الأخطاء، وما أن مسح الأطفال ألواحهم بواسطة الجهة المسطّحة من المسبر، حتّى استعدّ لإملاء الآيات التي انتقاها، ولا أدري لماذا اختار معلّمي يومها الآية ٨٤ من سورة آل عمران، وفيها: «قل آمنّا بِالله ومَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ

وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُون»[1]

كانت الشمس قد أشارت إلى منتصف النهار حين سمح أبو عليّ لأصغر تلاميذه بالانصراف، ولكنّه أراهم قبل ذلك فتحة مجعولة في أرض الفناء، غير بعيد عن الحنفيّات المخصّصة للوضوء، وحثّهم على أن يغسلوا ألواحهم الطينيّة جيّداً، ممسكين بها فوق الفتحة، لأنّ تحت الأرض قناة تحمل ماء الغسيل من تلك الفتحة إلى قبر باني الجامع، وهكذا تُسقى رفاته بانتظام، بماء يحوي كلمات من القرآن الكريم.

بعد الفراغ من صلاة الظهر، استأنف أبو عليّ درسه الخاصّ بالمعلّمين والطلبة العلماء القادمين من جهات فارس الأربع.

وقد جرى الحديث عن الأدب والتقاليد والمنطق والأعداد وعلوم الأجسام والطبّ. وأملى أبو عليّ في تلك الظهيرة ما يربو على مائة ورقة، وحين غادر الجامع مصحوباً بابن زيلة، كانت الشمس قد أذنت بالمغيب، وأرخى شفق الغروب أشعّته على المدينة.

كان الرجلان يتبادلان فضلة من حديث على عتبة بيت الله، حين لحظ التلميذ رجلاً في الخمسين من العمر، بالغ النحافة شديد الامتقاع غائر القسمات، يتقدّم مترنّحا، ويتفصّد عرقًا تحت أحماله، على الرغم من برودة الجوّ وقلّة الأحمال.

– هذا رجل قد أفرط ولا شكّ في تناول خمر سجديان، انظر إليه كم يترنّح، لكأنّه نخلة في مهبّ ريح شوّال.

تطلّع أبو عليّ بدوره إلى الرجل وحدّق فيه النظر، وفجأة، قال لتلميذه:

– تعال ياحسين، ولنتبعه.

تفرّس ابن زيلة في وجه الشيخ مندهشا:

– هل تظنّ يا معلّمي، أنّ علينا أن نتبع هذا السكران؟

لكنّ الطبيب كان قد انطلق في إثر الرجل، وفيما الرجل يتقدّم في متاهة

الشوارع والأزقّة المعتمة، كان بالإمكان رؤية مشيته تزداد وهنًا.

قال أبو عليّ بحماس متزايد:

– راقبه جيّدًا يا حسين، هذا التعس لا يعرف أنّ الظلّ الذي يتبعه ربّما كان ظلّ الموت.

بعد برهة، شاهداه يدلف لاهثًا إلى دار صغيرة، غير بعيد عن القصر.

قال ابن زيلة وقد ازداد حيرة:

– والآن؟

– لنقف هنا، فلن يطول بنا الانتظار.

لم يفرغ من كلامه حتّى تعالى النواح من المنزل، وفورًا، فتح الباب بعنف، وكشف عن شبح امرأة، أخذت تصرخ و تولول باكية نادبة:

– مات، زوجي مات، رحمتك يا ربّ...

رمق أبو عليّ تلميذه كما لو أنّه يسأله: ألم أقل لك، ثمّ قال بلطف:

– لن نحلّ محلّ الله، ولكن، لعلّ الله سخّرنا لمشيئته.

ودون أن يأبه للمرأة وهي تبكي وتئنّ، هبّ إلى داخل الدار، حيث كان في انتظاره مشهد جنائزيّ محزن. كان الرجل طريحًا على الأرض، وكأنّ وجهه قد فرغ من الدم، ولولا عيناه المفتوحتان في اتّجاه العدم، لخيّل إلى الناظر أنّه نائم.

صاحت المرأة من جديد:

– وا حسرتاه، فاضت روحه من بين شفتيه.[٢]

كانت قد رجعت إلى بيتها، مخفورة بحشد من الجيران.

– اختطفه عزرائيل، لماذا يا ربيّ؟ لماذا؟

حاول ابن زيلة مواساتها قدر جهده:

– ملاك الموت رسول من عند الله تعالى، وإذا كان قد قبض روح زوجك فهذا قضاؤه، ولا رادّ لقضاء الله.

كان أبو عليّ في الأثناء قد حلّ ثياب الرجل، ووضع رأسه على القفص

الصدريّ منصتًا إلى الجسد، ثمّ فحص الأطراف ولاحظ أنّها في برودة ليالي بامير.

اقترب أحد الحضور وأمسك بيد المرحوم، أو من كان يعتقد أنّه كذلك، ثمّ أطلقها، وقال بوقاهر ظاهر، وهو يرى اليد تقع أرضًا بلا حراك:

– رحمه الله.

هتفت المرأة مفزوعة، وهي ترى أبا عليّ يواصل نزع ملابس زوجها:

– ماذا تصنع؟ ألا ترى أنّ الأوان قد فات؟

تجاهل الطبيب احتجاج المرأة وسألها:

– هل عندك عسل؟ كثير من العسل؟

أومأت بالإيجاب حائرة.

– حسنًا، ستقومين بتغلية ماء، ثمّ تذيبين فيه العسل، هل فهمت؟

صرخ أحدهم في صوت يشبه الأنين:

– ولكن ألا ترى أنّه قد فات الأوان؟

– هل يعقل التمثيل برُفات مؤمن؟

ألجم المرأةَ التردّد، فاستحثّها أبو عليّ بشدّة:

– إذا أردت لزوجك أن يعيش فنفّذي ما أمرتك به، بسرعة.

أسرعت نحو المجمرة.

أضاف أبو عليّ متوجّهًا إلى تلميذه:

– وأنت يا حسين، افتح خرجي، ستجد فيه محقنة إجّاصيّة، املأها بنبيذ العسل حالما يحضر.

أمام عيون الفضوليّين المستنكرين الذي تجمهروا في الغرفة، أكمل أبو عليّ تجريد الجسم قبل أن يقلبه على بطنه.

صرخ أحدهم بغضب:

– ولكن من أنت؟ من أعطاك الحقّ في المساس هكذا بكرامة الميت؟

هزّ أبو عليّ كتفيه، فهمس في أذنه ابن زيلة:

- لن ننجو من أذاهم إذا استمرّ الوضع.
- دعك منهم، إنّهم ينبحون ولا يعضّون.

كان الجوّ قد توتّر في الغرفة، وازداد توتّرًا حين عادت الزوجة بإبريق يتصاعد من فمه الدخان.

نفّذ ابن زيلة ما أمره به الشيخ، ثمّ ناوله المحقنة بعد أن أحكم سدّ أنبوبها. انتظر أبو عليّ بعض الوقت حتّى يفتر خليط الماء والعسل، ثمّ عمد أمام عيون ملأها الاستنكار، إلى إيلاج الانبوب في شرج الرجل.

- حقنة شرجيّة لجثّة هامدة؟ هذا الرجل كافر.

لم يعبأ الشيخ بالاضطراب الذي أحدثه في من حوله، بل أكمل ما كان بصدده، وحين تأكّد من أنّه ضخّ كميّة السائل المعسّل إلى آخرها، قلب الجسم على ظهره من جديد، وقال:

- الآن، علينا أن ننتظر حتّى يسري العسل في الدم.

صرخ أحدهم:

- هذا غير معقول، إنّه مجنون، اطردوه من هنا.
- أجل، كفى، ليرحل.

بدأ الخناق يضيق على الشيخ وتلميذه بشكل خطر، فهمس هذا الأخير في أذن معلّمه مذعورًا:

- لابدّ من الخروج أيّها الشيخ الرئيس.
- الزم الهدوء يا حسين، ودع الأمر لي.

نهض متمهّلاً، وحدج الحشد الزاحف في اتّجاهه بنظرة ثابتة:

- لماذا تهتاجون هكذا؟ أنا لا أطلب منكم شيئًا عدا إعمال العقل، إذا كان صاحبكم هذا قد مات فلن يضيره شيء ممّا أفعل، هل يمكن أن نقتل شخصًا مرّتين؟ هل يمكن أن نقطع عنقًا مرّتين؟ وإذا كان في هذا الجسد رمق من الحياة، فلا يمكن لحقنة من العسل أن تأتي عليه.

ثمّ فتّش في خرجه، وأخرج ساعة رمليّة صغيرة، وضعها على الأرض

قائلاً:

– إذا امتلأ النصف الأسفل رملاً دون أن يكون صاحبكم قد تعافى، جاز لكم أن تدعوا حرّاس القصر كي يأخذوني.

تباحث الرجال في ما بينهم وقد بلغت منهم الحيرة كلّ مبلغ، وعلى الرغم من أنّ كلام الطبيب قد أغراهم بعض الإغراء، فإنّ أحدًا منهم لم يجرأ على أخذ المبادرة بشيء، وكانت الزوجة هي التي غمغمت أخيرًا بصوت خافت:

– وماذا لو أنّ معجزة...ماذا. ..لو حدثت معجزة؟

انفرجت الحلقة فجأة وبدأ الانتظار.

تسمّرت العيون على ذرّات الرمل تنساب عبر طوقها الزجاجيّ.

نبح كلب في الخارج مهشّمًا الصمت المطبق، وبين الحين والآخر كان يعلو حفيفُ كُمٍّ، أو احتكاكُ قدمٍ بالأرض، أو آهة ملل.

كان ابن زيلة ممتقعًا، لا تفارق عيناه هو أيضًا الساعة الرمليّة، وكأنّه يحاول بكلّ قواه العقلية أن يمنع ذرّاتها من السقوط. بعد برهة، لم يبق إلاّ خيط وحيد من الرمل، رفيع، واه، يكاد يكون شفّافًا، خُيّل إلى الجميع أنّه تسمّر لحظة في العنق الضيّق الذي يفصل بين نصفيّ الساعة الرمليّة، ثمّ لم يلبث أن سقط.

التفتت كلّ الوجوه نحو ابن سينا. لم يكن الجسد الطريح قد تحرّك.

جسّ أبو عليّ نبض الرجل، قبل أن يقول ثابت الجنان:

– حسنًا، بإمكانكم الآن دعوة الحرّاس.

ندّت عن المرأة شهقة.

وهمّ البعض بالاتّجاه نحو الباب.

في اللحظة نفسها كان ابراهيم، وذاك هو اسم "المرحوم"، يطرف بعينيه، أمام دهشة الجميع، ويحاول النهوض، مغمغمًا كمن يخرج من نوم عميق:

– يا إلهي، ما الذي حدث؟

أمام هذه المعجزة، انفجرت صيحات الرعب والإعجاب، ولم تتمالك

المرأة عن أن تغمغم قبل أن تسقط مغشياً عليها:

- لقد تغلّب على عزرائيل.

فردّدت أصوات أخرى، كأنّها الصدى:

- لقد تغلّب على عزرائيل.

تلا ذلك هرج ومرج وتدافع رهيب، وإذا الكلّ يرغب في الدنوّ من المبعوث إلى الحياة، يريد أن يلمسه، أن يراه، أن يتحدّث إليه.

اغتنم أبو عليّ فرصة انشغال الآخرين عنه، فاستعاد ساعته، وأحكم إغلاق خرجه، ودعا ابن زيلة للحاق به، وما أن وصل إلى خارج البيت، وأمام دهشة تلميذه، حتّى أخذ يجري لا يلوي على شيء، هابطًا الشارع كالمجنون، ولم يتوقّف إلاّ وهو على باب القصر.

قال ابن زيلة بعد أن لحق به، وكان يحاول استرجاع أنفاسه:

- أيّها الشيخ الرئيس، لم تترك لهؤلاء الناس فسحة من الوقت حتّى ليشكروك.

هزّ أبو عليّ رأسه، ماسحًا العرق المتهاطل من جبينه.

- وهل ظننت أنت أيضًا، أنّ الرجل كان قد مات؟

أجابه ابن زيلة بالنفي.

- أصبت، فقد كان مصابًا بغشيان.

- من السكر؟

- كلاّ، كان يكفي أن نلحظ نحوله، والامتقاع غير العاديّ لوجنتيه، ونفسه القصير، والعرق الذي يكسو وجهه بإفراط، والجهد المضني الذي يبذله لحمل أمتعته القليلة، وخاصّة مشيته المترنّحة، كان يكفي أن نلحظ ذلك، لنفهم أنّ التوازن التامّ الذي يجب أن يسود داخل كلّ كائن، كان على وشك الانهيار.

- المعذرة يا معلّمي، لكنّي أتابعك بصعوبة.

– اسمع يا حسين، إنّ طبائع البشر ثلاثة أنواع: الطبيعة الغضبيّة والطبيعة الدمويّة والطبيعة الجافّة، وحين يحدث لسبب أن يعكّر أو يغيّر إحدى هذه الطبائع، فإنّه يكفي لإحداث الوهن والإختلال، ومن البشر من هو متهيّئ سلفًا ليُصاب بهذا المرض، إذ تجدر الإشارة، وهذا أمر هام، إلى أنّ السبب الفاعل إذا لم يجد الجسد مهيّأً له، لم يؤثّر فيه، بل ظلّ بدون فعاليّة. ويمكن أن نسمّي هذه الحالة التي أعترف أنّي لم أقف لها على تفسير، المناخ الملائم أو القابليّة.

– وفي حالة هذا الرجل؟

– بنيته الضعيفة اضطرّته إلى أن يغترف من ذاته قدرًا كبيرًا من الطاقة، بصفة غير عاديّة، إلى أن بات يستهلك طاقته دون أن يعوّضها، ومن ثمّ نشأ اختلال التوازن الذي حدّثتك عنه، وكانت وصفتي محاولة لإعادة شحنه بالطاقة الحيوية، التي افتقدها بعد أن تلاشت من جسده، وهل ثمّة أفضل من العسل لهذا الأمر.[٣]

صمت ابن زيلة معجبًا، قبل أن يسأل:

– هذا عجيب، لكنّي لم أفهم حتّى الآن، ما الذي اضطرّك إلى الهرب؟

– فكّر قليلاً يا حسين، أنا وأنت نعلم أنّي لم أبعث هذا التعس من الموت، أمّا أولئك الناس فإنّهم واثقون اللحظة من العكس تمامًا، ألم تفهم بعد؟

أومأ التلميذ برأسه نافيًا.

– الأساطير تسري بأسرع من الريح، وقد هربت كي لا يعرفني أحد منهم، وإلاّ فإنّك لن تسمع من الغد، وفي كلّ كركانج من البازار إلى الجامع، غير حديث ابن سينا الذي يحيي العظام وهي رميم.

لم يتمالك ابن زيلة عن الضحك.

– لكن هذا يزيد في مجدك أيّها الشيخ الرئيس.

– ألا ترى أبعد من أرنبة أنفك؟ وهب أنّ زوجة الأمير غدًا أو أحد أقربائه أو الخليفة نفسه مات، ألن أُدعى إلى القيام بهذه المعجزة التي ستكون قد

نُسبت إليّ دون وجه حقّ؟ ولحظتها يا صديقي، ألا ترى أنّي سأكون في حرج لا أحسد عليه؟

وأضاف مستنتجًا:

– يومها لن يساوي رأسي المسكين، أكثر ممّا تساويه قطعة من الجلد تحت شفرة دبّاغ.

أشعّت عينا الفتى ببريق مساندة.

– والآن يا صديقي، حان وقت الفراق، لقد كان يومًا عسيرًا، فليسعد الله مساءك يا ابن زيلة.

– ليكن الله في عونك، وليسدّد خطاك يا معلّمي.

ما أن دخل فناء القصر حتّى شعر بحركة غير عاديّة. كان هناك جنود في أزياء لا يعرفها، يروحون ويغدون، وعلى مقربة من الاصطبلاّت سوّاس يرفعون السُرُج عن الخيل، كما لاحظ أنّ عدد الحرّاس تضاعف أعلى برج المراقبة. اجتاز السقيفة، فإذا سوسن قيّم القصر يسرع نحوه، في هالة هائلة من حركة الأكمام.

– أين كنت يا شيخ؟ منذ ساعات ونحن نبحث عنك في أرجاء المدينة.

– لماذا؟ ما الذي حدث؟ هل الأمير بخير؟

– لو كانت لي الجرأة الكافية، لقلت إنّ ما يحدث أخطر ممّا لو كان الأمير مريضًا، أسرع إلى قاعة الاستقبالات فالبلاط كلّه مجتمع هناك، وسيطلعونك على جليّة الأمر.

كان القيّم على حقّ، فالقاعة مزدحمة بالضيوف، المسيحيّ، العرّاق، ابن الخمّار، الوزير، الأمير نفسه. لم يغب أحد عن الجلسة. وهو لا يذكر أنّه حضر اجتماعًا مثل هذا، طيلة سنواته التسع في كركانج.

كان الكلّ يتكلّم في الوقت نفسه، ومن الصعوبة أن يفهم أحد ما يقال.

صرخ الوزير السهيليّ بصوت هادئ:

– صمتًا من فضلكم، إنّنا في القصر ولسنا في دار الوكالة.

بحث أبو عليّ عن ابن مأمون بعينيه، وفوراً، فاجأته هيئته: الجسد متهالك، الوجنة ملقاة على راحة اليد في لا مبالاة. كان يبدو منهاراً.

قال السهيليّ وهو يدعوه إلى الاقتراب:

– السلام عليك أيّها الشيخ الرئيس، لقد سبّبت لنا قلقًا كبيراً.

أراد ابن سينا أن يشرح له الأمر:

– كنت أعالج مريضاً و...

لكنّ الوزير لم يتح له الوقت كي يواصل.

– وصلتنا أخبار سيّئة من غزنة، أخبار شديدة السوء.

وأشار إلى شخص كان يقف على مبعدة من الجميع:

– هوذا مبعوث محمود الغزنويّ، لقد وصل منذ قليل.

انحنى الرجل بتصنّع ظاهر أمام ابن سينا، فيما واصل الوزير الكلام.

– الملك يأمر كلّ علماء كركانج وكلّ فنّانيها بالشخوص إليه فوراً، كلّهم بدون استثناء، عليهم أن يرحلوا إلى بلاط غزنة في أقرب الآجال.

– كلّهم؟

– بدون استثناء.

صعق الخبر ابن سينا، فتطلّع ذاهلاً إلى أصدقائه واحداً واحداً، العرّاق، ابن الخمّار والآخرين، وفاجأته فوراً علامات الاستسلام التي كان يمكن قراءتها بيسر على وجوههم.

تدخّل المبعوث الغزنويّ، وكأنّه رأى حاجة إلى التفسير:

– سيخصّص لكم راتب ملكيّ مرموق، ولن تحتاجوا إلى شيء، بل بالعكس، فمحمود كرّم الله اسمه، سيجزل لكم العطاء.

أغمض الطبيب عينيه، ورجعت إلى ذاكرته دفعة واحدة، الكلمات التي كان قالها ذات يوم قبل سنوات من الآن، مخاطباً البيرونيّ ":لا أدري بالنسبة إليك، أمّا أنا فلن أكون في خدمة الأتراك"...

أخذ نفَساً عميقاً، ثمّ توجّه إلى المبعوث الغزنويّ بالحديث:

– في هذه الحال، سيكون على الملك أن يصرف نظره عن أحدنا.
صحّح المسيحيّ يعفويّة:
– بل عن اثنين منّا.
ظلّ المبعوث ينظر إلى الوزير منتظرًا توضيحًا، كأنّه لم يفهم.
قال السهيليّ بنبرة مصالحة:
– كأنّي بك لا تفهم الوضع أيّها الشيخ الرئيس، إنّها ليست دعوة، إنّه أمر.
– من الأوامر ما يشبه الإهانة يا عزيزي السهيليّ.
– ليس لنا خيار.
هذه المرّة، كان الأمير هو الذي عبّر عن موقفه، وقال ثانية:
– ليس لنا خيار، فلن نخاطر بحرب مع الغزنويّين، وضدّ من؟ ضدّ صهري؟ لابدّ من إجابته إلى طلبه.
– سيجاب إلى طلبه دون شكّ، فطلب الأمراء أوامر، أمّا في ما يخصّني، فإنّي سأسمح لنفسي بالاعتراض عليه.
صرخ ابن مأمون:
– جنون، هذا جنون، تبيع كركانج بحبّتي شعير.
تظاهر بتمزيق ياقة بردته، ثمّ واصل غاضبًا:
– لتعلم على أيّ حال أنّك من بين علمائي، من سيترك رحيله أقلّ حسرة في قلبي.
وأضاف معيدًا ترتيب هندامه:
– لا تحسب أنّنا غافلون عن الحياة الماجنة التي تحياها منذ وطأت قدماك أرض كركانج، وعمّا تدرّسه في الجامع عن أصل الصلوات الخمس.
احتقن وجه أبي عليّ وهو ينتبه إلى التلميح الذي كاد لا يخفى، وصرّ على أسنانه متأهّبا للردّ، غير أنّ الوزير همس في أذنه:

– اذهب أنت والمسيحيّ فانتظراني عند حوض الزئبق، هيّا.

ثمّ دار على عقبيه ودنا من المبعوث الغزنويّ، متظاهرا بالارتياح:

– بإمكانك أن تقول لمولاك، إنّ الشيخ وكلّ زملائه تحت أمره، وسيشخصون إليه من الغد بعد صلاة الفجر.

*

في العتمة المخيّمة على الحديقة، لم يكن من السهل التفطّن إلى الأشباح الثلاثة وهي تجوب الممرّات الطويلة. كان الهواء جافًا ونديًّا في الوقت نفسه، مثقلاً بالرطوبة القادمة من بحر خوارزم.

ألقى الوزير نظرة من على كتفه ليتثبّت من أنّ أحدًا لا يقتفي أثرهم، وسأل ابن سينا للمرّة الثانية:

– أواثق أنت من أنّه قرارك الأخير؟ ألن تذهب إلى غزنة؟

أكّد أبو عليّ الأمر.

– أظنّك تقدّر ثمن قرار مثل هذا؟

– المصائر والأقدار بيد الله وحده. أتعلم يا سهيليّ أنّي شرعت منذ مدّة في تأليف رسالة في القضاء والقدر؟ اطمئنّ، فلن أسرد عليك التفاصيل، ولكن اسمح لي بأن أقدّم لك فلسفتي، وإذا لم يبد لك هذا التمشّي أكثر غرورًا ممّا ينبغي، فاقبل كلماتي كما لو أنّها نصائح.

"اسبق الزمن واحكم بنفسك على الكون، سواء أكان في صالحك أم ضدّك، كما يفعل الله مع مخلوقه. "وقد حكمت: لن أذعن للتركيّ.

تنحنح المسيحيّ على استحياء.

– في هذه الحالة لم يعد لك من خيار، لابدّ من الهرب، لابدّ من مغادرة كركانج فورًا، غدا قد يفوت الأوان، سأضع على ذمّتكم دليلاً وجيادًا، ولترحلوا فورًا.

سأل المسيحيّ قلقًا:

– إلى أين؟

فكّر أبو عليّ برهة قبل أن يجيب:

– سنذهب للقاء البيرونيّ في بلاط صائد السماني.

– لكنّ جرجان على بعد أكثر من مائتي فرسخ من كركانج، إنّها رحلة طويلة وشاقّة.

– لا تخف، سنأخذ الوقت الكافي، وسنغتنم الفرصة كي نتوقّف قليلاً في بخارى، فأنا منذ تسع سنوات لم أر أمّي ولا أخي، وقد اشتقت إلى ضمّهما إلى صدري.

ردّ المسيحيّ بابتسامة واهنة:

– ليت شوقنا إليهما يمنحنا أجنحة تخفّف عنّا تعب الطريق، وإن كنت سأفرح لرؤية جرجان، فهي مسقط رأسي على أيّ حال.

تأمّل أبو عليّ في عيني الوزير وسأله:

– لماذا تفعل معنا كلّ هذا؟

أبدى السهيليّ وجهًا هادئًا وقال:

– ربّما لأنّي أنا أيضًا قد حكمت.

*

وقفت سنجة قرب النافذة، تراقبه وهو يرتّب أوراقه. لم تقل شيئًا حين اخبرها بعزمه على السفر، لكنّ الضباب الذي غشّى عينيها لم يكن يخفي على الناظر أنّها تخفي تحته كلّ أحزان العالم.

هو أيضًا اسودّت الدنيا في عينيه. تقدّم منها في مضطربا ومدّ يده بورقة صغيرة.

– وددت لو أهديتك صناديق مترعة بالذهب، وكلّ كنوز أصفهان وحقولها، ولكن للأسف، ليس لي ما أهديك سوى هذه الورقة.

لم تجبه بشيء. فتحت الورقة وأخذت تشرب كلماتها:

"آه يا رياح الشمال، ألا ترين مبلغ يأسي؟ لماذا لا تجيئين بشيء من أنفاس سنجة؟ هبّي أيّتها الرياح، هبّي في اتّجاهها وقولي لها أيّتها الرائعة،

أيّتها الرائعة سنجة، إنّ ما يكفيني منك هو هذا القليل، وأقلّ منه أيضاً، سأتظاهر بنسيانك ليعود قلبي مثلما كان، لكنّي أعلم مسبّقًا أنّي بذلك، سأشعر بأنّ رغبتي أشدّ وأنّ حزني أكثر أبديّة"...

ضمّت الورقة إلى صدرها، ثمّ أمسكت بطرف نقابها، وردّته على وجهها، فلاحظ أنّها أبدلت لثام الحرير الأرجوانيّ، الذي اعتادت وضعه، بشودر أصفر اللون، رمز الألم والأسى.

الهوامش:

١- كثيرًا ما ساورتني الظنون في أسباب اختيار معلّمي لهذه الآيات، ولا أعتقد أنّ لذلك صلة مباشرة بما حدث في بخارى، ومن ثمّ بديانة ستارة، إلاّ أنّ شيئًا ما يؤكّد لي أنّ هذا الاختيار لم يكن بريئًا، فليغفر لي الله إن كنت على خطإ. (الجوزجاني)

٢- تعني أنّه مات أو أنّه يموت. (المترجم)

٣- يبدو أنّ ابن سينا واجه ساعتها ما يسمّيه الطبّ اليوم نوبة نقص سكّر الدم، أو (hypoglycemie). (المترجم)

المقامة التاسعة

كان محمود الغزنويّ مهيبا، لا يخلو من زهو وخيلاء، في تُوجته الزرقاء وعمامته المُرَصّعة بالحجارة الكريمة.

ولم يخطئ سبكتكين والده، حين عيّنه في البداية على رأس قادة جيشه، فقد كان قائدًا جموحًا جسورًا، شهد له أشرس مناوئيه بالصلابة والإقدام.

ولم يلبث أن انتزع مدينة نيسابور من أيدي الهراطقة الاسماعيليّين، فاتّخذها عاصمة له، وحين توفّي سبكتكين تاركًا العرش لابنه الأصغر إسماعيل، ظنّ الجميع أنّ محمودًا سيذعن لمشيئة والده، لكنّه سرعان ما كذّب تلك الظنون، وما هي إلاّ عشرون شهرًا، حتّى انقضّ على غزنة، فخلع أخاه ونصّب نفسه ملكًا على المدينة.

حدث ذلك منذ اثني عشر عامًا، ولم يكفّ طيلة هذه المدّة، عن بسط سلطانه ومجده على فارس كلّها، حتّى دانت له البلاد، وجرى اسم الغزنويّ على كلّ لسان.

إلاّ أنّ أمرًا جدّ تلك الليلة، عكّر نصاعة هذه الصورة، كان أمرًا طارئًا وغير متوقّع، لذلك فهو بالنسبة إلى هذا الذي تعوّد أن ينحت بنفسه مصيره ومصير خاصتّه، أمر لا يمكن قبوله بوجه من الوجوه.

تناول تمرة من قصعة كبيرة منقوشة كانت أمامه، ولاكها متمهّلاً، ثمّ لفض النواة عند أقدام العلماء المجتمعين في قاعة العرش، وبينهم ابن الخمّار، قائلاً بصوت حازم:

– مادام زميلكم الشيخ الرئيس، لا يرى هذا البلاط لائقًا به كي يقدم علينا طوع إرادته، فسنستقدمه بالرغم عن أنفه، وثقوا أنّي لن يهدأ لي بال حتّى أنفذ فيه أمري.

همس القنصل في وجل:

- ولكن كيف نعثر عليه يا مولاي؟ لا شكّ أنّنا نحتاج إلى جيش عرمرم، كي نهتدي إليه في هذا المهمه من الوجوه المتشابهة من تركستان إلى الجبال.

صعّر محمود خدّه قليلاً، ثمّ أشار إلى العرّاق:

- أنت، اقترب، من بين الصفات الكثيرة التي تُنسَب إليك، ثمّة واحدة ستيسّر لنا هذا الأمر بدون شكّ، أنت رياضيّ وفيلسوف، لكنّك رسّام أيضاً أليس كذلك؟

أومأ العرّاق موافقاً.

- إذن فلتعمل لنا رسماً، صورةً لوجه الشيخ الرئيس تكون غاية في الدقّة، أريدها كالأصل تماماً.

- ولكن، من الصعب إنجاز ذلك عن غيب يا مولاي.

- أعلم، ولذلك طلبته منك أنت لا من رسّام آخر، وما أن تفرغ من عملك حتّى نكلّف جميع من في غزنة من رسّامين ومصوّرين باستخراج نسخ عنها، بعدد المدن والقرى والحصون وأبراج المراقبة، ولعلّ هذا اللعين يقرّ لنا يوماً بالفضل في تخليد خلْقَته.

صمت السلطان كأنّه يتثبّت من وقع كلامه في نفوس الحاضرين، ثمّ توجّه إلى السبهدار، قائد الجيش، وكان صوته قد أضحى في صلابة الصخر:

- أُريده، أريد الشيخ الرئيس، حيّاً...

ثمّ أضاف بما يشبه فحيح الأفعى:

- أو ميتاً.

*

غرّد الماء في إبريق الشاي على الجمر.

كان الليل قد أدركهم للمرّة الثالثة منذ أن غادروا كركانج. ليل قطبيٌّ يحجّر بريق النجوم. هكذا الأمر دائماً في هذه البقعة من الأرض، نهار

يشعل الأرض وليل يجمّدها، ومهما تدثّر المسافرون بمعاطف ثقيلة من وبر الجمال، فإنّ البرد لا يلبث أن يجد طريقه إلى عظامهم بمكر، فيحرقها كأن لا فرق بينه وبين النار.

نام الدليل منذ برهة في ظلّ الجياد، واستلقى ابن سينا على ظهره متلفّعًا ببطانيّة من الصوف، وعيناه زائغتان في الكواكب السيّارة.

قال مبتسمًا:

– ما أكثر ما خامرني هذا السؤال المحيّر: ألا تكون حركة النجوم نبض الكون؟

صبّ المسيحيّ قليلاً من الشاي في قدح صغير، ومدّ به يده إلى صديقه معلّقًا:

– إذا صحّ ذلك، فهو النبض الوحيد الذي لن يقدر على جسّه أحد، ولا حتّى الشيخ الرئيس.

أشار ابن سينا مستندًا إلى مرفقه، متطلّعًا إلى نقطة في السماء:

– هل رأيت إلى تلك النجمة؟ إنّها الزهرة، فينوس عند الروم، السلطان الأكبر في نظر بطليموس، وهي تحتلّ الدرجة الثالثة بدءًا من الداخل، في نظام الأرض المركزيّ، هل تعرف ذلك يا أبا سهل؟

– وهل تظنّني جاهلاً إلى هذا الحدّ؟ أشكّ أحيانًا في أنّك لازلت تذكر أنّني أديب وعالم أنا أيضًا، وأنّي علّمتك الطبّ، وأنّك لولاي لظللت تائهًا عن طريقك إلى اليوم، أجل، عندي والحمد لله بعض العلم بالفلك، لكنّ أنظمتك المركزيّة الأرضيّة ترهقني وتصيبني بالدوار، وما الزهرة أوّلاً وأخيرًا، بالنسبة إلى أمّيٍّ مسكين مثلي، إلاّ ربّة الحبّ.

تناول أبو عليّ رشفة من الشاي الساخن، قبل أن يجيبه بنبرة متخابثة:

– لا جديد في كلامك يا معلّمي السابق، فأنت تكرّر ما قاله المصريّون واليونان، وليس في هذا الكلام ما يمتّ إلى العلم بصلة.

– طبعًا، فيجب في نظرك أن يكون كلّ شيء "علميًّا"، حتّى الحبّ.

– الحبّ هو الأكثر غموضًا من بين أسرار الكون كلّها يا مسيحيّ، الحبّ قريب من الله، ولا يحسن بنا أن نستخفّ به.

– تجيد الحديث عنه، لكنّي أشكّ في قدرتك عليه، أقصد حبّ النساء.

– لو أجبتك بأنّي أسير على هدي ذاك المثل القائل: "لا تثق بثلاثة، المَلك والحصان والمرأة، المَلك لأنّه مَجُون، والحصان لأنّه حرون، والمرأة لأنّها خؤون"، فهل تصدّقني؟

– ولِمَ لا أصدّقك وأنا أرى كيف تركت تلك الفتاة الهنديّة، ألا تستحقّ منك عِشْرَةُ السنوات التسع أكثر من تلك القصيدة البائسة، حتّى وإن كان قائلها ذائعُ الصيت أبو عليّ بن سينا نفسه؟

– أنت زنديق حقًّا يا أبا سهل، ولا تفقه شيئًا في أمور الحبّ، لقد أحببت سنجة ولازلت.

– إذنْ فلماذا تركتها في كركانج؟

ألقى سؤاله، وظلّ يتفرّس في وجه صاحبه كأنّه يريد إلهامه الجواب، وحين أعياه الانتظار، ردّ على كتفيه بطانيّته الصوف ودار على جنبه مغمغمًا:

– هوذا سؤال سيدفئ ليلتك هذه دون شكّ.

*

خرجت عليهم طلائع الفجر من بين مرتفعات خراسان، وهم يتقدّمون في اتّجاه الجنوب الشرقيّ، حيث كان يمكن للرائي أن يحزر الخطّ المتموّج لـ "اللفافة الذهبيّة"، نهر زرافشان، فيما لاحت الأسوار عن بعد، شبيهة بشبكة دنتيلاً سمراء مذهّبة، وتراءت عن يمينها أنقاض السور القديم، المسمّى حائط العجوز.

بخارى.

تسارعت دقّات قلب أبي عليٍّ وهو يرى إلى هذا المشهد، حيث وُلد وترعرع. ترنّحت ذاكرته تحت دفقٍ من الأحاسيس، وبحركة سريعة، لكز

دابّته متجاوزًا الدليل الذي كان يخبّ إلى جانب المسيحيّ.

بعد برهة كانوا يجتازون سويّة قرية سامتين الصغيرة، غير بعيد عن المسجد الذي أقيم في عهد نوح الثاني، لاستقبال المصلّين الذين لم يعد يتّسع لهم الجامع القديم. ولّوا الظهر إلى القرية، واتّجهوا نحو أحد الأبواب الأحد عشر التي تحفر السور، ملتقين

في طريقهم بأوّل الفلاّحين الهابطين في اتّجاه الحقول، تحت لذع السياط الأولى لضباب القيظ.

خفّفوا من سرعتهم عند باب النعاج، وكانوا يهمّون باجتياز البوّابة ذات القوس، حين لفت شيءٌ ما انتباه المسيحيّ: لافتتان مثبّتتان على الحجارة على جانبي الباب.

– علينا أن نرجع على أعقابنا فورًا.

– ما الذي حدث؟ كأنّي بك قد رأيت واحدًا من الجنّ.

– لم يكن الجنيّ ليفزعني أكثر ممّا رأيت.

– ما الأمر؟

– رأسك، رأسك بمكافأة.

– ماذا تقول؟

كانوا قد بلغوا ساحة رجستان، غير بعيد عن البازار الكبير المسقوف. أمامهم وعل مسافة أذرع قليلة، لاح لهم إعلان آخر ملصق على حائط حجريّ.

صرخ المسيحيّ:

– انظر، إنّه أنت حقًّا.

أدار عليّ لجام دابّته غير مصدّق، واتّجه إلى حيث أشار المسيحيّ، وفيما هو واقف يقرأ النصّ المثبت على الباب، خيّل إليه أنّ ريحًا باردة تعصف بأطرافه:

«بسم الله الرحمان الرحيم، هذا أمرٌ من مولانا السلطان المعظّم ملك

غزنة وخراسان، أمّا بعد فإنّ على كلّ من يعثر على من هذه صورته، المسمّى ابن عبد الله أبي عليّ بن سينا، أن يقبض عليه أو يخبر عنه، وله خمسة آلاف درهم جزاء على عمله الصالح.»

هتف الدليل مدهوشًا:

– يا الله! كم تشبه الصورة الأصل!

قال أبو عليّ:

– لا أرى في فارس كلّها رسّامًا قادرًا على مثل هذا، غير صاحبنا العرّاق.

– وما شأننا بصاحب هذه التحفة الرائعة؟ علينا الآن بمغادرة بخارى فورًا.

– نغادر بخارى؟ ونحن على مرمى حجر من ستارة ومحمود؟ لا أظنّك جادًا في الأمر.

– ولكن...

– لا سبيل إلى ذلك.

قال الدليل متوسّلاً:

– ألا ترى أيّها الشيخ الرئيس أنّ دارك هي أوّل مكان يتربّص لك فيه العيون والجواسيس.

– إنّه على حقّ، سيكون الأمر دفعًا بالنفس إلى التهلكة.

– إذنْ لننتظر الليل، فليس لقوّة في الأرض أن تمنعني من رؤية أمّي وأخي، لنغادر المكان، ولنصبر خارج المدينة حتّى تغرب الشمس.

هزّ أبو عليٍّ ركابيه بشدّة، واتّجه من جديد نحو باب النعاج.

*

مازالت الدار مفعمة برائحة المسك والخبز الساخن، كعهده بها، وعلى الرغم من السنوات الطويلة لم تتغيّر ستارة كثيرًا، تعرّف في وجهها على النقاء نفسه، وفي عينيها السوداوين اللتين أحاط بهما كحل طفيف، على

نظرات الاستسلام نفسه، الذي تقابل به نساء هذه البلاد تصاريف القدر وأحكامه. كانت فرحة اللقاء شبيهة بلحظات السعادة القصوى، تلك التي تتغلّب فيها الدموع على الضحكات. لكنّه أحسّ بقلق على محمود.

كان محمود ضعيف البنية منذ طفولته، ولأمرٍ ما، فقد مُنِع عليه ما أُنعم به على أخيه من قوّة ومضاء، وحيث كان هذا يفصح عن حيويّة جسدٍ ونشاط ذهن، كان الآخر أشبه بقلعة ملغمة من الداخل، فكأنّ الطبيعة كانت تمنح أبا عليٍّ ما تأخذه من محمود، هكذا، دونما سبب. لذلك حاول أن يطمئن نفسه، متعلّلاً بأنّ محمودًا مازال كما هو، منذ أن تركه وغادر بخارى.

توسّطوا بيتَ الآجرّ المشويّ، وأخمدت ستارة كلّ الأنوار تحسُّبًا من العيون. كان البدر قمرًا متربّعًا على عرشه، ومن النافذة المفتوحة على الفناء، تسلّل ضوءه متهدّلاً على قسمات الأشباح المتربّعة في الداخل.

همست ستارة بحنان:

– مازلت على جنونك يا ولدي، ما كان عليك أن تعرّض نفسك إلى هذه المخاطر، منذ ثلاثة أيّام والغرباء يحومون حول البيت.

– مامك، لا تخشي شيئًا، لم يرنا أحدٌ ندخل ولن يرانا أحد نغادر.

مدّت يدها إلى الخرزة الزرقاء الصغيرة المتدلّية من عنق ولدها، وفركتها برهة بين أصابعها:

– حسنًا فعلت إذ احتفظت بهديّة جارتنا، ولكن، لعلّها لم تعد كافية لتطرد عنك عيون الحسد والنميمة.

زفر المسيحيّ:

– ولدك يلزمه خرزة في حجم جوز الهند.

سألت ستارة:

– أمازلت تذكر الشيخ العروضيّ؟

– كيف أنساه ومثانته عالقة بذاكرتي.

– مضت اليوم ثلاثة أعوام على وفاته.
– ووردة، ما الذي صارت إليه؟
– تزوّجت على إثر موت أبيها تاجرًا ثريًا من نيسابور، وهي تعيش الآن هناك مع أمّها.
خيّل إلى أبي عليّ أنّه يحسّ بين شفتيه رجعًا بعيدًا لمذاق الخوخ واللوز.
سأل محمود:
– أحقًا تزمعان الذهاب إلى جرجان؟ ولكنّها في الطرف الآخر لفارس، وقد تقعان على إحدى الدوريّات، فضفاف بحر الخزر تعجّ بالحصون وأبراج المراقبة.
– لا تهتمّ، سنكون أخفى من الريح، ولكن حدّثني عنك يا محمود، أين تعمل الآن؟
– في مزارع سمتين، الأجرة قليلة لكنّ العمل غير متعب.
قال المسيحيّ بشيء من التحرّج:
– ستارة، بطني تصرخ من الجوع، ألا أجد عندك بعض الخبز وشيئًا من تلك "العُقد" التي لا أحد يعرف سرّها مثلك؟
قهقه محمود:
– ها هو المسيحيّ الذي أعرفه يكشف عن وجهه أخيراً.
أضاف أبو عليّ:
– إنّه ليس بشراً، إنّه محض بطن.
كانت ستارة قد غادرت إلى المطبخ.
ربت محمود ممازحًا على بطن المسيحيّ:
– حقًا، يا له من بطن معتبر!
وكان يهمّ بسحب يده، حين قبض عليها ابن سينا فجأة، ودون سبب ظاهر، أرغم الفتى على النهوض، خارجا به إلى فناء الدار.
هناك فحص صامتًا على ضوء القمر معصم أخيه، فلاحظ تقرّحا

عميقًا.

أشار إلى المسيحيّ فالتحق به، وأكبّ بدوره على فحص ذراع الفتى.

– ما الأمر؟ بدأتما تفزعاني كلاكما.

نظر أبو عليّ إلى ابي سهل وسأله:

– ما تشخيصك؟

– لا شكّ أنّه غير بعيد عن تشخيصك، لكنّنا نحتاج إلى مزيد من الإنارة، من أجل الفحص.

هتف محمود:

– هل جننتما؟ قد ينتبه إليكما الجند إذا زاد الضوء.

لكنّ أبا عليّ قال مصرًا:

– اذهب.

خفّ أبو سهل إلى الداخل، ثمّ رجع ومعه مصباح، فرفعه بحيث يسلّط الضوء جيّدًا على معصم الفتى.

– أظنّني عرفت الأمر، أما شعرت منذ فترة بغثيان مصحوب بحمّى وحكّة؟

– آ... بلى. لكنّ ذلك كان منذ شهر، ولا شكّ أنّه أمر بسيط، نزلة برد أو...

وأراد أن يحرّر يده متبرّمًا، فهمس أبو عليّ:

– صبرًا يا أخي، صبرًا.

ثمّ لمس القرح لمسًا خفيفًا.

– ألم يكن هنا شيء يشبه النفاطة، مثلما ينشأ عن الحرق؟

قطّب محمود حاجبيه، وقال بصوت شابه التوتّر:

– بلى، لكنّها انفضّت لوحدها، كالأخريات.

– الأخريات؟

شمّر الفتى عن ثوبه إلى الركبتين، وأشار إلى موقعين، أحدهما على مستوى الكعب الأيمن، والآخر عند قاعدة قصبة الساق اليسرى، وكانا

شديدي التقرّح أيضاً.

استلم أبو عليّ المصباح من المسيحيّ، وجثا على ركبتيه متأمّلاً الموضعين، ثمّ أعلن بعد فترة صمت طويلة:

– ما من شكّ ممكن.

قال أبو سهل مشخّصاً:

– خيطيّة المدينة؟

– لا شكّ في ذلك.

هتف محمود وقد تملّكه الفزع:

– بماذا تبرطمان؟ وما خيطيّة المدينة هذه؟

شرح أبو عليّ:

– لا خطورة في الأمر على أيّ حال، لنقُلْ إنّ جسمك عامر... بضيوف غير مرغوب فيهم.

ثمّ التفت إلى المسيحيّ:

– تعرف ما أحتاج إليه، فانظر إن كان في وسع ستارة أن تساعدنا.

صرخ الفتى ناترًا يده بعنف:

– ألا تشرح لي ما يحدث؟ ما الذي ستصنعان بي؟

طمأنه أبو عليّ:

– اهدأ يا أخي، قلت لك إنّ مرضك بسيط.

– ولكنّي لست مريضاً.

– بل كنت مريضاً ومازلت.

كان المسيحيّ قد عاد مصحوبًا بستارة، فسألت هذه وقد انشغل بالها:

– ما الأمر؟

ثمّ أمسكت بيد محمود وسألته بلهفة:

– ممّ تشكو يا ولدي؟ أين تحسّ بالألم؟

– لا أدري مامك، اسألي هذين.

أمسك أبو عليّ في الأثناء بعصيّة جاءه بها المسيحيّ، وطلب من أخيه أن يرقد على الأرض، فاستجاب هذا الأخير عن مضض ظاهر، عندها طلب أبو عليّ من المسيحيّ أن يمسك جيّدًا بالمصباح فوق المعصم، وبحذر شديد، وضع العصيّة على عرض القرح، وأخذ يلفّها بين الإبهام والسبّابة. بعد برهة، وتحت أنظار ستارة ومحمود المفزوعين، شاهد الجميع طرف خيط رفيع يطلّ برأسه: كان ذلك في الحقيقة دودة تتلوّى.

صاح محمود ورافقته أمّه:

– ياله من شيء بشع، ما هذا الحيوان؟

– ألست ترى ذلك جيّدًا؟ إنّها دودة.

– ولكن من أين جاء هذا الشيء؟ كيف دخل تحت جلدتي؟

أوضح أبو عليّ:

– بل قل كيف جاءت، إنّها أنثى.

– ذكر أم أنثى، الأمر سيّان عندي، المهمّ كيف جاءت، والأغرب أنّها هائلة.

فعلاً، كان طول الدودة، التي ما انفكّ أبو عليّ يواصل لفّها حول العصيّة، قد بلغ قرابة الذراع.

– إنّها بلا شكّ نتيجة عملك في المزارع، وإذا لم تخنّي الذاكرة، فثمّة قنوات لجلب مياه زرافشان، غير بعيد عن سمتين.

أومأ محمود برأسه موافقًا.

– وأظنّ أنّه يحدث لكم أن تشربوا من ذلك الماء، إذا اشتدّ بكم العطش.

أومأ محمود موافقًا من جديد.

– السبب إذن واضح، ذلك أنّ هذه الدودة الخيطيّة تولد في الماء، وهي توجد بكثرة في بعض الوديان والأنهار والجداول، أو كمثل هذه الحالة، في بعض القنوات، في هيئة يرقانات تكاد لا تُرى بالعين المجرّدة، وسرعان ما تنتقل إلى ما يمكن أن نسمّيه "مضيّفين وسطاء"، أي قشريّات صغيرة في

حجم الدودة نفسها، فإذا شرب أحدهم من هذا الماء، شرب الكائنات التي توجد فيه.

قوّصت ستارة شفتيها متقزّزة، وهي تلاحظ طول الدودة التي كان أبو عليّ قد فرغ من إظهارها، وأدناها من النار ليفحصها بتمعّن، قبل أن يعمد إلى حرقها.

– نحن للأسف، لا نعرف الكثير عمّا يجري داخل الجسم البشريّ، لكنّ لي رأيًا في المسألة.

قال المسيحيّ مندهشًا:

– لم تحدّثني في ذلك من قبل.

– لقد لازمتني بما يكفي من الوقت، لتعرف مقدار اهتمامي بالبراهين العلميّة، تذكّر حديثنا بالأمس.

توقّف برهة، وخيّل إلى المسيحيّ أنّه يلمح في عيني صديقه نظرة سخرية، فقال:

– دعك من الخطابة، واشرح لي رأيك في رحلة الدودة داخل الجسم البشريّ.

– أحتاج أوّلاً إلى عصيّتين أخريين.

أجابه المسيحيّ ممازحا، وهو يناوله عودين جديدين، متظاهرًا بالزهو:

– قد يخيّب هذا الأمر ظنّك، ولكن ها أنت ترى أنّي فكّرت في ذلك أنا أيضًا.

ركّز أبو عليّ الاهتمام على كعب أخيه، وكرّر العمليّة نفسها، ثمّ حان دور قصبة الساق، وما أن فرغ من ذلك، حتّى انكبّ مطوّلاً على فحص الأعضاء السفلى بالتفصيل، ثمّ نهض أخيرًا وقد بدت عليه علامات الارتياح:

– ألم أقل لك يا محمود إنّك لن تشعر بألم؟

– صدقت، لكنّ السنوات التسع التي مرّت على آخر مرّة رأيتك فيها، أنستني أنّك كبير أطبّاء فارس.

هتف المسيحيّ مذكّرًا:

– ونظريّتك في الدودة الخيطيّة؟

همس أبو عليّ متظاهرًا باللامبالاة:

– مامك، لابدّ من التفكير في إطعام صاحبنا، فهو إذا جاع تعكّر مزاجه.

– كلّ شيء جاهز، ولكنّ هذه الدودة الملعونة... تعالوا، لنطفئ المصباح ولندخل، هناك نكون أكثر سترًا.

ما أن استقرّ بهم المجلس، حتّى انقضّ المسيحيّ على أوراق العنب الملفوفة والحليب المنعنع، هاتفًا بأبي عليّ وقد امتلأ فمه بالطعام:

– الآن وأمام هذه اللذائذ، لم تعد لنظريّتك أيّ قيمة، فلتحتفظ بها لنفسك.

ردّ ابن سينا وهو يخلع حذاءه الطويل:

– في هذه الحال، لن أملك صبرًا حتّى أشرحها لك.

استنشق عميقًا، ثمّ اعتدل في جلسته، مضيفًا:

– قلت إنّه إذا شرب أحدهم من هذا الماء الملوّث، المترع بهذه القشريّات الضئيلة، فإنّ اليرقانات التي بداخلها تنتقل بالضرورة إلى القناة الهضميّة، فتخترق غشاءها، وأظنّها تنتقل فيما بعد إلى الغشاء المحيط[1]، ولسبب أجهله، تختفي الذكور، فيما تتقدّم الإناث باتّجاه الأطراف السفلى من البدن، حيث تموت بعد أن تحدث الأعراض التي كان محمود يشكو منها، حكّة وحمّى وقيئ وبثور تظهر على سطح الجلدة وما تلبث أن تنفضّ.

هزّ المسيحيّ كتفيه، وهو يتشمّم كسرة خبز مغمّسة في الحليب:

– إنّها مجرّد نظريّة، أمّا أنا....

لم يجد الوقت لإكمال جملته، فقد عاد محمود، وكان خرج قبل قليل، فاقتحم عليهم الغرفة وقد بدا عليه فزع شديد:

– الجند، إنّهم في طرف الشارع.

قفز أبو عليّ من مكانه، هو والمسيحيّ في وقت واحد، وأخذت ستارة

تغمغم:

– ولكن كيف؟ كيف عرفوا؟

ردّ أبو عليّ وهو يلبس حذاءه:

– لا أدري، ولكن علينا أن نسارع بالهرب.

ضمّ أبو سهل يديه بعصبيّة وسأل:

– أن نهرب نعم، ولكن إلى أين؟

– مازالت جيادنا عند باب النعاج، لنلحق بها ثمّ نفكّر في الأمر.

أشار إلى الفناء:

– من هنا، بسرعة.

بالكاد وجدت أمّه الوقت كي تلامس وجنته بحنان وحزن، فيما كان محمود يهرع إلى باب الدار.

سأله أبو عليّ:

– إلى أين؟

– أجري في الاتّجاه المعاكس لكما، لعلّي أشغل الجند عنكما بعض الوقت.

– لا تفعل، أرجوك.

لكنّه كان قد صار خارج الدار، وأخذ يجري وخلفه الجند.

همس أبو عليّ، وقد غصّت حلقه بالدموع:

– وداعًا مامك، ليحرسك الله، وليغفر لي كلّ ما تسبّبت لك فيه من هموم.

ثمّ فكّ عن حزامه صرّة نقود:

– خذي مامك، إنّها كلّ ما عندي لكنّها قد تفيدك.

اغرورقت عيناها بالدموع وهي تتراجع إلى الوراء في حركة رفض، في ما كانت الصرّة تقع أرضًا بصوت مكتوم.

*

تعالى صوت ابن سينا باللعنات، وهو يصرّ بفخذيه على ظهر حصانه:

– ليقذف الله بهذا الخنزير إلى الجحيم.

لاحظ المسيحيّ، وكان يجاهد للحاق برفيقه:

– وهل تعرف كثيرين قادرين على الصمود أمام إغراء خمسة آلاف درهم؟ إنّ دليلنا لم يفعل شيئًا سوى تأكيد القاعدة التي تقول: إنّ لكلٍّ ثمنه.

كانا يركضان جنبًا إلى جنب، وقد ولّيا الظهر إلى بخارى، متابعين السير أمامًا في اتّجاه الغرب، وتحت أشعّة القمر، كانت القنوات التي يحاذيانها تذكّر بأوشحة من الحجارة الكريمة، وكان نبات الأسل القائم على جنباتها يشبه أقلامًا عملاقة.

سارا طويلاً، مجتازين ضياعًا صغيرة، وأحياء بائسة، وقرى ذات ظلال من الآجرّ، وبيوتًا من لبن الطين الممزوج بالقشّ، وواحات مبعثرة مبثوثة على طول الأراضي الخصبة، إلى أن أنهك جواديهما التعب، ولم يقرّر أبن سينا التوقّف إلاّ بعد أن عبرا إلى الضفّة الأخرى من أموداريا، وكانا عندها قد بلغا أطراف السهل، على بعد فرسخ من مرو.

همس المسيحيّ وقد اكتسى وجهه بالعرق:

– والآن؟

ثمّ أشار إلى الأفق المتوهّج، من وراء قمّة جبال بنالوند:

– نحن على مشارف الفجر وجيادنا منهكة وليس معنا زاد، ومازالت تفصلنا مائة فرسخ عن جرجان وبحر الخزر.

– مرو في طرف الطريق، هناك نأخذ قسطًا من الراحة ونستبدل جيادنا بجِمال، فالجِمال أثبت وأقدر على الصمود، ثمّ لا بدّ لنا من دليل، فنحن على مشارف الصحراء، ولا أظنّنا قادرين على الاهتداء إلى طريقنا بمفردنا.

– جِمالاً؟ المرّة الوحيدة التي ركبتُ فيها جملاً، تقيّأت كلّ أمعائي.

– للأسف، أنا لا أعرف دابّة أخرى أقدر على قطع خمسين فرسخًا في اليوم، دون أن تأكل أو تشرب، ولو اخترنا الجياد لرحلتنا، لظللنا رهينة ما سنتزوّد لها به من ماء وحَبّ، أمّا فيما يخصّنا، فآمل أنّه قد بقيت لديك

بعض الدراهم، ذلك أنّك ترى أمير العلماء اليوم، وهو أشدّ فقرًا من أفقر شحّاذي خراسان.

ربت المسيحيّ بحركة مطمئنة على صرّة كانت في حزامه:

– راتب سنة كاملة، لا شكّ أنّه كفيل بإيصالنا إلى بلاط صائد السمانى.

– إذن، فلنرحل إلى مرو.

*

لم يتطلّب الأمر أكثر من إضافة دراهم قليلة إلى ثمن جواديهما، كي يحصلا على جملين قويّين. اشتريا أيضًا قِربًا للماء، وخيمة من وبر الماعز، وبعض الزاد، ومعاطف، وأغطية للرأس. كان أبو عليّ قد رأى لمزيد من الحيطة، أن ينتظر في واحة صغيرة على مسافة ميل من مرو، لذلك تكفّل المسيحيّ بالمهمّة، وبعد ساعات من الراحة، ووجبة دسمة، استأنفا الرحلة رفقة دليلهما الجديد، سالم، فتىكرديّ في العشرين من عمره، وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب، وأخذت طريقها إلى ما وراء الجبال الداكنة، ثمّ هبط عليهم الليل وهم بعد على مقربة من نيسابور، فأناخوا الرحل هناك، وناموا حتّى الفجر.

ثمّ انطلقوا من جديد نحو سبزوار وشهرود.

تغيّر المشهد من لحظتها، فإذا هو يتراءى على إيقاع خطوات الجمال الراقص، أشدّ صلابة وأكثر جفافًا. أدغال من الطرفاء والعلّيق، وكمأ برّيّ، ونخلات متباعدة متناثرة هنا وهناك، تلك كانت النباتات الوحيدة التي تعمّر هذه البقعة من الأرض. كانوا قد أصبحوا على حافة الدشت الكبير، الصحراء الكبيرة المالحة، الممتدّة إلى ما لا نهاية، مثل بحر من الرمال يتمطّى على أكثر من خمسين فرسخًا. شساعة قاتلة، لم يزل المسافرون منذ قديم الزمان يحاذرون الاقتراب منها، سواء أكانوا قادمين من الديلم أم من الجبال، من فارس أم من كرمان.

وكانوا قد انطلقوا منذ ساعتين، حين أمرهم فجأة سالم، دليلهم الشابّ،

بالتوقّف. وضع يده على جبينه اتّقاء للشمس، وحدّق طويلاً في الأفق البعيد.

سأله أبو عليّ مستغربًا:

– ما الأمر؟

قال الكرديّ مشيرًا بيده ناحية الجنوب:

– انظرا.

لم ير المسيحيّ ولا ابن سينا شيئًا لافتًا في البداية، لكنّهما لم يلبثا بعد برهة من التأمّل، أن لاحظا سحابًا من الرمل يدوّم حول نفسه ويدور.

سأل أبو سهل وقد ساورته الظنون:

– ما هذا؟

قال الدليل وقد بدا عليه الانشغال:

– ريح المائة والعشرين يومًا، إنّها عاصفة رمليّة لا تثور إلاّ صيفًا، فإذا ثارت بلغت سرعتها ما لا يتصوّره العقل، فلم تترك شيئًا في طريقها إلاّ دمّرته، لقد روى لي بعضهم أنّها في ناحية سستان قد رفعت بيوتًا بكاملها.

– وماذا ترى؟

– لو لم نكن قد ابتعدنا بهذا القدر عن نيسابور، لنصحت بالعودة على أعقابنا فورًا، أمّا وذلك مستحيل، فأرى أن ننيخ الجمال ونتّخذ منها حاجزًا يقينا العاصفة.

وأضاف بسرعة:

– لندع الله أن يكون في عوننا، فلن تكون دعواتنا زائدة عن الحاجة.

اقترب منهم السحاب الرمليّ بسرعة، وتضاعف حجمه وتعاظم، وكأنّه ثول نحل أو زنابير هائل، يحمل بين جنباته الموت الزؤام، ثمّ لم تلبث أن داهمتهم أوّل النفثات الصفراء الرماديّة، بأسرع ممّا كانوا يتوقّعون، وكان المسيحيّ الوحيد الذي لم ينخ جمله بعد.

صرخ الدليل:

– أسرع، أسرع يا أخي.

ارتفع صوت المسيحيّ باللعنات وهو يشدّ على أعنّة الجمل بعنف:

– ها أنا أفعل ما أقدر عليه.

نفخت الريح فطوّحت بالمسيحي قرب جمله، وكان الدليل قد خفّ إلى نجدته، ثمّ أدركتهم أمواج الرمل الأولى، فخيّل إلى الجميع على الفور، أنّ يدًا لا مرئيّة قد أشرعت أبواب جهنّم، وما هي إلاّ لحظات، حتّى وقع المسافرون الثلاثة في قبضة دوّامة لا تقاوم، بعنف فوق التصوّر، وانهالت على الدوابّ والرجال جبال متعاقبة من ذرّات الرمل، لاسعة كالسياط، راضّة أكثر أنحاء الجسد سريّة، وسرعان ما تلاقفتهم أمواج تقفز وتقع من كلّ جانب، وزخّات من الزوابع، ورشقات تتواتر مطلقة لشراستها العنان، بلا رحمة ولا شفقة، عابثة في طريقها بكلّ شيء.

انكمش ابن سينا على نفسه في هيئة جنين، لصْقَ بطن جمله، ورأسه مدفون في أغطيته وثيابه، وقد أمسك أنفاسه، غريقًا في بحر متلاطم من الرمل والغبار.

استمرّت عاصفة المائة والعشرين يومًا طويلاً تحرث بطن السهل، وحين عاد الهدوء أخيرًا، بدا كما لو أنّ الدشت الكبير قد صبّ كلّ ما في أحشائه على الرجال الثلاثة.

لبث أبو عليّ مدّةً لابِدًا في مكانه، مخافة أن تبدر منه أيّ حركة فتثور ثائرة الرمال من جديد، وببطء شديد، حرّك ساقيه، ثمّ أصابع قدميه، ثمّ نهض بجهد جهيد محاولاً الخروج من تحت كثبان الرمال التي طمرته، وأخيرًا استطاع أن يقف على قدميه.

سرّح النظر حواليه بحثًا عن رفيقي الطريق، فلم ير أحدًا. كأنّ السماء ابتلعتهما. سار خطوات، في اتّجاه الموقع الذي ترك فيه المسيحيّ وسالم آخر مرّة. كان ثمّة نتوءات على صفحة الأرض، وعلى مقربة من هناك، وقف الجمل الوحيد الذي استطاع أن ينفض عنه أكداس الرمل، وظلّ ينظر إليه

بعينين دامعتين.

تملّكه الرعب، فارتمى أرضًا، جاثيًا على ركبتيه، يحفر بيديه في الرمال، ولم يعرف كم لزمه من الوقت كي يفلح في إخراج جسد الدليل، ثمّ جسد المسيحيّ.

كان سالم قد مات، لكنّ قلب المسيحيّ مازال ينبض. ألقاه على ظهره وشرع يخلّصه من الرمل الذي سدّ خياشيمه وختم عينيه. تململ أبو سهل قليلاً. كانت أنفاسه واهنة متحشرجة ثقيلة، وحين تكلّم، كان صوته صوت رجل آخر:

– جازاك الله خيرًا أيّها الشيخ الرئيس، لقد عثرت على معلّمك القديم.

– لا تقل شيئًا، ادّخر قواك، سآتيك بماء.

همّ أبو عليّ بالنهوض، لكنّ أصابع صديقه تمسّكت بتلابيبه.

كان المسيحيّ يختنق تحت وطأة الألم، وقد شوّه الوجع وجهه:

– لا تذهب يا أخي، فات الأوان.

– ستظلّ دائمًا على خطلك في التشخيص، إنّما هو بعض الماء تبرّد به وجهك وأطرافك، ثمّ تنهض طازجًا مثل سمكة في بحر فارس، هيّا، دعني أسقيك.

همّ بالنهوض مرّة أخرى، لكنّ شيئًا في نظرات صديقه سمّره في مكانه. كان يقرأ في عينيه حزنًا لا قاع له.

قال المسيحيّ في نفسٍ خافت، وصوت مبحوح:

– آن الأوان لأطوي خيمتي وأرحل.

نهره أبو عليّ، محاولاً السيطرة على الهواجس التي بدأت تحتدم داخله:

– إنّ الله لا يحبّ الكافرين أمثالك، فماذا سيفعل بشكّاك آخر؟

– لو حظي شكّاك مثلي بالجنّة، لكان وجوده مفيدا جدّا لزنديق مثلك أيّها الشيخ الرئيس.

أخذته شهقة، لكنّه وجد القوّة ليواصل:

– رعاك الله يا ابن سينا، فلا عهد للملوك ولا أمان للدنيا، ها هي روحي تصل إلى شفتيّ، سأشتاق إليك.

خيّل إلى أبي عليّ أنّ السماء تنطبق عليه، مثل أسوار مدينة لا جدوى منها.

ارتمى على صدر صديقه، شدّه من تلابيب ثوبه ورفعه عن الأرض وضمّه إليه.

كان يغمغم باكيًا:

– أبا سهل، أيّها الشكّاك العجوز، لا تذهب، لا تذهب أرجوك.

ظلّ طويلاً ملتصقًا بجسد المسيحيّ، لا يقوى على الحركة، عاجزًا عن التفكير، مفرغًا كلّ ما في عينيه من دموع وكلّ ما في قلبه من أسى، وحين أمكن له أن ينهض أخيرًا، كانت الشمس قد ناصفت النهار، مرسلة لهبها على المشهد الخراب.

وكالسكران، رفع ابن سينا قبضته في وجه السماء، وصرخ مترنّحًا:

– من أبعد أغوار الذرّات السود إلى أعلى سماء الزهرة، حللت أكبر معضلات الأرض وأعسرها على الفهم، ففككت عقالي من كلّ قيود العلم والمنطق، ذلّلت كلّ العقد، إلاّ عقدة الموت... لماذا يا الله؟ لماذا؟

تأمّل في اللازورد الساطع، الذي يشبه قصعة مقلوبة فوق الصحراء، لكنّه لم يسمع غير زفير الريح المكتوم، القادم من الدشت الكبير.

الهوامش:

١- استعمل ابن سينا هذه العبارة بمعنى الصفاق. (المترجم)

المقامة العاشرة

ظلّ نصف راقد على ظهر الجمل الوحيد الذي نجا من العاصفة، وقد خارت قواه، وأضحى عاجزًا حتّى عن حماية وجهه من لفح الشمس الحارقة، وأسلم أمره للنجوم، معوّلاً عليها كي يتّجه إلى ما كان يظنّه الشمال الغربيّ، حيث بحر الخزر وجرجان والبيروني وصائد السماني.

مرّت على ذلك ستّة أيّام، ولم يعد يساوره الآن أدنى شكّ في أنّه قد تاه عن طريقه، ولعلّه اجتاز العتبات الممنوعة للصحراء الكبيرة المالحة، الدشت الكبير، ذلك المكان الملعون، الذي ترجّح الأساطير أنّه موقع سدوم وعامورة.

تجزّعت الأرض تحت أخفاف جمله المتهالك، كأنّها نُتَفُ أوراق ميتة، وعلى امتداد البصر، ترامت أطراف أرض غبراء كالحة، ذات لون رماديّ داكن وأبيض معفّر، وامتدّ بحر معدنيّ ممزّق، تناثرت شظاياه على سفوح هضاب نادرة.

حاول أبو عليّ الاعتدال على ظهر جمله. احمرّت عيناه، ولم يعرف إن كان ذلك من أثر الحزن أم بسببٍ من لفح الشمس. كانت شفتاه تشبهان فلَعَ الأرض المتفلّقة من تحته، وخلف لحية بيّضها الملح، أضحت جلدته أكثر تجاعيد من تينة حشفاء.

تناول القربة المتدلّية على كفل دابّته، وأتى على قطراتها الأخيرة. كانت تلك قربة سالم المسكين. وقد أمكن له بعد مرور العاصفة أن يستردّ بعض ما كان على جثّة جمله من متاع، أمّا جمل المسيحيّ، فقد تاه في مكان ما في طرف السهل، ولم يعثر له على أثر. ولعلّه مدين لهذا الزاد الإضافيّ، ببقائه على قيد الحياة طيلة الأيّام الستّة.

ولكن إلى متى سيقوى على الصمود؟

هالته قربة سالم الفارغة، فاعتصرها بين أصابعه مغتاظًا، وألقى بها

بعيداً. لم يبق له بعد الآن كي يطفئ ظمأه غير بول بعيره. بعد ساعة يخيّم الليل وتتضاعف آلامه. كان قد انتظر أوّل مغيب شمس بشوق ولهفة، ظنًّا منه أنّه واجدٌ في الظلام بعض الراحة والسكينة، فما راعه إلاّ والبرد الذي يصحب الليل أشدّ ضراوة من السعير الذي يلهب النهار.[1] وما هي إلاّ لحظات حتّى تغيب الشمس، فيمسي جسده كلّه حبيس غفّارة من جليد، وهيهات للنار التي استطاع إشعالها في اليومين الأوّلين بفضل روث البعير، أن تدفئ أطرافه المتجمّدة.

ثمّ سيكون لتلك الرؤى التي عبثت بعقله المنهك، أن تكرّ مسبحتها من جديد. رؤى مبعثرة جنائزيّة، حافلة بملائكة مخلّصين وجنٍّ ذوي وجوه بشعة.

«يا أبا علي يا ابن سينا، ما الذي تراه أشبه بخراب هذا المشهد؟ حياتك أم مرأى موتك المحتوم؟

إلى أين أمضي؟ إلى أين أرحل يا أبي؟

وأنت يا سنجة، أيّها الحلم ذو اللون الزيتيّ، هل تملكين الجواب؟

أبا سهل، يا صديقي الراحل، أنت من يقف الآن على السرّ الخفيّ الأكبر، قل لي: ما الذي صيّرني ملعوناً؟ أهي طفولتي المحسودة؟ أهو علمي المبكّر؟ أهو غرور شبابي؟ هل عوقبت لأنّني رأيت؟ أم أنّ الله ينزل عقابه بالعُمْي أيضاً؟

بالأمس كنت أنعم بالحبّ تداعبني أصابع من عنبر، وها أنا اليوم معلّق بين السماء والأرض. لماذا تقترب السرّاء من الضرّاء بهذا الشكل؟...»

انقضت الليلة شبيهة بسابقاتها الستّ، ووجد فضلة من قوّة ليتأمّل من جديد سير النجوم وصمت الزهرة، الكوكب المشير إلى الشمال، حيث باب الخروج من الجحيم.

أدركه فجر اليوم السابع وهو يواصل التقدّم في الدشت الكبير، جاهداً أن يحافظ على اتّجاهه، وأن يقاوم الرغبة في الاستسلام إلى الوقوع أرضاً

والتوسّل إلى الموت. يومها فحسب، فهم كم يمكن للموت أن يصبح خلاصًا، حين يكون الاحتضار لا إنسانيًا.

كان شفق الغروب يصبغ الأرض بلونه الأرجوانيّ، حين خيّل إليه فجأة أنّه يلمح شيئًا على بعد أميال. حاول جاهدًا أن يفتح جفنيه الثقيلين المحترقين، ليتأكّد من صدق الأمر. هناك في البعيد، على طرف الأفق، شبح مدينة؟ هل يعقل؟

أم أنّها أسوار سدوم؟

«أُهرُبْ لحيَاتك، لاَ تَنْظُرْ إلى ورَائِكَ ولاَ تَقِفْ في كُلِّ الدائِرَة، أُهْرُبْ إلى الجبَلِ لئَلاَّ تَهلْك.»

ولكن من أين هذا الصوت الصارخ في رأسه؟ هل أصبح لُوطًا؟ ألم يعد أبا عليّ بن سينا؟ إذن فهي سدوم التي تنكشف عنها العتمة، وسيُحكم عليه بالموت تحت مطر الكبريت والنار، مثل الضالّين الذين وقفوا في وجه الله.

«ونَظَرت امرَأتُهُ منْ ورَائِه فصارَتْ عمُودَ مِلْحٍ.»

وارى أبو عليّ وجهه بيديه، وأخذ يئنّ، وقد تملّكه رعب شديد.

– يَا ربّ، هُوَذَا عَبْدُكَ وَقَدْ وَجَدَ نعْمَةً فِي عَيْنَيْكَ، وَعَظَمْتَ لُطْفَكَ الذي صَنَعْتَ إلَيَّ بِاسْتِبْقَاءِ نَفْسِي، وَأَنَا لا أَقْدرُ أَنْ أَهرُب إلَى الجَبَل، لَعَلَّ الشرَّ يُدْرِكُنِي فَأَمُوت.

ثمّ رفع وجهه ضارعًا إلى السماء:

– يَا ربّ، هُوَذَا المَدينَةُ هَذه قَرِيبَةٌ للهَرَبِ إلَيْها وهيَ صَغيرَةٌ، أَهْرُبُ إلَى هُنَاكَ، أَلَيْسَتْ هِيَ صَغِيرَةً، فَتَحْيَا نَفْسِي.

دوّى الصوت من جديد في رأسه، مفزعًا، باردًا كالموت:

«إنّي قدْ رَفَعْتُ وَجْهَكَ فِي هذا الأمْرِ أَيْضًا أنْ لاَ أَقْلِبَ المَدينَةَ التي تَكَلَّمْتَ عَنْهَا، أَسْرِعِ أُهرُبْ إلى هُنَاكَ، لأنّي لاَ أَسْتَطِيعُ أنْ أَفْعَلَ شَيْئًا حَتّى تَجِيءَ إلَى هُنَاكَ.»

وكالموشك على اليأس، أخذ أبو عليٍّ يسوط عنق دابّته بآخر ما تعلّلت به

نفسه من أمل، وأخذ الجمل يركض بآخر ما احتفظت به قوائمه من جهد، ثمّ اختفى كلّ شيء، كما لو أنّ ستارًا أسود أُسدل على الصحراء كلّها.

*

– هيه... تعالوا انظروا، إنّه يفيق.

أحدّ أبو عليّ بصره في المشهد المبهم، لكنّه لم يتبيّن غير خيالات غامضة تنحني عليه في انعكاس الضوء.

هل كانوا جنًّا أم ملائكة؟ كلاّ، إنّهم بشر من لحم ودم يحيطون به من كلّ جانب. ولكن أين هو؟ في أيّ زاوية من الأرض؟ حاول أن ينهض لكنّ يدًا دفعته بقسوة.

– مهلاً يا ابن سينا، لا تتسرّع، مازال لدينا متّسع من الوقت.

ابن سينا! كانوا إذن يعرفون اسمه.

أراد أن يقعد من جديد، لكنّ الرجل صفعه هذه المرّة بقفا يده، فتراجع حابسًا شهقة ألم.

– أراه نشطًا بالنسبة إلى محتضر في مثل وضعه.

عبثًا حدّق أبو عليّ في من حوله، عساه يفلح في تبيّن ملامح من كانوا يستمتعون بتعذيبه بهذا الشكل. سرت قشعريرة خوف في كامل جسمه، وتساءل إن كان سيستردّ أبدًا عافية بصره.

ارتفع صوت غير بعيد:

– أرى أنّ خمسة آلاف درهم ثمن باهض بالنسبة إلى رمّة مثل هذه، إنّه غير صالح لشيء بعد الآن.

– لا شأن لنا بذلك، المهمّ أنّي أعرف ما الذي ستصلح له المكافأة.

دار بخلد أبي عليّ أنّه إذا كان قد تمّ التعرّف عليه هنا، على مسافة مئات الفراسخ من بخارى، فمعنى ذلك أنّ محمودًا الغزنويّ ابن العبد، قد أصبح سيّد الأرض كلّها.

– ولكن، ألا يخبرني أحدكم أين نحن الآن؟

– في خان أبي الفيل، على بعد عشرة فراسخ من جرجان.

وجف قلبه في صدره. إذن، فالخيال المتغضّن الذي لمحه لم يكن شبح سدوم أو عامورة؟ لقد بلغ الديلم، بلد الذئاب وبحر الخزر. وبشيء من المفارقة، أخذ يحاول التهدئة من روعه، متعلّلا بأنّه لا يخشى شيئًا بعد الآن، فسيتشفّع له البيرونيّ لدى أمير جرجان، وستضمّد جراحه، وتقوم أصابع حنون بدهن جسده بالطيب والعطور النادرة، ويحيا من جديد.

سأل بصوت بعث فيه الأمل الروح:

– وما الذي ننتظر؟ لماذا لا تأخذونني إلى جرجان؟

قهقه الرجل، وتبعه رفاقه وهو يجيب:

– ننتظر جواهر الحريم، ذاك ما ننتظر.

وأضاف دون أن يتوقّف عن الضحك:

– سنخصّك بأجمل جوهرة فيهنّ.

حاول ابن سينا مرّة أخرى أن يتبيّن ملامح المحيطين به، لكنّ عينيه ظلّتا مغشّاتين بحجاب، وظلّ المشهد غائمًا يحفّ به ضباب سميك.

– هل لديكم بعض التمر، رجاءً؟

– بعض التمر؟ ولماذا لا تطلب خروفًا محشوًّا؟ لقد كدت تأتي على ذخيرتنا من الشاي وأصبحت مكلفًا، ولا أظنّ الدراهم القليلة التي كنت تحملها كافية لتعويضنا عن خسائرنا.

تحسّس أبو عليّ بشكل آليّ الصرّة التي كانت في حزامه، فلاحظ أنّ دراهم المسيحيّ قد اختفت.

قال وقد بلغ منه الإعياء كلّ مبلغ:

– أرجوكم، لم أذق الطعام منذ ثلاثة أيّام، وفي الخمسة آلاف درهم تعويض وزيادة.

قال أحدهم عن مضض:

– حسنًا، لنعطه بعض التمر، في الأقلّ كي نحافظ على حياته إلى حين

قدوم الجند.

لاحظ آخر:

– الحقّ أنّه يستحقّها، فنادرًا ما استطاع بشرٌ النجاةَ من الدشت الكبير.

همّ الأوّل بإضافة شيء، لكنّ وقع حوافر كوكبة من الخيل بلغهم من الخارج.

– أظنّهم وصلوا أخيرًا.

انحنى أحدهم على ابن سينا، وقال بصوت لا يخلو من شماتة:

– فات أوان التمر يا أخي.

خمد وقع حوافر الخيل، وخيّل إلى أبي عليّ أنّ اضطرابًا عمّ المكان، وما هي إلاّ لحظات حتى اقتحم الغرفة جنود في جلبة من الفرو والأزياء العسكريّة. كم كان عددهم؟ خمّن عليّ باستقراء الضجّة التي صاحبت دخولهم، أنّهم حوالي العشرة.

– إنّه هناك.

نبح صوت جديد:

– أنت ابن عبد الله ابن سينا؟

أومأ أبو عليّ برأسه، وأضاف بسرعة:

– أنا أحد أصدقاء البيرونيّ المقرّب من الأمير قابوس، وأنا...

لم يجد فسحة لإتمام كلامه، فقد انفجر الرجال ضحكًا.

– الأمير قابوس؟ هل سمعتم؟ إنه يتوسّل بالأمير قابوس، كم مضى عليك وأنت في الدشت الكبير كي لا تعرف بما حدث في جرجان؟ الأمير قابوس ذهب إلى غير رجعة، صائد السمانى مات.

همهم ابن سينا:

– مات؟ ولكن كيف؟ متى؟

– لقد خسر آخر معاركه مع أعدائه القدامى، البويهيّين، وقائدهم فخر

الدولة، فأسروه وأوثقوه عند مدخل المدينة، وتركوه يموت جوعًا وعطشًا مثل الكلب، ولو أنّك عدت قبل يومين لرأيت جثّته أشلاء وقد تنازعتها الجوارح، والحقّ أنّه يشبهك بعض الشبه، وأنت في حالتك هذه.

أسقط في روعه، وتملّكه الاضطراب فانعقد لسانه في حلقه وهو يكاد يسمع نبض الدم في صدغيه، وأحسّ بآخر قواه تتلاشى وتتخلّى عنه.

ولم يعرف كيف وجد الجهد أخيرًا، ليسأل متلعثمًا:

– والبيروني، أحمد البيروني، ما الذي حدث له؟

– لا نعرف أحدًا بهذا الاسم، وإذا كان مقرّبًا من قابوس، فلا شكّ أنّه عرف المصير نفسه، بل إنّ ذلك أكيد.

قال أحد الجند آمرًا:

– هيّا، لنكفّ عن حديث العجائز هذا، فعلينا أن نعود إلى جرجان قبل أن يدركنا الليل.

لم يقاوم أبو عليّ وهو يشعر بأنّه يُرفع عن الأرض، ثمّ يجرجر إلى الخارج، حيث لفح وجهه الهواء البارد القادم من البحر.

اكتفى بالسؤال:

– إلى أين تأخذونني؟

– إلى سجن القلعة، حتّى يقدم مبعوثو الغزنويّ لاستلامك، يبدو أنّ ملك غزنة يتحرّق شوقًا لإحاطتك بكرم الضيافة.

*

لا شكّ أنّه فقد الوعي من جديد، أو لعلّه ظلّ بين موت وانبعاث مستمرّين، وربّما لم يكن الموت غير هذه الحالة من تعاقب النهارات والليالي، بعيدًا عن أيّ مكان أو زمان.

كانت الزنزانة التي ألقوا به فيها باردة رطبة، ولولا تلك القضبان العالية المشبكة على النافذة، من حيث تسلّلت أشعّة النجوم خافتة باهتة، لظنّ أنّهم دفنوه حيًّا.

كان بصره قد تلف إلاّ قليلاً، وكان ذلك يشغل باله أكثر من أيّ شيء آخر، فقد علّمته التجربة أنّ خيطًا رفيعًا يصل بين قوى الجسم والعقل، كأنّه جسر ملقى فوق نهر، فإذا داخل الاضطرابُ ضفةً تداعت لها الضفةَ الأخرى.

ألقى نظرة تقزّز على الطعام الذي قُدّم له. لم يتغيّر منذ ثلاثة أيّام، جفنة من الحليب الرائب، وصحن من القمح المطبوخ في شيء من الدهن المريب. أين خروف ستارة المحشوّ، والمكسّرات العبقة برائحة المسك والياسمين، والحلوى الملبّسة بالعسل، وبطّيخ فرغانة الذهبيّ؟

هل السرّاء على هذا القرب من الضرّاء؟

غمس أصابعه في القمح المطبوخ، وعلى الرغم من جوعه الشديد، أدنى اللقمة من فمه بتقزّز، فهو يعلم وهو الشيخ الرئيس وأمير العلماء، أنّه لن يسترجع كامل مداركه العقليّة إلاّ إذا استرجع جسده توازنه، لكنّ شيئًا ما كان قد انكسر بداخله نهائيًا، وبات يهمس له أنّ نظرته إلى الوجود، من اللحظة، ومهما حدث له بعد ذلك، لن تظلّ على ما كانت عليه.

لا عهد للملوك ولا أمان للدنيا.

أجل يا مسيحيّ، أيّها الأخ الطيّب والصدر الحنون،كم كانت كلماتك الأخيرة مثقلة بالحكمة.

رفع الجفنة بيديه المعفّرتين، وشرب آخر قطرات الحليب الرائب، ثمّ مسح جنبات الجفنة وقاعها بطرفي السبّابة والإبهام، ومرّ بهما على طول جفنيه المعذّبين، وفجأة تكوّرت قبضته دون وعي على الخرزة الزرقاء، هديّة سلوى، التي كانت معلّقة في عنقه.

إذا أراد أن يحافظ على حياته فعليه أن يحافظ على ذاكرته صاحية. خطر له ذلك في تلك اللحظة، فاستبدّ به حماس أرعن، وكما يردّد الطفل قصيدة على طريقة الببّغاء، أخذ يجري لسانه بذكر أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين، التي تجري بها ألسنة المسلمين تاركة الاسم المائة

للحياة الأخرى.

– القهّار، العالي، المتعالي، الغفّار...

الغفّار.

لم يذكر اسمًا من الأسماء إلاّ شعر بأنّه حقّق نصرًا كبيرًا على ضلال عقله المريض، وما أن أتى على ذكرها جميعًا حتّى أحسّ بالارتياح.

– غُفِر الذنب، لا بدّ أن يُغفر الذنب.

*

– انهض، قائد القلعة أرسل في طلبك.

كان الرجلان قد اقتحما عليه زنزانته في زيّيهما الأسودين، خارجين به من خدره. أيّ يوم كان؟ أيّ شهر؟ من أيّ سنة؟ حمل على نفسه كي يقف على قدميه، وتبع الجنديّين مترنّحًا عبر متاهة القلعة المعتمة.

ترامى إلى سمعه من بعيد صوت متهدّج يتلو ما تيسّر من الذكر الحكيم، فلم يتمالك على الرغم من شدّة كربه، من الإعجاب بموهبة القارئ المجهول. كان يعرف مثل كلّ مؤمن، أنّ حفظ آيات الكتاب الكريم عن ظهر قلب أمر لا يكفي، بل ينبغي أيضًا حذق تلاوتها وفق قواعد مضبوطة، وأنّ فنّ التلاوة يكمن كلّه في ترتيل الكلمات دون إخلال بالنبر والوقف والإيقاع والفويرقات النغميّة الدقيقة، كلّ ذلك في غيرما جهد ولا تكلّف.

ظلّ أبو عليّ مأخوذًا بصوت القارئ، حتّى كاد لا ينتبه إلى أنّه يقف الآن على عتبة غرفة مقبّبة، تضيئها سُرُجٌ ثلاثة من النحاس، ويقتصر أثاثها على حصير من السمار، وطاولة من الخشب المتين، ومقعد صغير. كان ثمّة جسم ممدود على الأرض، وحذوه شخص جاثٍ على ركبتيه وظهره إلى الباب.

أعلن أحد الجنديّين باحترام:

– هو ذا السجين سيّدي القائد.

نهض الرجل متمهّلاً، واستدار نحو القادمين، وقال بصوت خفيض:

– حسنًا، اتركانا على انفراد.

اقترب من ابن سينا وتفحّصه مليّاً قبل أن يتكلّم:

– يبدو أنّك في وضع سيّئ فعلاً.

اكتفى أبو عليّ بهزّ رأسه.

– هل ترغب في قليل من الشاي؟

– شيء من النبيذ إن أمكن.

بدا على القائد أنّه صُدِم بالطلب.

– ألا تعلم أنّه حرام في ديننا؟

– الخمر دواء فعّال في بعض الحالات.

– إذا كنت واثقًا من ذلك.

صفّق بيديه وهتف باسم أحد الجنود، فأشرع هذا الباب من فوره. أمره القائد بإحضار الخمر.

– هل ترغب في شيء آخر؟

– للأسف فإنّ رغباتي أكثر من أن تقدر على تلبيتها كلّها، ولكن هل لي في قليل من حليب الأتان؟

بدت على السبهدار علامات الاستغراب للمرّة الثانية، فأوضح أبو عليّ مارّا بسبّابته على وجنتيه الملوّحتين:

– من أجل عينيّ ووجهي.

قال السبهدار:

– فهمت.

واستدار نحو الجنديّ:

– هل سمعت؟ قم بما يلزم.

أشار ابن سينا ناحية الشبح الراقد، دون أن يلتفت إليه:

– هل هو مريض؟

– أنت الطبيب، ولا بدّ أنّك تعرف.

– من يكون؟

– إنّه ابني، ابني الوحيد.

وأضاف مسرعًا، على استحياء:

– أرجو أن تفحصه.

أشرع أبو عليّ يديه، وقال بصوت مرهق:

– وأنا في مثل حالتي؟ ألا تعلم أنّي خارج من الجحيم؟

أومأ السبهدار بالإيجاب.

– أنا بالكاد أرى، وتكاد قدماي تعجزان عن حملي، ورأسي مترع بالظلام.

من بعيد كان الصوت الرائع لا يزال يتضرّع إلى الله.

قال القائد:

– يقولون إنّك تقيّ وذو كفاءة ومروءة، وإذا شئت فأنت قادر على معالجة وحيدي.

– أظنّك تقدّرني فوق قدري يا سبهدار، فلو أنّ لي كلّ هذه المزايا والقدرات لما كنت سجين القلعة ولا ريب.

– هذا أمر آخر، أليس كذلك؟

أغرق ابن سينا برهة في التفكير، قبل أن يسأل:

– كان هناك رجل في بلاط صائد السماني، صديق عزيز.

– ما اسمه؟

– البيروني، أحمد البيروني.

أجاب القائد دون تردّد:

– الاسم ليس غريبًا عنّي، إنّه عالم مرموق.

– تعرفه إذنْ؟ أخبرني الجند أنّه قد يكون لقي مصير قابوس.

– هذا خطأ، قبل أيّام من مقتل قابوس غادر صديقك القصر.

– أواثق أنت من ذلك؟

– كلّ الوثوق، فبعض رجال حاميتي هم الذين رافقوه إلى حدود الديلم، بأمر من الأمير.

قال أبو عليّ فجأة، وقد انزاح عن صدره همّ ثقيل:

– الحمد لله، فهل تعلم إلى أين رحل؟

– أظنّه كان يفكّر في التوجّه إلى تركستان، وإلى كركانج تحديداً، للحاق ببلاط ابن مأمون.

أشرق وجه عليّ بابتسامة حزينة:

– سبحان الله، كنت أسير إلى لقائه فإذا به يخرج في طلبي، يا لأقدار الرجال كم هي مليئة بالمفاجآت.

قطعت حديثهما نوبة سعال حادّة، داهمتهما من زاوية الغرفة.

هرع القائد إلى عند المريض.

– إنّه يختنق.

– تنحّ جانباً فسأقوم بفحصه، ولكن قل لي أوّلاً، ما الذي حدث؟

– منذ أسبوع أو ربّما من عشرة أيّام، بدأ يشكو من ألم في حنجرته، فصار صوته أبحًا أجشًا، وسرت الحمّى في أطرافه، ثمّ انتابته نوبات السعال، فإذا هو بين الحين والآخر يكافح كي يتنفّس، وتهزّه تشنّجات كما لو أنّه يختنق، ومنذ يومين تضاعفت أعراض الاختناق، ثمّ أفاق هذا الصباح وقد فقد صوته تماماً.

في ما كان الرجل يتكلّم، كان ابن سينا قد جسّ نبض المريض، وأنصت بانتباه شديد إلى دفق الدم في الوريد، فلاحظ أنّه غير منتظم.

– ناولني سراجاً، يجب أن أفحص البلعوم.

سارع القائد إلى تنفيذ الأمر.

– أمسِكْهُ بحيث تسلّط الضوءَ على الوجه.

الآن أصبح في إمكانه رؤية ملامح المريض. كان شاباً في العشرين من العمر، يعلو محيّاه جمال يكاد يكون أنثوياً، أسمر البشرة فاحم الشعر،

مثل أغلب سكّان البلاد، لكنّ الغريب أنّ عينيه كانتا في خضرة حجر اليَشْب.

سأل أبو عليّ:

– ما اسمه؟

– أبو عبيد.

– أبا عبيد، هل تستطيع فتح فمك؟

حاول الفتى أن يجيب فلم يتفوّه بغير غمغمة غير مفهومة، إلاّ أنّه استجاب لما أمره به الطبيب.

توجّه أبو عليّ إلى الأب:

– أدنِ السراج من فمه لو سمحت.

ضغط أبو عليّ بسبّابته على اللسان كي يرفع اللهاة، فلاحظ أنّ مدخل الحنجرة وجنباتها مغطّاة بأغشية ضارية إلى البياض، كما لو أنّ عنكبوتًا حاكت خيوطها داخل جسم المريض، فلم يظهر من شبكتها غير ذلك القسم المرئيّ.

فجأة تشنّج المريض واختلج جسمه وتقلّص، وضاقت أنفاسه وغدت أقصر

في الشهيق والزفير، في حين احتقنت وجنتاه وشفتاه وجبينه ومالت سحنته

إلى الزرقة.

صرخ ابن سينا:

– خنجرك بسرعة.

تفرّس فيه القائد مشدوهًا.

– قلت لك هات خنجرك.

أخرج القائد خنجره من غمده:

– ماذا... ماذا ستصنع به؟

أغضى أبو عليّ عن السؤال وحمّى الشفرة على النار، وبيده اليسرى دفع ذقن الفتى إلى الخلف، فيما عمد باليمنى إلى وضع ذؤابة الخنجر المسنونة على قاعدة الرقبة، في موقع فاصل بين غضروفين، وبحركة جافّة وأمام نظرات الأب المفزوعة، أحدث ثقبًا في العنق بعرض عظم الأصبع تقريبًا، وفورًا أخذ الهواء يتدفّق من الثقب محدثًا صفيرًا غريبًا.

في الأثناء كان الجنديّ قد رجع وبين يديه إبريق الخمر وجفنة حليب الأتان.

قال أبو عليّ معيدًا الخنجر إلى القائد:

– الآن أحتاج إلى بزور خشخاش مهروسة وعسل وبَنْج، وبخاصّة إلى أنبوب أو شيء شبيه، وقد يؤدّي غصن بامبو الغرض.

– العثور على غصن البامبو أيسر، فضفاف نهر الأندرهاز الذي يشقّ المدينة مغطّاة به.

– الوقت يمرّ بسرعة، يجب أن لا يلتئم الجرح.

التفت السبهدار إلى الجنديّ الذي كان قد تسمّر في مكانه، فتناول عنه الأشياء التي كانت بين يديه:

– أسرع، وإذا لزم الأمر فلترسل فرقة من الجند على طول النهر.

بدأ المريض المضطجع على حصيره يستعيد ألوانه، وأصبح تنفّسه طبيعيًا، وأشرقت الحياة من جديد في عينيه، فحاول أن يتكلّم لكنّه لم يقدر على إخراج صوت.

أسند أبو عليّ ظهره إلى جدار الغرفة، وقد جفّت شفتاه، ماسحًا بكمّه القذر العرقَ الذي كسا وجهه.

– سبهدار، الإبريق.

فهم القائد فورًا، فخفّ إلى خدمته.

قال بسرعة حفيّة:

– المعذرة، فقد أنساني خوفي على وحيدي أنّك أنت أيضا في حاجة إلى

رعاية.

ثمّ أضاف بصوت خافت:

- هل زال عنه الخطر؟

أومأ أبو عليّ بالإيجاب وهو يتناول جرعة كبيرة.

- هل يُعقل أن نحدث ثقبًا في عنق بشر، دون أن نقتله أو نراه يفرغ من دمه؟ هل أنت ساحر؟

ردّ أبو عليّ بابتسامة حزينة:

- كلاّ، لست ساحرًا، وكم تحسّرت على ذلك في الأسابيع الأخيرة من حياتي.

ثمّ قال مواصلاً:

- لقد أصيبت حنجرة ولدك بتلوّث، نشأت عنه أغشية وزوائد أخذت تتعاظم يومًا بعد يوم حتّى سدّت مسالك الهواء، وكادت تؤدّي به إلى الاختناق[٢]، وما من حلّ لمثل هذه الحالة غير عمليّة فغْرِ الرغامي، لنمكّن المريض من التنفّس بحريّة[٣]، إلاّ أنّ لهذه العمليّة مساوئها، فطالما ظلّ الثقب مفتوحًا فإنّ ولدك لن يقدر على الكلام.

- ولكن، هذا الثقب، ألا يمكن أن ينزف منه الدم؟

- ها أنت ترى أن الدم سال دون أن يحدث نزيف. ذلك أنّ التجربة علّمتني أنّ في الجسم البشريّ مواقع عدّة مثل هذا الموقع، لا يسقيها بالدم أحد العروق الرئيسيّة، بل أوعية شعريّة دقيقة، لا يؤدّي تلفها إلى أيّ عواقب وخيمة.

كان الفتى وأبوه ينصتان إلى كلمات الطبيب بإعجاب كبير، وقد انقطع صوت القارئ، وبدأت الشمس ترتفع فوق قلعة جرجان.

غمس أبو عليّ أصبعين في جفنة الحليب، ومرّ بهما على جفنيه وحروق وجهه. في تلك اللحظة فُتِح الباب ودخل جنديّان، الأوّل يحمل غصنين طويلين من البامبو وجفنة عسل، بينما حمل الثاني قدحًا مليئًا

بالخشخاش المهروس. وضعا الكلّ على الطاولة واستأذنا في الانصراف.
سأل القائد:
- والآن؟
اقتطع أبو عليّ من غصن البامبو قطعة في طول سلاميّتين، وحمّى أحد طرفي القطعة على النار حتّى اسودّ، ثمّ ذهب فجثا عند المريض.
- لا تخف فلن تحسّ بألم، سأقوم فحسب بإيلاج هذه القصبة في الثقب الذي أحدثته، كي لا يندمل الجرح، إذ لو اندمل لَمَنَعَ الهواءَ من الدخول، ولاخْتَنَقْتَ من جديد.
وافق أبوعبيد برفّة من جفنه.
لاحظ السبهدار:
- لقد منحك ثقته كاملة، فأنت وهبته الحياة ثانية ولن يخشى أن تستردّها منه.
أولج ابن سينا قصبة البامبو بحرص شديد في الثقب المفتوح في قاعدة الرقبة، بعد أن أوسع فم الجرح، وحين أدخل القصبة مسافة ظفر تقريبًا، وتأكّد من أنّها ثابتة في موقعها، نهض وقد بدت عليه علامات الارتياح.
- ها أنّنا فرغنا من الأمر، الآن عليك أن تتسلّح بالصبر وأن تظلّ مستلقيًا على ظهرك لمدّة يومين أو ثلاثة، فإذا استعدت توازنك، أخرجنا الأنبوب ثمّ لأَمْنا الجرح بالدرْز، وآنذاك تستعيد قدرتك على الكلام.
أومأ أبو عبيد بالإيجاب، وملء عينيه إعجاب يشبه العبادة.
قال أبو عليّ وهو يتّجه ناحية الطاولة:
- الآن عليّ أن أهيّئ عقّارًا مختلفًا كلّ الاختلاف.
وأمام نظرات الدهشة والاستغراب التي كان يرمقه بها الولد وأبوه، أكبّ على المستحضرات التي استقدمت له، خالطًا بمهارة العسل والبنْج والخشخاش، حتّى حصل على معجون خَثِر، ثمّ انقلب إلى ما يشبه الخزّاف، فكوّن من العجين الذي حصل عليه ستّ حُقَنٍ مخروطيّة الشكل،

في حجم متقارب، وصفّفها على طرف الطاولة.

– لن يلبث هذا العجين أن يتصلّب.

ثمّ توجّه إلى الأب فخصّه بالحديث:

– عليك أن تناوله هذه الحُقَنَ عن طريق الشرج، واحدة عند الفجر وواحدة عند الغروب لمدّة ثلاثة أيّام.

ثمّ التفت من جديد إلى أبي عبيد وقال ملحًا:

– وأنت راقب القصبة جيّدًا، واحرص على أن تبقى في مكانها، وإلاّ ضاقت أنفاسك من جديد، هل فهمتني جيّداً؟

نهض السبهدار ودنا من أبي عليّ بضع خطوات، فتفرّس فيه مليّا، ثمّ قال وقد بلغ منه التأثّر:

– بارك الله فيك يا ابن سينا، وجازاك خيرًا أضعاف ما صنعته معنا اليوم.

قال أبو عليّ وهو يرفع الإبريق إلى فمه:

– ما أسرع حكم الله.

في الخارج ارتفعت جلبة المدينة التي كانت تصحو من نومها، وبدأت تعلو صرخات المراكبيّة الأوائل الذين بكّروا بالخروج، وشرعوا في أعمالهم على ضفاف النهر.

قال القائد بصوت هادئ:

– أصغ إليّ أيّها الشيخ الرئيس، لا أعرف لماذا يطلب الغزنويّ رأسك، لكنّي من بلخ أنا وابني، و...

قاطعه أبو عليّ دون أن يلتفت:

– عجبًا! أبي أيضاً كان من بلخ.

واصل السبهدار بحماس:

– إذن فأنت تعلم أنّ أبناء بلخ مؤمنون حقيقيّون، وأنّهم يفضّلون الموت على أن يخونوا ما جاء في الكتاب.

– وكيف لا أعلم ذلك؟

– إذن فأنت تعلم أنّه قد جاء في الكتاب الكريم: «انّه منْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أو فَسَادٍ في الأرْضِ فكأنّما قَتَلَ الناسَ جَميعًا ومَنْ أَحْياها فكأنّما أَحْيَا الناسَ جَمِيعًا.» لذلك فأنت حرّ من اليوم، لك أن تغادر القلعة وأن تذهب إلى حيث شئت.

تفرّس أبو عليّ في صاحبه وقد أبرقت عيناه:

– أنت رجل طيّب أيّها السبهدار، وأنت من يستحقّ فعْلاً لقب التقيّ.

كاد يضيف «ولكن إلى أين أذهب؟» غير أنّه آثر أن يسأل:

– فبماذا أجيب رجال الغزنويّ إذا جاءوا لأخذي إلى غزنة؟

قوّص السبهدار شفتيه بازدراء، وبصق على الأرض.

– هل أرضتك إجابتي؟

– إنّها ترضي ابن سينا، لكنّي أشكّ كثيرا في أنّها سترضي ابن سبكتكين.

– سأتدبّر الأمر، فلعلّهم لا يأتون، بل لعلّهم لا يعلمون أصلاً بأنّه قد تمّ العثور عليك.

نطق القائد بهذه الكلمات في نبرة غامضة.

– ماذا تعني؟

– دعك من هذا وقل لي، متى تزمع الرحيل؟

ربت ابن سينا على لحيته متمهّلا، براحة يده، وأجاب بابتسامة حزينة:

– تعرف مثلي ذاك المثل القائل: «امش بنعلك إلى أن يمنّ الله عليك بحذاء». ولكنّي للأسف لا أملك حتّى النعل، وطرق الديلم معروفة بوعورتها، ولعلّ لله أولويّات أخرى بعيدًا عنّي.

– فهمت، اطلب ما شئت وسيكون لك ما تريد.

– أريد نباتات قبل أيّ شيء، حشائش لأعالج نفسي وأعالج الآخرين، فتلك مهنتي وواجبي ومصدر رزقي الوحيد، ثمّ ليلتين من النوم، وحصيرًا

نظيفًا، و...

توقّف فجأة قبل أن يضيف:

– ونعلاً.

وضع القائد يدًا صديقة على كتفه:

– سيكون لك ذلك، ومن اليوم ستقاسم ابني غرفته، ولك أن ترحل متى رأيت أنّ قواك تسمح لك بذلك، أستودعك الله الآن، فواجبات العمل تدعوني.

– لم أعرف اسمك بعد.

– عثمان.

– وابنك؟ أبو عبيد، أليس كذلك؟

– تمامًا، اسمه أبو عبيد الجوزجاني.

الهوامش:

١– تتراوح درجات الحرارة في منطقة الدشت الكبير، بين ٣٠ درجة مائويّة تحت الصفر، و ٥٠ درجة مائويّة فوق الصفر. (المترجم)

٢– واجه ابن سينا يومها، ما أصبح يسمّى "الخناق"، أو angine diphterique. (المترجم)

٣– يمكن اعتبار ابن سينا مخترع عمليّة فغر الرغامي"tracheotomie "، التي ضبط خطّتها الجراحيّة الجرّاح العربيّ الشهير أبو الكسيس القرطبيّ. وهي فرضيّة تدعّمها مقتطفات من أعماله المترجمة إلى اللاتينيّة، إلى جانب مقتطفات من أعماله في لغتها الأصليّة، ولابدّ من انتظار عصر النهضة، لنعثر على أثر لعمليّات من هذا النوع، قام بها الطبيب الإيطالي الشهير انطونيو موزا برازافولا (١٤٩٠ ـ ١٥٥٤). (المترجم)

المقامة الحادية عشرة

«هكذا إذن قُيِّضَ لي في تلك القلعة من جرجان أن أتّصل أنا أبو عبيد الجوزجانيّ ابنُ بلخ ذو العشرين عاما، بالرجل الذي سيصبح معلّمي وصاحبي، الشيخ الرئيس أبو عليّ بن سينا. وكلُّ ما سبق حكاه لي الشيخ من لفظه ومن ههنا ما سمعته من أحواله أو شاهدته. وذلك أنّه ما أن أنقذ حياتي حتّى غدا هو بصري وغدوت أنا ظلّه، فلم أرَ إلى أمر من أمور الناس إلاّ بعينيه، ولم أنظر في شأن من شؤون الفكر إلاّ بعقله.

والحقّ أنّي لم أسأل يوما ولا رغبت في أن أسأل، إن كان قد انتبه إلى مبلغ شغفي به أو استوثق من تفانيّ في الإخلاص له، فقد كنت طيلة خمسة وعشرين عاما مثل تلك العين المنحدرة من ذرى طبرستان، التي تقول الخرافة إنّها تكفّ عن الجريان ما أن يطلق المسافر صرخة ألم، وهكذا كنت كلّما عرف معلّمي العذاب توقّف سيل حياتي عن التدفّق.

تقاسمنا الغرفة نفسها طيلة تلك الأيّام الثلاثة، وكنت مرغما على الصمت بسبب ما حاق بحنجرتي، فكان منه القول وكان منّي الإنصات، وهكذا أمكن لي أن أكتشف فيه عن كائن جريح، تناهشته الحيرة وتنازعته السبل، لكنّه لم يفقد الوعي، فخلصتُ إلى أنّ وعيه كان سبب عذابه. لقد عبر الدشت الكبير، لكنّه في الحقيقة كان يرحل إلى أقاصي ذاته، وها هو بجسده في جرجان، أمّا روحه فلم تبلغ الميناء بعد، وهل تبلغه أبداً؟

كان همّه خلال تلك الأيّام أن يستردّ عافيته ويستجمع قواه، فإذا شعر بتحسّن استلقى إلى جواري وأفضى إليّ بما يشغله من أمور الفكر والفلسفة. هكذا حدّثني طويلا عن المقدوني مربّي الأسكندر ومؤسّس المنطق الصوريّ وصاحب مدرسة المشّائيّة، أرسطوطاليس، أستاذه ونبراسه الأكبر، وشرح لي ما أسماه بمراحل الطبّ العربيّ الكبرى، فرأيته واثقًا من أنّه جزء لا يتجزّأ من إحدى هذه المراحل، كما صوّر لي الزمان

الذي نحن فيه بدقّة عجيبة، فحدّثني عن الحضارة العربيّة المزدهرة، وكيف انطلقت بدفع من النبيّ قبل أربعمائة عام، فبسطت يدها على العالم لا يقوى على ردّها أحد، وها هي تشرق بشمسها على الأندلس وشمال إفريقيّة وسوريا وبلادنا أرض فارس، وكأنّها موجة هائلة، لا يعترض طريقها شيء إلاّ طوّحت به، مرغمة الثقافة الهلنستيّة على إخلاء المكان.

فهل أعترف لك بأنّي ما أن استمعت إلى حديثه حتّى بدا لي عالم النصارى بالغ الضآلة إذا قُورِنَ بالبلاد التي غلب عليها الإسلام، ولم يلبث الخيال، ولعلّه لم يكن خاليًا من سذاجة، أن صوّر لي الأرض في يوم قريب وهي خالية إلاّ من أتباع محمّد.

وما أن حلّ فجر اليوم الرابع حتّى قرّر مغادرة جرجان والقلعة، فعرضت عليه الصحبة.

أدهشه طلبي ثمّ همّه، فصدّني بقسوة، مستعملا كلمات فظّة جارحة، آلمتني كثيرًا وكادت تحفظني عليه، لولا أنّي سرعان ما نفذت إلى دخيلة صدره. كان يعلم أنّه مطلوب وأنّ الخطر محدق به من كلّ جانب، فعزّ عليه أن يكون له رفيق فيصاب من ورائه بسوء، كما لم يفتني أنّ موت المسيحيّ شقّ عليه، وأنّه يحمل وزر هذا الموت في قرارة نفسه كما لو أنّه تسبّب فيه. ولعلّ إحاطتي بكلّ هذه الأمور هي التي ساعدتني على إقناعه بقبول صحبتي.

فكان خروجنا من أرض الذئاب في الثالث من محرّم قاصدين دهستان، تحت سماء زرقاء صافية، مثقلة بتلك الرطوبة المميّزة للسهوب المحاذية لبحر الخزر. كانت دهستان في منتصف الطريق بين جرجان وخوارزم، وهي من تلك المواقع الحدوديّة الحصينة، التي نطلق عليها اسم الثغور، وأغلب سكّانها من صيّادي السمك والطيور، وقد بلغناها في اليوم الثاني من سفرنا ولم نجد بها خانًا فلُذْنَا بحرم الجامع.

من الغد، شرع معلّمي في العمل متنقّلا من قرية إلى ربض وأنا أتبعه مثل

ظلّه لا أفارقه قيد أنملة. مضينا إلى نَسَا ومنها إلى باوَرْد ومنها إلى طوس (كان للإقليم أكثر من عشرين قرية) ثمّ إلى هرات فإلى شبه جزيرة دهستان، عارضين خدمات الشيخ على كلّ من يحتاج إليها، معالجين الفقراء لوجه الله تعالى، أمّا من كانوا أيسر حالاً فكنّا نقبل منهم بعض السمك والغلال وأحياناً بعض الدنانير.

هكذا سارت بنا الأيّام في طمأنينة ودعة ونحن نروح ونغدو بين تلك الرمال الصُهْب التي يقف عندها البحر من جهة، وذيول ديماوند ذاك البركان العجوز الخامد من الجهة الأخرى. وكثيرا ما كان يتّفق لنا ونحن في طريق العودة أن نتوقّف في قرية بيجون، ريثما نملأ قِربَنَا من تلك المياه الكبريتيّة الحارّة المتدفّقة من نبع في سفح البركان، والتي كان معلّمي يرى لها منافع كبيرة للكبد.

كانت تلك الأيّام بالنسبة إليّ غنيّة بكلّ ما هو جديد ومثير، فأنا لم أغادر دارنا منذ أن انتقلنا من بلخ إلى جرجان، أمّا معلّمي فكان يبدو مهموما تُغَضّنُ سحنتَه الكآبة ويغلب عليه الشرود. وأذكر أنّنا كنّا ذات يوم نركض بجوادينا على امتداد رأس الخُلْف، وكنّا في مطلع الشهر الرابع من حياة التشرّد تلك، حين أنشد في حاله قصيدة تنضح بالمرارة أذكرُ منها هذا البيت:

لَمّا عَظُمْتُ، فَلَيْسَ مِصْرٌ واسِعِي
لَمّا غَلاَ ثَمَنِي، عَدِمْتُ المُشْتَرِي...

إلاّ أنّه استأنف الكتابة على الرغم من شدّة التعب وعناء السفر، وأشهد أنّ ما مرّ عليه من أحداث جسام لم ينل في شيء من فكره الثاقب وذاكرته العجيبة، بل لعلّي أجرؤ على القول إنّهما قد ازدادا حدّة ومضاء، ولم يتغيّر من أمره شيء سوى أنّه اعتاد من حينها أن يملي عليّ أعماله. وكانت الصدفة تجمعنا في بعض الليالي ببعض الرحّل فنتحلّق حول نار في العراء، وكان معلّمي ينتحي بي جانباً ويأخذ في الحديث عن المنطق والرياضيّات

والطبّ أو الفلك، فيحلّق بنا بعيدا عن العالم، وكنت أكتب طيلة ساعات في ضوء ألسنة اللهب الراقصة، فلا نتوقّف بين الآونة والأخرى إلاّ مستسلمين لفتنة حكاية يرويها أحد صيّادي تركستان، أو مأخوذين بحديث تاجر من كرمان يصف مدنا عجيبة تتلألأ بالنور.

خلال تلك الأشهر أملى عليّ معلّمي أربعة أعمال: كتاب الأدوية القلبيّة وأرجوزة في الطبّ والمختصر في أنّ الزاوية من المحيط والمماسّ لا كميّة لها وكتاب الأرصاد الكليّة، وكنت أحفظ تلك الكتب في أكياس من جلد الماعز فإذا رجعنا إلى دهستان حرصت على إخفائها في مكان أمين.

صباح السابع من ربيع الثاني أفاق معلّمي من نومه وقد نهشته الحمّى، وكنّا إذ ذاك عند سفح هضبة على بعد فرسخين من جرجان، فدثّرته بعباءتي وكانت ثقيلة من وبر الجمال وسقيته قليلاً من الشاي الساخن بسكّر، إلاّ أنّ حالته ازدادت سوءاً، وسرعان ما انتابته نوبات غثيان، فراعني قيئه بلونه الضارب إلى الحمرة، ثمّ مال اللون إلى السواد، وعقب ذلك اضطراب في التنفّس ثمّ إسهال حادّ، وكان معلّمي أثناء كلّ ذلك يحمل على نفسه كي يحتفظ بفضلة من وعي، فأمكن له أن يرشدني إلى ما يجب أن أسير عليه في علاجه، فلم يكن منّي إلاّ التنفيذ، وقد راقب الأعراض وجسّ النبض ولاحظ خاصّة أنّ الحمّى تعاوده بانتظام في الساعة الثالثة من اليوم كلّ يومين، وفي الساعة الرابعة من اليوم كلّ ثلاثة أيّام، فاستنتج أنّه أصيب بداء المستنقعات(1)، وأمرني قبل أن يغرق في شبه غيبوبة أن أسقيه كلّ ثلاث ساعات نبيذا ساخنا بعد أن أنقع فيه قليلاً من لحاء شجر الكينا، ففعلت.

ثمّ تلت ذلك أيّام ثقيلة مضنية، واستمعت إليه وهو يهذي بكلمات لا معنى لها، وقد جحظت عيناه وتفصّد وجهه عرقًا وهزّت جسمه القشعريرة، وكان من الصعب عليّ أن أتعرّف في هذا السحنة المتقعة المقطّبة على الشيخ الرئيس، معلّمي، أبي عليّ بن سينا، والحقّ أقول إنّي

خفت بل ارتعبت رعبا ملك عليّ زمام أمري، فامتطيت صهوة حصاني واندفعت لا ألوي على شيء في الطريق المتّجهة إلى جرجان طلبا للنجدة، ذلك أنّي وليغفر لي الله قد ساورتني الشكوك في مدارك الشيخ، ولم أعد واثقا إن كان قادرا على علاج نفسه وهو في حالته تلك. ولئن كذّبتني الأيّام بعد ذلك فقد اتّضح أنّ حماقتي تلك لم تكن دون فائدة.

أرخيت لجوادي العنان مولّيًا وجهي شطر جرجان، وكنت على مشارفها حين اعترضتني كوكبة من الفرسان يحثّون السير في الاتّجاه المعاكس، وما أن طالعتني ثيابهم حتّى خمنت أنّهم صيّادون من أثرياء القوم، وكان لأحدهم بازٌ مُقَلْنَسٌ جاثم على سبّابة يده المغلّفة بقفّاز، ولا أدري لماذا لكزت دابّتي فجأة فقصدت الرجل وبثثته حيرتي وبلواي، فأصغى إليّ بانتباه وقع من نفسي موقعا حسنًا، فصارحته باسمي ففهمت أنّ والدي غير مجهول لديه، ولم أفرغ من حديثي معه حتّى سألني أن أدلّه على المكان الذي تركت فيه الشيخ ليساعدني على حمله إلى جرجان، وعلى الرغم من ارتياحي للأمر فقد ساورتني الظنون، وجال في خاطري ما يحدق بنا من مخاطر، وتساءلت إن كان أبي قادرًا على إخفاء الشيخ من جديد.

سارت الكوكبة في إثري، وما أن بلغنا إلى حيث الشيخ حتّى فاجأني القدر بغير ما كنت أتوقّع.

ترجّل صاحب الباز واقترب من معلّمي سائلاً أحد أصحابه أن يساعده في حمل الشيخ ووضعه فوق حصاني، وما أن أكبّ عليه وتبيّن ملامحه حتّى تجمّد في مكانه، ففهمت أنّه تعرّف عليه.

– غير معقول، هل هو خداع بصر أم أنّه حقًّا أمير العلماء أبو عليّ بن سينا؟

لذت للوهلة الأولى بالإنكار، إلاّ أنّي لم أتقن الكذب فيما يبدو، فقد أصرّ الرجل وحلّفني بكلّ عزيز أن أصدقه القول.

- لا تخش بأساً، فيشهد الله أنّي لست ممّن يخونون شخصا بهذه القيمة، هل هو الشيخ الرئيس؟

توسّمت فيه الصدق وسلامة الطويّة فأومأت بالإيجاب، وما كدت أفعل حتّى أشرق وجهه فخفّ إلى أصحابه يطلب العون ثمّ التفت لي وقال بلهفة:

- اسمي محمّد الشيرازي، ولي بجرجان ديار سَنُنْزِلُ الشيخ في واحدة منها، وله أن يعتبرها من الآن داره، واعلم أنّ الماثل أمامك مولع بالعلوم والآداب، وأحد أنصار الشيخ، بل لعلّي أكبر المعجبين به وبعلمه، ولتعلم أيضاً أنّ الله منّ عليّ بنجدة الشيخ اليوم، وأنّ ذلك سيظلّ أفضل ما قمت به في حياتي.

لم تنقض الليلة حتّى كنّا آمنَيْنِ في دار هذا الرجل الكريم وفي جواره، ولم يدركنا مطلع الفجر الثالث حتّى وقفتُ على بعد نظر الشيخ في العلاج الذي وضعه لنفسه والذي ساورتني فيه الشكوك، فقد تعافى في اليوم السادس واستعاد وعيه كاملا وغادرته الحمّى. ولعلّي أدركت يومها أمرين جوهريّين لم أحد عنهما بعد ذلك: ما يتحلّى به الشيخ الرئيس من المتانة الجسمانيّة العجيبة، وما يحيط به من العناية الإلهيّة التي لازمته وستلازمه أبدا في حلّه وترحاله.

ثمّ أنّ الأيّام دارت دورتها، وما هي إلاّ أشهر معدودة حتّى عبثت الرياح والأمطار بالتصاوير التي كانت على كلّ جدران المدينة، وبات من الصعب على أحد أن يتبيّن ملامح أمير العلماء في تلك المزق من الأوراق المصفرّة.

واستردّ معلّمي قواه بسرعة عجيبة فانكبّ على العمل بحماس أكبر من السابق، وكان الشيرازي حريصاً على أن يوفّر لنا كلّ أسباب الراحة، وقد تمنّى على الشيخ أن يمنحه دروساً في المنطق والفلك فوضع له في أسابيع كتاباً أسماه المختصر الأوسط في المنطق وأهداه له.

أصبحت دارنا بمرور الوقت قبلة علماء جرجان ومتعلّميها، فضاعف ذلك من أعباء الرئيس، وبتنا لا يمضي يوم إلاّ وعلى بابنا صاحب جديد أو

طالب علم أو متفلسف، يستوضح أمراً أو يسأل في موضوع، وكانت أجوبة الشيخ تدهش الجميع بما تنمّ عنه من سعة العلم وحصافة الرأي ووضوح الرؤية، حتّى خشي البعض من أن تبقى هذه المعرفة حكراً عليهم لا ينتفع بها غيرهم فيما يقبل من أيّام، فأخذوا يلحّون عليه في أن يكتب إجاباته على مسائلهم، فحصل من ذلك رسالة في تحقيق الزاوية وكتاب المبدأ والمعاد وخاصّة كتاب الحدود، لأهميّته البالغة من جهة ما يتضمّنه عن آراء ابن سينا في الحكمة.

وقد أرادت المشيئة الإلهيّة أن يشرع الشيخ تحت سقف تلك الدار المتواضعة في إنجاز العمل الذي سيصبح فيما بعد كتاب حياته الرئيس.

كان اليوم آخر أيّام شعبان.

وكنّا جالسين على سطح الدار نتطلّع مثل كلّ مسلمي فارس إلى رؤية الهلال المعلن عن دخول رمضان، فما أن يحلّ هذا الشهر حتّى يفرغ كلّ أبناء الإسلام من ذوي الجسم المعافى والعقل الراشد إلى ثلاثين يوما من الإمساك عن الأكل والشرب والمعاشرة، منذ تبيّن الخيط الأسود من الخيط الأبيض إلى غروب الشمس.

كنّا إذن في انتظار رؤية الهلال حين همس لي أبو عليّ دون أن يلفت نظره عن السماء:

– هل تذكر يا أبا عبيد ما خضنا فيه قبل أيّام من أمر مراحل الطبّ العربيّ الكبرى؟

ودون أن يتيح لي فرصة الإيجاب واصل قائلاً:

– كانت المرحلة الأولى كما أوضحت لك متميّزة بما أسميته "حمّى الترجمة"، وعن طريقها أمكن للطبّ الأبقراطيّ والجالينوسيّ والبيزنطيّ أن يكون اليوم في متناولنا بالعربيّة.

توقّف الشيخ برهة قبل أن يضيف:

– وقد دخلنا منذ فترة قصيرة في المرحلة الثانية، مرحلة الإبداع

والإضافة، وأفضل ما يمثّلها كتاب الحاوي للمعلّم الكبير أبي بكر الرازي الذي نحن مدينون له باكتشاف الضربين الرئيسيين من الحمّى الوبائية[٢]، وبملاحظة ارتكاس البؤبؤ أو تفاعل الحدقة للضوء، ولا ننسى أنّ عالمًا مثل ابن الهيثم قد توصّل في هذا المضمار إلى نتائج في غاية الأهميّة، من بينها تحديد الإبصار باعتباره مرتبطا بالإرتكاس، كما أنّ من بين علامات الإبداع والإضافة تلك العمليّات الجراحيّة التي تمّت في بغداد منذ أقلّ من عام، ألا تذكر؟ لقد تمكّن الأطبّاء في إحداها من علاج الساد باستخراج العدسة البلّوريّة، وهذا كما تعلم تقدّم كبير بالنسبة إلى الطريقة القديمة التي كانت تعمد إلى القدح، أي خلع الساد أو إسقاطه إلى قاع الخلط الزجاجي[٣]، ويمكنني أن أذكر في باب الإبداع والإضافة أيضاً الكتاب الملكيّ لابن عبّاس أو كتاب المائة لصديقي المسيحيّ، فالقائمة أطول من أن يحيط بها الحصر.

صمت معلّمي من جديد وخيّل إليّ أنّي أري في عينيه بريقا غير مألوف ثمّ لم يلبث أن سألني:

– ألا ترى نقصاً في عرضي هذا؟

تفرّست فيه محتاراً، فقال شارحا وقد وثق من أنّي لم أفهم ما يرمي إليه:

– ينقصنا عمل، عمل كبير، كتاب جامع ومرتّب يتضمّن في وضوح وتنظيم جملة ما وصل إليه الطبّ في عصرنا هذا، بالإضافة طبعًا إلى كشوفات المؤلّف وما اجتمع له من خبرته الخاصّة.

قلت مدهوشاً:

– هل تدرك حقّا أيّ جهد يتطلّبه عمل كهذا؟ إنّه لَأَبْعَدُ طموحاً من "أوبئة" أبقراط أو رسائل الطبّ الخمسمائة التي تركها جالينوس.

لم يبد على معلّمي أنّه انتبه إلى ما قلت، فواصل حديثه وقد ملكت عليه أفكاره كلّ أمره:

– الحقّ إنّي أزمع على وضع خمسة كتب مستقلّة، أمّا الكتاب الأوّل فإنّي مخصصّه للكليّات من علم الطبّ، ولتصنيف الأمراض وأسبابها بصفة عامّة من جهة النبض والهضم وتدبير الصحّة وقوانين المعالجات، وسأعتني في الكتاب الثاني بالقوانين الطبيعيّة التي يجب أن تُعرف من أمر الأدوية المُستعملة في علم الطبّ مع التبسّط في الأدوية المفردة وذكر خواصّها وأفعالها، وسأعرض في الكتاب الثالث إلى الأمراض الجزئيّة الواقعة بكلّ عضو على حدة، أمّا الكتاب الرابع فسأخصصّه للأمراض الجزئيّة التي إذا وقعت لم تختصّ بعضو، مثل الحميّات، وسأعالج فيه مسائل مثل العلامات والأعراض والتشخيص والتوقّعات، والجراحة الصغرى المتعلّقة بالأورام والبثور والجرح والكسر والجبر واللدغ، مع رسالة في السمّ، وسأختم في الكتاب الخامس بالأدوية المركّبة أو الأقرباذين.

ظللت أصغي إليه بكلّ جوارحي، وكلّما أوغل في تعداد أقسام كتابه أحسست بقشعريرة تسري في كامل جسدي، حتّى رسخ في ذهني أنّ شيئًا ممّا أفضى به إليّ لم يكن عن ارتجال أو عاطفة، بل لا شكّ أنّ الفكرة لم تفتأ تنضج داخله على مهل منذ مدّة طويلة، ولكن، هل كان مدركًا لثقل المهمّة؟

تعالت من الشوارع المجاورة أصوات الفرح والبهجة فأخرجتني من تأمّلاتي. كان الهلال الجديد قد كشف عن وجهه فوق قلعة جرجان.

نهض الشيخ صامتًا وبسط سجّادته للصلاة، فاقتربت منه، إلاّ أنّه سرعان ما التفت لي وكأنّه اطّلع على سريرتي، فسألني مبتسمًا:

– تريد أن تعرف إن كنتُ فكّرتُ في اسمٍ لهذا العمل؟ سيكون عنوانه مستلهما من الكلمة اليونانيّة: قانون، وتعني القاعدة...»

*

اعتدل محمّد الشيرازي في جلسته وكان مسترخيا على أريكته الوثيرة، ثمّ أغلق المجسطيّ، كتابَ بطليموس الشهير، وأدنى من شفتيه قدح

الشاي المُنَعنع.

كنّا في مطلع العام ١٠١٢ حسب تقويم النصارى، وقد انقضت سنة على مقامنا بجرجان.

همس أبو عليّ ململما أوراقه المتناثرة على الطاولة:

– أراك شارد الذهن أيّها الشيرازيّ الفاضل، خاصّة هذا الصباح.

لم يجبه الشيرازيّ بل اكتفى بتناول رشفة أخرى من قدح الشاي.

– ولكنّك أفضل من يعلم أنّه لابدّ من ذهن صافٍ لفهم الآليّات الفلكيّة التي جاء بها بطليموس، فنظريّته في الكُرى الكونيّة ليست في متناول أيٍّ كان.

هزّ الرجل الكريم رأسه موافقًا:

– أدرك ذلك أيّها الشيخ الرئيس، ولكن هل لنا سلطان على شواغل القلب؟

– لا أجرؤ على السماح لنفسي بالتدخّل في شؤونك الخاصّة، ولكنّي أرجو أن لا أكون سببًا في هذه الشواغل.

بدت على الشيرازيّ أمارات الحرج، فأصلح من جلسته على الأريكة ثمّ سأل الشيخ وكأنّه يغيّر الموضوع:

– حدّثني عن الرسالة التي وصلتك البارحة من البيرونيّ؟

– تعلم ولا شكّ أنّي بقدر ما أسعدتُ بالاطمئنان على أنّه سليم معافى، فقد استأت لوجوده بغزنة في خدمة التركيّ، ولا أخفي عنك أنّه قد انتابني من ذلك بعض الامتعاض.

– وما العمل إذا لم يكن الجميع على رأيك في محمود الغزنويّ؟

– المعذرة يا شيرازيّ، لكنّ ما بيني وبين البيرونيّ من صحبة لا يدع مجالاً عندي للموضوعيّة في هذا الأمر، لذلك أفضّل أن لا أحكم على اختياره، وكلّ ما أرجوه أن يجد هناك ما يسمح له بالفراغ إلى تآليفه فهذا هو المهمّ، أمّا الباقي...

هزّ أبو عليّ يديه في حركة استسلام ثمّ قال مضيفًا:

– الغريب في الأمر هو تلك الوحشيّة المتزايدة لملك غزنة، ويبدو كما قال البيرونيّ أنّ حملته على الهند ماتزال في بدايتها، ولا شيء يقف في طريق الغزنويّ، ومنذ أن عصف بالحلف الذي عقده الهنود واستولى على مدينة كنغرة وجيوشه تتقدّم في أراض مستسلمة، ناهبة المعابد ذابحة السكّان، لا تفرّق بين امرأة أو طفل أو شيخ، وها هي الهند تعيش منذ أكثر من ثلاث سنوات في الرعب والدماء.

– إذا لم أسئ فهم رسالة البيرونيّ فيبدو أنّه هو أيضًا سيصحب إحدى هذه الحملات؟

– بلى، سيصحبها باعتباره فلكيًا، وقد تدهش إذا قلت لك إنّي أظنّه مبتهجا بذلك، فالبيرونيّ كان دائم الحلم باكتشاف العالم.

– يا لها من طريقة غريبة لتحقيق حلمه.

– أنا واثق من أنّ عينيه لن تقعا إلاّ على البلدان والمشاهد الطبيعيّة والمخطوطات وحركات الأرض، سيجاور الجريمة لكنّه سيتجاهلها.

– يبدو أنّ لك ثقة كبيرة بصاحبك.

– أليس صاحبي؟ ولكن لنعد إلى موضوع شواغلك قبل أن يطوّح بنا الحديث بعيدا، فالحديث ذو شجون، لقد فهمت من كلامك أنّي لست غريبا عن هذه الشواغل.

– لنقل إنّ...

قطع حديثه كأنّه يبحث عن الكلمات، ثمّ سأل بشيء من اللهفة:

– هل تعرف شيئًا عن شيرين، المعروفة أكثر باسم السيّدة؟

– أظنّني سمعت بهذا الاسم، أليست ملكة مدينة الريّ[4]؟

– بلى، وهي قريبةُ ابن دوشمان زيار ذائع الصيت، مؤسّس السلالة الكاكائيّة التي تنتمي إليها السيّدة.

– دوشمان زيار... أي الفاتك بأعدائه، أليس هذا هو معنى الكلمة؟

– هو ذاك، وأنت تجد هذا الاسم وقد ضربت به كلّ السكّة الكاكائيّة، ولكن لنعد إلى الملكة، منذ أن توفّي زوجها وهي صاحبة السيادة على الناحية الغربيّة من بلاد الجبال، والحقّ أنّها ليست سوى الوصيّة، فللعرش وريث هو ابنها اليافع مجد الدولة، وهو الآن في السادسة عشرة من عمره.

داعب أبو عليّ لحيته شارد الذهن.

– العفو يا شيرازيّ، لكنّي لا أرى غايتك من وراء هذا العرض المطوّل عن السيّدة والسلالة الكاكائيّة، لكم ابتعدنا عن بطليموس وكريّاته الكونيّة.

من جديد بدت على الشيرازيّ أمارات الحرج، ثمّ قال خافضًا عينيه:

– الحقّ أنّي أشعر بالذنب، فمنذ أكثر من شهر ورُسُلُ بلاط الريّ لا تنفكّ عن ملاحقتي، ومنذ أكثر من شهر وأنا أصمّ أذنيّ عن إلحاحهم في الطلب، لقد بلغ إلى مسمع الملكة أنّك مقيم بجرجان وهي تريدك في البلاط، حتّى أنّ الوزير أبا القاسم نفسه كان عندي البارحة وعاودني في الأمر.

– وماذا يريدون منّي؟

– سمعت أنّ صحّة وليّ العهد ليست على ما يرام، ولعلّه يشكو من السويداء.(٥)

– هكذا إذن؟...فبماذا أجبتهم؟

نظر الشيرازي في عيني أبي عليّ اللتين غشّتهما الحيرة وأجابه بنبرة تحدٍّ:

– قلت لهم إنّك غير موجود وإنّك كثير السفر وإنّي لا أستغني عنك، وها أنت ترى أنّي اضطررتُ إلى الكذب عليهم.

– ولِمَ؟

– أنت أفضل من يسبر أغوار النفوس، أفلا تعرف أنّ الأنانيّة من جوهر البشر؟

– يا شيرازيّ يا صديقي، إنّ لهذه الكلمات بين شفتيك وقع التجديف.

– ومع ذلك فتلك هي الحقيقة، فأنا لم أفكر إلاّ في نفسي، ولم تشغلني سوى فكرة واحدة، أن أحتفظ بك إلى جانبي أطول وقت ممكن، ثمّ فكّرتُ في الأمر واشتدّ ضغط الجماعة وإلحاحهم، فـ...

نهض أبو عليّ من مكانه وسار بضع خطوات في اتّجاه النافذة.

– عليّ إذن أن ألتحق بالريّ...

سارع الشيرازيّ إلى الاقتراب منه.

– قد لا يكون في الأمر سوء، فأنت من طراز آخر يا أبا عليّ، وداري المتواضعة صغيرة على مثلك، وقد سألت نفسي كما قلت لك عن جدوى احتفاظي بك إلى جانبي، في حين أنّي على ثقة من أنّك تحتاج إلى جوار الملوك.

توقّف برهة قبل أن يضيف، ضاغطا على الكلمات عن قصد:

– شأنك في ذلك شأن البيرونيّ.

– سبق أن قلت لك إنّ اختيار وليّ النعمة وقفٌ على تقدير الشخص للأمور.

– ولكنّك قلت لي بنفسك إنّ العلماء في حاجة إلى من يرعاهم، بأن يضع تحت تصرّفهم الوسائل التي تكفل لهم أن يواصلوا أبحاثهم في أمان وحماية، وأنا كما تعلم لست سوى تاجر بسيط، ولا شكّ أنّك لن تحظى بما يليق بك من حماية ورعاية إلاّ في كنف القصور.

التفت إليه أبو عليّ في حركة مباغتة:

– القصور! افتح عينيك جيّدا يا أخي، ليس الشعراء أو العلماء مهما كانوا ومن حيثما جاؤوا، سوى رافعات يستعملها الحكّام كي يعلوا على الوحل، فإذا حقّقوا بغيتهم تخلّوا عنّا أو قتلونا، نحن لدى الأمراء بمثابة شهادات على تبرئة الذمّة يا شيرازيّ، أنظر إلى حياتي وسترى أنّي خدمت الملوك مرّتين، فلم أكن في خطر قدر ما كنت وأنا مغمور بذهب قصورهم

المنيفة.

همّ الشيرازي بالاعتراض لكنّ الكلمات بدت له دون جدوى، فأضاف ابن سينا قائلاً:

– لا فائدة من هذا على أيّ حال، فقد تحدّثت عن ضغوط، أليس كذلك؟

كان صمت الرجل علامة على الإيجاب.

– ما أعجب هذا القدر، أُطرَد من مكان فأُطلب في مكان آخر، حسنًا، أخبر رُسُل الملكة بأنّي ملتحق غدا بالريّ.

أمسك الشيرازي بساعد الشيخ في عفويّة حميمة:

– لا تقلق يا صديقي، فسترى أنّك مُلاقٍ هناك استقبالا يليق بعلمك.

– أقلق؟

سرّح نظره في بحر الخزر الذي كان يتراءى له من بعيد.

– اسمع هذه الكلمات يا شيرازي ولا تنسها مهما حدث، إنّ حياتنا مهما طالت أيّام معدودة، عابرة مثل ريح الصحراء، ومادام لك نفس يتردّد فثمّة يومان يجب أن تحرص على أن لا يساورك في أمرهما أيّ قلق، اليوم الذي لم يجئ بعد واليوم الذي فات.

الهوامش:

١– لاشكّ أنّه يقصد حمّى المستنقعات "paludismd"، وهو مرض يصيب ما يقارب العشرة ملايين من البشر سنويًا، يموت منهم أكثر من ثلاثة ملايين، ومازالت الكينا دواءه الوحيد. (المترجم)

٢– نحن فعلاً مدينون إلى هذا الطبيب الشهير بتشخيص الجدري والحصبة. (المترجم)

٣– لم تسعف الذاكرة معلّمي، كي يذكر لي بدقّة اسم الطبيب الذي أنجز هذه العمليّة المدهشة. (الجوزجاني)

٤– تقع أطلال هذه المدينة اليوم جنوب شرقيّ طهران، على مسافة تقارب الثمانية كيلومترات. (المترجم)

٥– المنخوليا، العُصاب، الانهيار العصبيّ. (المترجم)

المقامة الثانية عشرة

اضطجع الفتى على بطنه في حديقة القصر ونام، أو لعلّه كان يتناوم، فقد فتح عينيه أوّلَ ما سمع صوت أعشاب تتحرّك وتوتّرت عضلاته.

تجدّد الصوت فكوّر أصابعه على حجرٍ ذي نتوءات حادّة ورفع قبضة يده وانتظر متحفزًا، وما هي إلاّ لحظات حتّى أطلّ من بين الأعشاب الجافّة رأس سحليّة صغيرة، فتريّث الفتى حتّى أمكن له أن يحصي عدد الحراشف الخضراء الرماديّة التي كانت تغطّي ظهر العظاية، وما أن أصبحت على بعد نَفَسٍ منه حتّى أهوى عليها، ساحقًا بضربة واحدة البطن الرخو الذي تفلّقَ عن خليط حليبيّ مشوب بالأمعاء، ثمّ لم يلبث أن أعاد الكرّة مهشّما الأعضاء المتشظّية لهذه الزحّافة المسكينة، هاويًا عليها بحجره مرارا وتكرارًا، حتّى لم يبق منها غير كتلة لزجة لا فرق بينها وبين الرمل والأعشاب المصفرّة.

آنذاك هدأ غضبه بعض الشيء، فغمس سبّابته متمهّلا في ذلك العجين عديم الشكل، وقد علت محيّاه ابتسامة رضى، وخطّ على الأرض كلمة: شيرين.

– يا إلهي! أين مولاي؟

كان ذلك صوت الخصيّ العجوز رئيس الحجّاب، وقد لعلع في أرجاء الحديقة.

– مولاي أين أنت؟ أجبني بالله عليك.

عنّ للفتى أن ينهض أخيرًا، ففعل، مُمَسّحًا إصبعه دون انتباه بسرواله المخمل الأرجوانيّ.

– ماذا يريدون منّي؟

وقف على رؤوس أصابعه فظهر من خلف السياج رأسه المدوّر ذو الشعر الفاحم الأجعد. كان رئيس الحجّاب واقفا على بعد خطوات منه، وقد أولاه

ظهره.

- سألتك ماذا يريدون منّي؟

دار الشيخ على عقبيه دون أن يبرح مكانه وانحنى للأمير.

- مولاي شرف الدولة، شيرين والدتك أرسلتني في طلبك لأمر عاجل.

وضع الفتى يديه في خاصرته وصعّر خدّه قليلاً، ثمّ شقّ لنفسه طريقًا إلى حوض الزهور، ومن ثمّ اتّجه إلى الجناح الغربيّ للسراي وقد قوّص شفتيه في حركة ازدراء، فلحق به رئيس الحجّاب.

- لم تجبني بعد، ماذا تريد منّي الملكة؟

- ومن أدراني يا شرف الدولة؟ يبدو لي أنّ...

- ألن تكفّ عن مناداتي بشرف الدولة؟ أنا مجد، مجد الدولة، ولا أريد أن أنادى بغير هذا الاسم.

انحنى الشيخ في خنوع ضامًّا يديه أمام صدره.

- أمرك مولاي.

واصل الأمير وهو يحثّ الخطو:

- لاشكّ أنّ الوالدة العزيزة تريد أن تمنّ عليّ بدرس جديد في حقوق الملك، اللاشرعيّة.

- أظنّها...أعتقد أنّها تريد أن تقدّم لك وافدًا جديدا على القصر.

حدج الأمير مخاطبه بنظرة ارتياب هذه المرّة، قبل أن يسأله ساخرًا:

- أرجو أن لا يكون الأمر متعلّقا بطبيب كالعادة، هل هو طبيب؟

خفض الخصيّ عينيه.

- لا أدري يا مولاي، لا أدري.

- حسنًا، إذن فقد عرفت الجواب.

ثمّ استأنف سيره في اتّجاه القصر، لكنّ خطاه كانت أشدّ سرعة وأكثر حزمًا.

*

– لابدّ من تنبيهك أيّها الشيخ الرئيس إلى أنّ ولدي فتى متعدّد الوجوه، فهو لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره، لكنّه قادر على إتيان أعمال هي آية من آيات الخُلُقِ الكريم وأُخرى هي غاية في الانحراف، حتّى أنّي أشكّ أحيانًا في أنّ بطني هي التي حملت بكائن في مثل هذا الـ...جموح.

– أليس الجموح شيمة الشباب؟

لم يبد عليها أنّها انتبهت إلي ملاحظة الشيخ، فواصلت قائلة:

– ومع ذلك فمجد إبني، وأنا أحبّه، وكم أتمنّى أن يتماثل إلى الشفاء.

– المعذرة يا سيّدة، ولكنّ الأمر غامض بالنسبة إليّ، هل هو في حاجة إلى مربٍّ أم إلى طبيب؟

– لم ينقصنا المربّون، والله شاهد على ذلك، لكنّهم أذعنوا جميعا للهزيمة أمام عناده، أمّا الأطبّاء فلم يفحص أحدهم الأمير إلاّ سارع بالعودة إلى أبحاثه العلميّة.

– ولكن ممّ يشكو الأمير تحديداً؟ سمعت البعض يتحدّث عن السويداء.

كان أبو عليّ قد بدأ يشعر بغيظٍ حقيقيّ، يوشك أن يتحوّل إلى غضب عارم. انقضت ثلاثة أيّام على وصوله إلى الريّ مع الجوزجانيّ لكنّها لم تأذن لهما بمقابلتها إلاّ هذا الصباح، فاستنتج أنّ حالة الأمير الصحيّة لم تكن بالخطورة التي تحدّث بها مبعوثوها إلى جرجان.

ثمّ أنّه ما أن مثل بين يدي الملكة حتّى أحسّ بضيق غامض، حاول أن يجد له مبرّرًا فعزاه إلى مظهرها، وكانت شديدة السمنة فاضحة الزينة تخفي شعرًا أصهب تحت قلنسوة هائلة مرصّعة باللؤلؤ، وعلى الرغم من أنّ قريبة الدوشمان زيار هذه لم تكن قد تجاوزت الأربعين، فإنّ ذقنها ذا الأضلاع الثلاثة وتكوّر ملامحها المنتفخة والهالتين السوداوين اللتين تحوّلان نظرتها الحربائيّة وقزحيّتها الزرقاء ذات الأزرق البارد الحبيسة تحت جبينها المقطّب، كلّ ذلك ساهم في جعلها تبدو أكبر من سنّها بكثير وفي إعطائها ذلك المظهر المنفّر من الغطرسة والتسلّط.

أجابته مستغربة:

– تسألني ممّ يشكو؟ ألا ينبغي أن ننتظر الجواب منك أنت أيّها الشيخ الرئيس.

ثمّ قالت موضّحة دون أن تمكّنه من فرصة الردّ.

– يحدث له أن يلوذ بالصمت أحيانًا، فجأة ودون سبب ظاهر، منكمشا على نفسه عازفًا عن الأكل وقد خلت عيناه من أيّ تعبير، وكثيرا ما تعتريه نوبات من البكاء المتواصل، ثمّ إنّي...

أشاحت عنه بوجهها المنتفج، مسرّحة النظر في الأفق المترائي من خلال تشبيكات الخشب الثمين المحيطة بقاعة العرش.

– أظنّه مصابًا بأخطر العلل، إنّه شرِّيبٌ أيّها الشيخ الرئيس، مدمن على الرغم من أنّه لم يتجاوز السادسة عشرة.

همّ بإجابتها أنّ الأمير الشابّ على حقّ في تعلّقه بشراب الآلهة، فهو أقلّ مرارة من بعض خيبات الحياة، لكنّه آثر أن يقول شيئًا آخر:

– لولا الخطيئة يا سيّدة لما كان العفو.

اكتفت بهزّ رأسها مصفّقةً، وقد بدا عليها أنّها لم تفهم المغزى من قوله، فظهر أحد الجنود خلال برواز الباب.

– أين رئيس الحجّاب؟

– لا أدري يا مولاتي، لعلّه...

– لعلّه تاه في حديقة القصر، أليس كذلك؟

ثمّ مالت على ابن سينا فهتفت مشدّدة على مقاطع الكلمة:

– حـَ مـْ قـَ ى، أنا محاطة بالحمقى، فهل من غرابة بعد ذلك في أن تكون المملكة على هذه الحالة من الهشاشة!

كانت تهمّ بمواصلة الحديث حين وصل رئيس الحجّاب أخيرًا، لاهثا محتقن الوجه، فتقدّم منها بخطى متعثّرة وجثا مقبّلا الأرض بين يديها.

– والأمير؟ أين ابني؟

غمغم العجوز دون أن ينهض:
- كان أسرع من أن ألحق به يا مولاتي...
زمّت الملكة شفتيها.
- إنّه عاق، هذا الولد عاق.
ثمّ أضافت بنبرة تكاد تثير الشفقة، وكأنّها تشهد الشيخ على الأمر:
- ومع ذلك فأنا لا أبحث إلاّ عمّا فيه مصلحته، مصلحته فحسب، هل يمكن أن تفهم هذا الجحود؟
- ومن أين لنا أن نعلم بما يدور في رأس رجل؟
- كلاّ أيّها الشيخ الرئيس، إنّه ليس رجلاً، مجد مازال طفلاً.
أكّدت ذلك بنبرة لا تحتمل الاعتراض.
- مادمت قرّرت ذلك يا سيّدة، فلنقل إنّ الأمير طفل.
اقترح رئيس الحجّاب، وكان جاثيا لا يزال:
- سآتي به في التوّ والساعة، إذا سمحت لي مولاتي.
- فلتذهب، ولتستعن إذا لزم الأمر بكلّ خدَمِ القصر، وعليك حالَمَا تجده أن تأخذه إلى الشيخ الرئيس، أريد أن يفحصه، هل فهمتني جيّدًا؟
نهض الخصيّ وقد غلب على حركاته الارتباك، فغادر القاعة مهرولاً.
خيّم على الجميع صمت خانق للحظة قصيرة، ثمّ استأنفت السيّدة الحديث:
- لاشكّ أيّها الشيخ الرئيس أنّ كلّ هذه الأمور قد أربكتك، لذلك أرى لزامًا عليّ أن أطمئنك، فأنا لم أرسل في طلبك لأجعلك عرضة لنزوات ولدي، إنّ مدينتنا مشهورة كما تعلم بدار كتبها وخزفها، وخاصّة بمستشفاها، فقد أضحى بيمارستان الريّ غنيًّا بصيته عن كلّ تعريف.
ثنّى أبو عليّ على كلامها، فهو يعلم أنّها لم تقل غير الحقّ.
تابعت قائلة:
- أرجو أن تضطلع بمهمّة الساعور[1]، فما رأيك؟

فاجأه العرض، وكان قد خشي لوهلة أن يكون بمجيئه إلى الريّ قد وقع مرّة أخرى في مطبّ لا طائل من ورائه.

– خلافة رجل عظيم مثل الرازي شرفٌ لا يمكنني ردّه، وكلّ الرجاء أن أكون أهلاً لهذا الشرف.

– لا أرى أهلاً له غيرك.

كفّت عن الكلام لحظة ثمّ قالت كأنّها غير مبالية:

– هل يرضيك راتبٌ بألف دينار في اليوم؟

ألف دينار؟ إنّها ثروة حقيقيّة بالمقارنة مع الدراهم الثلاثمائة التي كان يتقاضاها في بيمارستان بخارى.

– ما أشدّ كرمك يا سيّدة، فليكن جزاؤك عند الله مئات الأضعاف.

هزّت الملكة كتفيها.

– الكرم يقاس بالصعوبة التي تعترض العطاء، ومملكتي غنيّة أيّها الشيخ الرئيس.

خيّل إليه أنّ في كلامها نبرة احتقار، أو لعلّها كانت تفصح عن بصيرة نفّاذة.

– تستطيع أن تباشر عملك من الغد، أمّا الآن فبإمكانك الانصراف.

ثمّ غادرت القاعة في عاصفة من الحرير.

*

جثم الليل على الريّ، مدينة الألوان السبعة والأسوار السبعة، والحدائق الألف.

تراقصت في البعيد بعض نيران البدو المتناثرة على امتداد السهل الخصب، فنحّى ابن سينا عنه بحركة واهنة الأوراق التي كانت تغطّي الطاولة الكبيرة المصنوعة من خشب الأرز وسقى نفسه كوبًا آخر من الشراب، غير عابئ بنظرات الاستنكار التي كان يحدجه بها تلميذه. كان الجوزجانيّ مؤمنًا مخلصًا يرفض أن يحيد عن التعاليم.

قال أبو عبيد مذكّرًا، مُشْهِرًا قلمه:

– نحن الآن عند الفصل الخاصّ بتصنيف الأمراض وأسبابها وقوانين المعالجات.

– حسنًا، لم يبق إلاّ القليل ونُتِمّ الكتاب الأوّل من القانون.

لم يغفل الفتى عن نبرة اللامبالاة التي غلبت على إجابة أبي عليّ.

– لماذا تشرب الليلة أيّها الشيخ الرئيس؟ كنت أحسبك سعيدًا.

– ومن قال لك إنّنا لا نشرب إلاّ تعساء؟ أليس الشراب صديقي منذ زمن طويل؟ وإنّي لأكبرُ الجاحدين إذا أنا لم أبثّ صديقي غير تباريح الألم.

– لقد بثثته ما شئت الليلة بما فيه الكفاية وأكثر.

– الليلة اختلف الأمر، أنا أشرب الليلة مع من هو أقوى من الجميع.

ثمّ رفع كوبه نحو السماء في حركة لا تخلو من تحدٍّ.

– لنقرع الحجر بالكأس أيّها الإله، أنت من يعلم كم قطرة عرق تسيل على خدود حسناوات الريّ، فليس أجمل منهنّ من القمر إلى الحوت.[٢]

– لا تجدّف أيّها الشيخ الرئيس بالله عليك، فقد تجلب علينا النحس.

وثب الفتى وقد تملّكه الفزع محاولاً أن ينتزع الكوب من يد معلّمه، فحدث بينهما شدّ وجذب فأفْلَتَ منهما الكوب وطار مدوّمًا في الهواء قبل أن يعبر النافذة فيسقط على بعد ذراعين، في مكانٍ مّا بين شرفات ممرّ الحراسة.

– ماذا أصابك؟ هل أشرب أنا فتسكر أنت؟

– أتوسّل إليك أيّها الرئيس، كفّ عن تعذيب نفسك وتعال نستأنف عملنا.

لم يأبه أبو عليّ لتوسّلات تلميذه، بل تخطّى النافذة وقفز في الفراغ دون أن يترك له فرصة للقيام بأيّ حركة.

– مجنون، إنّه مجنون أخرق.

انحنى أبو عبيد من على حافّة النافذة فلمحه يخبط في العتمة بحثًا عن

الكوب.

- أيّها المجنون، كان يمكن أن تموت بسبب هذه الحماقة.

- أنت من سيموت إذا لم أعثر على الكوب.

- وستكون محقًّا في ذلك.

جمد الرجلان وقد فاجأهما الصوت، فسأل ابن سينا تلميذه:

- هل أحلم أم أنّ أحدهم قد تكلّم؟

أجابه الصوت نفسه:

- كلاّ، لست تحلم، ولم يتعتعك السكر بعد، وأكرّر قولي إنّك ستكون محقّا في ذلك، فليس من حقّ أحد أن يعتدي على حريّة غيره، إنّ صاحبك يستحقّ الجلْد.

التفت أبو عليّ ناحية الصوت فرأى شبحًا يخرج من الظلماء، كان فتى أشعث مدوّر القسمات لم يره من قبل إلاّ أنّه تعرّف عليه فورًا، فوضع راحة يده على موضع القلب من صدره وحيّاه في ابتسامة ماكرة.

- أيّها الأمير، أمامك الآن رجل غمرته السعادة لاكتشافه أنّه ليس الوحيد الذي يقدّر ملاذّ ماء النسيان حقّ قدرها.

اقترب منه مجد الدولة، وكان هو صاحب الصوت، فسأله:

- وأنت، من تكون؟ ظننتني أعرف كلّ من في القصر.

- اسمي أبو عليّ بن سينا، وأنا في هذا القصر منذ ثلاثة أيّام.

تمعّن الأمير في وجهه بارتياب.

- ألا تكون أنت الطبيب الذي أرسلت في طلبه الوالدة المصون؟

- بلى يا مولاي، وأعترف إذ رأيتك بأنّي لا أفهم سبب مخاوفها.

- أمّي...إنّ مخاوف أمّي ليست سوى قناع، وليس وراء قناعها غير العتمة، إنّها تبيعني بحبّتي شعير.

أغضى أبو عليّ متعمّدًا عن تعليق الفتى، وسأله:

- هل يتفضّل الأمير فيقاسمني قليلاً من شراب الآلهة هذا؟

– ولِمَ لاَ، إنّها المرّة الأولى التي يدعوني فيها طبيب إلى مثل هذا الأمر، ولكن، هل أنت حقًا طبيب؟

– تمامًا مثلما أنّك أمير.

أجاب الأمير وقد علت محيّاه ابتسامة ساخرة:

– إذَنْ فلستَ طبيبًا.

تظاهر أبو عليّ مرّة ثانية بأنّه لم يفهم ما ألمح إليه الأمير، وهتف بالجوزجانيّ الذي كان يشرف عليهما من النافذة دون أن تفوته كلمة من حديثهما:

– إليّ بالإبريق يا أبا عبيد، ولا أريد رعونة هذه المرّة.

امتثل التلميذ للأمر على كره بيّن.

– تعال أيّها الأمير ولنبتعد عن عين صاحبي الساخطة، فقد يفسد علينا امتعاضه طلاوة هذا الشراب.

استجاب له مجد في مرح، فسارا جنبًا إلى جنب على طول ممرّ الحراسة، وما أن ابتعدا قليلاً حتّى أشار أبو عليّ إلى إحدى المنارات الصغيرة المشرفة على الفناء الداخليّ، قائلاً:

– لاشكّ أنّه مكان غير لائق بسليل الملوك، ولكنّنا قد نحسّ من هناك بأنّنا نشرف على العالم.

ها هما الآن جالسان جنبًا إلى جنب على إحدى درجات السلّم الحجريّ، أعلى المنارة، يطلاّن على الريّ من فوق فكأنّهما يريان المشهد لأوّل مرّة.

الريّ... مسقط رأس هارون الرشيد. اكتشفها أبو عليّ وهو قادم من الجنوب الشرقيّ لجرجان فطالعته منتصبة على سفح جبل البُرْزِ الضارب في السهل. هنا التقت طرق الشرق والغرب منذ أقدم الأزمنة، وهنا في ظلّ بنايات الآجرّ تنام أسرار عمرها آلاف السنوات، مثل التعاليم الإثني عشرة التي وضعها مزدك إله النار في الديانة الزردشتيّة.

تلألأت الكواكب في سماء السهل وامتدّت إلى ما لانهاية كأنّها ذرّات لا

تحصى من التبر، وكانت السماء من الصفاء بحيث يخيّل للناظر أنّه قادر على حصر حدودها.

همس أبو عليّ ووجه إلى النجوم:

– الليل معجزة أيّها الأمير، الليل سكينة، لطالما شبّهته بمحيط هادئ سطحه ساكن لكنّ أعماقه تهدر بالحركة.

سأله وهو يناوله الإبريق:

– هل تحبّ الليل؟

– لا شكّ أنّه أحبّ الأوقات إليّ، ففي النهار تطالعني حالتي في عيون الآخرين، أمّا الليل فإنّه يخفي عنّي كلّ شيء.

– حالتك؟ تتكلّم كأنّك تحمل ثقل الدنيا على كتفيك، إنّك بعد في السادسة عشرة، و...

قاطعه الأمير بصوت حادّ:

– ليس هناك سنّ صالحة للرضى بالظلم والخيانة.

– وليس هناك من شيء يصيبنا إلاّ وقد جعلتنا الطبيعة قادرين على تحمّله.

– كلام جميل، لكن يبدو أنّ الطبيعة قد أخطأت في شأني.

– إذنْ، فلربّما كان هذا سبب علّتك.

التفت إليه الفتى فجأة وحدجه بنظرة وحش كاسر:

– أمنعك من القول إنّي مريض.

– العفو، لكنّ والدتك...

– أمّي؟ ليست أمّي سوى طير جارح، وأنا لا أشكو إلاّ من المخالب التي غرزتها في رأسي وبدني.

ظلّ أبو عليّ صامتا، فتناول الأمير جرعة من الشراب وانقبض وجهه.

لفحهما الهواء البارد الذي أخذ يداعب الأسوار حاملا رائحة البساتين من السهل المترامي الأطراف، فارتعش مجد وضمّ ركبتيه إلى صدره.

– أنت بردان، هل تريد أن نرجع؟
حرّك الأمير رأسه رافضًا بعناد.
– إذنْ فأنت طبيب.
– لقد أخبرتك بذلك.
– فهل تظنّ أنّك مفلح حيث فشل الجميع؟
– سؤالك غريب، ألم تقل لي الساعةَ إنّك لست مريضًا؟
– ولكنّ أمّي واثقة من عكس ذلك.
أمسك أبو عليّ بالإبريق فأخذ يقلّبه بين راحتيه مغرقًا في التفكير، ثمّ قال مبتسمًا:
– في هذه الحالة قد يكون علينا أن نعتني بها هي.
غالَبَ الفتى هزّة دهشة.
– ماذا تقول؟
– هو ما سمعت، فلربّما كانت السيّدة هي التي تحتاج إلى الطبّ.
لم يعد الفتى قادرا على كتمان دهشته، بل لم يلبث أن انفجر ضاحكًا بعفويّة.
– الحقّ أنّي بدأت أُعجبُ بك، فلا أحد قبلك فكّر في أمر كهذا.
استرجع أنفاسه وسأل:
– ذكّرني باسمك.
– أبو عليّ، أبو عليّ بن سينا، وأكنّى بالشيخ الرئيس.
– لاشكّ عندي الآن في أنّك تستحقّ هذه الكنية.
مرّت فترة صمت أخرى ثمّ همس الأمير وقد عاد إليه صوته الجادّ:
– هل تعرف شيئًا عن والدي؟
– أنت ابن المرحوم فخر الدولة.
– فهل تعلم أنّ اسمه كان يُذكر بعد اسم الخليفة في خُطَبِ الجمعة؟ وأمام قصور الأمراء في أوقات الصلوات الخمس؟

– لا علم لي بذلك، لكنّ عظمته غير مجهولة لديّ.

– أمّا أنا... أنا مجد الدولة، فلستُ شيئًا، ولن أكون شيئًا أبدًا.

– لقد ولدتَ أميرًا وهذا أمر لا يُمحى.

– لا أملك من الإمارة شيئًا غير الاسم، على الرغم من أنّ وزراء والدي قد بايعوني عند وفاته وريثًا شرعيًا للعرش، أمّا أخي، ولي أخ أكبر منّي بعشر سنوات، فقد نصّبوه على همذان[٣] وكرمنشهان.

– كنت وقتها في الرابعة من عمرك إذا لم تخنّي الذاكرة.

– لذلك كُلّفت أمّي بالوصاية.

توقّف عن الحديث وتناول الإبريق من يد أبي عليّ فارتشف جرعة من الشراب، قبل أن يواصل مكتئبًا:

– أمّا اليوم... اليوم صار الأمر مختلفا، أصبحتُ في سنّ تسمح لي باستلام مقاليد الأمور، إنّه الشرع، إنّه حقّي وأنا أطالب به.

– أفهم ذلك.

– أحقًّا؟

بدا في سؤاله متلهّفا إلى حدٍّ كبير، الأمر الذي ترك في نفس أبي عليّ بالغ الأثر.

– حقًّا يا شرف الدولة فأنا أفهم كلّ من يحاول دفع الظلم، ولكن حان دوري الآن لأقول لك شيئًا ولتغفر لي مسبّقًا ما ستسمعه من كلمات، إنّ الضغينة لم تسكن في قلب إلاّ أصابته بالسقم، وقد علمت أنّك لا تأكل وتكاد لا تنام، وأنّك تحبس عقلك في سجن بنيته بيديك وجعلته أمنع من حصن تباراك، فلتعلم أنّك جانٍ ثمار هذا الحبس إن عاجلاً أو آجلاً، هل فهمتني؟

لم يجبه الأمير فواصل قائلاً:

– إذا أردت أن تستردّ يومًا حقوقك السليبة وأن تجلس على عرش مملكتك فلا بدّ لك من قوّة، الكثير من القوّة، وإذا سمحت لجسمك بأن يتخلّى عنك فإنّ عقلك لاحق به بالضرورة، لذلك فإنّ عليك أن تقبل على

الحياة من جديد وأن تعيد بناء قواك الباطنيّة، وهكذا يمكنك أن تصل إلى غايتك طالما أنّها حقّك الشرعيّ.

– ولكنّني عاجز، ربّما بنيت حبسي بيديّ حقًّا ولكنّ السيّدة هي التي بيدها مفتاحه، فماذا بوسعي أن أفعل؟ وكيف؟ الجيش والجواسيس ورئيس الحجّاب كلّهم صنيعتها، إنّها تحاصرني من كلّ جانب، وأنا أختنق، أتفهم؟ أنا أختنق.

– أصغِ إليّ جيّدًا أيّها الأمير، إذا استعصى عليك أمر من الأمور فلا تستنتج أنّه ليس في متناول غيرك، وإذا استعصى هذا الأمر نفسه على غيرك فلتقنع نفسك بأنّك قادر عليه.

ظلّ الأمير يتفحّصه بنظره طويلاً، وكأنّه يريد أن يتشرّب حقًّا بمغزى كلماته، ثمّ أعلن بعد فترة صمت:

– تعال أيّها الشيخ الرئيس، لنغادر هذا المكان فقد ابترد الجوّ.

ثمّ أضاف بسرعة:

– وأظنّني جعت.

*

طلع الفجر منذ قليل ورفرفت على بيوت الآجرّ دنتيلاً من الضباب صبغت السماء بلون رماديّ مُوحٍ بشيء من اللزوجة. كانت بداية ربيع الثاني تلك تخفي في طيّاتها كلّ علامات الخريف المبكّر.

شدّ الوزير ابن القاسم أطراف معطفه إلى صدره وأحنى الظهر قليلاً وهو يدخل تحت القبّة الكبيرة التي انتصبت فوق بوّابة مستشفى السيّدة، الاسم الثاني لبيمارستان الريّ، ثمّ أشار بإصبعه إلى واجهة المبنى، وكانت من الآجرّ، مخاطبا ابن سينا:

– ها هو ملتقى كلّ الآمال والآلام.

أحسّ أبو عليّ بالتأثّر والارتباك لمرأى هذه الجدران العبقة برائحة سلَفه العظيم، أبي بكر الرازي، على الرغم من وفاته لثمانين سنة خلون.

استئنف الوزير حديثه:

– أعتقد دون مبالغة أنّ مستشفانا لا ينقصه شيء عن مستشفيات بغداد، بل أعتقد أنّ مقارنته لا تجوز لا بالعلدودي ولا بالمعتضد، هل تعرف كم تبلغ مصاريفنا الشهريّة؟

– لا أملك عنصرًا للمقارنة غير مستشفى بخارى، حوالي مائتي دينار في الشهر؟

– ستّمائة دينار.

أعلن ابن القاسم عن المبلغ بشيء من الزهو، ففكّر أبو عليّ في الراتب الذي عرضته عليه السيّدة، ألف دينار، ولم ير بدًّا من أن يفاتح مخاطبه في الأمر.

– اطمئنّ، فراتبك من مشمولات الخزينة الملكيّة، ثمّ لا تنس أنّ المستشفيات تعيش على الهبات التي يتفضّل بها الأعيان والأثرياء، وليس عددهم قليلاً في الريّ، وإنّ بعضهم لا يحجم عن دفع نصف ثروته لهذه المؤسّسة التي شارفت المائة عام

في سبيل أن يحظى برضى البلاط.

– فهل فكّرتم أيضًا في وحدة طبيّة متنقّلة؟

– طبعًا، ولنا عدد من الأطبّاء يجوبون قرى الجبال يوميًا مرافقين المستوصف المتجوّل معالجين الجميع، لا فرق عندهم بين مسلم وذمّيّ، بل إنّهم يتفقّدون السجون أيضًا، لا يبخلون على السجناء بما يحتاجون إليه من الأدوية والعقاقير، وقد تدهش إذا قلت لك إنّنا سمحنا للنساء بمرافقتهم إلى هذه السجون كممرّضات.

لم يدهش أبو عليّ للأمر، فقد كان معمولا به منذ أكثر من مائة عام، أي من أيّام سنان بن ثابت، الذي كان الطبيب المشرف على مستشفى بغداد.

توقّفا عند قاعدة الخزّان الكبير الذي يزوّد المبنى بالماء، فأشار الوزير إلى رجل كان في طريقه إليهما:

– هوذا سليمان الدمشقيّ، القيّم العامّ، إنّه يعرف البيمارستان شبْرًا شِبْرًا، فمنذ عشر سنوات وهو يتابع يومًا بيوم كلّ ما يخصّ الغذاء المطلوب والأدوية الموزّعة وكميّة الفحم الضروريّة لتدفئة الحجرات وعدد الأغطية اللازمة للمرضى، لا تفوته من أمور البيمارستان شاردة ولا واردة.

التحق بهما الرجل فتبادلوا المجاملات العاديّة، ثمّ لم يلبث القيّم أن التفت إلى ابن سينا متفرّسًا في وجهه بلهفة وفضول.

– إذَنْ، فأنت هو الشيخ أبو عليّ بن سينا سيّد العلماء، الذي لم أدع كتابا من كتبه لم أقرأه بإعجاب لا يخيب.

هشّ ابن سينا في وجهه وقال ممازحًا:

– وهل كنت تتصوّرني في هيئة أخرى؟

– كلاّ أيّها الشيخ الرئيس، فأنا لم أتخيّل لك هيئة، ولم أشعر يومًا بحاجة إلى تصوّر جسمٍ للاسم، فقد استغنيت عن كلّ ذلك بما تشعّ به صفحاتك من نور المعرفة، ولديّ في هذا الشأن أسئلة كثيرة أتحرّق شوقا إلى طرحها عليك.

بادره الوزير قائلاً:

– لاشكّ أنّ للشيخ أيضًا أسئلة كثيرة يريد أن يطرحها عليك، وسأترككما وشأنكما، إلاّ أنّي أريد قبل ذلك أن أحدّث الشيخ على انفراد.

ثمّ التفت إلى ابن سينا فانتحى به جانبًا:

– علمت أنّك التقيت أخيرًا بالأمير.

– هو ذاك.

– إذا صدقني الأمير فقد وقعت من نفسه موقعا حسنًا.

خفض الوزير رأسه ثمّ واصل بصوت خافت يكاد يهمس:

– صارحني الأمير أيضًا بما خضتما فيه من حديث، وأعترف لك أنّي تأثّرت كثيرًا لما أسديتَ لهُ من نصائح.

ظلّ أبو عليّ لائذًا بالصمت وقد أحسّ بأنّ أبا القاسم يريد أن يقول له

شيئًا دون أن تسعفه الذاكرة بالكلمات المناسبة، ثمّ أعلن بنبرة محايدة:

– تعلّقت نصائحي بصحّة الأمير، فقد بدا لي خاليًا من أيّ مرض عضويّ، إلاّ أنّ ذهنه مشوّش.

– اطمئنّ فأنا أعرف كلّ ذلك، لقد شهدت مولد الأمير وكنت في خدمة والده حفظ الله تعالى ذكراه، كما أنّي أعرف السيّدة، والحقّ أنّي أريد أن أقول لك إنّي مخلص للأمير كلّ الإخلاص، وإنّي أضحّي من أجله بالنفس والنفيس، إنّه الآن على سفح جبل عالٍ لكنّه سيتسلّق الجبل بعون الله، وسيبلغ القمّة، بعون الله و...

صمت برهة وتلفّت كأنّه يستوثق من أنّ أحدًا لا يتنصّت عليه ثمّ أضاف:

– بعون الله وبعوني.

اندهش أبو عليّ من أن يسرّ إليه الوزير بكلّ هذه الأمور، فثنّى على كلامه في تحفّظ وهو ينصت في سريرته إلى هاتف لا يكفّ عن تذكيره بأنّه ليس بعيدًا جدًّا عن مستنقعات قزوين، حيث دأبت قلّةُ الحذر على الإيقاع بالمسافرين في مزالق التيه والهلاك. أضاف ابن القاسم وكأنّه اطّلع على وساوسه:

– عليك بالحذر على أيّ حال أيّها الشيخ فللملكة عيون وآذان في كلّ مكان، وهي بالمرصاد لكلّ إشاعة، ولعلّك لا تجهل بأيّ سرعة تتفشّى الإشاعات في هذه البلاد.

– شكرًا لك، ولكنّي أعرف من أمور السياسة ما يكفي كي أتذكّر دائمًا أنّه إذا كان لي من العمر اِثنان وثلاثون عامًا، فإنّ الله تعالى لم يمنحني اِثنين وثلاثين عمرًا.

أنصت إليه الوزير مستطيبًا كلماته وقد علت محيّاه ابتسامة رضى، ثمّ دار على عقبيه مبتعدًا دون أن يضيف كلمة.

أومأ أبو عليّ إلى القيّم الذي وقف ينتظره عن بعد، وما أن دنا منه حتّى قال:

– لندخل، فأنا متشوّق لاكتشاف عجائب السيّدة.

كانت الحجرة مخصّصة للموادّ الطبيّة. أشار سليمان إلى الرفوف التي رصّفت فوقها الأعشاب الطبيّة مرتّبة حسب منافعها والغرض منها، كان المشهد مدهشًا، راوند وسَنَا وتَرَنْجَبِين وأكاسيا وإهليلج وكلّها نباتات معروفة بمفعولها الْمُليّن، وعلى الرفوف العليا الحشائش المنبّهة، جوزة القيء وجوزة الطيب والخلنج والكافور، أمّا النباتات ذات التأثير الفاعل في الجهاز العصبيّ، فيوجد من بينها البِيش والقنّب والعنبر، المفيد للتشنّجات العضليّة الملازمة للوجه، وجوز الهند، المستعمل كمسكّن، والحنظل المدرّ للبول، وصمغ البامبو الصالح لعلاج استطلاق البطن، وغيرها من النباتات ذات الفعاليّة الأقلّ شهرة.

– يا سليمان يا صديقي، لا أملك غير الإعجاب بهذا النظام وهذه الدقّة.

– لم تر كلّ شيء بعد، انظر إلى هذا.

ناوله القيّم مخطوطًا سميكًا، كتب على غلافه: أقرباذين، فطالعته من النظرة الأولى أمارات العمل المتقن الذي أنجزه مخاطبه، كان الأمر متعلّقًا بنوع من الفهرست في جزئين مستقلّين، يعتني الأوّل بما يسمّى الأدوية الْمُركّبة فيرتّبها على حروف الهجاء وفقا لتشابه المعالجات، أمّا القسم الثاني فيعتني بالأدوية الخاصّة بكلّ عضو، وهكذا فوجئ أبو عليّ باكتشاف اقتراحات لا تخلو من فطنة في وسائل علاج الصداع وسقوط الشعر أو المشاكل الخاصّة بالعين.

فعلّق بحماس:

– عمل لافت للنظر، عمل مرموق حقًا، أرجو أن يُحتفظ به للأجيال القادمة عساها تعترف لنا بشيء من الفضل.

– وهل تشكّ في ذلك أيّها الشيخ الرئيس؟ أنت تعلم أنّ آباءنا هم أوّل من استخدم التحضير الكيميائيّ في الصيدلة، وأوّل من عوّض العسل بالسكّر في أشربة العلاج، وأوّل من اهتدى إلى تخمير الكحول بتقطير الموادّ

النشويّة والسكّريّة. إنّ إدخال الكيمياء على الصيدلة سيظلّ لنا حجّة لا تُنازَع على مرّ التاريخ، ثمّ هل تعرف بلادًا كثيرة غير بلادنا يسهر فيها السلطان على أمور صناعة الأدوية ويوجد فيها مراقبون للصيادلة وللعشّابين؟

– أنت على حقّ فلا وجود لشيء من ذلك في غير هذه البلاد، لكنّ الزمن يشبه الرياح في مروره وله أحيانًا قدرة رهيبة على محو أكبر المنجزات، أ فلا يعصف بمساهماتنا فتذهب طيّ النسيان؟

زوى القيّم حاجبيه وقال مستنكرًا:

– مستحيل أيّها الشيخ الرئيس، هذا أمر مستحيل، إنّ الأثر الذي ستتركه أنت على الأقلّ في ذاكرة الكون سيظلّ راسخا لا يمحى إلى الأبد.

أومأ أبو عليّ برأسه دونما ثقة كبيرة، وأشار نحو الباب الذي كان منفتحًا على الممرّ المفضي إلى الحجرات:

– لنقم الآن بجولة على المرضى.

– أيّ صنف منهم؟

ثمّ أضاف القيّم موضّحًا:

– ذلك أنّنا قمنا هنا بعزل كلّ صنف من المرضى عن غيره، فلنا قسم خاصّ بمرضى الحمّيات وآخر لمرضى العين وثالث للجراحة، ورابع للإسهال واستطلاق البطن إلى آخر الأصناف.

أحسّ أبو عليّ هذه المرّة بأنّه قد تجاوزته الأحداث، إلاّ أنّ القيّم لم يلبث أن واصل قائلاً:

– وللبيمارستان أيضًا دار كتب خاصّة به، ومخزن للأغذية، ومسجد.

– مذهل، إنّه أمر مذهل، لم يبق إلاّ أن تفكّروا في مكان يؤدّي فيه الذمّيّون طقوسهم الدينيّة.

هزّ سليمان رأسه مبتهجًا.

– بل هو موجود أيّها الشيخ الرئيس، إنّه في الجناح الأيسر للمبنى.[4]

أذهل أبو عليّ فلزم الصمت برهة طويلة، ثمّ قال:

– اسمع يا أخي، لا أظنّني قادرا على عيادة المرضى بعد كلّ هذه الاكتشافات المرهقة، فلتشفق علي ولتكتف بأخذي إلى قاعة الحميّات.

رضي سليمان أتمّ الرضى عن الأثر الذي أحدثه في نفس مدير البيمارستان الجديد، فدار على عقبيه وطلب منه أن يسير في إثره.

«هكذا استهلّ الشيخ الرئيس أوّل أيّامه ببيمارستان السيّدة، وكان يوماً لا يختلف في شيء عن يوم أيّ طبيب رئيس، جولة على المرضى فوصفات طبيّة فعلاج فزيارة بعض المرضى في بيوتهم، ثمّ العودة مساءً لتدريس الطلبة.

وأشهد أنّ معلّمي لم يلبث أن استردّ شغفه بالحياة على مرّ الأسابيع، فأشعّ محيّاه من جديد بنور الحماس الذي كان غادره في السنوات الأخيرة، وعرفت روحه مرّة أخرى برد اليقين بعد أن حاصرتها نيران العتمة والشكّ، وكم تأثّرت لذلك، فكنت إذا سمعته يضحك ملء قلبه ضحكت من جديد، وإذا رأيته يقبل على الحياة بحماس فيّاض تجدّد إيماني بعظمة الله. أمّا دروسه فقد غدت أكثر نضجاً. وأذكر خاصّة إحدى الحلقات التي جمعت مثلما كان الشأن بكركانج بين طلبة يافعين وعلماء جاؤوا من أصقاع بلاد فارس وكرمان، أجاب خلالها معلّمي بإيجاز وبلاغة عجيبين عن أصعب الأسئلة وأكثرها تنوّعًا، حتّى أنّ بعض أجوبته ظلّت راسخة في ذهني إلى اليوم:

– بأيّ المعالجات نبتدئ أيّها الشيخ الرئيس إذا اجتمعت أمراض في وقت واحد؟ وما هي المقاييس التي على أساسها نخصّ هذا أو ذاك من الأمراض بالأولويّة في العلاج؟

– إذا اجتمعت أمراضٌ فإنّ الواجب أن نبتدئ أوّلاً بالمرض الذي لا بُرْءَ للثاني دون بُرئِه، مثل الورم والقرحة إذا اجتمعا، فإنّا نعالج الورم حتّى يزول سوءُ المزاج الذي يصحبه والذي لا يمكن أن تبرأ معه القرحة، ثمّ

نعالج القرحة، وعلينا ثانياً أن ننظر إذا كنّا أمام مرضين إن كان أحدهما هو السبب في الثاني، مثل إنّه إذا عرضت سدةٌ وحمّى عالجنا السدّة أولاً ثمّ الحمّى، لأنّ الحمّى يستحيل أن تزول وسببها باقٍ، ثمّ علينا أخيراً أن ننظر إن كان أحد المرضين أشدّ اهتماماً وأقرب إلى البرء من الثاني الميئوس منه، كما إذا اجتمع حمّى مطبقة سُوناخس[٥] والفالج، فإنّا نعالج سوناخس بالتطفية والفصد ولا نلتفت إلى الفالج.

ثمّ ختم الشيخ كلامه بحكمة غير جديدة عليّ، فما هي إلاّ خاتمة الكتاب الأوّل من القانون:

– وأمّا إذا اجتمع المرض والعرض، فإنّا نبدأ بعلاج المرض إلاّ أن يغلبه العرض، فحينئذ نقصد فصد العرض ولا نلتفت إلى المرض.

– وإذا لم يحصل برء للعلّة على الرغم من استعمال الأدوية المخصوصة؟

– في هذه الحالة قد يكون الجسم تعوّد على الأدوية لذا وجب تغييرها، إلاّ أنّي أنبّهكم إلى أمر هامّ، إذا لم تعرفوا أصل العلّة ولم تستبينوا مصدرها فدعوا الأمر للطبيعة ولا تستعجلوا الأمور، فإمّا أن تجلب الطبيعة الشفاء وإمّا أن تكشف لكم عن أصل العلّة.

– وماذا ترى لِحِمْيَة الشيوخ؟

– التدليك والتمسيد والرياضة دون إفراط، وأحذّرهم من الاستحمام بالماء البارد فالحمّامات الباردة لا تصلح إلاّ بذوي الجسم السليم، خاصّة إذا أتبعوها بحمّام ساخن، فذلك مفيد لتقوية البشرة والمحافظة على حرارة الجسم.

– فهل لك نصائح بخصوص الجمال أيّها الشيخ الرئيس؟

ابتسم للسؤال وقد طرحته عليه نائلة، سوريّة شابّة تعمل ممرّضة بالبيمارستان.

– لتعلمي فحسب أنّ البشرة هي مرآة الجمال، فاحرصي عليها من هذه العناصر الثلاثة: الشمس، لأنّ نفعها لا يمنع ضررها، والريح والبرد.

ثمّ اختتم أبو عليّ درسه قائلاً بنبرة غلب عليها الحماس:

– قبل مئات السنين عاش رجل في جزيرة من بلاد اليونان وترك لنا وصيّة من جوهر الكلام، عليكم أنتم أطبّاء الغد وأساتذته وحيثما طوّح بكم الترحال من كرمان إلى أبواب قرطبة، أن تحفظوا كلماتها المقدّسة وتردّدوها:

"أقسم بالإله الأعلى أن أنفّذ هذا القسم وأوفي بهذا العهد، سالكًا بحياتي وفنّي مسالك الطهر والشرف، وأن أجتهد في مداواة المرضى وحسن تدبيرهم بالأغذية والأدوية، لا يكون غرضي في ذلك طلب المال بل طلب الثواب، وإن أمكنني أن أتّخذ لهم الأدوية من مالي فعلت، وأقسم أنّي لا أدخل بيت إنسان إلاّ غضضت من بصري وحفظت من لساني، لا أرى إلى ما يجري من أمور ولا أفشي ما يذاع لي من أسرار، وأن أمتنع عن كلّ إساءة مقصودة أو أذى متعمّد، فلا أشير بفنّي إلى مفسدة ولا أُعين على إتيان شرّ، وأنّ أبرّ بمعلّميّ برّي بأبويّ، وأن أشكر فضل ما أفادوني من العلم فأعلّم أبناءهم، فأمّا إذا ألزمتُ نفسي الوفاء بهذا العهد وطاعة هذا القسم، فقد رجوتُ عرفان الناس إلى أبد الآبدين، وأمّا إذا نقضت العهد وحنثت بالقسم، فقد حقّ أن يجلّلني الخزي وتحلّ بي لعنة الجميع[٦]"...

هكذا كانت خاتمة أحد الدروس الكثيرة التي قدّمها معلّمي أبو عليّ بن سينا أمير الأطبّاء...»

الهوامش:

١– المدير الأوّل للبيمارستان. (المترجم)

٢– تعبير متداول في فارس، يعني في الكون كلّه من هذا الطرف إلى الآخر. (المترجم)

٣– همذان مدينة في الوسط من إيران، جنوب الريّ. (المترجم)

٤– بعد قرن من ذلك الزمان، سنعثر في مصر على هذا النظام نفسه وقد تطوّر كثيرًا، خاصّة في المستشفى المنصوري، الذي عُرف بأنّه أروع المستشفيات التي عرفتها دار الإسلام وأقربها إلى الكمال، وكانت الأموال المرصودة إليه تقارب المليون درهمًا في

السنة، وكان المرضى يختلفون إليه ذكورًا وإناثًا، لا يُرفَضُ أحد، ولا تُحدّدُ لأحد مدّة العلاج. (المترجم)

٥- حاولنا هنا أن نورد عبارات ابن سينا كما جاءت في خاتمة الكتاب الأوّل من القانون، مع تصرّف بسيط لتيسير الفهم، و"سوناخس" كلمة يونانيّة يستعملها أطبّاء ذلك العصر، وتعني "الحمّى الكائنة عن سخونة الدم." (المعرّب)

٦- ليس هذا العهد الذي جاء به ابن سينا يومها، سوى ما ستسمّيه الأجيال القادمة "قسم أبوقراط." (المترجم)

المقامة الثالثة عشرة

صرخت الصقلبيّة مستسلمة لفحولة أبي عليّ، وكانت قد منحته ظهرها فالتصقت خاصرتاها الشحيمتان وعجيزتها الباردة بأسفل بطنه، وسرعان ما أطلقت صيحة أخرى وهو يسبر أغوارها في وثبة جديدة.

ألقى الجوزجاني على معلّمه نظرة سريعة، شارد الذهن، وكان يجلس على الأرض منتحيًا ركنًا من الغرفة، وقد أيقن نهائيًا بأنّ شيئًا دنيئًا يتصاعد من هذا الماخور الذي عبقت حيطانه برائحة العرق والخمر الرديء.

للمرّة الرابعة في أقلّ من ساعة يثب معلّمه على الفتاة، آخذًا غير مُعْطٍ، في ضربٍ من الكَلَبِ أو الضمإ الغامض للتفوّق على الذات، وكأنّه يحاول يائسًا أن يفني نفسه بين ذراعي تلك البغيّ حتّى لا يبقى من لذّته شيء غير الرماد.

ولعلّ أكثر ما أُدهِشَ له أبو عُبيد تلك الطريقة التي تمّت بها الأمور، فقد كانا في طريقهما إلى الحمّام حين قرّر أبو عليّ فجأة ودون سبب ظاهر أن يعرّج على عرين الرذيلة هذا، مدفوعًا برغبة لا تقاوم في تدنيس نفسه، على عادته في بعض الليالي، حين كان يرمي بنفسه في دخان الأفيون حتّى يفقد وعيه بالمكان والزمان.

الآن صارت الفتاة تضحك وثار لضحكاتها في رأس الجوزجاني جرسٌ مَقِيت مثْل ما لعبارات الكفر والتجديف، فأرسل النظر إلى ناحيتهما، فرآهما قد تباعدا أخيرًا، ورأى معلّمه يشرع في ارتداء ملابسه، فتنفّس الصعداء.

– ما رأيك يا أخي؟ أليس وقتًا مناسبًا لتتخلّص من بكارتك المزمنة؟

هزّ الجوزجاني كتفيه متجاهلاً دعوة معلّمه، ونهض من مجلسه متجهّم الوجه، ممّا أثار في الصقلبيّة نوبة ضحك جديدة، فقالت وقد قوّصت

شفتيها ساخرة:

– هذا الغلام...[1] إمّا أنّه خجول بسبب صغر سنّه وإمّا...

هزّتها نوبة ضحك أخرى قبل أن تضيف موارية شفتيها براحة يدها:

– وإمّا أنّه لا يحبّ إلاّ الغِلمان.

مالت عليه كأنّها تريد مداعبة وجنته، فما كان من الجوزجاني إلاّ أن صفعها بظاهر يده في حركة عنيفة مباغتة، ثمّ اختطف معطفه وفتح الباب وخرج لا يلوي على شيء.

*

كان الجوّ داخل الحمّام هادئًا ناعمًا لا يقطع سكينته غير خرير المياه المنسابة من العين وصدى الحوارات الهامسة الدائرة بين بعض المستحمّين المسترخين في الحوض الكبير.

تمدّد أبو عليّ على إحدى الأرائك المنجّدة ذات الوسائد الحريريّة في غرفة الراحة، وأخذ ينظر شارد الذهن إلى الماء ينساب بانتظام رتيب في الحوض المحفور وسطَ القاعة.

كان قد مرّ هو والجوزجانيّ بمَوْدِع الألبسة، وأسلما ذقنيهما بعد ذلك إلى المُزيِّن، ثمّ غطسا في أحواض صغيرة حيث اعتنى بهما خدمٌ مهَرة، ففركوهما بالصابون في ماء ساخن، ثمّ بأنواع الزيوت والمراهم، وما أن فرغا من تلك المرحلة الأولى حتّى جيئا بوزرات من المناشف المعقودة فأتزرا بها، ثمّ اقتيدا إلى الغرفة الداخليّة حيث استسلما إلى أيدي المدلّكين مُضْطَجِعَيْنِ على طاولات من المرمر الورديّ، وظلّ الجوزجاني طيلة الوقت متجهّمًا، لائذًا بصمت مطبق.

سأله أبو عليّ ممازحًا:

– أما زلت مغتاظًا؟

سلقَهُ أبو عبيد بنظرة صاعقة.

– سامحك الله أيّها الشيخ الرئيس، أنت سيّد طالِبِي العلم لا شكّ في

ذلك، ولكنّك أيضاً سيّد طالبِي اللذّة في المعمور كلّه.

اكتفى أبو عليّ بتكرار ردّه على الملكة شيرين:

– لولا الخطيئة لَما كانت المغفرة.

– ولكنْ لماذا؟ لماذا تصرّ على تمريغ نفسك في الوحل؟

– وهل الحبّ وحل؟

– الحبّ؟ وهل تسمّي هذا الذي مارسته منذ قليل حبًّا؟ إنّها حيوانيّة محض، مضاجعة خالية من أيّ بارقة للحنان، فكيف تتكلّم عن حبّ؟

أصلح أبو عليّ من جلسته وأجابه بصوت هادئ:

– لا أظنّك تجهل على الرغم من فارق السنّ بيننا أنّ للحبّ أكثر من شكل، وقد أحببتُ تلك الفتاة لحظةَ كانت بين ذراعيّ، أحببتها لسبب بسيط، كونها أشبعت رغبتي.

– وهي؟ هل فكّرتَ فيها؟

– هي أحبّتني أيضاً.

وأضاف ببراءة أخّاذة:

– لسبب بسيط، كوني دفعت لها نقوداً.

رفع الجوزجاني عينيه إلى السماء في حركة يأس.

– أسمع إليك أحياناً فلا أفهمك أيّها الشيخ الرئيس، ويشهد الله أنّي لا أشعر بذلك حين تحدّثني في أمور العلم.

– لِيَكُنْ يا أبا عُبَيْد، فهل أطمع مع ذلك في أن تسدي لي خدمة؟

بُوغِتَ الجوزجاني بالطلب وبدا عليه التردّد، إلاّ أنّه سرعان ما أومأ موافقاً وإن لم تخل هيئته من علامات التبرّم.

– إذَنْ فلتقرأ عليّ رسالة البيرونيّ الأخيرة، ولْنَنْسَ كلّ هذا.

بدا على التلميذ شيء من التردّد مرّة أخرى ثمّ غادر الغرفة ليعود بعد لحظات وفي يده خرج، فتّشَ فيه فأظهر أوراقاً فتحها، وتنهّد طويلاً، ثمّ شرع في القراءة.

«غزنة، في الثالث من صفر، سنة ٤٠٦ للهجرة.

إلى أبي عليّ بن سينا، سلاماً وبعد:

فهذا صاحبك البيروني العائد من الهند يكتب إليك في هذا اليوم من شهر صفر عام ١٠١٣ حسب تقويم النصارى، وهي المرّة الثالثة التي أخرج فيها صحبة الغزنويّ إلى أرض البلد الأصفر، فماذا أقول لك، إن لم يكن إنّ ابن سبكتكين يوشك أن يبسط سلطانه على الأرض من الضفّة اليسرى لنهر أمودريا إلى سلسلة جبال سليمان غربيّ الهندوس. ولستَ ممّن يخفى عليهم ضيقي وثورتي فأنا شاهد على ما لا يوصف من البشاعة عليل النفس بسبب ذلك، فهذا الغزنويّ يتوغّل في أرض الهند لا يترك عقَبَ كلّ غزوة غير أمارات الدمار والفظاعة، وهذه جيوشه تعيث فساداً في الأرض لا يقف في طريقها أحد إلاّ أعملت فيه السيف تقتيلاً وتنكيلاً. فإذا نحنُ ندنّس المعابد ونحطّم النُصُبَ والتماثيل، ولعلّني لا أنسى ما حييت كيف نُهِبَ معبدُ سمنّات القائم جنوبيّ شبه جزيرة غوجرات، وكان فيه تمثال للإله شيفا الذي هو حيث تعلم من نفوس أهل هذه البلاد، فاستولى محمود على المعبد بعد هجوم دام ثلاثة أيّام وثلاث ليالٍ، فحطّم التمثال دون أن يرفّ له جفن، وعمد لسبب لا أعرفه إلى خلع أبواب المعبد وأخذها معه إلى غزنة[٢]، والحقّ أنّ أكثر ما يحيّرني في شخصيّة هذا التركيّ ازدواجه الغريب، فكيف يمكن لمن تعجّ روحه بكلّ هذا العنف أن يحبّ الشعر وأن يحيط نفسه بهذا العدد الهائل من أهل الأدب والعلم؟

لَكَمْ تبدو لي الأشياء يا ابن سينا وقد خلت فجأة من المعنى، فأنا لم أبحث عن جوار ملك غزنة وحمايته إلاّ بحثاً عن إشباع رغبتي في اكتشاف العالم، لكنّ جماع ما حصّلته من معرفة يبدو لي اليوم دون جدوى حين أقارنه بالطريق التي سلكتها في سبيله. ومع ذلك فأنا لا أكفّ عن الكتابة، وقد شرعت في وضع كتاب ربّما أسميته" الهند"، أريده وصفاً جغرافياً وتاريخياً ودينياً لهذه البلاد، ولعلّه ينفع الرحّالة والمؤرّخين في ما يُقبل من

الأيّام، كما فرغت من مختصر الهندسة والفلك، وتجد الأوراق طيّ هذا الكتاب، فلتسعدْني بإطلاعي على رأيك فيها.

ولكن ماذا عن أخبارك أنت؟ وكيف تصرّفت بك الأيّام يا أخي؟ لَكَمْ أتمنّى أن تكون رافلاً في حلل السعادة هانئًا بمقامك الجديد في الريّ وقد ارتاح بالك أخيراً وعرفت طريقك إلى سكينة الروح، فاكتب لي بذلك، اكتب لي كلّما سمحت لك الظروف فإنّ رسائلك تشدّ من أزري وتدخل السكينة على روحي المضطربة.

ثق أنّي لا أكفّ عن التفكير فيك ودُمْتَ في رعاية الله.»

فرغ أبو عُبيد من قراءة الرسالة فتنهّد أبو عليّ قائلاً:

– لَكَمْ أشعُرُ أحيانًا بأنّ هذا الوجود متاهة نحن لسنا فيها سوى صُوَرٍ تائهة.

ثمّ نهض من مجلسه بغتة فهتف بصاحبه:

– تعال يا أبا عبيد، لقد تأخّر بنا الوقت وآن لنا أن نشرع في الكتاب الثاني من القانون.

كان التلميذ على وشك الالتحاق به حين حدث أمر غريب. زاغت الأرض من تحت قدميه أو هكذا ظنّ، وتجعّدت صفحة الماء في الحوض، وخُيّل إليه أنّ الفسيفساء التي تزيّن جدران الغرفة قد تخلّعت فجأة، ثمّ لم يلبث كلّ شيء أن عاد إلى نصابه.

فسأل مذهولاً:

– ما الذي حدث؟

– ومن أدرانا؟ لعلّه المِرْجَل أو أنابيب المياه الساخنة.

– أمر غريب! أكاد أوقن بأنّ الأرض قد اهتزّت.

– أيًّا كان السبب فالأفضل عندي أن نسرع بارتداء ملابسنا، حتّى إذا حصل حريق في الحمّام أو شيء من هذا القبيل حافظنا على حياتنا على الأقلّ.

خفّ الرجلان إلى مودِع الألبسة دون المزيد من إضاعة الوقت فارتديا ملابسهما بسرعة واتّجها نحو باب الخروج.

ما أن تخطّيا العتبة حتّى تكرّرت الرجّة لكنّها كانت أوسع مدًى هذه المرّة.

هتف أبو عليّ:

– لم يعد الأمر متعلّقًا بالمرجل.

همّ بإضافة شيء آخر إلاّ أنّ هزّةً جديدة أفقدته توازنه، فاضطرّ إلى التعلّق بأحد أعمدة الجصّ كي لا يقع أرضًا.

صرخ أحدهم:

– استر يا ربّ، ها هو الثور يتحرّك.

ودّ أبو عليّ لو يستفسر عن سرّ هذه العبارة الغريبة إلاّ أنّه أحجم عن ذلك، مفضّلاً أن يقبض على ذراع صاحبه فيسحبه إلى الخارج.

كانت رياح الفزع والهلع قد هبّت على الريّ، وأطبقت السماء على الأرض سوداء مثل براقع الحداد، مغشّاة بسحب ثقيلة تتدافع ببطء متحفّزة للانفجار.

ترنّح الشارع الرئيسيّ وتمايلت أشجار السفرجل بزهرها الأبيض وقد انقلبت سحنتها فيما تقوّس برج المجوس الذي تعوّد السكّان أن يعرضوا فيه موتاهم وانحنى على الأرض بشكل مخيف.

صرخ الصوت نفسه من جديد:

– إنّه غَضَبُ الثور.

هتف أبو عليّ بتلميذه:

– تعال يا أبا عبيد، علينا أن لا نبقى في هذا المكان، لنرجعْ إلى الحمّام.

– هذا جنون!

– اسمع كلامي، فهناك أفضل فرصة للنجاة.

تصاعد من حشا الأرض هدير مكتوم سرعان ما طغت عليه صرخات

الرعب التي أطلقها السكّان. وما أن توغّل أبو عليّ وعلى إثره الجوزجانيّ في سقيفة الحمّام حتّى انشقّت الأرض من ورائهما وانفرجت عن أخدود لا يُرى له غور، وسرعان ما أخذ الشرخ يتقدّم وهو يفتق الأرض حثيثًا كأنّه يعدو إلى أن بلغ ساحة السوق، ومنها إلى أبواب المدينة جنوبًا، ومنها إلى الهضاب الصخريّة، خاصرة سلسلة جبال البُرْز.

هتف الجوزجاني وقد تاه نظره:

– إنّها نهاية العالم، أو لعلّهم الجنّ يستيقظون.

– كلاّ يا أخي، إنّه زلزال، وربّما كان أخطر من جنّ الكون مجتمعين.

كانا مُقَرْفِصَيْنِ تحت القوس المواجه لغرفة الراحة وقد بلغت مسامعهما أصداء الرعب الذي عمّ المدينة. التحق بهما الوقّاد المكلّف بالسهر على موقد الحمّام، والحلاّق، وحارس مودْعِ الألبسة، وكان هذا الأخير يرتعش بكامل جسمه شاحب الوجه تمامًا مثل الجوزجاني، مغمغمًا:

– ليغفر لنا الله، فلا شكّ أنّ الظلم طغى على هذه المدينة.

لم يعقّب ابن سينا بشيء، إلاّ أنّ الجملة أربكته وعلقت بذاكرته.

حدثت هزّة جديدة أشدّ عنفًا من سابقتيْها فارتسمت شقوق ملتوية على جدران الآجرّ وعلى السقف المُقَبَّب، ممزّقة الطلاء المصقول الذي كان يغطّي الأرضيّة، ثمّ سكن كلّ شيء فجأة من خلف ستارة من دخان، فوجم الجميع لابِدين في أماكنهم مصيخين السمع، لا يجرؤون على الإتيان بحركة أو نفس أو رفّة جفن مخافة أن يكون ذلك سببًا في إثارة الجنّ الساكنين جوف الأرض.

مرّت برهة كأنّها الدهر، وكان الجوزجاني أوّل من تحرّك فقال بصوت خافت:

– لعلّ الأمر انتهى.

أعلن حارس مودْعِ الألبسة بصوت خفيض:

– سيتحرّك الثور من جديد إذا لم يُرْفع الظلم عن المدينة.

هتف ابن سينا معترضًا:

– وما علاقة الثيران بظاهرة طبيعيّة مثل هذه؟

– وهل ثمّة شيء طبيعيّ في غضب الأرض؟

رمقه أبو عليّ بنظرة متسامحة.

فقال الوقّاد شارحًا:

– لعلّك تجهل معتقدات أهل الريّ، إنّها ضاربة في القدم ولا يحسن بك أن تسخر منها.

سأله الجوزجاني:

– وما هي حكاية الثور؟

– تقول الحكاية إنّ ثورًا يحمل الأرض على أحد قرنيه وتحته حوت عظيم، وهو موجود في مكان ما من الثريّا، فإذا تفشّى الظلم في موقع ما من الأرض غضب الثور، فدفع بالأرض إلى قرنه الآخر، وإنّ ما زعم صاحبك أنّه ظاهرة طبيعيّة هو ما يحدث تحديدًا حيث تلامس الأرض قرن الثور وهي تقع عليه من جديد. ذاك ما تقوله الخرافة، وكلّنا يعلم أنّ الظلم سيّد مدينتنا اليوم.

– إلى ماذا تلمح بكلامك؟

انفرجت شفتا الرجل وهو يهمّ بالإجابة، إلاّ أنّه أحجم عن ذلك لسبب مَا، وتوجّه بالحديث إلى زملائه:

– تعالوا ننظر إن بقي شيء قائم في هذه المدينة.

فقال ابن سينا:

– إذا صحّ أنّ الظلم هو المتسبّب في هذا الزلزال، وإذا كان الأمر متعلّقًا بأمير حزين على عرشه السليب، فلنتضرّع إلى الله عساه يكون اختار بين القصر والمستشفى فدمّر الأوّل وأبقى على الثاني، ذلك أنّي أرى في انتظارنا عملاً كبيرًا بسبب هذه الكارثة.

كانت المدينة بحدائقها الألف متلفّعة بسحابة من الغبار الكثيف حجبت

عن النظر برج المجوس والأسوار العالية، وقد عمّت الفوضى وتصاعد الأنين من كلّ مكان، وهام السكّان على وجوههم مفجوعين مذهولين يجوبون الأنقاض كأنّهم أشباح تائهة. انتبهوا إلى امرأة تبكي وسط الشارع وقد جثت على ركبتيها فيما وقف على مبعدة منها طفل صغير يحملق بذهول في ركامٍ لاشكّ أنّه كان دارا منيفة.

– يا للفظاعة، لن أستطيع شيئًا لهؤلاء المساكين وأنا بعيد عن أدواتي وعقاقيري، لابدّ من العودة فورًا إلى البيمارستان، عسى أن يكون القيّم قد أمر بإرسال المستوصَف المتنقّل ودعا كلّ الأطبّاء إلى الالتحاق فورًا بالبيمارستان.

ألقى الرجلان نظرة أخيرة على الحيّ المدمّر ثمّ غذّا السير في اتّجاه المستشفى.

تدافع الجرحى إلى البيمارستان موجة تلو أخرى شيوخًا ونسوة وأطفالاً، حتّى ضاق بهم المكان وامتلأت الممرّات وغرف الحراسة، فاضطرّوا إلى حشرهم في مخازن الأغذية والفحم.

لم يفارق القيّم أبا عليّ لحظة واحدة، بل ظلّ يلازمه ملازمة الظلّ منتظرًا أيّ أمر من أوامره ليخفّ إلى تنفيذه بحذافيره، وكان أبو عليّ لحظتّها مكبًا على فتًى أصيب بكسر في قصبة ساقه الكبرى، فدهن الساق بمحلول زيتيّ مخلوط بالكافور ثمّ جبر الكسر لافًا عليه ما يشبه الحصيرة الصغيرة المصنوعة من القصب، وما أن فرغ من ذلك حتّى اتّجه إلى جريح آخر، والقيّم يتبعه لا يبتعد عنه لحظة.

ظلّ أبو عليّ يتنقّل من مكان إلى مكان، منكبًا هنا على إيقاف نزيف حادّ بواسطة مكواة محمّاة، متوقّفا هناك لتقطيب جرح فاغر بواسطة خيوط رفيعة اتُّخذت من النخيل، أو لإعداد ضمادات بسيطة مضمّخة بالحنّاء، أو لوضع لزْقة من الطين أو من رماد الإكليل تدعيمًا لوقف النزف، أو لتسكين الآلام بتوزيع جرعات من خليط الأفيون والزنزلخت. ظلّ الجرحى

يتوافدون على البيمارستان طيلة أربعة أيّام بلياليها لم يغمض فيها لأطبّاء السيّدة جفن. لكنّ الأمر لم يتوقّف عند هذا الحدّ، إذ سرعان ما حلّت بهم مصيبة أخرى، وكان ذلك مع مغيب شمس اليوم السابع حين ظهرت أولى الحالات الوبائيّة، فاكتظّ البيمارستان بفلول من المرضى يشكون الأعراض نفسها: التهاب صاعق للمعيّ الدقيق والقولون، متميّز بإسهال مباغت، يمكن للمريض أثناءه مثلما لاحظ أبو عليّ في وقت سابق، أن يفقد لترًا من الماء في الساعة الواحدة، ممّا يصحب الحالة باجتفاف حادّ وظمإ شديد وتشنّج عضليّ مؤلم، لا تلبث معها أن تتغضّن البشرة وتغور العين. لقد تفشّت الكوليرا في الريّ ولم يكن للطبّ من سلاح أمام هذه المصيبة غير الانتظار، انتظار أن يتخطّى المريض ستّة أيّام، فإذا تمّ له ذلك جاز أن يأمل في الشفاء.

كانت التوجيهات التي أمر بها الشيخ، مطابقة كلّ التطابق للمبادئ التي أعلن عنها لطلبته قبل ذلك بأسابيع:

«إذا اجتمع المرض والعرض فإنّا نبدأ بعلاج المرض إلاّ أن يغلبه العرض فحينئذ نقصد قصد العرض ولا نلتفت إلى المرض.»

لذلك أشار على مساعديه بإعطاء المرضى جرعات من الأفيون لإعانتهم على تحمّل آلام التشنّج العضليّ، كما أمر بأن يُسقى المصابون أكثر ما يمكن من الماء بسكّر، لتعويض ما يفقدونه منه جرّاء الاسهال.

مرّت على ذلك ثلاثة أسابيع أو تزيد، وهجم الشتاء على الجبال، ولم يزل أهل الريّ يضمّدون جراحهم. كنّا في الوسط من جمادي الأولى، وقد ذهب النهار إلاّ أقلّه، وكان ابن سينا قد فرغ لتوّه من جولته اليوميّة وهمّ بالعودة إلى القصر وهو مشغول البال بما جدّ من أحداث، زاد طينَها بلّة ما خالطها من حرب مكشوفة بين الملكة وولدها، فكأنّ هذا الزلزال الذي اضطربت له الأرض قد أدخل الاضطراب على النفوس أيضًا. سار ابن سينا شارد الذهن سرحان مع خواطره فعبر الحيّ الذي شهد مولد هارون الرشيد

خالد الذكر، وصار غير بعيد عن الباب الذي يُقال له "باب السهل الخصيب"، حين بلغت مسمعه أصوات صراخ وهرج فلفتت انتباهه، إلاّ أنّه أرجعها إلى ما جرت به عادة التجّار والسقّائين من التشاجر والعراك، فتابع سيره، وكان يهمّ بالانعطاف مع زاوية الحدائق الملكيّة حين لمح طيفًا نسويًا يعدو باتّجاهه، ومن خلفه جمع من الرجال والنساء يصرخون ملوّحين بقبضاتهم.

لم يكد يتملّى من المشهد محاولاً تفسير ما يدور أمامه حتّى كان الطيف النسويّ يرتمي على قدميه مستغيثًا.

– النجدة، كائنًا من كنتَ أنجدني بالله عليك.

مدّ أبو عليّ يده دون تردّد محاولاً إنهاض المرأة، فيما التفّت بهما حلقة من الوجوه المتجهّمة المنذرة بالويل والثبور. عرفه أغلبهم، ولعلّ ذلك هو ما خفّف من غلوائهم بعض الشيء.

– ابتعد عن هذه المرأة أيّها الشيخ الرئيس، فقد تُعْديك.

– أجل، إنّها مصابة بالمرض الذي يهرئ لحم البدن، إنّها معدية.

– عن أيّ مرض تتحدّثون؟

– المرض الذي يلتهم الجسد، الجذام.

– ومن أدراكم؟

– انظر إلى ساعديها وساقيها، لقد تآكلت جلدتها، وأنت تعلم أنّ الزلزال قد دمّر مأوى المجذومين بدير المرّ، ولعلّ هذه المرأة هي إحدى الناجيات من هناك.

– مهما يكن من أمر فلا أحد رآها في المدينة من قبل، ولا أحد يعرف من هي؟

ردّ ابن سينا:

– اهدؤوا قليلاً ودعوني أفحصها.

لوّح الجميع بأيديهم معترضين:

– ولكنّها قد تقتلك أيّها الشيخ الرئيس، أنت طبيب وتعرف أنّ الجذام مُعْد، بل إنّك قد تُسرّب العدوى إلى مرضاك.

انحنى أبو عليّ على المرأة التي لم تصدر عنها حركة منذ تهاوت على قدميه. كانت ثيابها قد تمزّقت كاشفة عن بقع من جسدها فلاحظ أنّ بشرتها أنصع من بشرة بنات فارس. كانت متهالكة في وضع غزالة محاصرة وقد ثنت ساقيها تحتها وأخفت وجهها بيديها مرتجفة بكامل جسمها. أمسك أبو عليّ بذقنها وأجبرها بلطف على رفع رأسها، فرأى عينين امتلأتا برعب العالم كلّه، وأيقن أنّ لها بشرة بنات الروم ووجههنّ، ولئن لم يحدّد لها سنًا معيّنة فقد خمّن أنّها قد تكون في الثلاثين أو أكثر بعشر سنوات، إلاّ أنّه أحسّ بشيء فاتن ينبعث من سحنتها النقيّة والمضطربة في الوقت نفسه. جثا حذوها وأكبّ طويلاً على فحص ذراعيها المكشوفين. كان الجماعة على حقّ، فقد تغطّى المرفقان وأعلى وجهي الذراعين بصفائح قشريّة حمراويّة اللون تذكّر بلطخات الشمع، ولاحظ الأمر نفسه على الركبتين والساقين، إلاّ أنّ أكثر ما أقلقه الوضوحُ الشديد لمعالم ذلك الطفْح، فقد كادت اللطخات تتوزّع في تناظر هندسيّ وقد ارتسمت حدودها بشكل بيّن، تمامًا مثل ما لاحظه سابقًا لدى بعض المصابين بالجذام، ومع ذلك فثمّة صوتٌ غامض كان يهمس له بأنّها ليست مصابة بذلك المرض، أو لعلّه كان يرفض التسليم بهذا التشخيص.

وما هي إلاّ لحظات حتّى فوجئ بنفسه ينهض مؤكّدًا للقرويّين بصوت الواثق:

– هذه المرأة ليست مصابة بالمرض الذي يتلف لحم الجسد، بل بمرض شبيه.

– وكيف أمكن لك أن تتأكّد من ذلك؟

– هل نسيتَ مهنتي؟

ثمّ أضاف بصوت حازم:

– سآخذها إلى البيمارستان فلا تخشوا شيئًا، سنقوم بعزلها ولن تخرج من هناك إلاّ إذا شُفِيت تمامًا.

هتف أحدهم مستسلمًا:

– إنّه الشيخ الرئيس، ولعلّه يعرف ما لانعرف.

فأجابه صوت آخر مشكّكًا:

– ولكنّ لكلّ معرفة حدودًا.

ساعد أبو عليّ المرأة على الوقوف، فتململ الجمع وغلب عليهم الاضطراب، إلاّ أنّهم أفسحوا لهما الطريق.

*

قال ابن سينا وهو يساعد الفتاة على التمدّد فوق السرير الوحيد الفارغ في البيمارستان:

– ألا تخبرينني ما اسمك؟

كان يسألها للمرّة الثانية، وعلى الرغم من جهوده المضنية ظلّت لائذة بالصمت لا تفتح شفتيها بكلمة. فحصها من جديد وقد أيقن هذه المرّة بأنّها ليست عربيّة. تبيّن أثرًا باهتًا للكحل حول عينيها العسليّتين ولاحظ أنّ شعرها الأصحر يطلق أشعّة مائلة إلى الزرقة، وكان سمع أنّ هذه الأشعّة الاصطناعيّة تُحصّل باستعمال صبغة من خليط الحنّاء والنيلة، وهي عادة بنات الهوى مرتادات موانئ الديبل وسفار.

– هل أموت؟

بوغت بإفصاحها أخيرًا إلى حدّ أنّه أُلجم فترة قبل أن يجيب:

– وهل تظنّين الله يميت مخلوقًا لم يكد يشرع في اكتشاف الدنيا؟ كلاّ، سنعالجك وستشفين بإذن الله.

– أمّا الدنيا فأنا أعرفها بما فيه الكفاية، ولن يحزنني أن أرحل عنها.

أحسّ أنّه لم ينظر إليها إلاّ ازداد عجزًا عن سبر أغوارها، والأغرب من ذلك أنّه كان يشعر بإحساس غامض يشدّه إليها ويحذّره منها في الوقت

نفسه.

قال بنبرة محايدة:

– لا ينبغي أن نتكلّم هكذا، لا ينبغي أن نكفر بالحياة.

هزّت رأسها وشدّت إليها اللحاف كأنّها تريد أن تحتمي به من الكلمات.

– اسمي أبو عليّ بن سينا، والآن ألا تفصحين لي عن اسمك؟

– أيّ اسم؟ إنّهم ينادونني بأسماء كثيرة.

– فليكن الاسم الذي تفضّلينه.

– ياسمينة.

– واضح من لكنتك ولون بشرتك وشعرك أنّك لست من بنات الجبال، ولن أَعجَب لو قلتِ لي إنّك روميّة، فمن أين أنت؟

تجاهلت السؤال وسألته بسذاجة متعمّدة:

– أنت طبيب أليس كذلك؟

أومأ بالإيجاب.

– فهل يحتاج الطبيب إلى معرفة بلد المريض كي يخفّف عنه الآلام؟

لم يملك غير أن يذعن لما في كلامها من منطق، وهمّ بسحب اللحاف للشروع في فحصها فبدرت منها حركة دفاعيّة وتشبّثت أصابعها بالصوف.

– إذا أردت أن أعالجك فلابدّ أن تمكّنيني من فحصك.

– هل صحيح ما قالوه عن إصابتي بالجذام؟

– لا أظنّ، لكنّي أعترف بأنّي غير واثق من الأمر بعد.

مدّ يده من جديد نحو اللحاف فلم تُبْدِ مقاومة هذه المرّة. كان درعها قد تحوّل إلى مزقٍ وسيور انسلّت بائسةً حتّى لم يعد شيء خافٍ من ساقيها الرفيعتين. إلاّ أنّه اكتشف شيئًا آخر. كان معصمها مجرّحًا أسفل الراحة مباشرة، وكان الأثر على الرغم من قدمه لا يدع مجالاً للشكّ في سبب الجرح. فمن أين تراها جاءت؟ ومن أيّ رحلة مرعبة نجت؟ ومن أيّ ماخور

في سمرقند أو شيراز هربت لتبلغ الريّ وهي في هذه الحالة؟

بذل جهدا كبيرًا كي يقصر انتباهه على الصفائح القشريّة التي شاهدها قبل ساعة من الآن، وللمرّة الثانية فوجئ بوضوح معالمها وتناظر مواقعها في جلدة الرأس والمرفقين و أعلى وجهي الساعدين وعلى الركبتين والساقين. أمعن فيها النظر فلاحظ أنّ غشاءً رقيقا يغطّي اللطخات.

تناول من عدّته الطبيّة شفرة قصيرة حادّة، ثمّ أحكم القبض على ذراع الفتاة وأخذ يكشط اللطخة بحذر ولطف.

– لا تخافي يا ياسمينة، لن تشعري بألم، أعدك بذلك.

قالت بنبرة من صحا من أوهامه منذ وقت طويل:

– رجل يعد؟ إنّ وعود الرجال أشبه بأمواج البحر، تموت حالما تولد.

توقّف عن العمل تاركًا الشفرة في الهواء، ونظر إليها وقد علت محيّاه تعابير التحدّي.

– إذنْ فأنا لا أعدك، بل أؤكّد لك.

كشط القشرة التي كانت تغطّي الطفح بعناية، فلاحظ أنّ الأدمة تحتها تشبه ندًى داميًا.

– هل تتذكّرين متى ظهرت هذه الأعراض أوّل مرّة؟

– منذ أسابيع، في المرفقين أوّلاً، ثمّ على الركبتين.

أغرق أبو عليّ في التفكير برهة قبل أن يسأل:

– فهل أحسست بوهن شامل، عضليّ تحديداً؟

أشارت الفتاة برأسها أنْ لا.

– ولا بألم في اليدين أو بأخمصي القدمين؟

أجابت بالنفي مرّة أخرى، فجسّ نبضها وظلّ ينصت مطوّلاً إلى تدفّق الدم تحت سطح الجلدة، وكان ذهنه طيلة ذلك الوقت يشتغل مثل مدقّة بائع الحبوب، موازنًا، مقدّرًا، يزيد وينقص بكلّ ما يمتلكه من معرفة. هل هو الجذام؟ أم أنّه مرض للجلدة لا يعرف أسبابه؟ لم يكن أمامه إلاّ القياس

بطريقة الحذف. لم تكن اللطخات التي فحصها مقيّحة، ولم يبد على الفتاة أنّها تشكو من تساقط شعر الحاجبين، ولم تكن البُقع المريضة متجمّعة في مكان واحد، وهي تحرّك أصابعها بشكل طبيعيّ. ثمّ فكّر في أنّ هناك شيئًا آخر لم يتثبّت منه، فأمسك بمرفق الفتاة من جديد وتوجّه إليها محذّرًا:

– لا أستطيع أن أؤكّد لك هذه المرّة أنّي لن أتسبّب لك في ألم، أطلب منك فحسب أن لا تؤاخذيني على ذلك.

وافقت الفتاة برفّة جفن.

فوضع سبّابته على مركز اللطخة بالضبط وضغط على الجدّة فأطلقت الفتاة صرخة حادّة على الفور، وكم كانت دهشتها كبيرة وهي ترى ردّة فعل أبي عليّ على العكس تمامًا ممّا كانت تتوقّع، فقد أشعّت عيناه ببريق الانتصار وتنفّس الصعداء معلنًا:

– لست مصابة بالجذام وأنا واثق من ذلك هذه المرّة.(٣)

جحظت عيناها مندهشة:

– منذ متى أصبح الألم علامة جيّدة؟

– الألم أحيانًا هو وسيلة الخلاص، وهو في الحالة التي تهمّنا ردّ فعل يسهّل لنا الاستنتاج.

– لم أفهم.

– قد يطول الشرح، فلتعلمي فحسب أنّه لو كان مرضك هو الجذام لاستوجب أن يكون مركز اللطخات خاليًا تمامًا من الألم.

رفعت صدرها قليلاً وبدا عليها أنّها تقبل التشخيص في لامبالاة.

– إذنْ، فالله لا يرغب في الكفرة.

لم يحاول أن يسألها عن قصدها، فواصلت قائلة:

– وهل تستطيع إزالة آثار هذا المرض؟

– أظنّ ذلك، وسنبدأ بجلي الغشاء الذي يغطّي الطفح بشيء من زيت الكاد، ثمّ نتولّى تعريض جسمك إلى أشعّة الشمس أكثر ما يمكن مع تغذيته

جيّدًا حتّى يسترجع حيويّته ونشاطه.

– أرجو أن تكون مصيبًا في رأيك يا أبا عليّ بن سينا، وأن يحقّق العلاج ما ينتظر له من نتائج، فقد يُغفر للمرأة الكثير إلاّ القبح.

– القبح بعيد عن ملامحك بُعْدَ الباطل عن الحقيقة.

ظنّ أنّها تهمّ بالردّ عليه، لكنّ عينيها اغرورقتا بالدموع فجأة فأشاحت عنه بوجهها كي لا يراها تبكي.

عالجها الشيخ كما يعالج الأب ولده، ولم يمرّ يوم واحد دون أن يعودها ويطمئنّ عليها ساهرًا بنفسه على إطعامها ومصاحبتها في حدائق البيمارستان كي تتمتّع بأشعّة الشمس التي كان فيها الشفاء.

وقد صارحه الجوزجاني بعجبه لهذا التفاني المفرط في العناية بفتاة لا يعرف عنها شيئًا، إضافةً إلى كونها لم تعرب لحظة عن عرفانها بالجميل، فأجابه الشيخ بعبارة أقلّ ما يقال فيها إنّها غامضة:

– يا أبا عبيد، إذا وضع القدر في طريقك أختًا نجت من الظلمات فمن الكفر أن تشيح عنها بوجهك.

الهوامش:

١– تقصد الصبيّ. (المترجم)

٢– حدّثني بعضهم أنّ الغزنويّ أخذ هذه الأبواب ليزيّن بها القبر الذي كان يشيده لنفسه بغزنة، إلاّ أنّ أحدًا من الشهود العيان لم يؤكّد لي هذا الأمر. (الجوزجاني)

٣ الأرجح أن يكون ابن سينا قد واجه يومها ما يسمّيه الطبّ الحديث: داء الصدَف "psoriasis"، وهو مرض جلديّ عسير الشفاء، يجعل الجلد بهيئة الصدَف، ولا يُعرف له سبب إلى اليوم. (المترجم)

المقامة الرابعة عشرة

بات جليًّا أنّ الوزير ابن القاسم يجد صعوبة كبيرة في تمالك نفسه، فقد اضطرّ إلى الصمت برهة كي يستردّ أنفاسه قبل أن يختم قائلاً:

– وهكذا سيتمرّغ رأس السيّدة في الرماد.

تلفّت كمن يبحث عن إشارة مساندة ممّن كانوا حواليه. كان قبالته مجد الدولة في جوخة واسعة وقد تسمّرت عيناه في نعليه الطويلين، وعلى يساره السبهدار عصمان البستانيّ قائد الحامية الرابضة بحصن تباراك، أمّا على اليمين فقد جلس المستشار الأوّل في ثوب من الإستبرق الخبّازيّ، فيما لاح من خلفه حسين كبير القضاة واقفًا في العتمة.

تدلّت من السقف المقبّب ثريّا وحيدة مضيئة المكان بنور شاحب، تراقصت تحت أشعّته زخارف الأرابيسك ذات اللون الموحّد على امتداد الجدران المذهّبة.

كان المستشار أوّل المعقّبين.

– أعتقد أنّها خطّة محكمة، وليس لي أيّ اعتراض عليها.

أحنى الوزير رأسه وقد بدت عليه علامات الارتياح، ثمّ أولى اهتمامه إلى الأمير الشابّ سائلاً:

– أراك قلِقًا يا مولاي؟

أشار مجد بسبّابته إلى قائد الحامية.

– الأمر كلّه متوقّف عليه، فأمّي امرأة قويّة، ولن ينجح الانقلاب إذا لم نضمن عونَ الحامية الكامل وغير المشروط، فهل نحن واثقون من ذلك؟

– كلّ الثقة يا مولاي، وأنا كفيل بهذا الأمر، ثمّ أنّه لا يخفى عليكم أنّ حامية تباراك هي أقوى جيوش الجبال.

قال مجد:

– أعرف ذلك، لكنّي أعرف أيضًا قوّة والدتي، ولم أنسَ بعدُ فشل

محاولتي الأولى.

أسرع الوزير إلى طمأنته:

– كان ذلك منذ ثلاث سنوات يا مولاي، وقد أعوزك يومها الناصح والمعين، أمّا اليوم فالأمر مختلف، وأؤكّد لك أنّك بعد خمسة وثلاثين يومًا، أي في مطلع الربيع تحديدًا، ستُبايع ملكًا على الجبال ويعود الحقّ إلى أصحابه.

قال القنصل:

– إن شاء الله، فالله دائمًا مع الحقّ.

في تلك اللحظة قرّر كبير القضاة أن يتدخّل، فقال متمهّلاً وقد نمّ جبينه عن الانشغال:

– أريد أن أذكّركم بأمر قد يكون على جانب كبير من الأهميّة، أنتم تعلمون أنّ الملكة لن تبقى مكتوفة اليدين إذا هي أحسّت بالخطر، كما تعلمون أنّ جانبًا من الجيش مازال على وفائه لها، و...

– الأمر متعلّق بأقليّة من الجنود، ولكنّي أصرّ على القول بأنّ قلب الجيش موجود هنا في تباراك، ولن يمكن لحامية الديلم المتكوّنة من الأتراك في معظمها أن تقف في طريقنا.

– لِيَكُنْ، ولكنّ هذا الأمر لن يغيب عن ذهن الملكة، ولا شكّ أنّها ستبحث عن حلفاء وستطلق صيحات الاستغاثة، ولا يخفى عليكم أنّها على صلة حميمة بالأمير الكرديّ هلال بن بدر، ولو هبّ هذا الأمير إلى مساعدتها لرجحت به كفّتها، ثمّ لا تنسوا أنّها قبل ثلاث سنوات وفي مثل هذه الحالة لم تتردّد في الاستغاثة بحسْنويْه جدّ بدر.

ردّ المستشار الملكيّ معترضًا:

– هذا صحيح، لكنّنا سنستفيد هذه المرّة من عنصر المفاجأة، ولن تجد فسحة من الوقت لتتحالف مع الأكراد.

شبك القاضي أصابعه على صدره واقترب من الأمير.

– ثمّة أمر آخر أيّها الأمير، كأنّي بنا قد نسيناه أو تناسيناه.

– أنا ذا مصغٍ إليك.

حدج القاضي كلاً من الوزير والمستشار بنظرة لا تخلو من ازدراء.

– إنّ لأميرنا أخًا، هو شمس الدولة، فهل نسيتماه؟

ردّ مجد في تبرّم:

– وما صلة أخي بهذا الأمر؟ إنّه والي همذان، وهو الحاكم على كلّ كرمنشاه، ولم يُسلْب منه شيء، ثمّ...

ضغط الأمير باحتقار مقصود على الكلمات الأخيرة.

– ثمّ إنّه ليس أقلّ كرهًا منّي لهذه المرأة.

أضاف ابن القاسم مؤكّدًا:

– الأمير على حقّ، فشمس الدولة لا ينظر إلى أمّه بعين الرضى، وهو يعلم لا شكّ أنّ أخاه ضحيّة ظلم طال أمده.

ردّ كبير القضاة وقد ضاقت عيناه أكثر:

– إذا كان الأمر كذلك فلماذا لم يساعد أميرَنا بشيء حتّى اليوم؟

نظر مجد من جديد إلى نعليه.

– لأنّ الأمر مختلف بالنسبة إليه، فإذا كان لي أنا مجد الدولة ابن شيرين أسباب جوهريّة للدخول في حرب على الملكة، فليست هذه حال أخي، وليس من السهل أن تحارب أمّك بدون دوافع حقيقيّة.

ثمّ أضاف، ولعلّه كان يحاول طمأنة نفسه:

– كلاّ، لن يتحرّك أخي لا في هذا الاتّجاه ولا في ذاك.

هبّت نسمة مباغتة فارتعش لها الضوء تحت القبّة مخيّلاً للجميع أنّ الشخوص نفسها كانت تترنّح.

نهض ابن القاسم من مجلسه وقال بحزم:

– أظنّنا نظرنا في الموضوع من كلّ جوانبه، وفي مطلع الربيع بإذن الله يكون أميرنا الشابّ متربّعًا على عرش الريّ.

ثنّى الجميع على كلامه، وسرعان ما انسحب الأمير وتبعه المستشار ثمّ القاضي، ولم يبق في الغرفة غير الوزير والقائد.

مرّ هذا الأخير براحتيه على وجنتيه وقال بصوت واهن:

– لَكَمْ أتفهّم قلقهم.

– وكيف لا يقلقون وهم لا يعلمون ما أعلم؟

– أما كان عليك أن تطمئنهم؟

– لم يئن الأوان بعد، فذلك يعني أن أكشف لهم عن حقيقة خطّتي، وهذا الأمر مستحيل الآن ومحفوف بالمخاطر.

– ألهذا الحدّ أنت خائف من أن يتحرّك فيهم واعز الوطنيّة، فيفتّ من عزيمتهم؟

أحدّ الوزير نظره في عيني السبهدار.

– اسمع يا عصمان، أنت تعرف جيّدًا أنّ قبضتنا مهما بلغت من القوّة لَهي أضعف من أن تقدر على الملكة، وبعد خمسة وثلاثين يومًا لن تقدر حاميتك وحدها على اقتحام المدينة، بل لابدّ من يدٍ أخرى تتكفّل بوضع مجد الدولة على عرشه، وهو أمر لن أغامر بالكشف عنه الآن، هل تفهم؟

*

غادر الأمير حصن تباراك وركض بحصانه غير منتبه لحظةً إلى ظلّ الفارس الذي كان يقتفي أثره، بل إنّه ظلّ غافلاً عنه حتّى وهو يتوغّل في الممرّ السرّي المفضي إلى القصر.

طرق باب ابن سينا، وهكذا أمكن للظلّ أن يرى الطبيب يطلّ من خصاص الباب وأن يرى الأمير يدلف إلى الغرفة.

قال الأمير وهو يتهالك على الأريكة الملاصقة للنافذة:

– أعرف أنّها ساعة متأخّرة لكنّي في حاجة إلى من أحادثه.

– مرحبًا بك في كلّ وقت أيّها الأمير.

همّ الجوزجاني بالاتّجاه ناحية الباب لكنّ إشارة من الأمير ألزمته

مكانه. قال مجد وهو يلاحظ أنّ أبا عليّ قد وضع القلم من يده:

- أتكتب إلى هذه الساعة من الليل؟ أليس للتعب سلطان عليك؟ لم أرك منذ قدمت الريّ إلاّ معالجًا المرضى أو مدرّسا الطلبة، فإذا لم تشتغل بطبّ أو تدريس فرغت إلى الكتابة، ولعلّك تشتغل في رأسك حتّى وأنت بعيد عن كلّ ذلك، هل أنا على خطأ؟

ملأ أبو عليّ كوبًا بالشراب الحامض وناوله إيّاه.

- الرجال صنفان يا مولاي، بعضهم يجري وراء غاية ولا يصل وبعضهم يصل ولا يرضى، وأن تكون نصف الاثنين عبءٌ لا يُطاق.

رفض مجد الكأس بحركة من يده.

- ليس الليلة، فأنا مضطرب النفس عكر المزاج.

التفت من جديد إلى طاولة الكتابة.

- وإلي أين وصلت في الكتاب الذي حدّثتني عنه؟

- القانون؟ أكاد أفرغ من الكتاب الثاني.

- أمامك إذنْ، إذا لم تخنّي الذاكرة، ثلاثة كتب أخرى.

أومأ أبو عليّ موافقًا.

- ويا لها من طريق طويلة.

أسرع الجوزجاني بالتوضيح:

- طريق كان يمكن اختصارها لو اقتصر الشيخ على هذا الأمر.

سأل الأمير:

- هل تقصد انشغاله عن الكتابة بأمور البيمارستان؟

- كلاّ يا مولاي، ثمّة أمر آخر، إنّ ذهن الشيخ في غليان دائم، نشرع في كتابة الفصل المتعلّق بالأدوية المفردة فينقطع عنه ليملي عليّ رسالة في المنطق، فإذا ظننته فرغ من ذلك وعاد إليه صفاء ذهنه أخذ في بحث خاصيّات خطّ الاستواء، إنّه...

قاطعه أبو عليّ:

– أعرف انتقاداتك يا أبا عبيد فكفَّ عن مضايقة الأمير ودعني أقدّم له هذه الهديّة.

نهض أبو عليّ من مجلسه وتناول مخطوطًا كان موضوعًا على الرفّ فقدّمه للأمير.

– يشرّفني يا مولاي أن تقبل منّي هذا العربون المتواضع عن محبّتي لك، إنّه عمل خصصتك به وصدّرته باسمك، وكم أرجو أن تقرأه فتنفتح أمامك آفاق أرحب وأكثر حكمة، كما أرجو خاصّة أن تساعدك قراءته على التحليق بعيدًا عن حقارات الأشرار.

تناول مجد الكتاب وقرأ العنوان بصوت عالٍ:

– كتاب المَعاد، معاد الروح.

رفع رأسه وسأل جادًّا:

– هل تؤمن بخلود الروح أيّها الشيخ الرئيس؟

– لاشكّ عندي في خلود الروح.

هزّ مجد رأسه في هيئة غير الواثق.

فواصل أبو عليّ:

– قلتَ إنّك في حاجة إلى من تحادثه.

– أجل، ومحتاج خاصّة إلى النصيحة، فما رأيك أيّها الشيخ في ولد يزمع على الدخول في حربٍ على أمّه قد تؤدّي إلى موتها؟

هزّ ابن سينا رأسه وقد فاجأه السؤال وأحرجه أيّما إحراج.

– أيّ سؤال هذا يا شرف الدولة؟ وأيّ امتحان تضعني فيه؟ هلاّ سألتني عن أسرار بقاء الأرض وسط القبّة الفلكيّة أو عن وحدة الذات الإلهيّة، كي لا أجد في إجابتك أيّ عسر؟

ألحّ الأمير في السؤال.

– لايهمّني شيء من ذلك أيّها الشيخ الرئيس، وحده يهمّني مصيري في هذه الأرض.

قال أبو عليّ:

– أستطيع أن أقول لك إنّ أفضل طريقة للانتقام من عدوّ إنَّمَا تَتمثَّلُ في أن لا تُشبِهه أبدًا، حتّى وإن كان هذا العدوّ أمّك، كما أستطيع أن أقول لك إنّه لا ينبغي علينا أن نقتنع بأنّ ما نرغب فيه هو أكثر أهميّة ممّا نملكه، كما أستطيع أن أؤكّد لك أنّ حياةَ البشر أثمَنُ مِن أيّ طموح مهما كان.

ردّ مجد وقد نفد صبره:

– ليست هذه سوى عبارات فضفاضة مغرقة في التجريد، أريد إجابة رجل من لحم ودم.

وكرّر مباعدًا بين الكلمات:

– هل يحقّ للولد أن يحارب أمّه؟

فكّر أبو عليّ برهة ثمّ قال بصوت خفيض:

– سأذكر لك ما قاله حكيم يهوديّ غير معروف، عثرت على كتبه صدفة في دار الكتب بكركانج[1]: "إذا صفعت الحماقةُ العقلَ فإنّ من حقّ العقل أن يتصرّف بحماقة"...

صمت الشيخ للحظة قبل أن يضيف:

– هل أرضتك إجابتي يا شرف الدولة؟

غادر الأمير الأريكة ونظر في عيني أبي عليّ وقد تغيّرت سحنته.

– لا أعرف من يكون حكيمك اليهوديّ هذا، لكنْ يبدو أنّه كان عنيدًا مثل كلّ اليهود.

– إذَنْ فأنا يهوديّ مفرط يا مولاي، ذلك أنّي لا أرى جوابًا آخر على سؤالك.

– فهل تدرك أنّه جواب يفتح الباب على كلّ الاحتمالات بدون تحديد؟

– إلاّ حدود الإساءة.

عضّ مجد الدولة على شفته السفلى في حركة خفيّة، وكان وجهه قد امتقع بشدّة، ثمّ ثبت نظره في أبي عليّ للحظات وقال بصوت حازم:

– إذَنْ، فهي حربٌ حتّى الموت.

ثمّ خفّ إلى الباب دون أن ينتظر ردّا، وغاب في الظلام.

لم يجد الظلّ الذي كان يتنصّت عليهما غير لحظة قصيرة ليتوارى خلف أحد منعطفات الممرّ.

الهوامش:

١– لم تكن تلك أوّل مرّة أسمع فيها معلّمي يذكر هذا الفيلسوف، المسمّى بن غورنو "ben gourno"، وهو من مواليد ضفاف بحر الروم، والعبارة التي ذكرها معلّمي مقتطفة من كتاب"ديوان التأمّلات "الذي كان الشيخ يحفظه عن ظهر قلب، والكتاب بين يديّ ساعى كتابة هذه السطور، وهو محطّ إعجابي وتقديري. (الجوزجاني)

استطعت بدوري، وبعد الكثير من الجهد والتنقيب، أن أعثر على الديوان المذكور، ولا يوجد منه على حدّ علمي أكثر من نسختين أو ثلاث نسخ في العالم كلّه، ومن الجائز التساؤل عن الأسباب التي جعلت فيلسوفًا مثل بن غورنو، يظلّ حتّى اليوم مجهولاً من العامّة وأهل الأدب على حدّ سواء. (المترجم)

المقامة الخامسة عشرة

– هل يكون سيّدُ العلماء سيّدَ القتلة أيضًا؟

كفّت الملكة عن تعذيب منديلها الحريريّ وألقت به على الأرض في غضبٍ عارم لم تُفْلِح في كبته. لم تندّ عن الشيخ حركة وهو يقول منافحًا:

– لم أشجّع في حياتي أحدًا على الجريمة، فأنا أفضل من يعرف قيمة الحياة.

– كاذب، أنا على بيّنة من كلّ شيء، ليست الحياة في نظرك أكثر من طبق عدس، خاصّة إذا تعلّق الأمر بحياتي.

– هذا غير صحيح يا سيّدة.

أومض شعاع كالبرق في عين الملكة ذات اللون البنفسجيّ.

– "إذا صفعت الحماقة العقل فإنّ من حقّ العقل أن يتصرّف بحماقة"...

قطّعت الكلمات تقطيعًا، كأنّها تمتح من كلّ حرف سببًا إضافيًّا للاستشاطة غضبًا.

– إنّ لجواسيسك آذانًا مرهفة، لا شكّ في ذلك، لكنّي لم أفعل غير الاستشهاد بأقوال أحد الحكماء، وهو...

– يهوديّ، أليس كذلك؟

– هو يهوديّ، أعترف بذلك، لكنّ اجتثاث عبارة من سياقها قد يفسح المجال إلى شتّى التأويلات، و...

قاطعته السيّدة فورًا.

– وهل ترى لحكمة مثل هذه تأويلاً آخر؟ أنا لا أرى فيها غير حثّ على القتل، فهل هذا ما جئت تبحث عنه، أن تموت أمّ على يد ولدها، فلذة كبدها؟ أهذا ما جئت تبذره تحت سقفي؟

– مولاتي، إذا صحّ أنّ هناك ما بُذِر فأنا غير مسؤول عنه، لقد وجدتُ الزرع ناميًا قبل وصولي إلى هذه المدينة.

– ماذا تقصد؟

– أقصد أنّ الزوان قد تفشّى في الحقل منذ مدّة، وهذا هو مرض مجد الدولة.

– فلماذا لم تعالجه؟ ولماذا آثرت أن تضاعف المرض بهذه النصائح الخبيثة الظالمة؟

– لا علْمَ لي بما أخبرك به جواسيسك، ولكن دعيني أذكّرك بأنّ إبداء الرأي في موضوع ليس نصيحة.

داعبت الملكة بشكل آليّ ذقنها الثلاثيّ وسألته وقد أغمضت عينيها:

– هل تنكر أنّ الأمير زارك البارحة؟

– لا أنكر ذلك.

– فهل تعترف بأنّكما خضتما في ما بيني وبينه من خلاف؟

– كان في حاجة إلى من يحادثه فأصغيت إليه كما يتوجّب الإصغاء إلى صديق.

اربدّ وجه السيّدة وقست ملامحها وظهرت عليها علامات نفاد الصبر.

– أصغ إليّ جيّدًا يا ابن سينا (كانت تلك أوّل مرّة تناديه بهذا الاسم)، أم أنّ عليّ أن أدعوك بـBen Sina [1]؟

كاد يشكّ في ما سمعه بأذنيه.

– أجل، Ben Sina، فأنا لا ألعب بالكلمات إلاّ جادّة، وليس في لعبي ذاك مكان للبراءة.

صمتت لحظةً كأنّها تتبيّن أثَرَ كلماتها فيه، ثمّ قالت في لامبالاة مصطنعة، وهي ترفع يمناها ببطء فارجة بين أصابعها متفحّصة الحجر الكريم الذي كان يزيّن خنصرها:

– ألا تكون سارق سجّادة[2] يا ابن سينا؟ إنّ أصولك تحوم حولها الشبهات ولا أحد يجهل التحاق والدك بالدعوة الإسماعيليّة..

– كان أبي مسلمًا صادقًا.

– وأنت؟ هل يمكن أن نقول في شأنك الشيء نفسه؟

– لن تجدي في أرض الشيعة كلّها من هو أصدق إيمانًا منّي.

ندّت عنها ضحكة ساخرة.

– أجل... شيعيّ صادق... مثل أمك، أليس كذلك؟

خيّل إليه أنّ كبشًا لا مرئيًا ينطحه فجأة ويضطرّه إلى الترنّح، فهتف بصوت هدّجه الانفعال:

– أمّي؟ أمّي كانت امرأة طيّبة فاضلة.

همّت بمقاطعته لكنّه كان المبادر إلى ذلك هذه المرّة.

– مولاتي، أعتقد أنّ حوارنا هذا عقيم وغير مجدٍ وقد يفضي بنا إلى رمال متحرّكة لا تُحمد عُقْباها، فلنقف به عند هذا الحدّ، ولكِ أن تعتبريني من اللحظة مستقيلاً من عملي بالبيمارستان، وسأغادر القصر والمدينة إن لزم الأمر.

– لا سبيل إلى ذلك.

نطّت من العرش مثل اللبؤة الهائجة وهبطت ملتهمة الدرجات الثلاث من المرمر الورديّ التي كانت تفصلها عنه، ثمّ اقتربت منه مشهرة سبّابتها في وجهه.

– لا سبيل إلى ذلك، وهل تظنّ أنّ إهاب العلماء يسمح لك بالخروج على تقاليد البلاط؟ ليس لأحد أن ينصرف من عند الملكة بإرادته، فالملكة هي التي تأمر بالانصراف، وليس لأحد أن يستقيل فالملكة هي التي تطرد، وستمكث في عملك طالما رأيت أنا أنّ ذلك ضروريّ ومفيد لهذه المدينة، هل فهمت؟

"أنت على حافة هاوية يا ابن سينا، خطوة أخرى و "...

تذكّر تلك الكلمات التي قالها له المسيحيّ منذ سنوات فخيّل إليه أنّ حياته تعود به القهقرى، وأنّ لحاضره مذاق مشهد قديم، وانكشفت له في الوقت نفسه هشاشة وضعه البالغة، فمرّ بخاطره أنّ القلاع التي يُخيّل إلى

المرء أنّها مكان آمن للعيش ليست في الحقيقة سوى أكواخ صغيرة بائسة أمام بطش الأمراء. كوّر قبضتيه وانحنى باحترام وفاجأه أن يجد في نفسه الشجاعة الكافية ليقول بصوت هادئ:

– السمع والطاعة يا مولاتي.

أشعّت عينا السيّدة ببريق الظفر.

– هذا أفضل أيّها الشيخ الرئيس.

ظلّت تحدّق فيه لفترة طويلة، صامتة، متلذّذة بما كانت تعتبره دون شكّ أمارات معركة رابحة.

– لكن لا تنس أنّنا سنستاء كثيرًا إذا علمنا في المستقبل أنّ ولدنا قد تلقّى نصائح أحد المتفلسفين حتّى وإن كان يهوديًا. الآن بإمكانك الانصراف.

*

أنْسلَ ضوءُ النهار وراء خاصرة مرتفعات البُرْز وأوشك الغروب أن يخيّم على الجبال.

كان أبو علي قد أرخى العنان لفرسه الكميت محاذرًا أن يتعثّر به على طول المسرب الجبليّ الملتوي المفضي إلى الشرفة الطبيعيّة المحفورة في كفل الجبل. هبّ الهواء باردًا فارتعشت له أغصان الشجيرات القليلة العارية التي كانت تؤثّث تعرّجات المشهد. دقّت الدابّة الأرض بحوافرها مفزوعة وهي تنزلق إلى الهاوية القائمة يسار الممرّ، ولم تستعد توازنها إلاّ في اللحظة الأخيرة.

وصلا أخيرًا إلى نتوء صخريّ تكوّن عبر الزمن بفعل تراكم الحمم البركانيّة، وقد انتصبت في وسطه صخرة هائلة بنفسجيّة اللون كثيرة الحزوز. ربت أبو عليّ على عنق فرسه وترجّل ثمّ شدّ الرسن إلى جذع شجرة جافّ وأنزل خرجه من على السرج. لم تكن تلك أوّل مرّة يأتي فيها هذا المكان. كان يحفظ عن ظهر قلب كلّ شبر فيه، لا يخفى عليه شيء من

حشائشه البريّة ولا من تربته الطريّة حيث ترتسم آثار قدميه ولا من حجارته السبجيّة الشبيهة بالزجاج الأسود. هنا شرع لأوّل مرّة في رصد تحرّكات الطبقات الأرضيّة وهنا أيضًا كتب رسالته" في أسباب بقاء الأرض في موقعها. "تناول الورق والقلم والمحبرة ثمّ أرخى لبصره العنان متأمّلا في المشهد المترامي الأطراف.

هناك صوب الشمال كان بحر الخزر يتلألأ بسطحه الأثيريّ مثل مرآة من الفضّة، أمّا شرقًا فقد انكشفت للعين قمّة ديماوند أعلى قمم فارس[٣]، وقد جلّلتها الثلوج، فيما تمطّت إلى الغرب سهول الرحاب صفراء شاسعة.

شعر أبو عليّ بالسكينة تهبط عليه شيئًا فشيئًا، وتلاشت من ذاكرته كلمات السيّدة مندحرة أمام تدفّق الصمت وعاد السلام إلى روحه وئيداً ثابت الخطوات. كان سعيداً وحيداً بعيداً عن الغوغاء وعن حماقة البشر. اتّخذ من الصخرة مكتبًا فوضع عليها أوراقه وأمسك بالقلم وكتب في أعلى الصفحة :علاج أخطاء التدبير.

ثمّ أضاف إلى تحت:

"لا ينبغي أن يكون سائس الدوابّ دابّة هو نفسه، ولا ينبغي أن يكون حاكم الأشرار من بين الأشرار، ولا ينبغي أن يكون قائد العامّة واحداً من العامّة، بل يجب أن يفضلها ذكاءً ولو بقدر ما للطفل الصغير".

اختفت الشمس وراء الجهة الأخرى من الأرض وهبط الليل فتلاشت الكلمات في العتمة.

جمع أبو عليّ أوراقه، وكان البرد قد لسع مفاصل أصابعه، فتدثّر بمعطفه ورقد على الأرض. كان يعرف أنّ النوم لن يذعن له بسهولة.

أدركه اليوم الثالث وهو رابضٌ بالمكان نفسه، ثمّ تلاه يوم آخر وآخر، إلى أن انقضت سبعة أيّام بلياليها. تكدّست الأوراق حوله، وكان يجلس متربّعًا، يكاد يخيّل إلى الناظر أنّه جزء من حجارة المكان. جفّت المحبرة، جفّت تمامًا مثلما جفّت سحنته، ذلك أنّه لم يشرب قطرةً ولم يأكل لقمةً طيلة

الأيّام السبعة، وغارت عيناه دون أن تفقدا شيئًا من بريقهما، بل لعلّهما صارتا أكثر توقّدًا.

طلع الفجر متمهّلاً من جهة البحر فنهض أبو عليّ ويداه إلى جنبيه هامسًا: الله أكبر.

بلغ مسمَعَه صَوْتُ أعشابٍ تُداسُ ثمّ وقع حوافر دابّة تنحدر مع الممرّ فالتفت ناحية الصوت. تراءى له طيفُ فارس من بين جذوع الأشجار، بل كانا فارسين، وقد تبيّن أبو عليّ فورًا من هيئة الأوّل أنّه الجوزجانيّ لكنّه لم يتعرّف على الفارس الثاني، وكم كانت دهشته عظيمة حين اقتربا فعرف أن رفيق الجوزجاني لم يكن غير تلك المرأة صاحبة اللطخات، ياسمينة.

ترجّل الفارسان في اللحظة نفسها تقريبًا، وخفّ الجوزجاني إلى معلّمه عاجزًا عن التفوّه بكلمة، فأمسك بذراعيه وضمّه إليه بكلّ ما يملك من قوّة، وحين أطلق سبيله كانت عيناه مغرورقتين بالدموع، فغمغم مجهشًا:

– حمدًا لله على سلامتك أيّها الشيخ الرئيس، لقد أعادك الله إلينا، فما أوسع رحمته.

وضع أبو عليّ راحةً أخويّة على وجنة تلميذه.

– وهل أخذني منكم حتّى يعيدني إليكم؟

ثمّ انتبه إلى الفتاة وكانت قد لازمت الصمت حتّى تلك اللحظة، فرآها تبادره قائلة:

– ظننتك هلكت.

– ألا تذكرين؟ ألست أنت من قال لي منذ مدّة إنّ الله لا يرغب في الكافرين؟

هتف الجوزجاني بصوت كأنّه الأنين:

– لقد بحثنا عنك في كلّ مكان، ظللنا نسأل عنك ليل نهار، وفتّشنا كلّ زاوية في الريّ، بينا أنت هنا، ولكن كيف صبرت على البرد بلا طعام ولا ماء؟

علّقت ياسمينة مقوّصة شفتيها في سخرية:

– يبدو أنّ الله قد منح الشيخ من اللياقة البدنيّة ما لا يقلّ عن لياقته الذهنيّة.

استدار أبو عليّ نحوها في بطء.

– لماذا أنت هنا؟

فبادره الجوزجاني بالإجابة:

– افتقدتك في البيمارستان فلم تجد غيري تسأله عنك.

نهرها أبو عليّ بصرامة بدا واضحًا أنّها متكلّفة:

– إذنْ فقد غادرت البيمارستان دون إذن القيّم، ألا تعلمين أنّها مخالفة خطيرة؟

– لقد شُفيت أيّها الشيخ الرئيس، انظر بنفسك.

قرنت القول بالفعل، فشمّرت كُمَيها عن ذراعيها وكشفتهما عاريتين، فلم يحتج الطبيب إلى أكثر من نظرة واحدة كي يتأكّد من أنّها لم تقل غير الحقّ، فقد اختفت اللطخات ولم يبق لها أثر.

– أنت طبيب ماهر.

يبدو أنّ هذه المرأة لن تكفّ عن إثارة فضوله. لاحظ أنّ إقامتها بالبيمارستان غيّرتها بعمق، فقد استعاد وجهها الذي لوّحته الشمس حُسْنَهُ القديم. هل هو حُسْنٌ؟ كلاّ، إنّ لفتنتها سرًّا آخر، لعلّه تلك الهالة المنبعثة من كيانها كلّه، من طريقة تحرّكها، من صوتها القويّ والناعم في الوقت نفسه، أو من الوميض الخاصّ الذي تبرق به عيناها. الحقّ أنّها كانت امرأة، امرأة في كلّ شيء، حتّى في الهواء الذي تزفر به وفي الرائحة التي تتصاعد من بشرتها.

– خفت عليك.

قالت ذلك بصوت يجهد كي يبدو هادئًا باردًا، إلاّ أنّه اكتشف في نظراتها ما تتوهّج به الكلمات من حرارة الشعور.

أضافت بلطف:

– ألا ترى أنّه قد حان الوقت للعودة إلى القصر؟

*

خيّم الليل على الريّ.

وأسلم أبو عليّ رأسه إلى بطن ياسمينة، كالنائم، والحقّ أنّه كان يستنشق عبير بشرتها العسليّ.

فكّر أنّهما تبادلا الحبّ طيلة الليل، وتساءل في اللحظة نفسها إن كانت هذه الكلمة صادقة حقًّا في وصف ما كانا فيه. تعانقا طويلاً، وكلّما طال بهما العناق شعر بأنّ ذكريات بعيدة تتسلّل بينهما قادمة من مكان آخر، وكأنّها تتصاعد من بدايات الزمن السحيق. كان كلّ منهما يحدس بحركات الآخر وأنفاسه وكأنّهما على اطّلاع مسبق برغباتهما المتبادلة، التي أذعنت فجأة لبصيرة ذات قدرة عجيبة على العلم بالغيب. لَكَمْ علّمته التجارب أنّ من الصعب على جسدين لم يلتقيا قبل البارحة أن يبلغا الانسجام الكامل، القريب من التوحّد وذوبان الواحد في الآخر، ومع ذلك فقد حدثت المعجزة والتقت شفتاهما وتشابكت وتزاوجت بحرارة تمثال الصلصال وهو يعود إلى قالبه، واحترق كلاهما بالآخر حتى لم يعد أحدهما يعرف من منهما النار ومن الكبريت. والحقّ أنّهما لم يمارسا الحبّ بل كانا يلتقيان من جديد.

همس أبو عليّ كمن يحادث نفسه:

– ما الذي حدث لي؟ ثمّة شيء يعيش فيّ منذ زمن بعيد لكنّني لم أكتشفه إلاّ الآن. هل تفهمين؟

ربتت على قفاه بحنان.

– أفهم ذلك يا ابن سينا، وعلى الرغم من أنّي لم أحسّ بذلك من قبل فإنّي على العكس منك، كنت على وثوق دائم من أنّ هذا الشعور موجود، بصفة مبهمة، مثلما نحدس بوجود أرض لم نرها.

اضطجع إلى جانبها وقد بدا عليه اضطراب عميق.

- لكنّ هذا لا ينبغي أن يحدث لي، لا ينبغي أن يحدث لي أنا بالذات.

تكوّرت أصابعه على الخرزة المعلّقة في عنقه وقال بصوت خافت:

- أترين هذه التعويذة؟ كنت في الثامنة عشرة من عمري حين أهدتها لي إحدى جاراتنا شكرًا لي على إنقاذي زوجها، قالت لي" إنّها ستحرسني من العين"، أنا رجل علم يا ياسمينة ولا أومن بالخرافات، بل إنّي كتبت رسالة في دحض النبوءات القائمة على الأبراج، ومع ذلك فثمّة شيء يؤكّد لي أنّه لولا هذه التعويذة لكنت الآن في عداد الأموات، فمنذ أن غادرت بخارى وحياتي تسير على حدّ سيف بتّار، واليوم...

- واليوم؟

- أنت تجهلين الكثير من الأمور يا ياسمينة، فمدينة الريّ مقبلة على أحداث جسيمة، ومرّة أخرى ستقع حياتي في كفّ عفريت، وقد أفقد رأسي.

تغيّرت سحنة الفتاة فجأة.

- أنت؟ هل تكون في خطر؟

أكّد لها الأمر.

- اعذرني، فلا علم لي بشيء من مشاكل هذه المدينة.

- معك حقّ، فقد نسيت ذلك.

انتبه فجأة إلى أنّه لا يعرف شيئًا عن الفتاة فسأل:

- من أين أنت؟ حدّثيني عنك.

لاذت بالصمت قبل أن تقول بصوت خافت:

- وهل تظنّ ذلك مجديًا؟ أن نعرف من أين جئنا؟ ومن نكون؟ هل يغيّر ذلك من الحاضر شيئًا؟

التصقت به أكثر.

- لا تضطرّني إلى إيقاظ ذاكرتي أرجوك، ثمّة أبواب مغلقة لن يسبّب لي فتحُها غير الألم، ولعلّني ذات يوم، فيما بعد...

قرّر أن يحترم رغبتها.

واصلت قائلة:

– ولماذا قلت إنّ الريّ مقبلة على أمور خطيرة؟

– أظنّنا على أبواب ثورة، وستكون لهذه الثورة ميزة محزنة، أنّها ستواجه بين أمٍّ وولدها، بين الوصيّة على العرش والأمير وليّ العهد.

– وهل يعقل أن يسفك الواحد دمه بنفسه؟

– أنت بعيدة حقًّا عن مستنقعات السياسة يا ياسمينة، ولا علم لك بشيء عن تعطّش أمرائنا وطموحهم إلى الجاه والسلطان، إنّ العدل بالنسبة إلى هؤلاء ومهما كانت الضفّة التي يقفون عليها ليس سوى وسيلة في خدمة مصلحة الأقوى.

افترّت شفتا ياسمينة عن بسمة دافئة.

– إذا كان في أرض فارس كلّها رجلٌ واحد يكره أمور السياسة فلا شكّ أنّه بجانبي الآن، ولكن ألا يكون حكمك هذا قاسيًا بعض الشيء؟ أليس من الضروريّ للشعوب أن يكون لها حكّام وللقطيع أن يكون له راعٍ؟

– شريطة أن يكون راعيًا حريصًا على مصلحة شياهه، ولكنّي أعتقد أنّ أغلب الرعاة لا همّ لهم للأسف غير استخدام الشياه لصالحهم، وما يحزنني أكثر أن الشعوب تشكو من إعاقتين :فقدان الذاكرة وعمى البصر والبصيرة. وذاك ما يمنحهم تلك القدرة العجيبة على أن يمجّدوا اليوم من كانوا يكرهون بالأمس، وأن يكرهوا في الغد من يعظّمون شأنه اليوم.

– وأنت؟ علام عزمت؟

– ليس لي غير الانتظار، أنا على إحدى كفّتي الميزان، وأرجو أن ترجح الكفّة التي أقف عليها.

– كفّة الملكة؟

– بل كفّة الأمير.

– وماذا تتوقّع؟

– قد أدهشك إذا قلت لك إنّي أتوقّع الشرّ لكلا الكفّتين.

جحظت ياسمينة بعينيها وأحسّت بالشتاء يقتحم عليها جسمها كلّه.
– لذلك قلت إنّه لا ينبغي لك أن تحبّ؟
ضمّها إليه.
– لم يقترب منّي أحد إلاّ قاسمني ما أتعرّض إليه من أخطار، فإذا بحياته تسير على حدّ السيف مثل حياتي، فهل من حقّي أن أعرّض حياتهم للخطر بهذا الشكل؟ هل من حقّنا أن نخاطر بحياة من نحبّ؟
لم تجبه فورًا، إلاّ أنّه أحسّ بشيء ينكسر داخلها.
– هل ترينني على خطأ؟
هزّت رأسها.
– لا أدري يا ابن سينا، كلّ ما أعلمه أنّي عشت في الماضي على حدّ هذا السيف الذي تتحدّث عنه، ولم أعرف على الرغم من ذلك غير العذاب والذلّ، لذلك اعذرني إذا تألمت حين أفكّر أنّي قد أُحْرَمُ اليوم من المشي لأوّل مرّة على حدّ هذا السيف، مقابل ثمن يستحقّ التضحية :قليل من السعادة.
لم تكد تفرغ من حديثها حتّى رجعت إليه تلك النبوءة التي أفضى بها إليه ذاك الموسيقيّ الأعمى، فداهمت ذاكرتَه مثل مدّ البحر وهو يهجم على الساحل الرمليّ:
"لقد أحببت لكنّك لم تعرف الحبّ البعد، ستراه قريبًا، سيكون له بشرة بلاد الروم وعينا أرضك، وستسعدان طويلاً، سيحتفظ بك لأنّك ستكون وجدته، إنّه ليس بعيدًا، إنّه نائم في مكان ما بين تركستان والجبال".

*

في الأسابيع التالية شاهدت أبراج المراقبة الكثير من الرُسُل يتعاقبون من الجبال إلى الديلم ومن الديلم إلى تركستان.
وكما توقّع القاضي أثناء الاجتماع الذي انعقد بحصن تباراك، أحسّت الملكة بالمؤامرة تُدَبَّرُ ضدّها بليل فلم تتردّد في الاستغاثة بالأمير الكرديّ هلال بن بدر، فأسرع هذا الأخير إلى الوقوف بجيوشه على أبواب الريّ

لكنّه وصل متأخّرًا بيومين. كانت المدينة والقصر قد وقعا بين أيدي الثوّار يقودهم عصمان. ولم تنج الملكة إلاّ بفضل إخلاص حرسها الخاصّ، ويقال إنّها هاربة الآن في مكان ما في جبال البُرْز.

كان الموقع حصينًا فلم يجد الأمير الكرديّ بُدًّا من محاصرة المدينة، ولاح بذلك أنّ كفّة الميزان كانت في طريقها إلى الرجحان لفائدة وليّ العهد.

انقضى الشتاء وحلّ الربيع دون أن يتغيّر من الأمر شيء. بدأ السكّان يشعرون بأثر الحصار وعمّ القلق والتوتّر المدينة. ولم تحلّ أواسط شهر ذي القعدة إلاّ ومجد الدولة معزول مبلبل الأفكار وقد أعيته الحيلة. وقد فاتح الشيخَ في ذلك ذات صباح فحاول الشيخ أن يهدّئ من روعه.

– ألا تفهم؟ لقد انهكت قوانا واستنزفت المدينة ولا أظنّنا نصمد طويلاً بعد الآن.

– أنا لا أعرف شيئًا من أمور الحرب يا مولاي، ولكن ألا ترى أنّ على الجيش أن يحاول القيام بخرجة مباغتة يفرّق بها صفوف العدوّ؟

– بحّ صوتي وأنا أكرّر ذلك على مسمعي الوزير والقائد عصمان، ولكن لا حياة لمن تنادي، حتّى لَيُخَيّلُ إليّ أنّي أخاطب حجرين.

– لعلّهما يأملان في أن يكون الأكراد أوّل من يتعب، فالحصار على أيّ حال لا يمكن ان يدوم ألف عام.

كان مجد يذرع الغرفة جيئة وذهابًا فريسة لاضطراب عظيم.

– كلاّ أيّها الشيخ الرئيس، لا شكّ أنّ هناك شيئًا آخر، ولو لم أكن على بيّنة من خطّتهما لقلتُ إنّهما ينتظران نجدة.

– نجدة؟ وممّن؟ نحن نعلم جيّدًا أن لا حاكم كرمان ولا أمير الرحاب ولا خليفة بغداد مستعدّون للتدخّل في هذه القضيّة.

شبك مجد الدولة يديه وقال بغيظ شديد وقد انقبض وجهه بشكل مرعب:

– آه لو كنت أملك القدرة على استطلاع الغيب.

لا يملك الانسان تلك القدرة للأسف، حتّى وإن كان أميرًا أبًا عن جدّ.
ولو امتلك الأمير تلك القدرة لما صدّق بالأمر، ذلك أنّه لن يتصوّر ولا يمكن
لأحد أن يتصوّر أنّ النجدة التي فكّر مجدٌ مصيبًا في أن الوزير أبا القاسم
ينتظرها، كانت في الحقيقة على بعد ثلاثة أيّام من الريّ، وأنّها تحمل اسم
مسعود، مسعود ابن محمود الغزنويّ ملك غزنة.

الهوامش:

١– لاشكّ أنّ السيّدة استعملت هذه الصيغة للتلميح إلى علاقة ابن سينا باليهوديّة،
فهي صيغة تُستعمل في الكثير من أسماء اليهود. علمًا بأنّ هذه العلاقة غير ثابتة
تاريخيًا، إلاّ أنّ الرواية جعلت منها عنصرًا دراميًا ضروريًا لتبرير الأحداث. (المعرب)

٢– السجّادة تُفرش للصلاة، وعبارة سارق السجّادة تعني :المنافق. (المترجم)

٣– على ارتفاع ٥٦٧٠ مترًا عن سطح البحر. (المترجم)

المقامة السادسة عشرة

– لعنة لله عليك يا ابن القاسم. ليته يلقي بك في جهنّم إلى أبد الآبدين.

هبّ الوزير واقفًا في عاصفة من الأكمام المتموّجة، وقد احتقن وجهه، فاقترب بحذر من مجد الدولة الذي كان جالسًا على عرش المملكة.

– لم يكن لي خيار آخر يا مولاي، وأنا لم أستعن بالغزنويّ إلاّ خدمة لك وللمملكة، فلولا جيشه لكنّا من الهالكين، وكنت واثقًا من ذلك.

– للأتراك! تبيع مملكة والدي للأتراك!

– أرفض هذه التهمة، أرفضها من صميم الأعماق، لقد طلبت المساعدة، المساعدة العسكريّة فحسب.

– المساعدة العسكريّة؟ وهل يساعد ملكُ غزنة أحدًا لسواد عينيه؟ صحيح أنّي لم أتخطّ السادسة عشرة من عمري، ولكنّ الله وهبني عقلاً قادرًا على التمييز.

– مولاي، أنا...

– اخرس، عسى الله أن يحوّل لسانك إلى رماد وأن يجفّف ماء عينيك.

خُيّل إلى ابن سينا الذي كان يراقب المشهد أنّ الوزير سيفقد آخر ما تبقّى من زمام أمره وسينقضّ على الأمير الشابّ، إلاّ أنّ شيئًا من ذلك لم يحصل، بل سرعان ما استنشق ابنُ القاسم عميقًا وتوجّه إلى أعيان البلاط يستحثّهم متحمّسًا:

– أصغوا إليّ جيّدًا، أعتقد أنّ الوضع لا يحتاج إلى إبانة، ثمّة جيش قادر ولا ريب على نزع الحبل الذي يطوّق أعناقنا، وهو على مسافة ليلة من مدينتنا، فيما يقف أمام السور جيش آخر سيضطرّنا إلى الاستسلام إن آجلاً أو عاجلاً، وهذا يعني عودةَ الملكة، ذلك أنّكم تعلمون الآن أنّها حيّة تُرزق وأنّ خيمتها منصوبة في قلب الجيش التركيّ. فماذا ترون؟

خيّم الصمت ثقيلاً عقِب تدخّل الوزير، وبدا أنّ أحدًا من الحضور لا

يرغب في المبادرة بالكلام، فقد خفض المستشار عينيه ونفّض كبير القضاة كُمّ قفطانه فيما تشاغل قائد الحامية بإحكام تثبيت طيلسانه على رأسه، محدًّا البصر في الفراغ، وأخيرًا كان قيّم القصر هو الذي بادر بأخذ الكلمة، فقال بصوت غلب عليه التردّد:

– أعتقد يا شرف الدولة أنّنا لا نملك خيارًا حقيقيًّا.

هتف القائد عصمان معترضًا:

– بل قل إنّنا لا نملك الخيار أصلاً، نحن في حبس، والمفتاح...

قاطعه مجد الدولة:

– والمفتاح في أيدي الأتراك، وغدًا من تراه يكون سجّاننا الجديد؟ الأكراد أم الغزنويّ؟

هتف الوزير:

– الجواب بيدك أنت يا مولاي.

– وأخي؟ ألا يمكن أن...

نطق بهذه الكلمات وقد غصّ حلقه واختلج صوته، وكأنّ الطفل الصغير صعد فجأة إلى سطح الرجل.

– أخبرني عيوننا في همذان أنّ شمس الدولة لم يقرّ على قرار إلى حدّ الساعة، لقد أمر بأن يكون على بيّنة ممّا يجري أوّلاً بأوّل، ليعلم بما تؤول إليه الأمور، لكنّه يبدو غير مستعدّ إلى التحرّك في أيّ اتّجاه.

طوّق الأمير الشابّ رأسه بيديه وظلّ ساكنًا جامدًا مخلدًا إلى زخارف العرش الصدفيّة المذهّبة.

كان أشبه ما يكون بصغير الظبية تهمّ به الصقور وهو على حافة هاوية، ليس له من خيار سوى أن يلقي بنفسه في الفراغ أو يستسلم إلى مخالبها النهمة.

أحسّ أخيرًا بأنْ لا مفرّ من اتّخاذ قرار.

– ليحرسنا الله، ولتستعدّ قواتنا للانضمام إلى جيش مسعود،

سنخوض المعركة حالما يرى أنّه الوقت المناسب.

همس الوزير:

– غداً يا مولاي، أرسل الغزنويّ يعلمني بأنّه يزمع الهجوم على الأكراد غداً مع مطلع الفجر.

– إذنْ، فلنستعدّ للغد.

ثمّ أشار بيده مؤذناً بالانصراف، فانحنى الجميع بإجلال وغادروا قاعة العرش، وكان ابن سينا يهمّ باقتفاء أثرهم حين ناداه مجد:

– أيّها الشيخ الرئيس.

– مولاي.

– غدا ستتسيل دماء كثيرة في صفوف إخواننا، لذلك أرجو أن ينزل جميع الأطبّاء إلى ساحة المعركة للتخفيف من آلام الجنود، ولترافقهم الوحدة الطبيّة المتنقّلة.

أجاب ابن سينا على الفور:

– ذاك ما فكّرتُ فيه يا شرف الدولة.

ثمّ أضاف بصوت هدّجه التأثّر:

– ليحرسنا الله من هذا الغد.

*

كانت الشمس قد شرعت في تسلّق هضاب الديلم على مهل، وكان ضباب القيظ قد حوّم على السهل مثل حزام من الزبد الأبيض، مطوّقاً أسوار الريّ التي وقف أعلاها الوزير ابن القاسم ومجد الدولة وأعيان البلاط، للإشراف على ساحة المعركة.

على اليسار انتصب الجيش الكرديّ في كثرته المرعبة وفي نظامه المحكم على طريقة "الأصول"، وهي طريقتهم التقليديّة في تقسيم الجنود إلى خمسة أخماس أو فيالق مستقلّة: القلب والميمنة والميسرة والطليعة والمؤخّرة، وكان ضوءُ الفجر الخافت ينزلق خفيّاً على فولاذ السيوف الدمشقيّة

الكامد متسلّلاً من بين عيون شبكات الدروع الزرديّة مغلّفًا رؤوس الهراوات الداكنة.

على اليمين كانت القوات التركيّة قد شرعت في الهبوط على امتداد سفوح الهضبة المسمّاة "هضبة الغربان"، وقد لاحوا أقلّ عددًا بكثير وولّوا ظهورهم إلى الشمس متقدّمين في صفوف ثلاثة: الصفّ الأوّل للمشاة، وكان غارقًا في خمار الضباب، فيما تقدّم جنوده محتمين بأتراس ودروع من الجلد الأسمر، أمّا الصفّ الثاني فقد اسودّ بظلال النبّالة والضاربين بالبِرقيل، وأمّا في الصفّ الثالث فقد تململت الخيول التي نفد صبرها وهي تكاد لا تبين بسبب التحام الغبار بأشعّة الشمس. كانت البيارق ترفرف في الوسط أرجوانيّةً وأبنوسيّة مطرّزة بخيوط الذهب تعلوها الألوية، رايات السلطان الغزنويّ، والأخرى البويهيّة ذات اللون الأزرق.

لاحظ المستشار مشيرًا بإصبعه ناحية الجيش التركيّ:

– عجبًا، كأنّي بمسعود يختار طريقة دفاعيّة على الرغم من أنّ ميزان القوى ليس في صالحنا البتّة، ثمّ أنّه وضع نبّالته في الصفّ الثاني وهذا معاكس لكلّ قواعد الحرب.

قال الوزير مجازفًا وهو يرفع يده إلى جبينه:

– لستُ قلِقًا، فلا شكّ أنّ له أسبابه.

همس مجد دون أن يحوّل عينيه عن ساحة المعركة:

– ليكن الله في عوننا.

هناك، من جهة الأكراد، ومن تحت الخمار الضبابيّ الذي ما انفكّ ينوس فوق الجيشين المتقابلين، صدحت الأبواق الكرديّة ذات الجرس الحادّ والتفت هلال بن بدر إلى قادة جيشه هاتفًا بصوتٍ عالٍ:

– أرسلوا الفرسان.

فانطلقت الخيول على الفور وقد حُمِيَتْ أجنابُها بشِراكٍ نحاسيّة، وهبطت الهضبة مثيرة دوّامة من الرمل، مدمدمة بمثل فرقعة الرعد، مندفعة

إلى الأمام لا تلوي على شيء، مغيرة على قلب الجيش التركيّ. لحْظَتَها خيّل إلى الجميع أنّ جنود مسعود داخلهم الاضطراب، غير أنّهم سرعان ما تحرّكوا مثل الرجل الواحد فتفرّقوا إلى نصفين، كما تنشقّ الموجة حين يداهمها حيزوم السفينة، متحلّقين في شكل هلال باتّجاه جناحي الجيش الكرديّ.

هتف المستشار وقد استشاط غضبًا:

– هل فقد الغزنويّ عقله؟ إنّها خدعة أكل عليها الدهر وشرب، ولن يقع الأكراد في فخّ مفضوح مثل هذا، كما أنّ جناحيهم محصّنان بشكل جيّد، وهم كثرة ونحن قِلّة.

أضاف مجد وقد امتقع وجهه بشكل مخيف:

– ثمّ إنّه يعرّي قلب جيشه بهذه الطريقة.

والحقّ أنّه ما أن تفرّق المشاة الأتراك إلى صفّين حتّى توغّل بينهما الفرسان الأكراد كما يتوغّل السيل الجارف في ثغرة، بينما تحرّك القلب خلفهم شارعًا في الهجوم.

كانت الشمس قد ارتفعت بعض الشيء في طريقها إلى ذروة السماء، دون أن تتمكّن من اختراق ضباب القيظ الذي كان يحجب هضبة الغربان، رافضًا الرحيل عن السهل.

واصل مشاةُ الغزنويّ تقدّمهم نحو ميمنة الجيش الكرديّ وميسرته، حيث كان في انتظارهم نبّالة ابن بدر جاثين على ركبة واحدة وقد توتّرت عضلاتهم وصارت وجوههم كالحجارة. وما أن أعطى القائد أوامره حتّى انطلقت السهام في اتّجاه السماء، وكانت تصفر وهي طائرة بشكل يكاد يكون عموديًا لتخترق الضباب، حيث خُيّل إلى الجميع أنّ يدًا أمسكت بها لحظة في الهواء، ثمّ إذا هي تقع على رؤوس المشاة الغزنويّين مثل وابل من المطر القاتل.

تلك هي اللحظة التي اختارها مسعود كي يقحم فرسانه في المعركة،

وكانوا على عكس أعدائهم قد تسلّحوا بالأقواس والسهام الصغيرة التي تسبّبت في شهرتهم باسم "شياطين تركستان"، وكانوا يحثّون جيادهم راشقين العدوّ في مرونة عجيبة بوابل من السهام ناشرين الموت والفوضى في صفوف الفرسان الأكراد. الآن، بدا كأنّ ركض الخيل يبعج بطن السهل مثيرًا تلافيف من الرمل ترتفع فوق وجه الأرض ثمّ سرعان ما تقع مزقًا وأشلاء. صلصلت السيوف والصفائح مشهرة في اتّجاه السماء منبعثة إلى الحياة في توهّج الشمس الحارقة، وتداخلت الأشياء حتّى لم يعد غير خليط من الألوان والأصوات، فتكمّش الكتّان وهو يحتكّ بالصوف وتناثرت طيلاسانات أطيح بها لم يأبه لها أحد وتلاحقت الأنفاس قصيرة لاهثة وتصبّب العرق ملحًا وتطاير زبد الجياد في الهواء. وسرعان ما زادت الفوضى بدخول ثلاثة أخماس الجيش الكردي إلى المعمعة، إذ كان على الميمنة والميسرة أن يتصدّيا لمحاولة الالتفاف التي عمد إليها العدوّ الغزنويّ.

غير بعيد عن ساحة المعركة وقف أبو علي على سطح إحدى الوحدات الطبيّة المتنقّلة، محاولاً استقراء ما سيؤول إليه القتال. كان دائم الحدس برائحة الموت والدم تلك، لكنّها بدت له اليوم أكثر بشاعة من كلّ حدوسه. كان ينبعث منها شيء يقبض القلب ويدفع إلى الغثيان. مسح شفتيه بظاهر كمّه دون أن ينتبه وكأنّه يحاول إزالة مذاق الغائط والقيئ ذاك. والحقّ أنّه لم يعد يعرف ما الذي يثير فيه هذا الغثيان، مشاهد الفظاعة التي تدور أمام عينيه أم فكرة كونه يقف بالرغم عنه في صفّ من اعتبرهم دائمًا أعداء فارس، الغزنويّين.

أمّا إلى حدّ الساعة فما من شيء غير الفوضى وقعقعة السلاح. كانت القوات التركيّة تبدي مقاومة مدهشة للمرتزقة المماليك، حتّى أنّها تمكّنت من دحر الهجوم الذي استهدف الجناحين وأفلحت في التقدّم على الجانبين في ما يشبه حركة الكمّاشة.

ولم يكن في وسع أحدٍ أن يتنبّأ بما ستؤول إليه المعركة، لا الوزير ولا الأعيان ولا مجد الدولة الذي كان شديد القلق، ولا أحد يعرف إن كان قلقًا بسبب الهزيمة الممكنة التي قد يمنى بها الأكراد أم بسبب الانتصار الممكن الذي قد يتحقّق لمسعود.

لحظتها حدث الأمر الذي سيكون له تقرير مصير الحرب. كان الضباب قد انقشع تمامًا كاشفًا عن سماء في صفاء الكريستال، فأمكن للأفق الذي كان متسربلاً بالغيم إلى حدّ تلك الساعة أن ينكشف جليًا للعين من جهات السهل المتعرّج الأربعة، معرّيًا في الوقت نفسه قمّة هضبة الغربان وما جاورها.

من هناك انطلقت الفيلة التركيّة العشرة، هائلةً كأنها قطعُ الجبال، مسرجةً، مزيّنةً بقلائد الجلاجل، وقد حُميت بطونها بالدروع وأُثْبِتَتْ في صدورها المهامير واستقرّ على صهوتها الرماة من الجانبين في هوادج مصنوعة من ضفائر القشّ. كانت تتحرّك بسرعة عجيبة بالنظر إلى وزنها، فيما كان صدى نَهيمها الملعلع على امتداد ساحة المعركة كفيلاً لوحده ببثّ الرعب في صفوف جيش ابن بدر. وسرعان ما استجابت الدوابّ لأوامر الفيّالة فانقضّت على الجنود الأكراد، غير عابئة بوابل السهام التي تناولتها من كلّ جانب، كانسة كلّ ما اعترض طريقها، دائسةً على الجثث، متكالبة على الأشلاء البشريّة. كانت المهامير الموثقة إلى صدورها تشتّت صفوف الفيالق الكرديّة بلا رحمة ولا شفقة، وكانت خراطيمها تلتفّ على الجنود فتهشّم عظامهم أو تختطفهم من على الأرض مطوّحة بهم في الفضاء كالحشرات الصغيرة، فيما كانت أنيابها الحادّة التي شدّت إليها شفرات حديديّة منحنية إلى الأرض، تحرث كلّ من يحاول الوقوف في وجهها.

لم يكن من دفاع ممكن ضدّ هذه الدوابّ غير أن تُبعجَ بطونها من تحت أو أن تقطع عراقيبها، لكنّ الرعب كان قد تفشّى في صفوف الأكراد حتّى لم يعد أحد يسمع إلى أوامر ابن بدر. وقد تجمّع عدد من الرُماة محاولين

في حركة أخيرة ويائسة أن يفقأوا أعين الفيلة، لكنّ الأوان كان قد فات، وكانت الشمس في مواجهتهم تمنعهم من إحكام التسديد، وصارت الفيلة أقرب ممّا ينبغي، بل إنّها باتت تداهمهم.

أشاح ابن سينا بوجهه وقد هاله مشهد الدمار الدائر أمامه، وأحسّ بالدموع تطفر إلى عينيه.

كان النصر قد اختار معسكره.

وكان مسعود حقًّا الابن اللائق بأبيه ملك غزنة.

خيّم الغروب بضوئه الداكن على السهل وعلى جثث الجنود المتناثرة بين جثث الجياد. كان أبو عليّ على وشك الفراغ من تضميد الجريح الأخير الذي جيء به إليه. أفلح في إيقاف النزيف بواسطة مكواة محمّاة وانهمك في دهنه بمرهم من التربة الصلصاليّة، ثمّ فرغ من ذلك ففحص الجرح من جديد ليتأكّد من أنّه غُطّيَ بإحكام، ولفّه بقطعة من القماش. كانت العربة المستخدمة كمستوصف متنقّل تعبق برائحة لا تُطاق تعلَقُ بالثياب والأشياء فلا تفارقها.

على مسافة منه كانت ياسمينة تحاول أن تسقي أحد الجرحى شيئًا من خلاصة المليا لتسكين آلامه. تطوّعت العشرات من نساء المدينة لمساعدة الأطبّاء والممرّضين طيلة الظهيرة، وكانت النيّة طيّبة إلاّ أنّ النتيجة لم تكن ذات بال، فقد كان إنقاذ عُشْرِ المُصابين فحسب محتاجًا إلى ما يشبه المعجزات. فرغ أبو عليّ من تضميد الجرح فتناول إبريقًا كانت فيه فضلةٌ من شراب فأخذ جرعة كبيرة. كان يحسّ بأنّه باتَ أجوف، وقد أنهكته هذه الساعات الطوال التي أمضاها في تقديم علاج كان يعرف أنّه غير كاف. ساعات طوال قضّاها وهو يسقي المسكّنات أو يقطّب أو يطهّر جراحًا حفرها حديد السيوف أو ذؤابات السهام.

رفع الستارة المبرقشة التي كانت تقوم مقام الباب على مدخل العربة ونزل الدرجات الثلاث المفضية إلى الخارج وأسند ظهره إلى إحدى

العجلات. وسرعان ما لفح هواءُ المساء البارد وجهَه المتفصّد عرقًا فأحسّ بشيء من الانتعاش. سرّح بصره على امتداد ساحة المعركة حيث تناثرت الجثث مفكّرًا في عبثيّة كلّ هذا. إلى متى يقوم مصير البشر على أسس من سوء التفاهم والشقاق والكبرياء وغياب التسامح؟ هناك بعيدًا في السماء التي اقتحمها الليل لاحت الزهرة، نجمة المساء، متلألئة في الشمال ببريقها الداكن غير بعيد عن زُحل، أحد كوكبي الشقاء الكبيرين.

كان يهمّ بالعودة إلى العربة حين ارتفع عن يساره صوت أنين. ظنّ في البداية أنّه لا يعدو أن يكون صدى الصرخات التي أصمّت أذنيه طيلة هذا اليوم العصيب، لكنّه سرعان ما أيقن أنّه حيال جريح يتألّم. تقدّم في اتّجاه الصوت وهو يحدّ البصر في العتمة فاكتشف طيفًا طريح الأرض منكمشًا على نفسه، فجثا بالقرب منه و أداره على ظهره بحذر. كان شابًا في حوالي العشرين من عمره، وكانت ساقه في حالة يُرثى لها، وقد شوّهت على طول عظمها الأكبر، وفغر الجرح بحيث ظهر بياض العظم وانبعثت منه رائحة مُغْثِية، فلم يشكّ الطبيب لحظةً في أنّ الغنغرينة كانت قد شرّشت في العظم. وفجأة انتبه إلى أمر غريب: لم يكن هذا الجنديّ من رجّالة الغزنويّ ولا كان من خيّالة الأكراد، كما أنّه لم يكن من رجال مجد الدولة، إلاّ أنّه كان جنديًّا على أيّ حال، فمن أين جاء؟ وإلى أيّ جيش ينتمي؟

لم يضع مزيدًا من الوقت، بل حمله بين يديه وأخذه إلى العربة هاتفًا بصوت عالٍ:

– إليَّ بمخدّر على الفور.

ناولته ياسمينة فورًا إناء الخشخاش الذي كانت سقت منه أحد الجرحى قبل لحظات.

مدّد أبو عليّ الجريح على حصير ومزّق بحركة جافّة القماش الذي كان يلفّ ساقه المصابة.

اقترب منه أحد مساعديه وفحص الساق بدوره فلم يحتج إلى وقت طويل

كي يطرح السؤال نفسه.

– من أين جاء؟ لم أر هذا الزيّ من قبل.

– أنا مندهش مثلك، فعلى حدّ علمي لم يقتتل اليوم إلاّ جيشان، إنّه أمر غريب.

أثار حوار الطبيبين فضول العاملين بالمستوصف فحفّوا بالجنديّ المجهول في هيئة نصف دائرة.

أعلن أحد الأطبّاء هازّا كتفيه:

– على أيّ حال، هو هالكٌ لامحالة، وما هي إلاّ ساعات ويموت، غزنويًّا كان أم كرديًّا.

انتفض أبو عليّ فجأة وقد تغيّرت سحنته فاقترب من زميله وشدّه من ياقة ثوبه، وأخذ يهزّه هزًّا:

– لا تقل هذا أبدًا، أتسمعني؟ لا تعد إلى مثل هذا القول أمامي، أنت طبيب ولست متخلّيًا عن الخدمة، وواجبك أن تحافظ على الحياة لا أن تتنبّأ بالموت.

أخذَ الرجلُ على غِرّة بتوبيخ ابن سينا العنيف فتلجلج بكلمات غير مفهومة، ونكس رأسه، فيما أشاحت النسوة الحاضرات بوجوههنّ محرجات. وحدها ياسمينة أقبلت فجثت حذو المُصاب وسألت بلطف:

– هل تريد أن أسقيه؟

أشار ابن سينا أنْ نعم، ورفع رأس الجنديّ قليلاً، ففتح هذا الأخير عينيه لأوّل مرّة وتطلّع إلى الطبيب:

– ما الذي حدث؟ أين أنا؟

– أنت جريح، عثرت عليك في الميدان، ولكن لا تخف، ستكون بخير إن شاء الله.

شرب جرعات من الخشخاش وهمّ بالاستلقاء على ظهره من جديد، لكنّ الشيخ منعه من ذلك.

– كلاّ، يجب أن تشرب كلّ ما في الإناء إذا أردت أن تشعر بألم أقلّ.

أدنت ياسمينة الكوب من شفتيه وأجبرته على تجرّع السائل كلّه، وحين فرغ من ذلك ساعده أبو عليّ على إراحة رأسه إلى الحصير وظلّ ينتظر.

شيئًا فشيئًا زاغت عينا الجريح وارتخت ملامحه.

– وحدي؟ هل كنت وحدي؟ ألم تعثر على شخص آخر بجانبي؟

– لم أعثر على غيرك، ولكن قل لي، إلى أيّ جيش تنتمي؟

بدأ المخدّر يفعل فعله وبدا الفتى وكأنّه لم يعد ملك نفسه.

لذلك كان جوابه الوحيد:

– همذان...همذان...

انتفض الشيخ أو كاد:

– هل تعني أنّك جئت من همذان؟

انقلبت عينا الجنديّ وقد تفشّى في جسمه المخدّر أكثر فأكثر، وظلّ يردّد اسم مدينته وكأنّه لازمةُ أغنية.

فهتف أحد الأطبّاء:

– هل يُعقل؟ هل يكون من جيش شمس الدولة أخي أميرنا نفسه؟

أجابته إحدى الممرّضات:

– ولِمَ لا، على أيّ حال، همذان لا يفصلها عن الريّ غير حوالي العشرة فراسخ.

– هذا يعني أنّه أحد الجواسيس.

قال أبو عليّ معترضًا:

– بل قل إنّه أحد الكشّافة.

– إذَنْ...

– إذَنْ فليحرسنا الله، فلا شكّ عندي أنّ شمس الدولة لم يعجبه تدخّل الغزنويّ في أمور المملكة.

– فهل قرّر مساعدة أخيه؟

– الله أعلم بمقاصده الحقيقيّة، ولا أرى تفسيرًا آخر لوجود هذا الرجل، ومن المنطقيّ في نظري أن نتوقّع ظهور الابن البكر للسيّدة منذ فجر الغد.

– وهل يُقهر مسعود وعنده هذه الفيِلة؟

لاحظ أبو عليّ:

– إنّها كلّ ما تبقّى لديه، ولا أظنّه قادرًا على خوض معركة أخرى في مثل هذا الوقت القصير.

خيّم الوجوم على الجميع وأخذوا ينظرون إلى الجريح كأنّهم غير مصدّقين.

التفت أبو عليّ فجأة ناحية ياسمينة:

– دعنا من هذا الآن فأمامنا حياة يتوجّب علينا إنقاذها، سأحتاج إلى كميّة أكبر من الخشخاش، أريده أكثر كثافة، أضيفي إليه شيئًا من البنج وذوّبي الكلّ في خمر ساخن.

ثمّ أهاب بأحد الأطبّاء:

– اختر لنا أفضل الشفرات، تلك التي لها حدّ صقيل مسنون، وأيضًا أفضل المكاوي، واستعدّ لإحكام وثاق الساقين والذراعين بالحبال كي لا يتحرّك الجريح.

همس زميله وقد بدت عليه علامات الحرج:

– المعذرة أيّها الشيخ الرئيس، ولكن، على ماذا عزمت؟

– على البتر، فلا أرى حلاً غيره إذا أردنا المحافظة على حياته.

– ولكنّ البتر...

قاطعه ابن سينا:

– أعرف ذلك، إنّها عمليّة غير مأمونة العواقب، ولكنّنا في هذه الحالة بالذات لا نملك خيارًا آخر، هيّا اذهب الآن.

ثمّ قال متوجّهًا إلى سائر من بالمستوصف:

– أريد مصابيح، اجمعوا كلّ المصابيح، حتّى تلك التي على ذمّة الوحدات الأخرى، سأحتاج إلى كلّ أضواء الديلم.

نام الجنديّ وانتظمت أنفاسه وصارت أعمق. بالقرب منه جثت ياسمينة تنشّف العرق المتصبّب من جبينه وجفونه ووجنتيه. كانت أطرافه الأربعة قد أوثقت بإحكام وأمسك بها أربعة أطبّاء. بدا في وضعه ذاك شبيها بالمصلوب وقد أحاط به دخان الأفيون وشدّت أوصاله إلى الجهات الأربع وأكبّت عليه أشباح صفراء فاقعة.

جسّ أبو عليّ النبض في المعصم وأعلى العنق، وما أن تأكّد من انتظامه حتّى بدأ بلفّ مضغطة متينة على وسط الفخذ لتعطيل تدفّق الدم، ثمّ أمسك بالموسى التي أحضرها زميله وامتحن شفرتها على راحة يده ليتثبّت من خلوّ الفولاذ من أيّ ثُلْم، ثمّ أخذ جلدة الفخذ بقوّة بواسطة يده الطليقة وشرع في تقطيع اللحم فوق المفصل البكَريّ بقليل على مسافة كبيرة من الجرح. انبثق الدم من أوّل الأوعية المنفجرة في شكل خييطات سميكة سرعان ما لطّخت أصابع ابن سينا وراحتي يديه وصوف سُترته. كانت الموسى تغوص في اللحم متوغّلة أكثر فأكثر عابثة بمجاري الدم مفسدة بشكل لا رجعة فيه ما انتسج من شبكات العروق والأوتار.

سأل أحدهم:

– العفو أيّها الشيخ الرئيس، ولكن لماذا اخترت البَضْعَ على هذه المسافة من الجرح؟

أجابه أبو عليّ دون أن يرفع رأسه:

– الأفضل أن لا نبْضع على حافة الغنغرينة، بل على مسافة كافية منها، حيث نضمن أنّ المرض لم يصل بعد.

كان قد بلغ أوّل العضلات الفخذيّة، فاتّخذ من قصبة الساق الصغرى نقطة ارتكاز ليختطّ له فوق الركبة مسلكًا مُعامدًا في شكل هلال، حافرًا، موغلاً في الوسط أعمق فأعمق، إلى أن أحسّ باعتراض ولاح له بياض

العظم الذي اصطكّ بحافة الموسى وكأنّه عكّازة عاجيّة ممدودة في قاع مضيق.

هتف الشيخ وهو يعهد بالموسى إلى ياسمينة:

– أين المنشار؟

كان الدم يتدفّق في جداول كثيفة على طول الحصير، وكان أحدهم قد أحرق شيئًا من البخور للتخفيف من الرائحة الكريهة التي عجّت بها العربة، وكانت القراطات ترتعش من حولهم في القناديل الزيتيّة.

كانت أنفاس الجريح ذات لهاث مسموع، وفجأة تعثّر المنشار على العظم فسُمع له صوت أحرش غلب على صوت اللهاث، فأوشكت إحدى النسوة الحاضرات على الإغماء، ممّا اضطرّها إلى مغادرة العربة، وكادت تلتحق بها ياسمينة وقد صارت سحنتها في لون الطباشير، لولا رغبتها الشديدة في عدم الضعف أمام أبي عليّ.

طال بهم الانتظار في ذلك الجوّ الخانق إلى أن نهض ابن سينا أخيرًا، فألقى جانبًا بالقصبة التي فرغ من فصلها عن عظم الفخذ، ومسح يديه الملوّثتين على طول قفطانه، وأعلن بنبرة محايدة:

– الآن لابدّ من إيقاف النزف، إليّ بمكواة، ولتكن الأكثر عرضًا.

خفّت إحدى النسوة إلى مجمرة ملتهبة وأخرجت من بين الجمر المحمرّ صفيحة بيضاويّة الشكل من المعدن المذهّب في طرفها مقبض خشبيّ. تناولها أبو عليّ ووضعها مباشرة على أطراف الفخذ التي كان يتقاطر منها الدم، فانكمشت العروق فورًا بفعل الحرارة وكأنّها قرطاس.

ندّ عن الجريح ما يشبه الشخير الأجشّ وتشنّج كامل جسمه، فأمر أبو عليّ:

– أريد جرعة أخرى من الخشخاش.

تثبّت من أنّ النزيف قد توقّف، وجسّ من جديد نبض الرجل، مراقبًا حسب تعاليم أبوقراط إن كانت مسالك الدم في الجبين وعلى الأجفان خالية

من الانتفاخ والتصلّب. ويبدو أنّه رضي على فحصه فقد طلب من أحد زملائه أن يضع على الجدعة مرهما من شحم الماعز المذاب المخلوط بثمرة العُنّاب وبقشر شجرة الرمّان المدقوق، قبل أن يلفّ الجرح بقماشة من الصوف. ثمّ ألقى على الجريح نظرة أخيرة وغادر العربة.

ما أن صار إلى الخارج حتّى خفّ إلى إحدى العجلات فأسلم إليها ظهره منهكًا، ملقيًا رأسه إلى الخلف، وقد خلا فجأة من أيّ تفكير. التحقت به ياسمينة بعد لحظات فانزلقت إلى جانبه دون ضجّة، وبعد فترة صمت سألته بصوت متوتّر:

– أراك قلقًا...

لم يجبها على الفور، إلاّ أنّ كلّ شيء كان واضحًا بالنسبة إليه. إذا لم يخطئ التحليل، وإذا كان شمس الدولة عازمًا على إعادة الأمور إلى نصابها في مملكة الريّ، فلا شكّ أنّه سيعيد الملكة إلى عرشها، وفي هذه الحالة، فإنّه هو أبو عليّ، هالك لامحالة.

أمسك بحفنة من الرمل الناعم في قبضة يده وتركها تنساب من بين أصابعه المنفرجة، ثمّ أعلن فجأة:

– عليّ أن أرحل.

هزّت المرأة رأسها وتركته يواصل حديثه.

– لا أرى لي حلاً آخر، فلو أعاد شمسُ التاجَ إلى السيّدة لما قرّ لها قرار حتّى تنتقم من كلّ من ساند ولدها وتدفّعهم الثمن، وأنا في هذه الحالة محكوم عليّ مسبّقًا.

– وإلى أين ترحل؟

– لا أدري، أغلب الظنّ أنّي سأتّجه جنوبًا.

– وهل يرافقك الجوزجاني؟

– أظنّ ذلك، إلاّ أنّي سأترك له حريّة الاختيار.

مرّ وقت، ثمّ سألت:

- و...أنا؟

أمسك أبو عليّ بحفنة أخرى من الرمل.

- أنتِ يا ياسمينة؟ آه لو كنت أملك الجواب، لكم أشعر بالتيه والحيرة، عمري أربعة وثلاثون عاماً وألف سنة ولا أذكر أنّي عشت يوماً إلاّ منفيًّا أو مطاردًا، وأعرف أنّ هذا هو مصيري الدائم والمحتوم، ولعلّني أتحمّل كلّ المسؤوليّة في ذلك، أو لعلّه كان بسبب افتقاري للشجاعة الكافية، ومهما بدوت لك صفيقًا فإنّي سأذكر لك كلمات حكيم عزيز على قلبي، هو بن غورنو: "على من خلقني أن يحطّمني، لأنّ عمله ناقص."

- نقيصتك الوحيدة يا ابن سينا هي خوفك من الحبّ.

لم يتمالك عن الابتسام.

- حسنًا، إذَنْ قولي لي ما هو الحبّ؟

- بذل النفس، التضحية، العفو.

تمعّن شارد الذهن في ذرّات الرمل تنساب من بين أصابعه وقال دون أن يتخلّى عن ابتسامته:

- اعذريني يا ياسمينة ولكنّي أعتقد أنّك على خطأ، أو أنّك تعيشين في عالم الأحلام. سأقول لك ما هو الحبّ.

التفت إليها فكادت توقن بأنّ عينيه تنفذان إلى أعماق روحها.

- حين نقول إنّنا نحبّ فماذا نعني بذلك؟ لاشيء سوى أنّنا ببساطة نمتلك. والدليل على ذلك أنّنا ما أن نفقد المحبوب حتّى نحسّ بالضياع والفراغ من كلّ شيء. والحقّ إنّنا حين نقول إنّنا نحبّ فإنّنا لا نفعل غير إعطاء الشرعيّة لفعل التملّك.

- حتّى حين نغفر لمن أوجعونا وخانونا؟

- أجل، فماذا نفعل حينئذ؟ نغضب، نكظم الغيظ ونذكره، ثمّ يفضي بنا الأمر إلى النطق بتلك العبارة المقدّسة: "عفوت عنك"، فماذا يعني كلّ ذلك؟ لا شيء، لا شيء سوى أنّ الواحد منّا يظلّ دائمًا وأبدًا الشخصيّة المركزيّة

في عين نفسه، "أنا" هو الأهمّ، مادمت "أنا" هو الذي يعفو. لعلّك على حقّ يا ياسمينة، أنا أخاف الحبّ فعلاً، إنّه لا يقوم إلاّ على تجاذب الأجساد بعضها إلى بعض، وعلى فكرة التملّك، وعلى الغيرة والريبة والخوف. وكم يرعبني الخوف يا ياسمينة، إنّه أشبه شيء بالموت. صحيح أنّنا نظنّ أنّنا نحبّ، والحقيقة أنّ كلاً منّا لا يحبّ إلاّ نفسه، وكما قلت لك منذ لحظة، أراني كائنًا ناقصًا، فهل يمكن أن نحبّ ما هو ناقص؟

رفعت ياسمينة يديها إلى السماء في حركة استسلام.

– لا أفهم في البلاغة أيّها الشيخ الرئيس، فأنا من عباد الله البسطاء، وقد حدّثتك حديث القلب، فإذا بك تحدّثني عن حساب الجبر وغيره ممّا لا قِبَلَ لي به، فليكن لك ما تريد، ولترحل بدوني إلى الجنوب ما دامت تلك رغبتك.

المقامة السابعة عشرة

«أدركَنا الفجرُ منذ ساعة، وكانت الصحراء قد استقبلتنا حالمَا اجتزنا أبواب المدينة، ولم يعدُ من شيء تحت حوافر الخيل ذات الوقع الرتيب غير الحجارة والرمال وظلال السماء الرماديّة المتمطّية إلى ما لا نهاية على امتداد السهل العقيم. اصطحبنا معنا دابتّين لحمل الأثقال، وقد وضعنا على رحل الأولى محمْلاً خشبياً أثبتنا عليه صندوقاً كبيراً من الجلد ضممنا فيه مؤلّفات معلّمي وكتبه النفيسة، أمّا الدابّة الثانية فقد حملّتُها عددا من الحزمات أحكمتُ وثاقها بحبال من القنّب، وكان فيها ثيابنا وشيءٌ من الأفيون لمقاومة التعب وذخيرة من الماء والزاد.

ذلك أنّ الطريق طويلة إلى مازندران، بلد الفؤوس، وقد أُطلِق عليها هذا الاسم بسبب الغابات الكثيفة التي تعمر الناحية. وهي إقليم يحدّه شمالاً بحر الخزر وجنوباً سلسلة جبال البُرزْ. ويُحكَى أنّها تدين بازدهارها إلى عليّ أمير المؤمنين الذي نفّض فيها سماطه ذات يوم بعد أن فرغ من تناول الطعام. والعرب يعرفونها باسم طبرستان، لكنّ مواليدها يسمّونها أيضاً "باب الميزان"، وقد زيّنتْ لي نفسي الاعتقاد بأنّ ما خاض فيه الشيخ أخيراً من أمور القضاء والقدر لم يكن غريباً عن اختياره هذه الوجهة. على أيّ حال، وإذا كانت تلك مشيئة الله، فما هي إلاّ خمسة أيّام وندخل قزوين، فقد رأى ابن سينا لاعتبارات أمنيّة أنّ هذه المدينة أفضل لنا من آمُل، الأكبر والأكثر ازدهاراً، ولكن علينا قبل ذلك أن نعبر الشريط الصحراويّ الضيّق الذي يفصل بيننا وبين البُرزْ قبل أن نتسلّق الجبل ومن ثمّ ننحدر في اتّجاه الوديان.

خرجت ياسمينة في صحبتنا، فقد تراجع الشيخ في اللحظة الأخيرة عن قراره بعدم اصطحابها معنا دون أن يحدث ما يشي بذلك، وأعترف أنّي أدهشت للأمر، ولعلّ الفتاة لم تكن أقلّ منّي دهشة إلاّ أنّها لم تفصح عن

شيء من ذلك.

لماذا تراجع الشيخ؟ وما الذي تسبّب في تبدّل رأيه بهذه الطريقة؟ لقد رسخ في ذهني أنّه لن يقبل أبدًا بإضافة عبء نسويّ إلى حياة التيه والترحال التي اختارها لنفسه، لكنّه كذّب ظنوني، وقد ثبت لي من ذلك أنّ لسلطان القلب مقاصد لا يعلمها غيره. ولا بدّ لي في هذا الشأن من إثبات حادثة قد تبدو بسيطة عارضة إلاّ أنّها ستكون شديدة الخطورة في ما بعد وذات عواقب لم تخطر على البال. وصورة ذلك أنّنا ما أن اجتزنا أبواب الريّ حتّى بادرت الفتاة التي كانت سافرة الوجه حتّى ذلك الوقت إلى التخفّي بلثام لم يكن يترك بيّنًا من ملامحها غير العينين، وكان معلّمي أوّل من تفطّن إلى ذلك فسألها:

– هل تخافين عيون الصحراء؟ عهدت النساء يتخفّين عن العيون الدنسة في المدن لا في الخلاء.

لكنّها لم تقدّم أيّ تفسير لموقفها عدا هذه الإجابة الغامضة:

– ألا يقولون إنّ الوجه مرآة الروح؟ وطالما أنّي أصبحت ملْكًا لك وحدك فلن يكون لغيرك الحقّ في أن يطّلع على حقيقتي.

ارتفعت الشمس فوق رؤوسنا وارتفعت لها حرارة الرمال، وعمّا قريب يشتدّ الحرّ إلى درجة لا تُحتمل، وما من شجرة أو حماية من أيّ نوع قبل بلوغ الجبل.

مع انتصاف النهار وصلنا المفترق الذي تنطلق منه الطريق إلى خاصرة البُرُزْ، وقد لاح في طرفه ديماوند دمافند، سقف فارس، خاتمة مرحلتنا الأولى.

الآن بدأ المسلك يصعد بنا سفوح الجبل الصخريّة، وكنّا نرتفع شيئًا فشيئًا، فيما بدأ المشهد يغور ناحية الغرب. بلغ إلى مسامعنا هدير سيْل. عمّا قريب سيكون علينا أن نعبر أوّل جسر وأن نجتاز المضيق الذي كان يتلوّى مثل الثعبان بعيدًا فوق رؤوسنا. كنّا نتسلّق الجبل متقاطرين

الواحد وراء الآخر. أصبح الهواء في شفافيّة كريستاليّة بعبق العنبر، أكثر فأكثر نقاء، فيما أخذ يلوح من تحتنا ناحية الشرق وبشكل يكاد لا يبين، مشهد رائع يكاد لا يُصدّق.

لم أتمالك عن الاحساس بشيء من التقدير أمام شجاعة ياسمينة. كانت منهكة القوى ولكنّها لم تكن تفصح عن أيّ شكوى. وقد اقترحت على الشيخ أن نخلد إلى قليل من الراحة فرفض رفضاً باتًّا مفضّلا التريّث، ولا شكّ أنّه كان خائفًا من أن يكون مازال على مقربة أكثر من اللازم من السيّدة شيرين ومخاطر الريّ.

عبرنا الممرّ الجبليّ الضيّق ولاح في طرفه الديماوند.

تغيّر المشهد دفعة واحدة. لاحت القرية من بعيد جاثمة تحت أقدامنا بجامعها الأزرق وأشجارها وحورها ومن حول ذلك كلّه عالمٌ مضطرب وغامض من الصخور والتلال والرؤوس الجبليّة الحادّة. كانت شبكة رائعة الجمال من الأشكال الممزّقة والألوان المتدرّجة، من الرخام السماقيّ ذي الأسمر الضارب إلى الحمرة، إلى نثار الكبريت ذي الألوان الزاهية.

توقّفنا أخيراً بالقرب من أحد الأنهار العديدة التي تقطع الجبل، وكان أحد الشلاّلات يفرغ فيه دواره ذا الفوران العجيب. فاغتسلنا في الماء البارد ثمّ هجعنا إلى ظلال الأشجار فتناولنا بعض الطعام: شيئًا من التمر وقليلاً من الرزّ وشاياً بسكّر.

كان في وسعنا أن نرى بوضوح من موقعنا ذاك شارع القرية الرئيسيّ ومسلكين فرعيّين يكتنفان بيوتاً ضاربة إلى الحمرة وسهم المئذنة الوحيدة المغطّاة بالآجر والخزف الأزرق والماثلة في اتّجاه السماء.

تقول الخرافات أنّ العبور من مرحلة البداوة إلى المرحلة التي قرّر فيها الرجل الفارسيّ الاستقرار وبناء أوّل مدينة قد تمّ هنا، في الديماوند.

لم نلبث إلاّ ساعة ثمّ استأنفنا الرحلة من جديد. كانت بيلاور وجهتنا هذه المرّة، فهناك سنبيت ليلتنا.

وها نحن نتقاطر من جديد الواحد خلف الآخر على طول الممرّ الجبليّ وعلى ارتفاع يناهز ستّة آلاف ذراع.[1] من هنا كنّا نطلّ على فارس كلّها تقريباً: الوهاد ذات المجاري الخضراء الداكنة والأشجار المتلاصقة على طول ضفاف أنهار مازنداران وحدود الصحراء، والقمم الشاهقة ذات التعرّجات الغريبة التي تبدو كما لو أنّها تجمّدت هكذا، على غرّة، قبل الفراغ من إنجازها.

الظلال التي تسبق عادةً الليلَ أخذت تتسلّق المرتفعات. إلاّ أنّ المشهد في الأسفل كان يبدو رافضاً الاستسلام متصدّياً لغزو العتمة الذي لا يُقاوم مصراً بعناد على إرسال ومضات صهباء في اتّجاه السماء.

إلاّ أنّ ستارة الليل لم تلبث أن انسدلت على المشهد كلّه بتلك السرعة الخاصّة بهذه النواحي التي لا تعرف شفق الغروب.

عرضتُ على الشيخ أن نستريح مرّة أخرى فردّ عليّ بأنّ الخيل تبصر في العتمة أفضل منّا، والحال أنّنا كنّا نتقدّم في مسلك وعر ذي انحدار شديد ويتعرّج بخطورة بين الصخور، وكان الليل من الحلكة بحيث كدنا لا نتبيّن رؤوس مطايانا، بل أجزم بأنّي انتبهت إلى رعشة الخوف تهزّ جنبي حصاني أكثر من مرّة.

– أخشى أن تُدقّ رؤوسنا أيّها الشيخ الرئيس.

لكنّ الشيخ لم يسمعني، أو هكذا بدا لي، ولم يكن في وسعي في تلك العتمة إلاّ أن أحزره هناك، أمامي، وقد انحنى قليلاً على حصانه وأرخى له العنان مسلما له أمره.

ترى، ما الذي أيقظ في ذاكرتي لحظتَها تحديداً، سلسلةً من الصور المتناثرة لا يجمع بينها منطق؟ لحظات سكْرِ مُعلّمي وتخبّطه في دخان الأفيون، وذاك المشهد الدنس في ماخور الريّ حيث مارس الرذيلة مع تلك الصقلبيّة. ليلتَها ذهب بي الظنّ إلى أنّ الخوف الذي كان يعتصر جوفي هو الذي أملى عليّ تلك الصور. إلاّ أنّي بتّ موقناً اليوم من أنّه قد مرّت على ابن

سينا لحظات في حياته بحث فيها قاصداً عن تدمير ذاته، وكأنّه كان يغازل الموت نفسها.

كانت الليلة شديدة البرودة. وقد فضلّنا لمزيد من الحيطة أن نجتاز قرية بيلاور وبيوتها المبنيّة من الطين المجفّف، لننام على بعد فرسخ، فوق ذروة ضيّقة، تشبه في ضيقها حدّ السيف.

جلست ياسمينة قرب النار. إلى جانبها كان الشيخ يسحب أنفاساً من الأفيون، مملياً عليّ في الوقت نفسه أحد فصول الكتاب الثالث من القانون، ذاك المخصّص لعلم الأمراض الخاصّة المدروسة عضواً عضواً. كانت قدرة معلّمي على تعبئة طاقته الإبداعيّة حسب رغبته مصدراً دائماً لإعجابي وحيرتي الكبيرتين. هاهو منفيّ مرّة أخرى، في طريقه إلى المجهول، معدم أو يكاد في هذا الجبل حيث يخترق البرد العظم، ومع ذلك يجد القوّة اللازمة لإخلاء ذهنه من أيّ شاغل والانكباب على هدف واحد: إتمام كتاب القانون.

مرّ الوقت ونملت أصابعي وكان لا بدّ من صوت ياسمينة كي نضع حدّاً لحصّتنا التأليفيّة، ولو تأخّرت قليلاً لعضّ البرد على سلاميّاتي فتهشّمت مثل قصبات الزجاج.

– انظروا، إنّه شهاب.

انقطع ابن سينا عن الإملاء وأحدّ بصره في السماء إلى حيث أشارت صاحبته، فأضافت هذه مستوضحة:

– قل لي أيّها الشيخ الرئيس وأنت ذو العلم الذي لا حدّ له، هل تعرف تفسير هذه الظاهرة؟

ابتسم أبو عليّ محركاً رأسه يمنة ويسرة.

– أعترف أنّي اهتممت بالأمر لبعض الوقت، دون أن يمنّ الله عليّ بالجواب، ولكن لعلّ لديك أنت يا ياسمينة ما ينير العتمة ويوضّح الملتبس؟

حدجته المرأة بنظرة طفل راض عن نفسه.

– يسعدني أن أكتشف أخيراً أيّها الشيخ أنّ هناك أموراً لا علم لك بها،

إذن سأشرح لك مسألة الشهاب.

سمحتُ لنفسي بالتدخّل:

– سمعت دائماً أنّ كلّ شهاب يعبر السماء هو روح بشرٍ تنطفئ.

اعترضت ياسمينة على رأيي، فأمرني الشيخ بجمع الأوراق التي كنّا بصدد تدبيجها وأنصت إلى الفتاة بانتباه.

– ها أنا مصغٍ إليك.

– إذنْ فاسمع، حين يضرب إبليس أحد كعبيه بالآخر يتطاير من احتكاكهما شرر هو في الحقيقة شياطين صغار، سرعان ما يركب أحدها على كتفي الآخر للتجسّس على ما يحدث في السماء السابعة، فإذا حدث ذلك أمر الله ملائكته بأن يرموا الشياطين بسهم يشتّت صفوفها، وذاك السهم هو ما نسمّيه نحن شهاباً.

أشرق وجه معلّمي بابتسامة متسامحة.

– من أين لك بهذه النظريّة يا ياسمينة؟ من رواها لك؟

– لا أحد، وهل تستخفّ بي إلى درجة أنّك تراني عاجزة عن الإتيان بمثل هذه الفكرة؟

استدار ابن سينا نحوي على الفور.

– هل سمعت يا أبا عبيد؟ هل دوّنتَ ما قالته؟

أجبته بالنفي، فنهرني بصرامة:

– إذن فقد أخطأت يا أبا عبيد، لأنّها نظريّة في غاية الأهميّة، وغداً يرويها أحدهم ويتلقّفها آخر ولاشكّ أنّ الألسن ستظلّ تتناقلها بعد ألف عام، فهكذا تنشأ الخرافات.

هتفت الفتاة مستاءة مستنكرة:

– خرافات؟ ولكنّها ليست من الخرافات في شيء.

فأسرع الشيخ يطيّب خاطرها:

– هكذا سيذهب إلى تأويلها الآخرون، أمّا نحن فسنكون الوحيدين الذين

يعرفون أنّها ليست خرافة، بل نظريّة علميّة كاملة.

– أنت تسخر منّي أيّها الشيخ الرئيس.

مال على شفتيها، فبادلته قبلته بلهفة، فيما كنت أبتعد عنهما بهدوء.

أدركنا الفجر وقد استأنفنا المسير، وكنّا نعبر ممراً شديد الانحدار تناثرت فيه الحجارة التي كانت تتدحرج تحت حوافر الخيل.

كنّا قد شرعنا في الهبوط نحو وادي اللار. علي يسارنا آخر هضاب الديماوند الذي غادرناه منذ ساعة، أما على يميننا فقد بدا النهر أو كما يسمّى هنا: "الدرب الذي يسير"، فيما لاحت عن بعد بعض القمم المذبّبة.

كنّا في أواخر شوّال، ومع ذلك فمازالت بعض المساحات الثلجيّة تجلّل قمّة البركان العجوز، وكانت بعض السحب الخفيفة تحوّم حول مخروطه، فيما تصاعدت من جنبات الجبل تلافيف من الدخان في شكل حلزونيّ. كنّا في تلك اللحظة نسير بمحاذاة هاوية بعمق مئات الأذرع، في نهايتها ما يشبه العنق الضيّق، يجري في قاعه التشيليك، النهر الذي سيكون لنا بمثابة الدليل.

كانت المياه الصاخبة في الأسفل تلمع هنا وهناك حيثما اخترق وميضُ الشمس الوليدة الفضّيُّ ظلالَ الهاوية.

أحنت الجيادُ مطيعةً أعناقها على الأرض تبحث عن موقع آمن لحوافرها في هذا المسلك ذي الخطورة الفائقة، وكان علينا أن نترك لها الحريّة المطلقة مرخين لها العنان. وكثيراً ما كنّا نضطرّ إلى الترجّل عند بعض المنحدرات الخطرة لنَدْفعَ مطايانا من خلف ضاربين على أردافها، مجبرينها على التقدّم، ثمّ على الانزلاق، وقد انفرجت قوائمها في ركامٍ من الحجارة المتهاوية إلى أن تبلغ أرضاً أكثر صلابة.

لم أعد أذكر كم من دعوة خفق بها قلبي وكم من آية تلجلج بها لساني. كلّ ما أذكره الآن أنّي استنفدت كلّ ما أملك من جهد وخارت قواي فأسلمت أمرنا إلى الرحمان.

كان المسلك يضيق في بعض المواقع ويكتنفه الجبل من فوق ومن تحت، حتّى لكأنّه نفق يكاد لا يصله الضوء، وقد جرّبت في تلك المواقع ألواناً أخرى من الرعب، ولولا هدير المياه المتلاطمة عند أقدامنا لسمُعت عالياً صرخات الفزع التي ارتجّ لها قلبي وهو يكاد يخرج من صدري.

ظللنا نتابع طيلة الصبيحة المسلكَ نفسه المشرف على الوادي. كان المشهد المائل تدريجياً إلى الخضرة ينبئ عن غابات بلد الفؤوس القادمة. ومع تقدّمنا في السير كان الفضاء يتّسع ويصبح أكثر شساعة والأفق يمتدّ ويصبح أكثر ابتعاداً.

استأنفنا مغامرتنا بعد وقفة قصيرة، اغتنم فيها الشيخ وياسمينة الفرصة كي يستحمّا في ثياب آدم وحوّاء. كان الهواء لزجاً وكان قربنا من أراضي مازندران المنخفضة يسبغ على الجوّ رطوبة تستنفد آخر قوانا، إلاّ أنّنا ظللنا نتقدّم في السير على الرغم من ذلك.

بعبورنا التشيليك كنّا نغادر نهائياً الغابات لندخل في أرضٍ مستنقعيّة شاسعة، تمتدّ في شريط طويل إلى ما يناهز الخمس عشرة فرسخاً. لم يكن هناك من شيء سوى الأقنية والجداول والتربة السوداء حيث تقوم مزارع القطن والرزّ والتبغ. في هذه الفترة من السنة كانت الشمس تسبغ لونها الذهبيّ على المكان المسطّح الذي ينتشر فيه قصبٌ هائل ينوسُ بلطف تحت مداعبات نسيم يكاد لا يبين. كنّا نتقدّم مثل السكارى وقد بلغ منّا الإرهاق كلّ مبلغ وأزكمت أنوفنا الروائح المنبعثة من كلّ ناحية، فخفّفنا من سير مطايانا ونحن نكاد لا نعي بذلك. ألقيت نظرة خاطفة من على كتفي إلى معلّمي فخامرني الأمل بأنّه سيأذن أخيراً بالتوقّف للراحة. كانت ياسمينة منكفئة على عنق جوادها في هيئة الناعس وقد شحب وجهها وجفّت سحنتها، أمّا الشيخ فلم يكن أحسن حالاً منها، وقد دبغ وجههُ لفْحُ الهواء وأحرقه وهجُ الشمس وتلبّدت لحيته والتصقت بوجنتيه فكأنّها قناع من الطين رماديّ اللون.

كنّا على مشارف آمُلْ، في قلب بلد الفؤوس، حين نفد صبري أخيراً وخارت قواي فتوسلّت إلى ابن سينا كي يأذن بالتوقّف. كانت السماء قد اصطبغت باللونين الخبّازيّ والبنفسجيّ، ولم يبق إلاّ القليل ويدهم الشفق أخاديد مزارع الرزّ. أخيراً لم يجد الشيخ بدّاً من الاستجابة لتوسّلاتي، فتنفّست الصعداء، وكنت قد أبصرت على مسافة نصف فرسخ تقريباً أطلال كوخ صغير أقيم على مصطبة ترابيّة، فاقترحت أن نلجأ إليه لقضاء ليلتنا الثانية، وليتني لم أفعل، بل ليتني أغلقت شفتيّ يومها وختمتهما بالشمع، فهل سيغفر لي الله برحمته الواسعة ضعفي ذاك؟

ذلك أنّه ما أن انقضت ساعة، وكان الليل قد أطبق على المكان، حتّى هجم علينا العيّارون...»

لعلّ صوت طبطبة الأقدام في حقول الرزّ المجاورة هو ما أيقظ أبا عليّ من نومه. والحقّ أنّه لم يكن نائماً تماماً، وكيف يستطيع النوم من كان فريسة للسعات البعوض والرطوبة الخانقة والألم الممضّ المتفشّي في أطرافه المنهكة؟ ظنّ في البداية أنّ الأصوات التي سمعها لم تكن سوى طقطقة آخر الجمرات الملتهبة في النار التي أوقدناها قبل قليل. لكنّه ما أن نهض حتّى لمح حوالي العشرين شبحاً يحاصرونه من كلّ جانب، مخيفين، مسلّحين بالسيوف والخناجر.

تعرّف عليهم فور رؤيته إلى حالتهم الرثّة. كانوا لا يخلون من صلابة وعزم في جلد أحذيتهم المُصفّح وسراويلهم الفضفاضة والأسمال التي يستخدمونها كمعاطف وآلاف الرقع التي تغطّي عمائمهم. كانوا فعلاً عيّارين. أولئك الفرسان الذين طفقوا يبثّون الرعب منذ سنوات من أقصى بلاد الفرس حتّى أبواب بغداد. والحقّ أنّهم كانوا أكثر من قطّاع طرق، فقد صار العيّارون أشبه بالجمعيّة الحقيقيّة التي تتحرّك وفقاً لقوانين محدّدة، هي قوانين" الفتوّة"، ونعني بالفتوّة روح الفروسيّة.

كانوا يشكّلون تنظيماً غامضاً محفوفاً بالأسرار يحتكم إلى قانون

صارم ويقوده زعيم مهاب (لم يكن أحيانًا سوى الخليفة نفسه.) ومن ميزات هذا التنظيم أنّه لا يخضع لأيّ اعتبارات حرَفيّة أو طائفيّة أو قبَليّة. وكان قبول التنظيم لأتباع جدد يتمّ باحتفال مهيب، في نهايته يُمنح الأعضاء الجدد" سراويل الفتوّة"، ويُسقَوْنَ كأس الأخوّة. وكان كلّ ذلك يدور في نظام محكم من الاجتماعات الدوريّة ذات الطقوس الثابتة. كان العيّارون أصحاب أخلاق خاصّة، قائمة على سلب الأغنياء. وقد استطاعوا بفضل تلك الأخلاق أن ينسجوا شيئًا فشيئًا ومن مدينة إلى أخرى شبكة من علاقات التضامن الفريد من نوعه. ولم يكن من النادر أن يُرى قادتُهم – الذين كانوا أحيانًا قادة مدنٍ بأكملها – وهم يتحاورون مع السلطات الرسميّة حوار الندّ للندّ.

تحرّك أحدهم وكانت تبدو عليه ملامح الزعامة فاقترب من ابن سينا.

تفحّصه أبو عليّ فحصل له انطباع أوّل بأنّه أمام صقرٍ بوجه بشريّ. كانت عينا العيّار مدوّرتين سوداوين كالفحم وفي صلابة الصخر، وكانت ملامحه حادّة الزوايا مع أنف معقوف متهالك على شفة عليا غليظة. وكان يبدو أنّه تجاوز الخمسين من عمره بقليل.

– من أنتم؟ ومن أين أنتم قادمون؟

أجابه أبو عليّ:

– نحن تجّار في طريقنا إلى قزوين.

أشار قائد العيّارين بأصبعه إلى الفتاة.

– وهذه؟

– إنّها زوجتي.

ربت الصابر، وكان ذلك هو اسمه، على مقبض خنجره الدمشقيّ وقد بدا عليه الانشغال.

– تجّار؟ وماذا تبيعون؟

ندّت عن أبي عليّ حركة تردّد خفيّة.

- نحن باعة كُتُب.

جحظت عينا العيّار الصقريّتان ولم يلبث هو ورفاقه أن انفجروا ضاحكين.

- ها هي لحيتي[٢]، إنّها أوّل مرّة أسمع فيها بمثل هذه الحرفة.

أسرع أبو عليّ بالإجابة:

- ومع ذلك فهي مهنة معروفة.

لم يبد على القائد أنّه صدّق بالأمر، فقد اتّجه بخطوات سريعة ناحية صندوق المخطوطات الجلديّ مشهرًا خنجره بعزم.

هتف الشيخ وهو يخفّ مسرعًا نحو الرجل:

- مهلاً أرجوك، لو أنّك مزّقت جلد هذا الصندوق لما عاد صالحًا لشيء ولتلفت محتوياته، دعني أساعدك.

وأسرع يحلّ عُقَد الحبال بنفسه كاشفًا لعيني العيّار اللتين سرعان ما سكنتهما الخيبة عن عدد هائل من الكتب المختلفة والمخطوطات غير المجلّدة.

أمسك الصابر بأقرب كتابٍ إليه وقلّبه بين يديه برهة ثمّ ألقى به إلى الأرض.

- لا أفهم شيئًا من هذا.

ثمّ استدار إلى رفاقه آمرًا:

- فتّشوا كلّ الأمتعة، فتّشوا في كلّ شيء، فإذا كان هؤلاء باعة كتب فأنا آكل سحليّات.

في لمح البصر كانت الحزَمُ قد أُفرغت من محتوياتها وقُلِب الصندوق الذي كان يحتوي على أعمال الشيخ رأسًا على عقب ومُزّقت رِحالُ الخيل بالخناجر. لم يتركوا شيئًا للصدفة. إلاّ أنّ هذا التفتيش الهمجيّ لم يكن له من نتيجة سوى أنّه زاد العيّار سخطًا على سخطه.

قال ابن سينا محتجًا:

- ها أنت ترى أنّنا لا نملك ذهبًا ولا جواهر نادرة، فدعنا نمض في سبيلنا بسلام.

- لا سبيل إلى ذلك، منذ الخامسة عشرة من عمري وأنا أذرع الطرقات على طول الصحراء وعرضها، حتّى صرت قادرًا على التمييز بين صيّاد العصافير والسقّاء، بين بائع الأفيون ونسّاج الخيام، وأنت، أستطيع أن أؤكّد لك أنّك لا تملك من صفات التجّار شيئًا، فما اسمك ومن أيّ مدينة أنت؟

- اسمي عبد الكتاب، وأنا من أصيلي بلخ، تمامًا مثل شريكي هذا.

أشار العيّار بأصبعه إلى ياسمينة.

- وزوجتك، هل هي أيضًا من بلخ؟

- بل هي من الريّ.

اقترب الرجل من الفتاة وقال مشيرًا إلى يديها وقدميها:

- غريب أن تكون لابنة الريّ هذه البشرة الروميّة.

ردّ ابن سينا وهو يحاول جاهدًا أن يخفي اضطرابه.

- لقد عرفتُ تركيّات بلون الأبنوس وخراسانيّات تغلب على لونهنّ الصفرة، ولا غرابة في الأمر فتلك مصادفات الطبيعة.

- إذَنْ، فلتُسفر عن وجهها.

تراجعت الفتاة إلى الوراء حاميةً وجهها بيديها، وهتف أبو عليّ معترضًا، وهو يقف بينها وبين الصابر:

- حَرام! هل نسيت كلام الله تعالى؟

- «وإنّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ».

تلك كانت إجابة العيّار الوحيدة وهو ينتزع لثام ياسمينة.

الهوامش:

١- غير بعيد عن ٢٠٠٠ متر. (المترجم)

٢- تعبير شرقي متداول في تلك ابأيام، يعني: إظهار الاحتقار والاستخفاف. (المترجم)

المقامة الثامنة عشرة

أطبقوا عليهم بسرعة واقتادوهم إلى خيمة بعد أن أحكموا تكتيف أيديهم وأرجلهم. انشغل بال أبي عليّ على صاحبته ولم يتنفّس الصعداء إلاّ حين رآهم يلقون بها إلى جانب الجوزجانيّ. كانت سافرة الوجه.

– حقّا إنّ لهؤلاء الأشخاص فهما غريبًا لروح الأخوّة والكرم.

هتف أبو عبيد:

– بل إنّهم ليسو سوى قاطعي طرق.

سألت ياسمينة وقد ساورتها الظنون:

– ماذا تراهم صانعين بنا؟

– ومن أدراني؟ كلّ ما أتمنّاه أن لا يكونوا على صلة ببلاط الديلم.

– لا تقل لي إنّهم سيحتفظون بنا مساجين إلى الأبد.

– لا أظنّ ذلك، إلاّ إذا...

أيقنت فورًا أنّها المعنيّة بتلك الجملة التي تركها الشيخ معلّقة عن قصد.

– تعني أنّهم قد يفكّرون بخصوصي في أمر آخر؟

كان يهمّ بالإجابة حين انفرج خصاص الخيمة عن أحد أعوان الصابر. اقتحم المكان ودون أن ينبس بكلمة أشهر خنجره ففكّ وثاق الطبيب.

– اتبعني، القائد يرغب في رؤيتك.

ما هي إلاّ لحظة حتّى أُدخل على الصابر في خيمته.

كان زعيم العيّارين متربّعًا على طنفس من الحرير تحيط به هالة من الدخان الأبيض وفي يده قليان أفيون، بينما تناثرت حوله مخطوطات ابن سينا.

في ناحية أخرى من الخيمة وعلى بساط ناعم اضطجعت امرأة نحيفة القوام سافرة الوجه ذات عينين كبيرتين تظلّلهما رموش طويلة أسدلت عن قصد ظاهر، حتّى أنّها بدت غير منتبهة إلى وصول الطبيب. كان بالقرب

منها موقد مملوء بفحم متأجّج.

بحركة غير مكترثة دعا الصابر أبا عليّ إلى الجلوس وأخذ يتفحّصه رافعًا القليان إلى شفتيه في الوقت نفسه، ثمّ ألقى برأسه إلى الخلف واستسلم إلى متعته في صمت.

بعد لحظة ناوله القليان قائلاً:

– خذ، إنّه من أفضل الأنواع، أتمنّى أن يعجبك.

شكره أبو عليّ وسحب بدوره نفسين طويلين.

– هو حقًّا كما ذكرتَ فله مذاق حقول أصفهان الذي لا يضاهى.

أشار العيّار إلى المرأة.

– إنّها زوجتي وأحبّ نسائي إليّ، أليست رائعة الجمال؟

رفعت المرأة ذقنها في حركة ازدراء، فعلّق القائد بنبرة حزينة:

– ولكنّها متقلّبة وجموحٌ مثل الريح.

ثمّ كنس الهواء في حركة امتعاض وتناول أحد المخطوطات فقرأ بصوت محايد:

– رسالة في ماهيّة الصلاة.

نظر في المخطوط متوقّفًا عند الصفحة الأخيرة، وشرع يقرأ:

– في أقلّ من ساعة وعلى الرغم من شواغل كثيرة فرغتُ من تأليف هذه الرسالة بعون الله وبفضل منه، لذلك فإنّي أطلب من كلّ قارئ أسبغ عليه الله تعالى نعمة العقل والفطنة أن لا يكشف سرّي حتّى وإن لم يكن لي عليه من سلطان. إلى الله وحده أكل قضيّتي فالله وحده يعلم بما لا يعلمه من أمري سواي. الإمضاء: أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا.[1]

ظلّ الصابر صامتًا للحظات ثمّ سأل:

– هل تعرف هذا المؤلّف؟

أجابه أبو عليّ رابط الجأش:

– أعرفه كما أعرف نفسي، إنّه فيلسوف، أو لنقل إنّه هكذا يرى إلى

نفسه.

لم ينتظر العيّار أن يكمل أبو عليّ إجابته بل تناول كتابًا آخر.

– الكتاب الأوّل من القانون في الطبّ.

توقّف مرّة أخرى عند الصفحة الأخيرة، فقرأ:

– فليكن هذا القدر من كلامنا في الأصول الكليّة لصناعة الطبّ كافياً، ولنأخذ في تصنيف كتابنا في الأدوية المفردة إن شاء الله تعالى. تمّ الكتاب الأوّل من كتب القانون وهو الكليّات وصلّى الله على سيّدنا محمّد النبيّ وآله. الإمضاء: أبو عليّ الحسين بن عبد الله بن سينا.

– فيلسوف وطبيب أيضًا...

– نحمد الله على أنّ لنا في فارس رجالاً بهذه القيمة.

هزّ الصابر رأسه شارد الذهن وتناول كتابًا ثالثًا.

– رسالة في الموسيقى... لصاحبها العبد الفقير إلى ربّه تعالى كثير الذنوب أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا، غفر الله له وأحاطه في ما بقي من حياته بأسباب الراحة والفلاح...

ما أن بلغ هذا الحدّ من القراءة حتّى كان شيء من التوتّر قد غلب على ملامح العيّار. قال بنبرة لا تخلو من سخرية:

– فيلسوف وطبيب وعالم بالموسيقى كذلك.

ظلّ أبو عليّ ملازمًا الصمت، فأضاف الصابر ساحبًا نفسًا من قليانه:

– الحقّ أنّي أستغرب كثيرًا أن يقتصر تاجر كتبٍ على بيع أعمال مؤلّفٍ واحد.

– أظنّ أنّك لو تفحّصت جيّدًا ما في الصندوق الجلديّ لعثرت على أعمالٍ أخرى لبطليموس و...

– كفّ عن هذا، فمقابل كلّ كتاب لبطليموس هناك عشرة كتب لابن سينا، ولن تقنعني بأنّ في وسع تاجر أن يكسب عيشه بعرض هذا الاختيار الضيّق من البضاعة، كلاّ، ثمّة شيء آخر.

– ما قصدك؟

– لا شيء سوى أنّ هذا الأمر يدعّم شكوكي.

ثمّ قال مقطّعًا الكلمات وقد تسمّرت عيناه المدوّرتان في أبي عليّ:

– أنت لست بتاجر، واسمك ليس عبد الكتاب.

– فلتقترح عليّ اسمًا آخر.

سحب العيّار نفَسًا طويلاً قبل أن يقول:

– اسمك أبو عليّ الحسين بن عبد الله بن سينا، ألستُ على حقّ؟

– ولنفترض أنّك كنت على حقّ، فما أهمّية ذلك؟

– للأمر أهميّة كبرى عندي، فأنا لا أقبل بأن أخطئ، لقد اعتدت أن أعتمد في كلّ ما أقوم به على حدسٍ وفراسة لا يُضاهيان، وسيعكّر مزاجي ويدخل عليّ الاضطراب لو أنّ أحدهم أثبت لي أنّي يمكن أن أخطئ في تخميني، هيّا، أجبني.

مدّ ابن سينا يده نحو القليان.

– وماذا تعرف عن الرجل الذي تعزو إليّ هويّته؟

هزّ الصابر كتفيه.

– لا شيء، لا شيء سوى أنّه كما يبدو لي من خلال هذه المخطوطات رجل ذو عقل قلّ نظيره.

– هل أنت صادق؟ أهذا كلّ ما تعرف عنه؟

بدا على العيّار الاستياء الشديد.

– اسمع يا هذا، وكائنًا من كنت، أمنعك من أن تضع كلامي موضع ريبة، أنا أسرق حيانًا ولكنّي لا أكذب، والآن أجبني.

نفث ابن سينا سحابة رقيقة من الدخان.

– إذن فلتطمئنّ على فراستك يا أخي، إنّها حقًّا لا تُضاهى.

بدت على العيّار علامات الارتياح.

– آه، أفضل هذا الكلام، وحتّى أثبت لك ارتياحي أدعوك إلى شيء من

بطّيخ فرغانة.

اتّجه إلى سلّة غلال كانت موضوعة على صندوق خشبيّ مزخرف ولوّح بإحدى البطّيخات.

– انظر، شمّ هذه الرائحة الزكيّة.

ثمّ مال على امرأته وهمس بلطف:

– هل ترغبين في شيء منها يا قرّة عيني؟

ومرّت أخرى لم يخل ردّ فعل المرأة من غرابة، فقد بصقت على الأرض مشيحة بوجهها. قال الصابر وقد بدا عليه الحرج:

– هكذا هنّ جميعًا، متقلّبات مثل النياق.

أشهر خنجره وشطر البطّيخة إلى نصفين متساويين ثمّ عاد إلى مجلسه وقال ملتفتًا إلى ابن سينا:

– إذنْ فأنت طبيب، ولكن ما الذي دعاك إلى الكذب عليّ؟

– اسمع يا أخي، الكذب عيبٌ حقًّا ولكنّه أحيانًا وسيلة لكسب الوقت.

– هذا يعني أنّك كنت تحترز من أمر ما.

لم يملك ابن سينا غير التأكيد على ذلك.

اقتطع الصابر زُوعة كبيرة من البطّيخ سرعان ما أتى عليها قائلاً:

– أستنتج من ذلك أنّي قد أحقّق من ورائك مكسبًا مَا.

– كنت أظنّ أن من مبادئ الفتوّة الهجوم على الأقوياء وحدهم، والدفاع عن الثكالى والأيتام، وما كنت أحسبكم ممّن يمدّون اليد ٤، فهل كنت مخطئًا في ظنوني؟

رفع العيّار سبّابته في وجه ابن سينا.

– قد لا تكون من الأقوياء ولكنّك في خدمة أحدهم دون ريب، خادم هارب قد تكون هناك مكافأة لمن يعثر عليه، وبتسليمك لن أفعل شيئًا سوى الاستيلاء على كيس نقود أحد الأغنياء.

ندّت عن أبي عليّ حركة استسلام.

– هذا تفكير غريب، يؤسفني أن لا أملك ردًا عليه.
– ثمّة شيء آخر، المرأة التي في صحبتك، هل هي زوجتك حقًا؟
– تستطيع أن تقول ذلك.
– ومتى عرفتها؟
– عرفتها منذ أسابيع، ولكن لمَ هذه الأسئلة؟
تمدّد العيّار على البساط وقال وهو يحكّ ذؤابة ذقنه:
– لتعلْم أنّ هناك الساعةَ واحدٌ من أعواني لا يعرف طريقًا إلى النوم، فهو واثق من أنّه رآها في مكان ما في إحدى المدن، لعلّها بغداد، إلاّ أنّه للأسف لم يعد يذكر المناسبة ولا اليوم.
قطّب ابن سينا حاجبيه وقد انشغل باله فجأة.
فكّر في الحوارات التي دارت بينه وبين ياسمينة وفي كلّ تلك الأسئلة التي ظلّت بلا أجوبة.
أضاف الصابر:
– لا أعرف شيئًا عمّا عزمت عليه، ولكن دعني أذكّرك بهذا المثل الشهير: لا تضع ثقتك في ثلاثة: الملك والحصان والمرأة...
واصل ابن سينا مقاطعًا العيّار:
– الملك لأنّه جحود، والحصان لأنّه عنود، والمرأة لأنّها فَسُود... أعرف ذلك يا أخي، ولكن دعني أذكرك بدوري أنّنا نادرًا ما نعشق ملكًا، كما أنّنا لا ننام مع حصان، وفي المقابل فإنّنا نحبّ المرأة ونستمتع بها، المهمّ أن نحترس ممّا قد تسبّبه لنا من عذاب، أو على الأقلّ أن نحاول...
كان يتظاهر بالحديث في نبرة هادئة إلاّ أنّه لم يتمالك عن الاعتراف في سريرته بأنّ كلمات القائد قد أدخلت عليه اضطرابًا شديدًا.
فجأة تكلّمت زوجة الصابر بلهجة ساخرة فأخرجته من تأمّلاته.
– وماذا عن الرجال الذين لا يقدرون حتّى على إشباع نسائهم؟
صرخ العيّار وقد استشاط غضبًا:

- كفّي عن هذا وإلاّ أرسلت بك إلى خيمة الأخريات.

ثمّ أضاف مغالبًا غيظه ملتفتًا إلى ابن سينا:

- حسنًا، الآن قصّ عليّ قصّتك، أريد أن أعرف كلّ شيء.

لاحظ عليه التردّد فأسرع يوضّح بنبرة جافّة:

- لتحترس يا ابن سينا، فمزاجي الليلة غير قادر على تحمّل المداورة والمراوغات، تكلّم ولا تدع صبري ينفد، ولعلّ رجلاً في مثل ذكائك لا يخفى عليه أنّه لا يملك خيارًا آخر، فأنا قادر أيضًا على التخفيف من كرم الضيافة، هيّا، فأنا مصغٍ إليك.

لم يكن الصابر في حاجة إلى التهديد فقد أيقن ابن سينا منذ أن دخل الخيمة أنّ أيّ مقاومة بعد الآن ستكون غير مجدية. لذلك فقد أفضى له بكلّ شيء وحدّثه بالخطوط العريضة لموقفه من الملكة وما حدث له مع مجد الدولة وما كان من أمر الهجوم على الريّ وكيف تدخّل شمس الدولة في الأمر ثمّ ما كان من هربهم هو والجوزجاني وياسمينة.

ما أن فرغ من حديثه حتّى هبّ العيّار واقفًا.

- بويهيّون، سامانيّون، رجال السرايات، كلّهم على الشاكلة نفسها. إنّهم سجناء مثل الفئران في مصيدة نصبوها بأنفسهم، وأنا لا أكنّ أيّ احترام لهؤلاء الأشخاص. إنّهم عديمو الأخلاق والنبل لا شاغل لهم غير التنازع على مِزَقٍ من أرضنا يتقاتلون عليها تقاتُل الصقور على جيفة غزال. عليّ أن أفكّر في الأمر وغدًا أبلغك بما قرّ عليه رأيي في شأنك وشأن أصحابك. انصرف الآن فأنا بحاجة إلى النوم.

حيّاه أبو عليّ، وكان في طريقه إلى الخروج من الخيمة حين ألقى نظرة على المرأة، فإذا هي عابسة لا تزال.

*

انقضت عشرة أيّام.

لم يرسل قائد العيّارين في طلب ابن سينا إلاّ صبيحة اليوم الحادي

عشر، وما أن دخل الشيخ الخيمة حتّى انتبه إلى غضب الصابر وشدّة توتّره.

كان يذرع المكان جيئة وذهابًا صارخًا:

– اللعنة على النساء جميعًا، اللعنة على بذور الشيطان، قل لي، ما رأيك في خديجة؟

– ولكن...

– أريد رأيك بدون لفّ ولا دوران.

بوغت الشيخ فحاول جاهدًا أن يبحث عن كلمات مناسبة، ولم يلبث أن قال بحذر:

– طالما أنّك سمحت لي بذلك فسأقول إنّها امرأة... لطيفة.

– وماذا أيضًا؟

– وجذّابة.

– ثمّ ماذا؟

– اعذرني يا أخي ولكنّي لا أعرف شيئًا عن امرأتك، فكيف تريد منّي أن...

– أنت رجل علم، أنت عالم ومؤلّف ويُنتظر منك أن تكون قادرًا على الحكم على أبناء جنسك من نظرة واحدة.

أغرق أبو عليّ في التفكير للحظات. كان واضحًا أنّ الصابر يريد أن يسمع منه كلمات بعينها، ولكن أيّ كلمات؟ قال فجأة:

– إنّها فريدة، إنّها نسيج وحدها، بما أنّك تحبّها.

انبسطت ملامح العيّار دفعة واحدة، وتهالك على الطنفسة الحريريّة مطوّقًا وجهه بيديه قائلاً في ما يشبه الأنين:

– أي نعم أحبّها، وحبّها هو سبب عذابي كلّه.

– أفضِ إليّ بما يشغلك.

همس الرجل وكان لايزال يواري وجهه بيديه:

– إنّها تهدّد بهجراني، إنّها تحتقرني ولاحتقارها نارٌ أشدّ من نار الجذوة، قل لي، هل يمكن لأحدٍ أن يموت بسبب الحبّ؟

– يحدث ذلك أحيانًا يا أخي، ولكن هوّن عليك فهو موت يُعاد منه، والكون مزدحم بموتى الحبّ الذين بُعِثوا من جديد.

انفرجت راحتا العيّار عن وجهه وقد بدت عليه علامات يأس حقيقيّ وتطلّع متمهّلاً إلى الشيخ.

– هل يكون لمعرفتك أن تشرح ما لا يُشرح؟

– أريد منك مزيدًا من التفاصيل.

تردّد الصابر قليلاً قبل أن يقول بصوت خافت:

– خانتني فحولتي.

خيّل إلى أبي عليّ أنّه أساء السمع، فأضاف قائد العيّارين مقروحًا واضعًا يده على عضوه كمن يريد التأكيد على قوله:

– أجل، هذا الملعون لم يعد يطيعني، أصبح يتبرّم من الشغل بل ويشرد في اللحظات الحرجة شرودَ فرسِ السباق أمام الحاجز، على الرغم من أنّ امرأتي شهيّة كما لاحظتَ بنفسك، وأنا أعرف أنّ عجيزتها أجمل من كفل فرس وأنّ لنهديها نداء الكواكب وأنّ لبشرتها عبق المنغا.

سأله أبو عليّ وقد ساورته الظنون:

– ولكنّك تطأها على أيّ حال، أليس كذلك؟

– ألا يكفيني ما أشعر به من مهانة حتّى تزيد في إذلالي بهذا السؤال المهين؟ بالطبع أطأها، ولكن ماذا أصنع مع هذا الحظّ السيّء الذي أوقعني في امرأة لا تشبع؟ إنّها ذئبة شبقة لا ترتوي إلاّ لتطلب المزيد، إنّها تعتبر إلْمامي بها مجرّد مفتّحات لأطباق رئيسيّة أخرى لا قدرة لي على تقديمها، فما العمل؟ هل السبب في سنّي المتقدّمة؟ هل أنا مريض؟

ثمّ أسرع يكرّر السؤال بإلحاح:

– هل أنا مريض؟

حاول ابن سينا أن يهدّئ من روعه:

– كلاّ يا أخي، ولكن اعلم أنّ فحولة الرجل غير مستقرّة، فهي تتأثّر بعوامل المزاج والفصول والغذاء وليس في ذلك ما يثير القلق أو المخاوف، بل أؤكّد لك أنّك في صلابة الصخر.

– إذن فماذا عليّ أن أفعل لإشباع خديجة؟ أنا أحبّها ولا أريد أن أخسرها، لقد هدّدتني بالارتماء في أحضان أوّل جمّال يروق لها ولا قدرة لي على تحمّل مثل هذا الأمر، بل أقسم أنّي لو وقفتُ يومًا على خيانتها لي لألقيتُ برأسها ورأس عشيقها في إحدى مزارع الرزّ بمازندران.

– اهدأ يا أخي، اهدأ، فلعلّي أملك حلاً لهذه المسألة.

جحظت عينا الصابر فجأة، فواصل أبو عليّ قائلاً:

– أجل، إذا مالت القصبة فلا بدّ من إنهاضها، وإذا خارت ساق النبتة فلابدّ لها من دعامة.

– وماذا ترى؟

– ثمّة مادّة، مادّة تُستخرج من قشْر إحدى الأشجار إذا تعاطاها الشيخ رُدَّ إلى صباه٥، ويكفي أن تتناول شيئًا منها قبل ساعتين من لقائك بحبيبتك ليكون لك عنفوان الأسد الهصور.

كلّما تقدّم الشيخ في حديثه تغيّرت ملامح الصابر، حتّى صار له مظهر الطفل المشدوه أمام العجائب والغرائب. أخيرًا غمغم فاغر الفم:

– أقْسِم، أقْسِمْ لي باسم النبيّ الطاهر أنّ كلّ ما تقوله حقّ.

أكّد له أبو عليّ الأمر.

– فهل تستطيع أن تحضر لي هذا العقّار الليلة؟

– احمد الله على عنايته وحسن حظّك، فهذه الشجرة لا تنبت في بلادنا، إلاّ أنّ معي شيئًا من قشرها اشتريته قبل أشْهُرٍ من أحد تجّار النباتات الطبيّة.

أغمض العيّار عينيه ولزم الصمت للحظات. خمّن ابن سينا أنّ رأس

الصابر تعجّ الآن ولا شكّ بصور فتوحاته الغراميّة المقبلة.

– اسمع يا ابن سينا، هذا عهد بيني وبينك أعرضه عليك، إذا كان لشرابك السحريّ ما زعمتَ له من النجاعة أطلقتُ سبيلك وأصحابك فذهبتم أحرارًا إلى حيث عنّ لكم الذهاب، أمّا إذا كان غير ذلك...

توقّف برهة قبل أن يختم بنبرة جافّة،

– أمّا إذا كان غير ذلك فسأستمتع من الغد ببتر أعضائك التناسليّة كلّها، ورفعها على سنان رمحي. ما رأيك في هذا العهد؟

لم يملك الشيخ غير أن يزدرد ريقه بجهد جهيد.

*

كان لصوت الطبلة وقع آسر يزيد حركات الراقص اندفاعًا وهيجانًا. حوله في العراء جلس الرجال في شكل حلقة وأخذوا يشجّعونه مصفّقين بلا كلل وقد انعكست على وجوههم ألسنة النار وأشعّة النجوم.

فوق المخيّم استدار القمر وأصبح بدْرًا فيما ظلّت خيمة الصابر مسدلة الستائر.

اضطجع أبو عليّ فوق حصيره وقد لمع جسدُه عرقًا، وقضم ثغر ياسمينة بلهفة. التقت الشفاه بشوق كأنّه العنف واختلط اللعاب وتوحّد اللسانان في ما يشبه رحلة بحث عن المعرفة مشبوبة.

– ياربّ، إن كان مقدّرًا لي أنْ أُخصى غدًا فاجعل هذه الليلة ليلةَ حبّي كلّه.

بدا على ياسمينة التأثّر على الرغم من عتمة المكان فمنحته شفتيها بتوهّج أشدّ.

كانت غدائر شعرها قد انحلّت وتهدّلت على أرضيّة الخيمة فكأنّها لطخة سمراء محمرّة تشرّبت بها صفرة الحصير. فجأة أجثاها بين فخذيه ودعاها إلى فحولته. ندّت عنه شهقة حين داعب لسانها أعمق أسرار جسده فالتصق بها أكثر، ضامًا وجنتيها بفخذيه، مانحًا نفسه بما يشبه

القنوط. وشيئًا فشيئًا اقتربت به من ضفّة اللذّة فأوقفته على حافتها، ثمّ عبرتها به بعيداً، وبقوّة لم يتمالك معها عن إطلاق صرخة يقشعرّ لها البدن، تشبه النحيب.

ولم يلبث أن سحبها من كتفيها فضمّها إلى صدره وأشبعها لثماً وتقبيلاً، مستنشقًا عنبر جسدها، مرتشفًا عسل بشرتها.

– أحبّك يا حبيبة قلبي، أحبّك كما لا يحبّ أحدٌ غيرَ السعادة والحياة.

أرادت أن تجيبه لكنّها لم تستطع النطق بكلمة، فلم يكن أمامها سوى أن تضمّ نفسها إليه كاليائسة، بكلّ ما تملك من قوّة، وقد انغرست أصابعها في ظهره وتشبّثت بجسده كما لو أنّ تحتها هاوية بلا قرار.

– صدق من قال إنّ الحبّ نار في قلب الرجل لا تبقي على شيء.

– والآن يا أبا عليّ، يا حبيبي، هل صرت أقلّ خوفًا من الحبّ؟

– بل صرت أكثر خوفًا، ذلك أنّي تيقّنتُ الآن من أنّ نظرتي الأولى إليك لم تكن أوّل نظرة، وأنّ لقاءنا الأوّل لم يكن أوّل لقاء. تمامًا كما كنت واثقًا لحظةَ هممنا بالافتراق بأن لا شيء يقوى على التفريق بيننا.

ظلّ صامتًا للحظة.

في الخارج كان صوت ناي حادّ قد انضمّ إلى الطبلة.

أضاف قائلاً:

– ولكنّي أعلم كذلك أنّ هذه الأفكار قد زادتني إيمانًا بالأبديّة وبخلود الروح، وهذا يساعدني أحيانًا على نسيان خوفي. ولكن لا بأس، فلنحترق يا حبيبتي، لنحترق ما دامت هذه الليلة قد تكون آخر لياليّ.

تزحلقت راحتاه على طول صدر ياسمينة، إلى خصرها وردفيها. واصلت يمناه الرحلة ولم تتوقّف إلاّ عند النهر الدافئ النائم بين الفخذين. هناك داعبت الإصبع الوسطى التويج المرتعش النديّ فندّت عن المرأة آهة.

همس بلطف:

– جسدكِ صفحتي الذهبيّة وأنا قلمها.

استسلمت للمساته بلا تكلّف، طويلاً، إلى ما لا نهاية، حتّى شعرت بأنّه صار فيها. بدأ الامتلاكُ بطيئًا لطيفًا إلاّ أنّه سرعان ما تحوّل إلى أكثر شدّة وعنفًا. رفع ساقي الفتاة حتّى كاد يثنيهما تحت صدره بشكل يمكّنه من التوغّل فيها إلى أعمق. مرّت بخاطرها صورة خاطفة لموجة يمزّقها حيزوم سفينة ثمّ صرّت على شفتيها كي لا تصرخ. كان عناقًا من العنف بحيث لم تعد تفرّق بين الألم واللذّة. أحسّت بوهج حارق يغزو مسامّ جسدها كلّه كما لو أنّ الشمس هبطت فجأة إلى أعمق أعماقها. تدحرجت دموع السعادة على طول وجنتيها الصدفيّتين، وتاه عقلها، وبدا كما لو أنّها لم تعد تملك زمام أمرها، فأطلقت ساقيها وتشنّج جسمها مثل القوس أمام نطحة اللذّة ثمّ تهالكت على الحصير وقد خارت قواها.

كان نعيمًا بلا حدّ، تجدّد لهما مرّات ومرّات حتّى ظهور الطلائع الأولى من شفق الصباح، وقد ظلاّ يتلاشيان في ألف لمسة وألف جمرة إلى أن أيقظهما من جنونهما صوتُ الجوزجاني:

– الصابر، الصابر أرسل في طلبك.

كان الوقت فجرًا.

*

خُيّل إليه في البداية أنّه ضحيّة وهم أو هلوسة، أو أنّ الخوف من الموت جعله يرى سرابًا، أو أنّ ليلته الغراميّة الطويلة أثّرت على عقله. ومع ذلك فقد كان يراه هناك، واقفًا، بالقرب من الصابر، حقيقيًّا، بل كان يبتسم له.

غمغم وقد غصّ حلقه:

– محمود... أخي محمود... أهذا أنت حقًّا؟

اكتفى الفتى بالإيماء أن نعم، وكان لا يقلّ تأثّرًا عن الشيخ.

دنا منه أبو عليّ خطوة، وقد غلب عليه الشكّ. امتدّت يده، بشكل يكاد يكون بالرغم عنه، فداعبت وجنة أخيه الأصغر، ثمّ لم يلبث أن سحبه من كتفيه فضمّه إلى صدره.

- ولكن كيف... كيف وصلت إلى هنا؟
هزّ محمود رأسه وقد بدا عليه الإعياء.
- لم يكن الأمر سهلاً، فاقتفاء أثرك أصعب من اقتفاء ريح الشمال.
وضع الصابر يديه في خاصرتيه وظلّ يراقب المشهد في ارتياح واضح.
قال وهو يدعو الأخوين إلى الجلوس:
- أنا سعيد، سعيد جدًا بالمساهمة في التقائكما.
كان أبو عليّ متحرّقًا إلى معرفة ما تمّ أثناء الليل، إلاّ أنّه لم يجرأ على مساءلة العيّار في الأمر. فالتفت إلى أخيه:
- أخبرني، كيف حال أمّنا؟
تناول محمود قدح الشاي الذي دعاه إليه الصابر وخفض بصره دون أن يجيب على السؤال.
هتف أبو عليّ وقد امتقع وجهه فجأة:
- ستارة... أمّي... هل أصابها مكروه؟
ظلّ الفتى يتجنّب النظر في عينيه.
- أجبني يا أخي أرجوك، إنّ للصمت أحيانًا وقعًا أشدّ من وقع الحقيقة. هل حدث لأمّنا شيء؟
أخيرًا لم يجد محمود بدًّا من مصارحته بالأمر.
- رحمها الله، ستارة ماتت في أحد صباحات شوّال. كنت أهمّ بالمغادرة إلى الحقول حين انهارت أمام عينيّ، ولعلّها لم تنتبه إلى كونها تموت. لم أستطع عمل شيء.
مادت الأرض بأبي عليّ وأحسّ بغثيان، فظلّ صامتًا، ينظر في الفراغ.
عبد الله... المسيحيّ... ستارة... أحبّ الناس إليه يغادرونه الواحد بعد الآخر. قفزت إلى ذهنه مرّة أخرى عبثيّة الموت. لماذا يا إلهي؟ لماذا يُسار بنا في هذه الطريق الرجراجة التي لا تفضي إلى غير العتمة؟ لماذا نُمنح كلّ هذه اللذائذ لنُحرم منها فجأة في يوم معلوم؟ وهذا العلم الذي أفنى العمر في

جمعه وتحصيله ما فائدته لحظةَ يغمضُ عينيه للمرّة الأخيرة؟

أخرجه صوت أخيه من خواطره.

– غادرتُ بخارى بعد وفاتها بأسبوع. لم أعد قادرًا على العيش بين تلك الجدران.

– ولكن كيف عثرت على أثري؟

– لم يكن الأمر سهلاً كما قلت لك، ظننتك بكركانج مع البيروني حسب آخر رسائلك فطلبتك هناك، فأخبرني الوزير السهيليّ بأنّك رحلت إلى الديلم. أمضيت شهرًا بتركستان أشتغل بصيد السمك ثمّ اتّجهت إلى بحر الخزر، وهناك خاب ظنّي مرّة أخرى فقد علمت أنّك غادرتَ إلى وجهة مجهولة. ولكن حمدًا لله، فلا شكّ أنّه راضٍ عنّا، وإلاّ ما كان يضع في طريقي رجلاً اسمه الجوزجاني.

– إنّه والد أبي عُبيد.

– هو ذاك، وقد أعلمني حسب آخر رسائل ولده بأنّكما في بلاط الريّ، فرحلت إلى هناك وكأنّي رحلت إلى جهنّم، فقد وجدت المدينة فريسة للنار والدم، وساحة لمعارك ضارية لا يخلو منها شارع ولا منعطف، ذلك أنّ شمس الدولة أمير همذان انقضّ على الأتراك محاولا أن يستردّ منهم المدينة، وقد أوشكتُ على الهلاك أكثر من مرّة.

– وإلى من آل النصر؟

– إلى شمس الدولة.

كان الصابر هو الذي تولّى الإجابة. وقال شارحًا الأمر:

– المعلومات التي وصلتني لا تخلو من غرابة. لقد عيل صبرُ شمس الدولة وضاق ذرعًا بمطاحنات والدته وأخيه مجد، وكان أكثر ما أثار سخطه أن تؤول هذه الصراعات الداخليّة إلى تدخّل الغزنويّ ذي العواقب الوخيمة، وما أن انتصر على الأتراك حتّى قرّر أن يضع أخاه في السجن وأن يطرد السيّدة من الجبال، فتلك حسب رأيه الطريقة الوحيدة التي

يمكنه بها أن يضع حداً لما أسماه" ألاعيب الشيطان. "وحسب آخر الأخبار فهو الآن جالس على عرش الريّ، أمّا مجد فهو سجين حصن تباراك، وأمّا السيّدة فهي تائهة في بعض مسالك الجبال.

قال أبو عليّ في نبرة لا تخلو من سخرية:

– يا لها من طريقة حاسمة في إحلال النظام، ولكن من يدري، فلعلّها الطريقة الوحيدة المجدية.

أكّد العيّار:

– لا شكّ في ذلك، فأنا واثق من أنّه لو استمرّ الصراع بين الولد وأمّه لما نجا الديلم والجبال مجتمعين من الوقوع لقمة سائغة بين أنياب الغزنويّين.

استأنف محمود حديثه:

– أخبرني أحد أطبّاء الريّ ممّن كانوا يعملون تحت إشرافك بأنّك هربت في اتّجاه بلد الفؤوس فسرت على إثرك.

– ولكن كيف عثرت عليّ وأنا بين أيدي العيّارين؟

– إنّها الصدفة مرّة أخرى، فقد لمحت خياماً هذا الصباح، ولم ألبث أن قمت بما دأبت على القيام به منذ أسابيع: السؤال عنك والإلحاح في طلبك، وشاءت الصدفة أن يكون من بين الذين سألتهم أحد أعوان الصابر فقادني إليه، وذكرت له اسمك...

التفت أبو عليّ ناحية العيّار فسبقه هذا الأخير بالكلام:

– ولماذا أخفي وجودك؟ كان ذلك جائزاً بالأمس أمّا اليوم فلا.

لزم الصمت برهة قبل أن يعلن:

– أنا صاحب عهد وميثاق، وقد منحتك عهدي. أنت ومن معك أحرارٌ من اللحظة، لكم أن تذهبوا إلى حيث شئتم.

همّ الشيخ بالتعبير عن امتنانه إلاّ أنّه أحجم عن ذلك، فثمّة لحظات لا تبقى فيها للكلمات قيمة تُذكر.

كان الأخوان يهمّان بمغادرة الخيمة حين أضاف الصابر وقد انفرجت شفتاه بابتسامة عريضة:

– صاحبتك السلامة يا ابن سينا وأحاطك الله برعايته حيثما كنت، لقد رددت إليّ حبّي وكبريائي.

*

«بلغنا قزوين بعد يومين.

وهي قرية غير ذات بال تتألّف من بيوت صغيرة من الطين الجافّ قائمة وسط سهل أخضر تنتشر فيه الغابات، وكانت أرضها خصبة تخطها أنهار صغيرة نذكر من بينها حرحاز وتالار وتجان، وعلى الرغم من خصوبتها وكثرة ثمارها فقد كانت وخيمة بسبب مياهها الراكدة الآسنة، وكان أهل قزوين مثل أغلب سكّان مازندران يعيشون على صيد الأسماك واقتناص الطيور المائيّة وزراعة الرزّ ونسْج الكتّان والقنّب، إلاّ أنّ هذا المظهر الوديع كان يخفي وراءه مكاناً غير آمن آهلاً بعدد من القبائل المشاغبة المتمرّدة على كلّ نظام، التي دأبت على بثّ الفوضى غير متورّعة عن القتل والنهب كلّما سنحت لها الفرصة.

كانت ثروتنا مقتصرة على بضع مئات من الدراهم فلجأنا إلى الإقامة بخان على مسافة ميل ٦من المدينة، وشرع الشيخ من الغد في عرض خدماته الطبيّة على كلّ محتاج، بينما ظفر محمود بعملٍ مع أحد الصيّادين، وما هي إلاّ أسابيع معدودة حتّى تمكنّا من اكتراء دارٍ صغيرة على ضفّة نهر تالار.

هناك قام الشيخ الرئيس بتأليف رسالة سمّاها النيروزيّة في معاني الحروف الهجائيّة، شرح فيها ما التبس من أسرار الحروف فواتح بعض سور القرآن الكريم، وفي خلال أسبوع فرغ من وضع قانون الأزياج الفلكيّة وألّف بحثًا في السحر والطلسمات، ورسالة في الخيمياء سمّاها مرآة العجائب (النيرنجات والأعاجيب.)

في أثناء الأشهر الثلاثة التي أمضاها في قزوين أضاف الشيخ إلى مؤلّفاته ثلاثة أعمال: مخاطبة الأرواح بعد مفارقتها الأشباح و الحكومة في حجج المثبتين للماضي مبدأ زمنياً، وحكاية رمزيّة فلسفيّة أسماها قصّة سلامان وابسال.

وقد أنجز ذلك كلّه دون أن ينقطع لحظة عن إتمام الكتاب الثاني من القانون، الذي فرغ منه ونحن على الطريق الفاصلة بين نهري تالار وتجان، وهو القسم المخصّص للأدوية المفردة، وعرض فيه إلى القوانين الطبيعيّة التي يجب أن تُعرف من أمر الأدوية المستعملة في علم الطبّ ثمّ إلى معرفة قوى الأدوية الجزئيّة.

وما انفكّت قدراته الجسديّة والذهنيّة تثير عجبي، ولعلّ ما حدث الليلة أحسن مثال عن ذلك.

كانت تلك آخر ليالي ربيع الأوّل وكنّا في أوج فصل الخريف.

هبّ الهواء بارداً فتجعّد له وجه النهر ومالت الأشجار حول الدار فانعكست لها خيالات صفراء على الضفاف المشربة بلون الشفق.

اجتمعنا أنا ومحمود وياسمينة والشيخ في الغرفة الرئيسيّة وكنّا قد فرغنا لتونّا من وجبة دسمة وتربّعنا غير بعيد من الكرسيّ.

والكرسيّ لمن لا يعلم هو حفرة مربّعة الشكل بعمق ذراع تقريباً وعرض ثلاثة أذرع تُملأُ فحماً وتُضرم فيها النار ثمّ توضعُ فوقها طاولة صغيرة من الخشب لا يقلّ ارتفاعها عن ثلاثة أذرع، تُغطّى بلحاف مُضربّ تجرّ ذيوله إلى الأرض، وهكذا تتسرّب الحرارة بلطف إلى أرجاء المكان.

وللكرسيّ صلة بخرافة غريبة، مفادها أنّ من يرغب في الاستسقاء واستنزال المطر يكفيه أن ينقرّ على الطاولة بانتظام وصحبة موسيقيّ.

نظرت إلى معلّمي بطرف العين فسرّني أن أراه حسن المزاج على غير عادته، وكانت تلك أوّل مرّة يبدو فيها مرتاح البال منذ قدومنا قزوين. كان محمود قد فرغ إلى شبكة من القنّب يصلح عيونها فيما انهمك الشيخ

وياسمينة في ممارسة لعبة صغيرة تعتمد على ذاكرة الرئيس الخارقة.

وأعترف بأنّي أحسست بشيء من الغيظ ولعلّي ضقت ذرعًا بأن أرى الشيخ نابغًا في كلّ ما ذهب إليه سواء تعلّق الأمر بالجدّ أم باللهو، فرأيت أن أغتنم تلك الفرصة عسى أن أُوقعه في خطأ فخففت إلى حيث أرتّب أوراقي ورجعت بأحد المخطوطات.

– العفو إن أنا قاطعتك أيّها الشيخ الرئيس، ولكنّي لا أظنّك تخطئ في شأن هذه الكتب وقد ألِفْتَها كلّ الألفة ومازلت قريب العهد بها، فدعني أعرض عليك مهمّة أكثر صعوبة، هل لك أن تذكر لي الأرقام التي جاء بها علماء الفلك العرب كلّهم حتّى اليوم ودون إغفال أحد منهم، بخصوص المسافة الأصغر والمسافة الوسطى والمسافة الأكبر التي تفصل زحل عن مركز الأرض؟

لبث الشيخ ينظر إليّ شزرًا وعلى طرف ثغره ابتسامة مكر، ثمّ قال بعد لحظة تفكير قصيرة:

– ولمَ لا؟

ثمّ شرع يتكلّم.

وها أنا أسمح لنفسي بإيراد القائمة التي ذكرها الشيخ عن ظهر قلب دون أن يشوبه فيها خطأ واحد، وليطمئنّ القارئ المتعجّل الذي يقاسمني دون ريبٍ ضيقي بالأرقام والأعداد، فلن أذكر له من هذه القائمة غير الحسابات الأخيرة وإلاّ ضاقت الصفحة كلّها عن تمام الأمر.

قال الشيخ في جرّة واحدة:

– وفقًا لما جاء به البطّاني وبطليموس وغيرهما ممّن لحق بهما فإنّ القُطْر الظاهر لزحل هو بالنسبة إلى المسافة الوسطى ثُمن قطر الشمس، من ثمّ وباستخدام القيمة العددية للمسافة الوسطى يكون القطر الحقيقيّ لزحل مساويًا لـ ٤٧٢٤ من قطر الأرض. هذا الحجم مضروبًا في قوّة ثلاث يجعل حجم الكوكب مساويًا لـ ٧٩ مرّة حجم الأرض.

استرجع أنفاسه ثمّ واصل قائلاً:

- يلاحظ البطّاني أنّ القطر الظاهر للكوكب في أبعد نقطة من مداره، والقطر الظاهر له وهو في أقرب نقطة من مداره، هما بنسبة ١٢٥ إلى ١، أي من ٧ إلى٥، وعلى هذه القاعدة يقدّر ابتعاد زحل في نقطة الحضيض بـ ١٢٩٢٤ شعاعاً أرضياً، ويقدّر ابتعاده في نقطة الأوج بـ١٨٠٩٤ شعاعاً أرضياً، أمّا ابتعاده الأوسط فيُقدّر بـ ١٥٥٠٩ شعاعاً أرضياً. وهذا يعني أنّ المسافة الحقيقيّة بالنسبة إلى مركز الأرض هي تقريباً ١٤ مرّة أكثر من ذلك ٢٢٤٠٠٠: شعاعاً أرضياً. بعد ذلك بسنوات سيقترح الفلكيّ الفرغاني أرقاماً أخرى ١٤٤٠٥: بالنسبة إلى المسافة الصغرى و ١٧٢٥٧١٢ بالنسبة إلى الوسطى و ٢٠١١٠بالنسبة إلى الكبرى...

أقف بهذا السيل من الأرقام عند هذا الحدّ، وأرجو صادقاً متواضعاً أن لا يؤاخذني القارئ على إيرادي هذه الفقرة المستعصية على الفهم، إلاّ أنّي على ثقة

من أنّه كان لا بدّ من عرضها لتقديم بيّنة أخرى حتّى وإن كانت ساذجة على نبوغ ابن سينا وسعة عقله العجيبة.

ذلك أنّ صحبتي له تكاد تبلغ اليوم ثلاث سنوات من العمر، ومع ذلك فما أكثر ما يلمّ بي السؤال عن مصير ذكره بعد أن يغادر دنيا الفناء هذه.

ولا شكّ أنّ بعضهم سيستنتج ممّا سبق أنّ معلّمي عاش حياة خليعة وأنّه كان فاسقاً مسرفاً في تعاطي الخمر والأفيون قاصراً اهتمامه على ملذّات الجسد، ولعلّه لن يعدم من يتّهمه بالانتحال عن أبوقراط وجالينوس، أو من ينتقد أسلوبه في الكتابة فينعته بالخواء والتفاصح. أمّا وأنا أعلم ما أعلم فلا مناص من أن أقول بثقة: اقرؤوا لجالينوس ثمّ اقرؤوا لابن سينا وسترون الفرق، سترون الغموض عند ذاك والوضوح عند هذا. وليسبغ الله تعالى عليكم من عطفه كي يُتيح لكم ذات يوم أن يقع بين أيديكم كتاب القانون الذي سنفرغ منه بعون الله، وسترون ما يسوده من نظام كامل

ومنهج صارم.

وقد تجنّبت عن قصد الخوض في الجانب الفلسفيّ من أعمال الشيخ حتّى لا أثقل على من سيُتاح له قراءة كتابي هذا ذات يوم. ذلك أنّ لمعلّمي من نفاذ العقل والتوق إلى الكمال ما لا يمكن معه التوقّف عند حدود العلوم الخاصّة. وما أعلمه من جهده الفلسفيّ أنّه جهد عالِمٍ يسعى إلى جعل نظريّات اليونان تقترب ممّا يحتاجه النظر في المحسوسات من تعبير. كما أزعم أنّه جدّد في المنطق مصلحًا من أمر الإفراط في التجريد، الذي لم يكن ليسمح لدى أرسطو (على الرغم من كونه معلّمه الأثير) باحتساب ما يحدث من مستجدّات في العالم الأرضيّ، في كلّ مكان وفي كلّ لحظة.

هل كان من الصوفيّة؟ أعترف بعجزي عن الإجابة على هذا السؤال إلى حدّ كتابة هذه السطور، ولعلّ المستقبل كفيل بتقديم الإجابة الشافية، أمّا الآن – وليغفر لي الله إن كنت على خطأ – فإنّي أشعر بأنّه يحاول الوصول إلى إله فلسفيّ، أظنّه مختلفًا كلّ الاختلاف عن إله القرآن وعن إله الإنجيل. إلاّ أنّ أمامنا – هذا ما آمله على الأقلّ – طريقًا طويلة نقطعها معًا، في آخرها تشرق الحقيقة.

سمعنا طرقات على الباب، فتأهبنا لاستقبال زائر...»

فتح محمود الباب.

دخل رجلان في زيّين عسكريّين وقد اغبرّ وجهاهما وبدا عليهما الإعياء بينما لمحنا من ورائهما فارسًا ثالثًا لم يترجّل عن مطيّته.

– هل أنت الشيخ أبو عليّ بن سينا؟

التفت محمود مفزوعًا ناحية أبي عليّ فتولّى الشيخ الإجابة:

– لا نعرف أحدًا بهذا الاسم.

تقدّم الجنديّ خطوة وأخذ يتفحّص الوجوه واحدًا واحدًا، صامتًا، ثم قال آمرًا:

– أفصحوا عن هويّاتكم، هيّا.

سأل الجوزجاني وقد ساوره القلق:

– ولكن ما الأمر؟ ماذا تريدون منّا؟

كرّر الجنديّ بإصرار منفّضاً عن لحيته ما علق بها من غبار الطريق:

– من أنتم؟ هيّا.

تعلّقت ياسمينة بيد الشيخ وقد تملّكها الخوف. من يكون هؤلاء الجنود؟ هل هم مبعوثو الملكة؟ هل هم جواسيس مجد الدولة؟ أم أنّهم رجال الغزنويّ؟ كان الزيّ العسكريّ يذكّرها بشيء غامض.

تقدّم الجنديّ الثاني بدوره وكان يبدو أقلّ صبراً من رفيقه. قال كأنّه ينبح:

– لن نقضي الليلة في هذا المكان، لقد أخبرنا أهل القرية بأنّنا عاثرون هنا على المدعوّ أبي عليّ بن سينا، طبيب قزوين، فلِمَ الكذب؟

تنهّد ابن سينا في نبرة استسلام.

– معلوماتك صحيحة، لكنّ الشيخ غادرنا ظهيرة اليوم إلى آمُلْ، ولن يعود قبل عشرة أيّام.

ردّ الرجل ساخطاً:

– هل تظنّنا أغبياء؟ أما قلت منذ لحظة أنّك لا تعرف أحداً بهذا الاسم؟ إذنْ، فمتى علينا أن نصدّقك؟

تدخّل صاحبه حاسماً:

– كفى، لقد أمضينا ليلتين على صهوات الخيل ولن نضيع مزيداً من الوقت.

دار على عقبيه فوراً واتّجه ناحية الجنديّ الثالث الذي لم يترجّل عن جواده.

كان واضحاً أنّ محموداً تتنازعه رغبتان، الأولى في الانقضاض على الجنديّ الذي ظلّ وحيداً معهما في الغرفة، والثانية في المحافظة على هدوئه تأسّياً بأبي عليّ. إلاّ أنّه لم يجد الوقت للمزيد من التفكير، فسرعان ما عاد

الجنديّ وكان يسند فتى في العشرين من عمره بان جليًا للجميع أنّه مبتور الساق اليسرى.

وفي لمح البصر أيقن أبو عليّ أنّه يقف قبالة الجريح الذي كان عالجه قبل أشهر من اليوم، على إثر معركة الريّ.

سأل الجنديّ صاحبه:

– والآن، هل تعرّفت إلى من بتر لك ساقك؟

وقبل أن يجيب الفتى بكلمة بادره أبو عليّ قائلاً:

– كم يسعدني أن أراك يا أخي وقد نجوت من مخلّفات إصابتك.

– بفضلك أيّها الشيخ، وها أنت ترى أنّي لم أنس.

انفرجت شفتا الشيخ عن ابتسامة حزينة.

– لا أدري إن كان ذلك أمرًا مفرحًا.

لاحظ أحدُ الجنديّين ساخرًا:

– إذنْ فأنت لم ترحل إلى آمُلْ.

– ولكن ماذا تريدون منّي؟

أسرع الفتى موضّحًا:

– لا تخش بأسًا أيّها الشيخ، نحن مبعوثو أميرنا المحبوب شمس الدولة، لقد اشتدّ به المرض منذ عودته إلى همذان وهو يتلظّى ألمًا.

سأل الجوزجاني وقد أدهشه الخبر:

– همذان؟ ولكنّنا حسبناه سيّد الريّ متربّعًا على عرشها بعد انتصاره على الغزنويّ.

– لقد أقام بها فعلاً، إلاّ أنّه ولأسباب سياسيّة لا قبل لنا بها قد فضّل أن يعيد العرش إلى أخيه مجد الدولة وأن يأذن للسيّدة بالعودة إلى القصر.

خفض أبو عليّ رأسه وأغرق في التفكير، فيما واصل الفتى حديثه:

– لقد علم أميرنا بأمرك من مجد نفسه، إنّه يشكو هذا المرض منذ أكثر من عشر سنوات، ولم يستطيع طبيب في فارس كلّها أن يخفّف من ألمه، وقد

قيل له إنّك سيّد العلماء فأرسلنا في طلبك، إنّه في حاجة إليك.

– ومتى علينا أن نرحل؟

– فورًا.

– وصاحبَيَّ؟ وزوجتي؟

– سيظلّون بانتظارك، وما أن يشفى الأمير على يديك حتّى يمكنك العود إلى قزوين.

هزّ ابن سينا رأسه باستسلام وقال مداعبًا وجنة ياسمينة:

– هل تذكرين يا حبيبتي ما قلته لك قبل أشهر؟ إنّنا نعيش على حدّ سكّين...

الهوامش:

١– هذه الخاتمة الغريبة التي ذُيِّلت بها رسالة الشيخ ابن سينا "في ماهيّة الصلاة"، والتي تفسح المجال واسعًا لشتّى التأويلات، لا توجد إلاّ في نسختي سان بطرسبورغ (saint petersourg) ولايد (leyde) (المترجم)

٢– يمدّ اليد إلى متاع الغير، أي يمارس الاختلاس والابتزاز والجور. (المترجم)

٣– أعترف أنّي جرّبت هذه المادّة ذات ليلة بدافع الفضول، ولم تكن النتيجة باهرة، فما كان من الشيخ وهو يرى خيبة أملي إلاّ أن واجهني بهذه الكلمات الملغزة: "الحصان المطيع لا يحتاج إلى سوط." (الجوزجاني)

الأمر متعلّق في الحقيقة بمادّة شبه قلْويّة تستخرج من قشر جذع شجرة الـ– yohimba pausinys talia، المتوفّرة في الكامرون والكنغو. وهي تستخدم في إفريقيا الاستوائيّة منذ قديم الزمان كمنبّه عصبيّ يدفع النوم، وخاصّة كمثير للشهيّة الجنسيّة. ونؤكّد للقارئ المهتمّ (من باب الفضول العلميّ طبعًا)...بأمر هذه المادّة، بأنّها تباع في الصيدليّات تحت اسم الـ). yohimbine (المترجم)

٤– وحدة قيس تساوي ثلث فرسخ. (المترجم)

المقامة التاسعة عشرة

تدلّى الإستبرق من أعلى الجدران مبرزًا إشراق الجزع والرخام ذي العروق، وامتدّت طبقات من الحرير على طول قاعة الاستقبال الكبيرة التي لم تكن تقلّ حجمًا عن فناء جامع. في وسط القاعة نامت نافورة عاطلة، بينما انبسطت الأرضيّة المزخرفة بأشكال الزهور مثل مرآة أفقيّة انعكس عليها السقف من وراء غيوم من نبات الصبر، كأنّه محيط من الهوابط في هيئة رقائق من شجر الأرز.

في أحد أطراف القاعة انتصبت مصطبة مفروشة بالطنافس والوسائد المنسوجة بخيوط الذهب كانت تقوم مقام الأريكة، وعليها بُطِحَ شمس الدولة منكفئًا على وجهه عاريًا حتّى الحزام، وقد اسودّ ظهره بجيش من العلَقِ انتشر على امتداد المساحة الفاصلة بين لَوْحَي الكتفين والخاصرتين.

لمح أبو عليّ فتى في السابعة عشرة من عمره متربّعًا حذو فراش الأمير، وعلى مسافة منه امرأة متحجّبة تراقب المشهد في احتشام.

همس شمس الدولة ورأسه مطمور في الوسائد:

– اقترب أيّها الشيخ الرئيس، اقترب، ولتعذرني على استقبالك في مثل هذه الظروف، فذلك ذنب أطبّائي.

انحنى أبو عليّ بإجلال، وواصل السلطان كلامه، دائمًا مطمور الوجه:

– أنا سعيد بالعثور عليك، ولا شكّ عندي أنّك لو عجزت أنتَ أمير العلماءعن معرفة سبب عذابي فلن يبقى لي سوى أن أستسلم للموت ميتة الكلاب.

أدار رأسه بعناء وقال مشيرًا إلى الفتى:

– ولدي سماء، قرّة عيني.

ثمّ رفع بالكاد ذراعه المتدلّية من على حافة الأريكة مشيرًا ناحية المرأة:

- زوجتي سميرة.

ثمّ أضاف قائلاً:

- طبيباي شريف وعصمان، وهما آخر من استنجدت به من أعلام الطبّ، وقد درسا هذا الفنّ بالعلدوديّ ببغداد، ويشهد الله أنّهما متمكّنان من علمهما وقد وقفت على ذلك بنفسي، وإنّ في بلاطي الكثير ممّن هم مدينون لهما بالصحّة والعافية، لكنّ جسدي ظلّ للأسف مستعصياً عليهما لا يريد الإذعان للشفاء.

دنا منه شريف وقد ناء رأسه بحمل طيلسان هائل، وكان بديناً تعلو وجهه حمرة شديدة، فقال باحتشام:

- لقد بلغتنا شهرتك أيّها الشيخ الرئيس وثق أنّنا معك بكلّ جوارحنا، وكم نتمنّى أن تفلح حيث فشلنا، على أن تكون واثقاً من أنّنا بذلنا قصارى الجهد في سبيل شفاء سلطاننا المحبوب، ولم ندّخر حيلة للتخفيف من ألمه.

سارع أبو عليّ إلى تطييب خاطره:

- أنا واثق من ذلك فلمدرسة بغداد وتعليمها الصارم صيت لا يحتاج إلى تأكيد، ولكن لنتمنّ على الله أن يرحمنا فيفتح عليّ ما أغلق عليكم.

لزم الصمت برهة ثمّ سأل:

- هل في وسعك أن تحدّثني عن مراحل المرض؟

تولّى عصمان الإجابة هذه المرّة.

- الأمر غامض وشديد التعقيد. منذ سنوات والأمير يشكو ألمًا مُمضاً ينطلق من هذا الموضع (أشار الطبيب إلى قاعدة عظم أوسط الصدر)، ثمّ يتفشّى في القفص الصدريّ كلّه مخترقاً الجسم بالغاً الظهر.

- فهل يتسارع النبض خلال هذه النوبات؟

- ليس كثيرًا، ولعلّها سرعة ناشئة عن توتّر الجسم بفعل الألم لا غير.

- فهل تمّ فحص براز المريض؟ والبول تحديداً؟

أشار الطبيبان بالإيجاب في الوقت نفسه.

– البول صاف لا شائبة فيه ولا يداخل لونه شيء، أمّا البراز، وقد يكون لهذا الأمر أهميّته، فهو يميل أحيانًا إلى السواد.

التفت أبو عليّ إلى المريض الذي لم يغيّر من وضعه وأشار إلى جيش العلق المنتشر في ظهره:

– قد يثير سؤالي دهشتكما، ولكن لِمَ كلّ هذا؟

خفّ شريف إلى الإجابة، وهو يصلح من وضع طيلسانه ذي التوازن الواهن:

– الحقّ أيّها الشيخ الرئيس أنّنا اعتمدنا على الاستنتاج، في البداية ظننّا أنّ المريض يشكو من أمر متعلّق بالقلب، وخفنا أن يكون التشنّج والاختلاج في مستوى الصدر أعراضًا لأمور أكثر خطورة، إلاّ أنّ انتظام النبض أجبرنا على إقصاء هذه الفرضيّة والبحث عن تشخيص آخر، ففكّرنا في التهاب عظم أوسط الصدر، وحاولنا تخفيف الألم بالاعتماد على البلاسم والمصرّفات، فلم يحدث للأسف أيّ تحسّن، لذلك رأينا أن نهتمّ بالعارض الثاني: آلام الظهر.

استنشق الطبيب طويلاً قبل أن يختم:

– ونحن نكاد نجزم بأنّ السلطان يعاني من سيلان الأخلاط الموجودة بين عضلات الظهر ومفاصله[1]، لذلك استعملنا العلَق فهي كما تعلم تسحب الدم من أماكن أعمق بكثير من الدم الذي تسحبه المحاجم، ممّا يسهّل إخراج كميّة الأخلاط الزائدة على الحاجة في الأوعية الدمويّة.

– ولا شكّ أنّكم عمدتم قبل ذلك إلى تطهير الظهر بملح البارود، وضغطتم على العلَق كي تفرغ ما في معيّها، وجرّحتم البشرة بشكل طفيف كي يسيل الدم فتعلق الدويبات، أليس كذلك؟

أومأ عصمان بالإيجاب.

– فهل قمتم بفصده؟

– مرّتين.

أضاف شريف:

– وأؤكّد لك أيّها الشيخ أنّنا لم نغفل شيئًا من مقتضيات المهنة، فقد أحكمنا وضع المِضغطة وحدّدنا كميّة الدم المفصود حسب سرعة الدفق وقوّته ولون الدم وحالة النبض، وما أن لاحظنا حصول تقيّح حتّى أسرعنا إلى تعهّده بلزقة من الاسفيداج.

علّق الشيخ وقد أغرق في التفكير:

– حسنًا، فهل لاحظتم تحسّنًا على حالة المريض؟

كان الأمير هو الذي بادر إلى الإجابة ضاربًا على الوسادة براحة يده:

– كلاّ أيّها الشيخ، مازلت أتعذّب كالسابق.

نظر الطبيبان إلى أبي عليّ في شبه استسلام، فاقترب هذا الأخير من الأمير ومال عليه مبتسمًا:

– يبدو لي أنّك ذو مزاج دمويّ يا مولاي.

هذه المرّة، لم يتمالك سماء عن التدخّل:

– لاشكّ أنّك تمزح أيّها الشيخ، فأيّ دم بقي لوالدي المسكين وهو فريسة للمحاجم من جهة ولهذه الدويبات القذرة تنهش ظهره من الجهة الأخرى؟

في تلك اللحظة اقترحت سميرة بصوت خجول:

– ألا يمكن إراحته من العلَقِ أيّها الشيخ الرئيس؟

هزّ أبو عليّ رأسه موافقًا.

– أعتقد أن لا مانع من إجابة الأميرة إلى طلبها.

ثمّ أضاف ملتفتًا إلى الطبيبين:

– قد تريان عكس ذلك، ولكنّي لا أرى أيّ نفع من وراء هذا العلاج، بل إنّه قد يزيد من ضعف مريضنا.

بدا على شريف وعصمان التردّد، وكان لا بدّ من تدخّل الأمير بحزم ليمتثلا للأمر.

– هيّا، نفّذا ما طلبه منكما، خلّصاني من هذه الحشرات الفظيعة.

لاحظ أحد الطبيبين في هيئة استسلام:

– لإزالة العلق يا مولاي، نحتاج إلى شيء من الملح أو الرماد.

– وماذا في ذلك؟ ليس الملح أو الرماد ما ينقص في همذان.

قال ابن سينا بلطف:

– إذا لم أخطئ الفهم يا مولاي، فإنّ الآلام لا تصاحبك طيلة الوقت، فهل لي أن أعرف متى تشعر بها تحديدًا؟ وما طبيعتها؟

– أشعر بها ليلاً، إنّها تكاد لا تعاودني إلاّ إذا تقدّم الليل.

– أمّا نهارًا؟

– نادرًا ما أشعر بها نهارًا، ولكنّ الألم يشتدّ إذا نمت إلى حدّ أنّه يوقظني من نومي، فأجد نفسي فريسة حروق فظيعة كما لو أنّ معدتي قد حشيت بالفلفل الأحمر.

– فهل تشعر عندئذ بعطش شديد؟

أومأ الأمير بالإيجاب.

– ومتى تتعشّى عادةً؟

– بعد ساعتين من غروب الشمس.

وأضاف بصوت لا يخلو من ضغينة:

– هذا إذا لم أنشغل بمحاربة أخي أو والدتي.

كان شريف قد عاد وفي إحدى يديه كيس بينما في الأخرى وعاء خزفيّ مُقعّر. جلس إلى جنب شمس وأخذ يرشّ ظهره بالملح الناعم، وفورًا انكمش العلق، فعمد الطبيب إلى إزالته واحدةً بعد أُخرى ووضعه في الوعاء.

ما أن زال عن ظهره العلَق حتّى تنفّس الأمير الصعداء واستدار متمهّلاً ليستلقي على الوسائد.

– لو طال الأمر أكثر لاختنقت.

أمكن للشيخ أخيرًا أن يتمعّن في ملامح مريضه الملكيّ. كانت أوّل

ملاحظة قفزت إلى ذهنه أنّ الشبه بين شمس وأخيه الأصغر مجد منعدم أو يكاد. وكانت الملاحظة الثانية أنّ السلطان لم يتجاوز الثلاثين من عمره إلاّ أنّه يبدو أكبر من ذلك بعشر سنوات، بسبب الهالتين الزرقاوين المحيطتين بعينيه اللتين شحّ فيهما الدم، وشحوبه الفائق، والتجاعيد التي غضّنت جبينه وأطراف شفتيه.

سأله سماء بصوت لا يخلو من نفاد الصبر:

– والآن أيّها الشيخ الرئيس، ما هو استنتاجك من كلّ هذا؟

– كلّ شيء يدعو إلى الاعتقاد بأنّنا أمام قرحة في المعدة.

تبادل الطبيبان النظرات وقد بدا عليهما الشكّ، فأضاف ابن سينا شارحًا:

– ظننت للحظة بأنّه سرطان[٢]، ولكنّه يستوجب ظهور أعراض أخرى مثل الإسهال وعسر الهضم والحمّى المتردّدة الشديدة أحيانًا والخفيفة أحيانًا أخرى، ولو تعلّق الأمر بورم لكان الأمير قد قُضي لا قدّر الله منذ مدّة طويلة.

قال عصمان موافقًا:

– لا شكّ في ذلك أيّها الشيخ الرئيس، ولكن ما الذي جعلك تذهب إلى أنّه قولنج؟

– ثمّة ثلاثة تفاصيل رجّحت عندي كفّة القرحة: أوّلاً قول الأمير أنّ الألم يشتدّ به ليلاً وبعد ثلاث ساعات من تناول العشاء، وهذا يعني أنّ المعدة خاوية، ثانيًا إحساسه بحرقة حادّة تكاد تكون خانقة، وثالثًا ما ذكرتماه لي من أنّ برازه ضارب إلى السواد، وهذا دليل على وجود دم مهضوم ناشئ عن القرحة.

كان واضحًا أنّ التشخيص قد أغرى الطبيبين بقدر ما أدخل عليهما الاضطراب.

تدخّل السلطان فجأة:

– يبدو الأمر شديد الوضوح، ولكن كيف نعلم أنّك غير مخطئ في تشخيصك؟

– لا دليل لنا على صحّة التشخيص أو خطئه غير العلاج... سيكون عليك أن تتناول مع الفجر وعند الغروب شيئًا من شراب الإسفيداج، و...

قاطعته الأميرة مندهشة:

– الإسفيداج؟

– أجل يا مولاتي، على أن يُذاب في حليب النعاج فهو ضمادة للمعَى، كما يُنصح الأمير بتناول أكثر ما يمكن من الوجبات شرط أن يتجنّب الأغذية ذات الحموضة، كالغلال، وأمّا في لحظات التشنّج والاختلاج فإنّي أقترح على السلطان أن يتناول غلوة من جذور اللُّفّاح (تفّاح الجنّ) أو ستّ الحسن، فهما مسكّنان أقلّ فعاليّة من الخشخاش إلاّ أنّهما يمكّنان من تلافي التعوّد والتسمّم.

ربت الأمير بيده مرّات متتالية على أمّ رأسه التي بدأت تميل إلى الصلع وأومأ بالموافقة صامتًا، ثمّ قال بعد تفكير طويل:

– سنرى أيّها الشيخ، سنرى إن كانت شهرتك قائمة على أساس صحيح، وكم أرجو من الله أن تكون كذلك، أمّا الآن فسآمر بأخذك إلى غرفتك، ولك أن تطلب ما شئت فهذا القصر بيتك من الساعة.

*

مالت الشمس إلى المغيب فوق السهل الخصب المحيط بهمذان. وبعد أن أخلد بضع ساعات إلى الراحة، مرّ أبو عليّ بحمّام السراي، ثمّ خرج في جولة بين شوارع المدينة.

ترجع جذور مدينة همذان إلى أزمنة سحيقة، ففي تلك الأيّام الغابرة كان يُقال لها إكباطان، ومنها كلمة هانغماتا التي تعني في الفارسيّة" مكان التجمّع"، ثمّ ذهب التصحيف بهذه الكلمة حتّى صارت إلى الاسم الحاليّ، ولأسباب غامضة كانوا يطلقون عليها أيضًا اسم المدينة ذات الألوان

السبعة، وهي لا تزال محطّة هامّة تلتقي عندها طرق القوافل، ولعلّ ذلك ما جعلها بالمقارنة مع الريّ أو أصفهان أقرب إلى المركز التجاريّ منها إلى المركز الثقافيّ. وقد أضحت اليوم إحدى عواصم الجبال الأربع، شاسعة حصينة تحيط بها أسوار عالية وتمتدّ أطرافها بعيدًا في عمق منطقة فلاحيّة مزدهرة، على الرغم من ارتفاعها[٣] وصعوبة مناخها الشتويّ.

أوّل ما فاجأ أبا عليّ معالم الجدّة التي تكسو جلّ البنايات. الجامع الكبير والمدرسة والأسوار وأغلب الدور كانت تبدو للناظر وكأنّها شُيّدت بالأمس القريب، وكان لذلك تفسير واضح، ففي عام ٣٥١ للهجرة تعرّضت المدينة لزلزال فظيع وكان لا بدّ من إعادة بنائها من جديد.

أمّا الشوارع فلم تكن تختلف في شيء عن أغلب المدن الفارسيّة.

لا يلبث عابرُها أن يعترض طريقَه صوفيّةٌ يمشون محنيّي الظهور في خرقهم الخشنة التي لا تخطئها العين، ونسوة محجّبات زان أصابعهنّ الخضاب ينزلقن مثل زهور القطيفة على طول الممرّات الحجريّة، وشحّاذون في أسمالهم البالية يجرجرون أقدامهم ممدودي الأيدي راجين رحمة العابرين.

ظلّ الشيخ يتجوّل مغرقًا في خواطره حتّى بلغ ساحة البازار الكبير.

فإذا هو أمام بخارى أُخرى نُفخ في حجمها بما لا يُقارن.

كان بريق الخيزران والصفصاف يخترق لازوَرْدَ السماء، وكان لمعانُ الحجارة الكريمة الخاطف ووقع حوافر البغال والحمير وصياح الدواجن وتهادي الجمال صدًى لصورٍ وأصوات لم تبرح مكانها من ذاكرته. وكان للحركات وهي تخترق الهواء العبِق بالبابريكا أثرٌ لا يصعب العثور فيه على ذلك الدوار القديم من العطور المشربّة برائحة مرّ الصبر المدوّخة الملتهبة في مجامر الطيب الصغيرة الموضوعة عند أقدام الباعة.

– أهذا أنت أيّها الشيخ الرئيس؟ أهو أنت أبو عليّ بن سينا؟

بوغت أبو عليّ فلم يجد الوقت للإجابة.

– بسم الله الرحمن الرحيم، أكاد لا أصدّق عينيّ، إنّه أنت...إنّه حقًّا أنت...أنا المعصومي، أبو سعيد المعصومي، أعرف كلّ شيء عنك وعن تعاليمك الفلسفيّة وأبحاثك الطبيّة وليس لك في هذه البلاد من هو أشدّ إعجابًا بك منّي.

تفرّس أبو عليّ في مخاطبه وقد تملّكه الفضول. كان فتى في العشرين من عمره معتدل الأنف واضح القسمات أسود الشعر فاحمه تتّقد عيناه ذكاء.

– المعصومي... إعذرني يا أخي، ولكنّي لا أذكر هذا الاسم.

رفع الفتى رأسه وقال وقد بدت عليه علامات الفخر:

– أنا من بخارى مثلك، ولم يكن يفصل دارنا عن داركم غير شوارع قليلة.

– غريب هذا الأمر، فقد ظننتني أعرف كلّ جيراننا.

– لا غرابة في ذلك فأنت الآن في الخامسة والثلاثين، وأنا أقلّ منك بخمسة عشر عامًا، وكنت بالكاد أقف على قدميّ حين كنت أنت تدرّس بالبيمارستان وتُدعى بأمير العلماء.

– إذن فلا شكّ أنّك تملك ذاكرة بصريّة لا نظير لها، وإلاّ فكيف أمكن لك التعرّف عليّ بعد كلّ هذه السنوات، وهنا في همذان؟

– وهل نسيت أنّ ملامح وجهك ألصقت على كلّ جدران فارس؟

– معك حقّ، فقد فاتني ذلك، ولكن قل لي، ماذا تفعل في همذان؟

– سأفاجئك ولا شكّ، فأنا هنا لأخذ الرياضيّات عن أحد تلاميذك القدامى، الحسين بن زيلة.

– ابن زيلة؟ هنا في همذان؟

– أجل، وهو يدرّس بمدرسة المدينة.

– إنّها حقًّا مفاجأة، فعهدي به يدرس الطبّ ببيمارستان بخارى، وأذكر أنّي امتحنته يومًا بحالة صعبة فأحكم تشخيص سرسام حادّ، وكان حاذقًا في تحديد درجة خطورة المرض، ثمّ رأيته لآخر مرّة بمدرسة كركانج.

– اطمئنّ أيّها الشيخ الرئيس فتلميذك لم يفقد شيئًا من فطنته ودقّة ملاحظته، إلاّ أنّه تحوّل بهما إلى حقل آخر، هو حقل الرياضيّات و... الموسيقى.

بدا على ابن سينا الارتياح.

– فهل تعرف إن كان يقوم بالتدريس اليوم؟ لكم يسعدني أن أراه.

– ثق أنّ سعادته برؤيتك ستكون أكبر من سعادتك بكثير، وقد كنت في طريقي إلى المدرسة قبل أن يمنّ عليّ الله بالعثور عليك، وسيكون شرفًا كبيرًا لي لو رغبت في مصاحبتي إلى هناك.

– إذنْ فلا داعي لإضاعة المزيد من الوقت، ها أنا على إثرك يا أبا سعيد المعصومي.

*

كان ابن زيلة يلقي درسه وهو يمتطي ظهر بغل شاقًا صفوف المئات من الطلبة المجتمعين في ساحة المدرسة.

لم يبد للسنوات أثر كبير على مظهره فقد لاح كعادته متحفّز القسمات نشط الحركة، وما أن شاهد الشيخ يجتاز عتبة الإيوان حتّى كفّ عمّا هو فيه فورًا وجحظت عيناه ومال بطرفه وهو يحدّ البصر في المعصوميّ مرّة وفي أبي عليّ مرّة أخرى، ثمّ لكز البغل بعقبيه وخفّ إليهما بأقصى ما تقدر عليه دابّته من سرعة.

وما أن صار بقربهما حتّى ترجّل هاتفًا:

– الشيخ الرئيس؟ غير معقول!

– لا أدري من منّا يجب أن يكون أكثر دهشة من صاحبه؟ عهدي بك طبيبًا بكركانج.

– لم يعد لي بقاء هناك بعد رحيلك ورحيل أغلب علماء البلاط، لم يبق شيء على حاله، ولم أجد ما يدعوني إلى المكوث بتركستان فولّيتُ وجهي شطر بخارى، حيث أحكمتُ علم الحساب على يدي عالم فذّ من يهود

سمرقند، ومن ثمّ قرّرت الرحلة لعلّي أظفر بمكان للتدريس لائق بتطلّعاتي الجديدة.

– وماذا عن الطبّ؟

هزّ ابن زيلة رأسه وقد علت محيّاه ابتسامة غامضة.

– ليس في وسع الجميع أن يكونوا أبا عليّ بن سينا، وكنت أريد أن أكون الأفضل فاتّضح لي أنّ الأفضل موجود.

– لا وجود للأفضل في الطبّ يا ابن زيلة يا أخي، إنّما هناك من يحاول أكثر من الآخرين، هذا كلّ ما في الأمر.

أضاف التلميذ بحماس:

– اطمئنّ على أيّ حال، فقد استهواني علم الحساب بالدرجة نفسها، ولم ألبث أن التهمت كتابات أقليدس والحرّاني ٤ونيكوماك الجيراسيّ، ونهلت حساب الهند من منابعه حتّى لم يعد للجذر ٥ أو لميزان التسعة خافية تخفى عليّ.

– لا شكّ أنّك اخترت الطريق الأصلح، فكثيرًا ما جال بخاطري أنّ الرياضيّات هي الدرجة الأولى من السلّم الموصل إلى معرفة الكون.

– وأنت أيّها الشيخ الرئيس، ما الذي جاء بك إلى الجبال في حين أنّ الجميع يظنّك بالريّ؟

– تلك قصّة طويلة، ولعلّك تعلم ذات يوم إن لم تكن قد علمت بعد أنّ البشر ليس دائمًا سيّد خطواته، بالأمس أخذتني سويداءُ أحد الأمراء إلى الريّ، واليوم يجيء بي قولنج أمير آخر إلى همذان، فقد أرسل شمس الدولة في طلبي لمباشرة علاجه.

– إذنْ فأنت باقٍ بيننا؟

– لا أظنّ ذلك، فما أن يتماثل الأمير إلى الشفاء حتّى أعود إلى قزوين، حيث يوجد من ينتظرني.

هتف المعصوميّ مندهشًا:

– قزوين؟ ولكنّه مكان ناءٍ غير لائقٍ برجل في مكانة ابن سينا.

قال ابن زيلة موافقًا:

– صاحبنا على حقّ أيّها الشيخ الرئيس، فسيكون مقامك بإحدى مدننا الكبيرة أكثر فائدة.

هزّ أبو عليّ رأسه في حركة استسلام.

– وما الفرق بين أن نخفّف الألم عن أمير وأن نعالج صيّاد عصافير؟

قال ابن زيلة محتجًا:

– وهل نسيت دروسك وعلمك؟ أليس من واجبك أن تنفع بها مجايليك؟

ثمّ أشار بيده إلى الطلبة الذين كانوا يتطلّعون إليهم بصبر:

– أنظر إلى هؤلاء...يكفي أن أذكر لهم اسمك كي تتبيّن مبلغ شهرتك.

ودون أن ينتظر موافقة الشيخ هتف ابن زيلة بصوت مرتفع:

– اصغوا إليّ أيّها الإخوان، من دواعي الشرف أن يكون بيننا اليوم أمير العلماء سيّد علوم الجسد والعقل الذي لا يُبارى، أبو عليّ بن سينا.

ما أن أعلن عن اسم الشيخ حتّى سرت حركة في الجمع، تبعتها صيحات إعجاب، وغادر البعض مكانه للاقتراب منهم، ثمّ ما لبثت الدهشة أن تركت المكان للفضول، وسرعان ما تهاطلت الأسئلة من كلّ جانب، بعضها في الطبّ وبعضها في الفلك أو القضايا الفلسفيّة.

اضطرّ ابن زيلة إلى تهدئة الجميع.

– على رسلكم يا جماعة، الشيخ عابرٌ ولم يجئ لتقديم دروس.

إلاّ أنّه لم يفلح في إعادة الهدوء إلى الحلقة، فقد أضحى شغل الطلبة الشاغل أن يسمعوا الشيخ الرئيس.

تبادل التلميذ القديم وأستاذه النظرات، وقد غلبت على وجهيهما علامات الاستسلام للأمر الواقع.

– معك حقّ، فالبشر ليس سيّد خطواته، وهو لا يملك زمام مجده أيضًا.

أشار أبو عليّ إلى البغل وسأل تلميذه:

– هل يمكن أن أستلف منك جوادك الأصيل؟

سلّمه ابن زيلة العنان دون تردّد، فامتطى ابن سينا الدابّة وتقدّم بها بين صفوف الطلبة حتّى توسّط الساحة، هناك أوقف البغل وقال بعد برهة من التفكير:

– لا شكّ أنّكم تنتظرون منّي حديثًا فيما استغلق وتعقّد من العلوم، ولعلّكم تتوقّعون بيانًا شافيًا في علم الكلام[٦] أو تشريحًا لما غمض من أسرار الجسم، إلاّ أنّي للأسف سأخيّب ظنّ بعضكم فلا رغبة لي اليوم إلاّ في الخوض في الأمور المجرّدة، لذلك سأحدّثكم في أمر العشق.

بدت على الوجوه الدهشة، بل لم يخل بعضها من علامات الخيبة، إلاّ أنّ أحدًا لم يعترض على رغبة الشيخ، وما أن استتبّ الهدوء حتّى شرع أبو عليّ في خطابه عن العشق. تحدّث لمدّة ساعة، وفيما بعد، أمكن لمن حضر تلك الساعة أن يزعم صادقًا أنّ أحدًا من علماء فارس كلّها لم يخض في موضوع العشق على ما يسمه من تجريد، بمثل ما جاء به كلام ابن سينا من جدّة ودقّة.[٧]

فرغ من حديثه وقد بلغت الشمس ذروتها، وارتفع صوت المؤذّن متهدّجًا بالدعوة إلى الصلاة، فسلّم عنان البغل لابن زيلة وقال مشيرًا إلى سهم المئذنة المتصاعد من على سور الإيوان:

– والآن حان الوقت لإيفاء الله حقّه، فهل تصاحباني إلى المسجد؟

هزّ ابن زيلة رأسه وقال مشيرًا في الوقت نفسه إلى الطلبة بالانصراف:

– هل نسيت أيّها الشيخ الرئيس أنّي مجوسيّ على دين زرادشت؟

هتف المعصوميّ وكأنّه يشهد الشيخ على تلميذه:

– يدّعي المجوسيّة لكنّه لا يريد أن يغادر فارس، ولو كان حقًّا من أتباع مزدك لالتحق بأبناء دينه ولكان الآن مقيمًا بغوجرات.[٨]

غمغم ابن زيلة متبرّمًا:

– لكم تصمّ أذنيّ بحديثك هذا يا أخي، هذه أرضي، وطالما لم يضطرّني

أحد إلى المنفى فلا أرى سببًا يدعوني إلى التشرّد على تخوم البلد الأصفر.

شبك ابن سينا يديه وقال مبتسمًا:

– هل هي بداية سجال طويل؟ هل عليّ أن أترككما لجدلكما؟

– المعذرة أيّها الشيخ الرئيس، ولكنّي سرعان ما أفقد صبري مع الكافرين.

– لا بأس يا معصوميّ، إنّ الله يعرف القوم الظالمين ولا أظنّ هذا الزردشتيّ منهم، فلننصرف الآن.

هتف ابن زيلة ممسكًا بذراع الشيخ:

– هل سنلتقي يا ابن سينا؟

– لاشكّ في ذلك، والليلة في قصر الأمير إذا شئت، فلعلّنا نحاول ثلاثتنا أن نعيد بناء العالم كعادتنا بكركانج وبخارى.

– إذن فإلى موعدنا بقصر الأمير، وليرفق الله بالضالّين...

الهوامش:

١– هل هو" العناج"، أم الروماتزم، أم التهاب المفاصل؟ من الصعب البتّ في المرض الذي قصده شريف. (المترجم)

٢– كان السرطان معروفًا من عهد جالينوس، الذي عالج جوليا دمنة (julia domna) زوجة سبتيم سيفير (septime severe)من سرطان الثدي. (المترجم)

٣– توجد همذان على ارتفاع ١٨٠٠ متر عن سطح البحر. (المترجم)

٤– يبدو أنّ ثابت بن قرّة الحرّاني الذي ترجم مقدّمة نيكوماك، كان من أنبغ رياضيّي زمانه. (المترجم)

٥– الجذر الرباعيّ. (المترجم)

٦– أحد علوم الإسلام الدينيّة، والعبارة قريبة من معنى "التيولوجيا." (المترجم)

٧– يمكن العثور على جوهر هذا الحديث ضمن رسالة في العشق، أملاها عليّ معلّمي بعد ذلك بأسابيع. (الجوزجاني)

٨– لم تكن ملاحظة المعصوميّ خالية من المنطق، فالمجوس كانوا هم الزردشتيّين الذين رفضوا الدخول في الاسلام بعد الفتح العربيّ، ففرّوا إلى سنجان بالهند، حيث أقاموا النار المقدّسة. (المترجم)

المقامة العشرون

مكث ابن سينا أربعين يومًا بهمذان توطّدت خلالها الصلة بين الطبيب ومريضه. خفّ المغص حتّى كاد يختفي نهائيًّا فكبُر ابن سينا في عين الأمير، وأضحى محطّ عرفانه وتقديره، وعبّر له عن ذلك بأن جعله من ندمائه وخلع عليه وصرف له ما مقداره خمسمائة ألف دينار. ولم يلبث ابن سينا أنّ شعر هو أيضًا ودون أن ينتبه إلى ذلك في البداية بالميل إلى الأمير والإعجاب بفطنته وذكائه. ولا شكّ أنّ أحدًا من أصحاب الملك الذين عرفهم لم يستهوه مثلما استهواه شمس الدولة. كان يحدث لهما أحيانًا أن يستمرّا في الحديث إلى مطلع الفجر خائضين في أمور الحياة والموت والقضاء والقدر والإلهيّات. وقد اتّضح لأبي عليّ أنّ أشدّ الأمراض التي صاحبت طفولة الأمير لم تكن غير عائلته، وتحديدًا أمّه وأخيه، وأنّه كان يبغض كلّ البعض تلك الفخاخ التي كثيرًا ما تنصبها الوراثة، وأنّه كثيرًا ما أحسّ بأنّه أقرب إلى بعض الأغراب منه إلى ذويه.

مساءَ اليوم الأخير كان الشيخ يهمّ بحزم أمتعته قافلاً إلى قزوين حين أرسل شمسٌ في طلبه. وجده في انتظاره بالقاعة البلّوريّة، وقد سمّيت كذلك بسبب جدرانها المغطّاة بأكملها بمرايا دمشقيّة. كان الأمير واقفًا أمام إحدى النوافذ المفتوحة على الفناء الداخليّ للقصر. قال وقد أولاه ظهره، بصوت يشوبه التوتّر:

– أنت ذاهب إلى قزوين وأنا راحل عن همذان.

بوغت الشيخ بالخبر فاستفسره عن أسباب هذا الرحيل.

قال شمس دائرًا على عقبيه:

– ألم أقل لك إنّي منذ ورثت هذه الأقاليم عن والدي وأنا لا أخرج من معركة إلاّ لأدخل في أخرى، مرّة ضدّ سلالات مزعومة ومرّة ضدّ رجال الغزنوي وأخرى ضدّ قبائل دمويّة متوحّشة، وعليّ غدًا أن أستمرّ في الأمر

نفسه.

- وممّن الخوف هذه المرّة؟

- من الأكراد... إنّه عنّاز... أبو شوق بن عنّاز...

لم يكن الاسم غريبًا عن الشيخ، فأثناء الحوارات الطويلة التي دارت بينه وبين شمس أتيح لهما أن يتباحثا أيضًا في ما يهمّ البلاد من أمور السياسة، وقد جرى على لسان الأمير ذكرُ العنّاز أكثر من مرّة.

- لم يعد في وسعي التغاضي عن وجوده في الجبال فقد تجاوزت تهديداته كلّ حدّ.

- أليس هو القائد الكرديّ الذي احتلّ مدينة قرميسين ٩مغتنمًا فرصة انشغالك بنجدة أخيك مجد؟

- هو نفسه، ابن الكلب هذا اغتنم فرصة ذهابي إلى الريّ ليطعنني في ظهري، والحقّ أنّ الأكراد لم يكفّوا منذ وفاة والدي عن محاولة السيطرة على المنطقة، وقد سبق لهلال بن بدر ذاك الشبيه بابن آوى أن احتلّ قرميسين منذ سبع سنوات، على الرغم من أنّه هو نفسه الذي هبّ لنجدة أمّي ضدّ الغزنويّين.

- يبدو أنّي لن أفهم أبدًا الدور الذي مافتئ الأكراد يلعبونه، إنّ في تصرّفاتهم شيئًا غير معقول.

- غير معقول؟ ألا تعلم أيّها الشيخ الرئيس أنّ عالم السياسة كلّه واقع تحت سيطرة هذه الكلمة؟ طيلة كلّ هذه السنوات لم يصنع الأكراد شيئًا غير استغلال صراعاتنا العائليّة، إذا رأيتهم اليوم قد حالفوا الوالدة ضدّ ولدها فإنّك ستراهم غدًا قد حالفوا الولد ضدّ والدته، إنّهم حرباوات ولكنّ لألسنتهم سمّ العقارب.

خيّم الصمت طويلاً على القاعة البلّوريّة، ثمّ لم يلبث الأمير أن استأنف حديثه بنبرة جادّة:

- لم أُرسل في طلبك اليوم إلاّ لأطلب منك خدمة أخيرة.

وضع أبو عليّ يده على موضع القلب من صدره.

– وهل أستطيع أن أرفض لك أيّ طلب يا مولاي؟

– أرجو أن ترافقني في هذه الحملة، وأنا لا أخاطب الصديق بل الطبيب، فسأكون في حاجة إلى كلّ قواي خلال المعركة، وأنت تعرف أنّ النوبات يمكن أن تعاودني في أيّ لحظة.

أجابه الشيخ بتلقائيّة:

– غدًا في مواجهة الأكراد لن ترتجف لك يد، وسيكون ذهنك في صفاء مياه طبرستان، هذا وعد من طبيبك الذي سيكون بجانبك.

نهض فورًا وتقدّم من الأمير، وسرعان ما تعانق الرجلان.

– ستكون معركة عنيفة، لكنّنا سنشرب نخب النصر بقصر قرميسين إن شاء الله.

لاح السهل المحدّب تحت شمس منتصف النهار وكأنّه مجبول من ذهب وفضّة. كان ثمّة منخفض يشبه الحوض في وسط السهل وهناك انتصب الجيشان.

نُصِبت خيمة الأمير وإلى جانبها خيمة الطبيب (وكان ذلك تشريفًا كبيرًا) في قلب المعسكر على هضبة منعزلة. وعلى بعد خطوات من الخيمتين رفرف اللواء شعار الأمير عاليًا في طرف صارية طويلة، نقطة تجمّع من الأرجوان والذهب. وضع أبو عليّ يده فوق عينيه توقّيًا من الشمس وأخذ يتأمّل المشهد، فيما كان الفرسان البويهيّون يخترقون المعسكر من طرف إلى آخر ملتحقين بأماكنهم مثيرين موجات من الغبار الكثيف.

كان من السهل على الناظر إلى أغلب الفرسان أن ينتبه إلى ملامحهم المملوكيّة القاسية، وتلك مفارقة أخرى من المفارقات التي أنجبتها الضرورة، ذلك أنّ الحاجة الدائمة إلى جنود أكفاء كثيرًا ما دفعت بقادة الجيوش إلى دعم قواتهم بوحدات من العبيد الأتراك، على أنّه يوجد من بين الجنود أيضًا هنود وبربر وصقالبة وسود قادمون من الجزيرة العربيّة.

جريًا على العادة في مثل هذا الموضع لعلعت الأبواق فوق السهل معلنة عن بدء المعركة، فما كان من السالار، القائد العامّ لجيش شمس الدولة، إلاّ أن رفع يده عاليًا مشيرًا ببدء الهجمة. في الوقت نفسه تقريبًا أُبْرِكت الجمال التي بقيت في المؤخّرة محمّلة بذخيرتها الثمينة من المؤونة والسلاح، وتململت الفيالق المختلفة ببطء تحت أنظار الشيخ الرئيس القلقة. للمرّة الثانية خلال أشهر قليلة ها هو يتأهّب للعب دور الشاهد العاجز على مجازر جديدة. لم يتمالك عن التفكير في كلّ ما يدبّره أبناء الدين الواحد من مكائد في سبيل أن يقاتل بعضهم بعضًا، وسرعان ما قفزت إلى ذهنه تلك الآية القرآنيّة: «ومَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتّى نَبْعَثَ رسُولاً». الجميع هنا يعرف ذلك تمام المعرفة، ولا أحد منهم يجهل أنّ دم المسلم على المسلم حرام في الإسلام، وأنّ الحرب ممنوعة إلاّ الحرب المقدّسة، فلا شرعيّة لحرب داخل حدود دولة الإسلام أو خارجها غير تلك التي يكون هدفها بسط سلطان الشريعة أو الدفاع عنها.

كان رفض الدعوة إلى الدخول في الإسلام مبرّرًا شرعيًّا للحرب، لذلك فكثيرًا ما بذل الأمراءُ قصارى الجهد لجعل خصومهم يظهرون بصورة من الصور مخالفين لتعاليم الشريعة خارجين على الإسلام، فلا يبقى من حلٍّ معهم غير السيف ينفّذون به فيهم حكم الله، شأنهم في ذلك اليوم شأن السلف بالأمس.

والحقّ كما فكّر أبو عليّ أنّ ذلك كلّه لم يكن سوى تعلاّت، فللحرب صلة بطبيعة المجتمعات البشريّة منذ العصور القبَليّة، وليس لقانون وإن كان مقدّسًا أن يغيّر من هذا الأمر شيئًا.

تصاعدت الصرخات إلى عنان السماء فانتزعته من خواطره. نظر إلى أسفل فلمح الموجات الأولى من الفرسان تتلاطم في وميض سيوف ورماح. ظلّت الكراديس، تلك السرايا ذات الأزياء المبرقشة، تنتظر انهيار إحدى التشكيلات للتحرّك على طول جانبي الجيشين. وكان على خيّالة شمس

الدولة أن يشنّوا الهجوم أربع مرّات قبل أن تتصدّع الصفوف التركيّة، فأُذِنَ حينئذ للمشاة في الانضمام إلى المعركة. كان السلطان البويهيّ يقاتل في الصفوف الأولى ببسالة تضرب بها الأمثال، وكان سيفه يفتك بالأعداء مطيحًا بكلّ من اعترض طريقه بلا رحمة ولا شفقة، وفي دقّة قاتلة، فكأنّه ذو الفقار.(١)

دامت المعركة ما ينيف على ثلاث ساعات، ولم يعد في وسع أحد أن يميّز بين الرجال والدوابّ في ذلك البياض المعمي الغالب على السهل. تزايد تصدّع الأكراد وبدت عليهم أُولى علامات الإنهاك، وكان على ابن عنّاز أن يلملم صفوفهم أكثر من مرّة وهم يوشكون على المبادرة بالفرار. استطاع فرسان شمس الدولة الأتراك أن يسيطروا على كافّة أطراف ساحة المعركة بفضل غريزتهم الحربيّة وأيضًا بفضل ما كانوا مشهورين به من التوحّش والضراوة، فقد كان لصيتهم ذاك ضرب من الفتنة يوقع الرعب في نفوس الأعداء. أمّا الخيّالة الكرديّة فهي الآن قد أفنيت أو تكاد، وقد أضحت تحت رحمة المشاة البويهيّين الذين جثوا أرضًا محتمين بدرَقٍ مثبتة في الرمل، وأخذوا يقطعون عراقيب الخيل تاركينها تتكوّم على الأرض ساحقة راكبيها.

ما من مفاجأة هذه المرّة وما من عملٍ خارق، ولا كان لفيل أن ينطلق من مكمنه خلف إحدى الهضاب. تقهقرت قوات ابن عنّاز وسرعان ما تحوّل تقهقرها إلى هزيمة نكراء، وأصبح جيش همذان سيّدًا على السهل كلّه. أحجم شمس الدولة عن مطاردة المهزومين وفضّل أن يولّي وجهه شطر قرميسين التي كانت الآن خالية من أيّ حماية، وما هي إلاّ ساعة حتّى كان السكّان يهبّون إلى أبواب المدينة ليستقبلوه استقبال المحرّرين.

تخلّف ابن سينا بمعيّة بعض الأطبّاء والممرّضين لتقديم ما أمكن من الخدمات العاجلة لمئات الجرحى المنتشرين على امتداد المنخفض، الذي تحوّل إلى قبر جماعيّ. للأسف، كانت المعدّات الصحيّة التي استقدمت من

همذان بدائيّة، وكانوا في حاجة إلى كلّ شيء، إلى جرعات ومراهم ولعوق وخاصّة إلى أطبّاء. ولم يفرغ من ذلك إلاّ وقد أدركه الليل فالتحق بقرميسين، حيث أقام شمس وولده بالقصر الذي أخلاه الوالي. وما أن وصل حتّى أُبلغ بأنّ الأمير تعرّض إلى نوبة جديدة وأنّه في انتظاره. وجده في غرفة مغطّاة بالحرير الخبّازيّ ومؤثّثة بأرائك ثقيلة. كان إلى جانبه ولده سماء، وكان جسمه قد تقوّس بفعل الألم، ومع ذلك فقد وجد القوّة كي يبتسم حالما رأى الشيخ.

– هل فهمتَ الآن أيّها الشيخ الرئيس لماذا حرصتُ على أن تصاحبني؟

وضع أبو عليّ الخرج الذي فيه آلاته وأعشابه على الأرض وجثا إلى جانب مريضه الملكيّ، وقال بعد أن جسّ المنطقة البطْنيّة:

– سيكون عليك أن تتناول أحد تلك المسكّنات التي تكرهها، وسنلجأ هذه المرّة إلى الخشخاش.

استوضح وليّ العهد مندهشًا:

– ألم تقل إنّه لابدّ من الحذر من هذا المخدّر؟

– قلت ذلك يا مولاي، ولكنّنا مضطرّون إليه هذه المرّة إذا أردنا تخفيف الألم على والدك.

همس الأمير:

– الحمد لله، ها أنت تمنحني الراحة أخيرًا.

– إذا واصلت هذه الحروب وإذا لم تكفّ عن الحياة بهذه الطريقة العشوائيّة، فإنّ هذه الراحة ستكون ذات عمر قصير، وسنضطرّ إلى زيادة كميّة الجرعات كلّ مرّة، مع ما قد ينجرّ عن ذلك من مضاعفات جانبيّة، ولن تلبث لزقات الإسفيداج أن تفقد كلّ فعاليّة.

– ولكنّي كنت أظنّ...

– للتوتّر والعصبيّة والهموم فعل السمّ بالنسبة إلى المصاب بالقولنج، ولا بدّ من التفكير في الراحة يا مولاي.

نهض شمس ببطء من على سرير الخشب المرصّع بالصدف.

- قل هذا لأعدائي، فأنا لا أرغب في شيء عدا العيش بسلام.

ثمّ أضاف بحزم:

- طالما ظلّ في جسدي عرق ينبض فلن أسمح لأحد بسرقة ذرّة رمل واحدة من المملكة التي أسّسها والدي.

وأضاف مشيرًا بإصبعه إلى سماء:

- وعليك أنت ياولدي بعد أن أفرغ أنا من الموت[٢] أن تبقى على الأمر نفسه.

لم يعلّق ابن سينا بشيء.

- سأطلب لك شرابًا ساخنًا فحاول أن تسترخي قليلاً.

همّ بالاتّجاه ناحية الباب لكنّ وليّ العهد سبقه:

- خلّ عنك أنت وابق بجانب أبي.

ما أن صارا بمفردهما حتّى قال الأمير:

- اسمع يا ابن سينا، لقد راقبتك طيلة هذه الأيّام الأربعين، وأصغيت إليك، وأنا أعرف الرجال ومراوغاتهم، وقد أعجبتني، فأنت تجمع بين مزايا قلّ أن اجتمعت لمخلوق، الاستقامة والمعرفة بالقوانين، وأنت فقيه فذّ، وتعرف متى يحسن الربط بين الفلسفة والعلم.

- حذار يا مولاي من النظر إلى رجل بعين الكمال، فلن تكون الخيبة إلاّ أقسى.

دعا شمس طبيبه بحركة من يده إلى الجلوس على إحدى الأرائك وقال:

- أريد أن أعرض عليك أمرًا.

وفيما كان أبو عليّ يستقرّ بمجلسه، سأله قائلاً:

- ما قولك في السلطة؟

- السلطة وحيدة.

- والوحدة كثيرًا ما تسدي نصائح السوء، أليس كذلك؟

– ذاك رأيي يا مولاي.

– ولكنّ من الخطر أيضًا أن نتقاسم السلطة مع من لا يستحقّ، فهناك من تمنحه يدك فيأخذ الذراع، ولا شكّ أنّك تعرف ذلك.

أشار أبو عليّ بالإيجاب وهو يحاول النفاذ إلى مقصد الأمير، وفجأة قال هذا الأخير:

– هل تقبل أن تقاسمني وحدتي؟

ثمّ أسرع يضيف بشيء من الفخامة:

– وسلطتي...

– لا أفهم قصدك يا مولاي.

كان شمس يهمّ بالإجابة حين رجع سماء وبين يديه إبريق من البرونز وقدح، ناولهما الشيخ.

همس الأمير:

– ومع ذلك فالأمر واضح.

نهض أبو عليّ فصبّ قليلاً من الحليب في القدح، ثمّ فتّش في خرجه وأظهره شفرة من الخشب وشيئًا من مسحوق الخشخاش.

– وماذا تنتظر منّي؟

– أن تصبح ظلّي ودرعي، وفي كلمة، أنا أعرض عليك الوزارة.

جاهد أبو عليّ كي يخفي الرعدة التي سرت في جسمه. الوزارة... الوظيفة العليا.

شعر بالدوار وتزاحم في رأسه حشد من الأفكار المتناقضة.

– أنا رجل علم يا مولاي، وطبيب قبل كلّ شيء، وليس لي شيء ممّا لرجل السياسة، ثمّ إنّي لست ممّن يمدّون العنق.

– ولهذا السبب أعرض عليك هذه المهمّة، فأنا لا أثق بالسياسيّين.

ساعد أبو عليّ مريضه على النهوض وأدنى القدح من شفتيه، وقال مواصلاً:

– لقد تعلّمت من تجربتي القليلة أنّ الوزراء صنفان: وزراء يحرصون على اقتفاء خطى أمرائهم ووزراء يسعون إلى جعل أمرائهم يتعثّرون. وأنا عاجز عن أن أكون من أولاء أو من هؤلاء.

– فأين تضع نفسك إذنْ؟

– وفيّ ولكن دون خنوع، وإنّ حرصي على الصدق وتقديري لك ليضطرّاني إلى مصارحتك يا مولاي بأنّي عاجز عن أن أكون صوتًا هو مجرّد صدى لصوتك.

ارتشف شمس جرعة كبيرة ومسح شفتيه بظاهر يده قبل أن يقول:

– طالما أنّ هذا الصوت لن يرتفع للإساءة إليّ، فإنّي سأكون على استعداد دائم للإصغاء إليه، بل إنّي سأطالب بارتفاعه.

– لا أدري إن كنت أستحقّ مثل هذا الشرف يا مولاي؟

– أنا في حاجة إليك يا ابن سينا.

كانت تلك هي الإجابة الوحيدة لشمس الدولة.

– وأهلي؟ فلي أخ وتلميذ وامرأة في انتظاري بقزوين.

حرّك شمس يده في الهواء بلامبالاة.

– يحضرون لحظة تشاء، وسأعطي أوامري...

قطع جملته عمدًا، وقال مصلحًا:

– ستعطي أوامرك لمصاحبتهم إلى همذان.

ظلّ ابن سينا برهة مغرقًا في التفكير ثمّ قال:

– المعذرة إن تسبّب إلحاحي في ضيقك، ولكنّي أسمح لنفسي بالتذكير مرّة أخرى بأنّي رجل علم أوّلاً وأخيرًا، ولا أتصوّر نفسي متخلّيًا عن مهنتي وكتابتي ودروسي، فهل تأذن لي بالاستمرار على ذلك؟

– بل هو من أولى رغباتي، فأنا أحتاج إلى أن يقف بجانبي لا الوزير فحسب بل وأمير العلماء أيضًا، ولك أن ترى إن كنت قادرًا على القيام بالمهمّتين في الوقت نفسه. فماذا قلت؟

شبك الشيخ أصابع يديه وظلّ صامتًا يفكّر وقد تاهت عيناه في ستائر الحرير.

قال سماء، الذي لزم الصمت حتّى تلك اللحظة:

– قليل هم الرجال الذين يمنحون فرصة مثل هذه التي يتيحها لك والدي، هل تعرف ذلك؟

– وهل هي حقًا فرصة يا مولاي؟ قد أفاجئك إذا قلت لك إنّ الإنسان يجب أن لا يفتح كلّ الأبواب التي تعترضه، إلاّ إذا كانت لذلك حاجة.

ردّ عليه شمس:

– على هذا أستطيع أن أجيبك بأنّ على الإنسان أن يلعب حسب رميات النرد التي يتيحها له قدره... وها أنا أكرّر، أنا محتاج إليك...

نظر أبو عليّ مطوّلاً في عيني الأمير وقال أخيرًا:

– حسنًا، سآمر بإحضار أهلي.

*

«لكأنّ نجوم الكون كلّها تجمّعت لتضيء قاعة الاحتفالات الكبيرة بقصر همذان. كانت الثريّات والشمعدانات الكبيرة تخشخش بآلاف القطع البلّوريّة البرّاقة عاكسة على الجدران المزخرفة بالذهب ألعابًا متقنة من الأنوار قزحيّة الألوان.

وقفتُ إلى جانب ياسمينة ومحمود والمعصوميّ وابن زيلة، أكاد أشرب بعينيّ المشهد المبهر المتاح لمتعتنا الخالصة، وقد أيقنت أنّي لم أقف في حياتي على جمال بهذا القدر. كان السقف يسبح مثل البحيرة بين المقرّنات وكانت ثلاث طبقات من السجّاد الحريريّ تغطّي الأرضيّة فيما أشرفت على مركز القاعة قبّة هائلة، لاشكّ أنّ مهندسي همذان شادوها وفقًا لأكمل حسابات القطع الذهبي[٣٢] الذي جاء به اليونان. كانت هذه القبّة مرصّعة بالفسيفساء ذات القطع الفيروزيّة والبيضاء، تخترقها حوالي المائة من الكوى مثمّنة الأضلاع، يتسلّل منها بريق النجوم ليلاً وشعاع الشمس

نهاراً. أمّا النوافذ المحاطة بالجلين الأزرق والأصفر المحفوف هو أيضاً بالخشب النادر المرصّع بالصدف، فكانت تذكّر بمينا شيراز.

على امتداد جانب كبير من الجدار، وراء العرش المضاء برقائق ذهبيّة، ظهرت لوحة جداريّة عملاقة تصوّر قافلة في طريقها إلى مكّة، براياتها الخفّاقة وحشد جمالها المثقلة بالأحمال. كان يمكن قبل الآن أن أفاجأ أو أُصدم بمرأى وجوه آدميّة مصوّرة، فقد تعلّمت منذ نعومة أظفاري أنّ الكتاب والحديث يمنعان تصوير الكائنات الحيّة.

والحقّ أنّ تحريم تصوير الكائنات الحيّة قد نشأ حسب ابن سينا عن سوء فهم مزدوج: غياب أيّ صورة لكائن حيّ عن أوّل مسجد في الإسلام، ذاك الذي شاده النبيّ حين هاجر إلى المدينة، والإفراط في الترف والتبذير الذي دأب عليه أمراؤنا وخلفاؤنا في قصورهم، ممّا دعا بعض الفقهاء إلى إدخال كلّ أنواع الصور تحت طائلة التحريم الذي كان مقتصراً على التماثيل.

جلس شمس الدولة على عرشه وقد وضع على رأسه طيلساناً في لون العاج وارتدى ثوباً من القطيفة في لون الحجارة الكريمة الزرقاء مطرّزاً بالفضّة والياقوت وألقى على كتفيه معطفاً مبطّناً بفرو الخزّ. إلى جانبه جلس في وقار وليّ العهد ووالدته وأمامهم اجتمع كلّ أعضاء البلاط في ثياب المراسم، القنصل وقادة الجيش مع زوجاتهم وتاج الملك رئيس الحجّاب، وهو شخص سيّئ الطباع يُنسَب إلى طاجاكستان، وأبناء الأعيان والسالار، القائد العامّ للجيوش. كان الخدم قد وضعوا في المجامر البخور والمسك وكان الجوّ مفعماً بالحماس والفضول. الجميع ينتظر بفارغ الصبر أن يتعرّف على هذا الذي أصبح إسمه منذ أيّام عليطرف كلّ لسان، الشيخ الرئيس أبو عليّ بن سينا.

حين ظهر أخيراً خيّل إليّ أنّ قلبي سيتوقّف عن النبض ولم أصدّق عينيّ. كان يتقدّم في هيبة ووقار، رائعاً، وعلى كتفيه معطف من الجوخ الأرجوانيّ

حشي بفرو القاقم ذي كمّين طويلين مثنيّي القفا، وكان يرتدي سروالاً فضفاضاً من الإستبرق الأسود ينحدر حتّى كعبيه، وكان يزرّ صدرته الحريريّة البيضاء بجامة ذهبيّة هديّة من الأمير.

هل هذا هو حقًّا؟ أبو عليّ بن سينا، ابن بخارى الضالّ، الذي كان بالأمس القريب تائها في جبال البرُزْ؟ والذي ذاق ويلات الدشت الكبير؟ والذي خبر جور الإنسان وعانى ظلم الأمراء؟

بحثت عفويّاً عن محمود فألفيته وقد اغرورقت عيناه بالدموع. أمّا ياسمينة التي كان وجهها مختفياً وراء ذلك الحجاب الذي لم تعد تفارقه منذ غادرنا الريّ، والتي كانت ترتدي فستاناً من القطيفة الورديّة مزداناً بزهور فضيّة، فقد بدا عليها توتّر غريب، وبان في عينيها قلق غامض لم يثر انتباهي لحظتها، إلاّ أنّي تذكّرته بعد ذلك بأيّام وآنذاك فحسب فهمت أسبابه.

– أهلاً بك يا أبا عليّ بن سينا، ومرحباً بك في بلاط همذان.

انتزعني صوت شمس الدولة من أفكاري.

كان الشيخ قد اقترب من الدرجات المفضية إلى العرش وجثا أمام السلطان وفقاً للمراسيم الملكيّة.

واصل الأمير ملتفتاً إلى أعضاء البلاط:

– هوذا وزيرنا الجديد، غير أنّي لا أمنح شعبي مجرّد وزير، إنّه عالم أيضاً، بل إنّه أكبر أطبّاء العصر، وفيلسوف، إنّه عقل جامع، ولاشكّ عندي أنّه سيساهم بعلمه وحكمته في خير الجميع.

سرت بين الجمع همهمة إيجاب، فأشار الأمير على الشيخ بالنهوض، وتقدّم القنصل بدوره فوقف إلى جانب ابن سينا، وفتح كتاباً طويلاً لم يكن سوى المرسوم الأميريّ بتسمية الشيخ في خطّته الجديدة، فقرأه بصوت مرتفع.

ما أن فرغ من القراءة حتّى دوّت القاعة بالتصفيق، فوضع الشيخ يده

على صدره وأجاب الجميع بسلسلة من التحيّات. إلى جانبي كان المعصومي وابن زيلة، اللذين صارا ملازمين للشيخ في المدّة الأخيرة، يراقبان المشهد بإعجاب الأطفال.

قال شمس الدولة:

– الآن أدعوكم إلى الاحتفال كما يجب بهذا اليوم الذي حبانا الله فيه بالاهتداء إلى رجل غير عاديّ والانتصار على العدوّ الكرديّ.

دوّت القاعة بالتصفيق من جديد فيما كان الأمير ينزل درج العرش متّجهاً إلى قاعة الطعام المجاورة، حيث كان في انتظارنا مشهد آخر لايقلّ روعة عن سابقه.

على مناضد طويلة من الخشب الدمشقيّ اصطفّت أطباق من صنوف الطعام لم تقع عيني على مثيلها من قبل. وفي ما عدا لحم الغزال والخنزير المحرّمين بالنسبة إلى الشيعة، اجتمعت أمام أنظارنا كلّ الأطعمة التي عرفتها بلاد الإسلام. لحم الخروف والأرنب والكبد والرزّ بنوى الصنوبر والزعفران، وكريّات اللحم المدقوق المغطّسة في مرق مليئ بأنواع البهارات، وحليب الماعز المملّح، والسميذ، وكلّ روائح الهال والقرفة والتنبول والمسك وجوز الطيب. وعلى صناديق من البرونز المصمت وضعت أطباق الفاكهة والحلويّات بمختلف الأنواع والألوان، فيما كان الجشانكير، الخدم المخصّصون لإطعام السادة، واقفين إلى أحد جدران القاعة في انتظار أوامر الضيوف.

كان الشيخ يحاول قدر جهده أن يجيب على أسئلة المدعوّين الذين التفّوا به من كلّ جانب، وقد ظللت أرقبه لفترةٍ فأيقنت، وأنا أعرفُ الناس به، أنّه كان بعيداً كلّ البعد عن كلّ تلك الأبّهة.

لم تنته المأدبة إلاّ مع مطلع الفجر، وآنذاك فحسب استطعت أنا ومحمود أن نقترب من الشيخ. انحنى محمود أمام أخيه وقال متصنّعاً الجدّ:

– أيّها الأخ المحظوظ، هل ثمّة الليلة شيء في الكون بعيد عن متناول يدك؟

مال الشيخ وهمس في أذن أخيه:

- من لي بشيء من الشراب، كأس من شراب سجديان أو من غيرها...

لم نتمالك أنا ومحمود عن الانفجار ضحكًا، ثمّ أضفت محاولاً تقليد الشيخ:

- وماذا في الأرض أفضل من الشراب، هذا المرّ الذي يضاهي مائة مرّة أحلى ما في الحياة... أليس كذلك أيّها الشيخ الرئيس؟

لكنّه لم يكن مصغيًا إليّ. رأيت عينيه تجولان في أرجاء القاعة كأنّه يبحث عن أحد أو عن شيء.

وسرعان ما سألني بصوت عقده القلق:

- وياسمينة، أين هي؟

لم نملك غير الاعتراف بأنّنا نجهل مكانها. كلّ ما أذكره أنّها كانت إلى جانبنا في بداية السهرة، ثمّ...

انقبض وجه الشيخ فجأة، فتطلّع إلى الحضور بحثًا عنها للمرّة الأخيرة، ثمّ خفّ مسرعًا إلى الباب.»

الهوامش:

١- إحدى عواصم الجبال الأربعة، غربيّ همذان، وكانت معروفة باسم كرمنشاه أو كرمنشاهان. (المترجم)

٢- يصوّر هذا السيف بذؤابتين، ربّما للتدليل على صفته الخارقة، باعتبار قدرة الذؤابتين على الوصول إلى عيني العدوّ. (المترجم)

٣- يعني: بعد أن أنتقل إلى الحياة الأخرى فلا يبقى ما أخافه. (المترجم)

٤- شرح لي معلّمي ذات يوم كيف أنّ اليونان منذ فيثاغوراس وأفلاطون، كانوا شديدي العناية بجمال الأشكال الهندسيّة وعلاقات التناسب، وقد ابتدع الفيثاغوريّون القطع الذهبيّ، وهي من النسب التآلفيّة الرئيسيّة عند اليونان، ويتمّ الحصول عليها بقسمة المستقيم إلى جزئين من المستقيم، بحيث يتوافق طول الجزء الأكبر بالنسبة إلى المجموع، كاتّفاق طول الجزء الأصغر بالنسبة إلى الجزء الأكبر. وتكون معادلته كما ذكرها لي الشيخ: أب=ب(أ+ب). (الجوزجاني)

المقامة الحادية والعشرون

بحث عنها في كلّ مكان في ضوء الفجر الرماديّ الداكن، وحين أشرف على اليأس رآها جالسة تحت قنطرة قرب الجامع عند زاوية شارع الفخّارين وحيدة لا يأبه لها أحد.

كظم غيظه على الرغم من أنّ قلبه كان يجف بعنف بين جنبيه، وقال وقد تفصّدت يداه عرقًا.

– ماذا أصابك؟ ألا تشرحين لي الأمر؟

– سامحني، لا أدري ما الذي دفعني إلى ذلك، لقد تملّكني الخوف.

– تعالي، فموقفنا هذا لا يليق بوزير جديد وصاحبته، لنَمْشِ قليلاً.

أحكمت وضع لثامها بشكل آليّ وسارت في إثره.

لم يتبادلا كلمة واحدة قبل أن يصبحا على مقربة من غونباد، ضريح أقيم لأحد أسلاف شمس الدولة الهالكين. من هناك كان يمكن للعين أن تشرف على شساعة السهل الرابض عند قدمي همذان. قال أبو عليّ فجأة:

– هل تعرفين ذاك المثل الشعبيّ الذي يردّده أهل خراسان؟

ثمّ واصل قبل أن تجد فرصة للردّ:

– "الإناء المقلوب أبدًا لن يُملأ"، وإذا صمّمت على الاستمرار في العيش مديرة ظهرك إلى الواقع فإنّ السعادة والشقاء سينزلقان على قلبك مثلما ينزلق السيل على الحصى، الإنسان يا ياسمينة يحتاج إلى السعادة والشقاء كي لا يفقد توازنه، ولا يمكن لإنسان مهما بلغ من القوّة والبأس، وليكن رستمًا الجبّار نفسه، أن يستغني عن صدرٍ حنون يبثّه همومه وشكواه، فحدّثيني بما في نفسك يا ياسمينة، لقد طالت بك المدّة وأنت تحاولين إخفاء أسرار حياتك عنّي.

– وماذا تريد أن تعرف؟

قال ملامسًا اللثام الذي كان يحجب وجه الفتاة:

– أريد أن أعرف كلّ شيء، ولنبدأ بهذا، منذ خرجنا من الريّ وأنت متشبّثة به كأنّ حياتك متوقّفة عليه.

– هل نسيت يا أبا عليّ يا ابن سينا ما جاء في كتاب الله...: "وقُلْ للمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ويَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ"...

أكمل عنها الآية:

..."ولاَ يُبْدِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ إلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا ولْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ولاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلاَّ لِبُعولَتِهِنَّ"...، اسمعي يا ياسمينة، لو كنت قادرًا على المزاح الساعة لذكّرتك أيضًا بقوله...: "واللاتي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ واهْجُرُوهُنَّ في المَضَاجِعِ واضربُوهُنَّ"...، وإذا كنت لا تريدين أن تتعرّضي إلى الأمر نفسه فحدّثيني عن بغداد.

لم تستطع أن تخفي اضطرابها عند سماعها الاسم.

– ولماذا تسألني عن المدينة المدوّرة؟

– لأنّ أحد رجال الصابر زعيم العيّارين واثق من أنّه رآك هناك.

– لاشكّ أنّه كان واهمًا.

– ولماذا هذا الإصرار على الغشّ، لقد اعتبرت أنّ ماضيك من حقّك طالما أنّه لا يمسّ بحاضرنا، ولكنّي اليوم وزير، وما قمتِ به الليلة دليل على أنّ هذا الماضي لم يعد دون انعكاس على حياتنا، وصار من حقّي أن أعرف، بل يجب أن أعرف.

وأضاف هامسًا:

– على الأقلّ كي أستطيع حمايتك.

– حسنًا يا أبا عليّ، سأبوح لك بكلّ شيء، ولعلّك تغفر وترحم.

اقتربت من حافة شرفة الضريح واتّكأت على الحجر شابكة يديها إلى الأمام وأخذت تتكلّم بتمهّل.

– اسمي الحقيقيّ مريم، وأنا لست مسلمة بل مسيحيّة، ولست من الديلم ولا من رحاب فأنا من بلاد اليونان، كانت أمّي مقدونيّة وكان أبي من

سكّان القسطنطينيّة تاجرًا من تجّار الحرير له مصنعٍ للنساجة بشيوس، وقد اعتاد أن يتاجر مع عرب الشام وكان كثير الترحال إلى تلك المنطقة، وأنا أجهل الكثير من تفاصيل ما حدث بعد ذلك إلاّ أنّي أذكر أنّه اصطحبني وأمّي في إحدى رحلاته، فهجم علينا مجهولون ونحن بدمشق، وأظنّ أنّ الأمر كان متعلّقًا بحكاية غامضة تخصّ أحد سندات الصرف أو بدين لم يتمّ إيفاؤه في الموعد، وقد قُتِل والداي أمام عينيّ وأُخِذتُ إلى حلب حيث اشتراني تاجر فارسيّ ألحقني بمتاع قافلته، وهكذا وصلت إلى المدينة المدوّرة وكنت يومها لم أتجاوز السابعة من عمري.

توقّفت عن الكلام، وقد بدا جليًا أنّها تجاهد كي تكتم ما أثارته في نفسها تلك الذكريات.

– هل ترغب في سماع المزيد؟

أومأ بالإيجاب.

– لن يكون مجديًا أن أحدّثك عن تفاصيل حياتي إلى أن بلغت الخامسة والعشرين، ولك أن تتخيّل ما يمكن أن تكون عليه حياة كائن لا يملك أمر نفسه، كائن لا فرق بينه وبين أيّ شيء من الأشياء التي تُنقل أو تُستعمل أو تُباع حسب مزاج أسيادها المتتابعين، وقد عرفت من الأسياد ثلاثة، إلاّ أنّ آخرهم هو الذي كان له تأثير حاسم في حياتي، ولعلّك تعرفه.

– ومن تراه يكون؟

– إنّه القادر.

– خليفة بغداد؟

أشارت ياسمينة أن نعم.

– ولكنّه مازال الخليفة إلى اليوم.

– كان في أوّل عهده بالخلافة حين وصلت القصر.

ظلّ أبو عليّ برهة يحاول أن يجمع شتات أفكاره التي بعثرتها الدهشة، فيما استأنفت الفتاة حديثها.

– وصلت إلى هناك ضمن الجزية التي تُدفع إلى هذا الذي كان يُسمّى "ظلّ الله على الأرض"، وكنت شيئًا من بين أشياء أخرى أذكر منها كميّة من أحزمة الحرير وعددًا من سُبُحات العنبر يناهز المائة وبعض الخصيان الصقالبة وأشياء أخرى غابت عن ذاكرتي الآن، إلاّ أنّي لن أنسى أبدًا لحظة وصولي إلى أبواب مدينة السلام. كنّا قادمين من الشمال فاجتزنا حيّ الصفاريّة وسوق الثلاثاء وعبرنا دجلة ثمّ وقفنا أخيرًا على باب الذهب، وعلى الرغم من الحزن العميق الذي استولى على قلبي فإنّي لم أملك نفسي عن الإعجاب الكبير بكل ذاك الجمال الباهر. كان ثمّة شيء خارق يشعّ من هذا الباب المصنوع من رخام وحجارة والمزيّن بالذهب، وأذكر أنّي كنت لا أستطيع لفت نظري عنه مفتونة وتائهة في الوقت نفسه، بينا صوت في داخلي يحدّثني بأنّي وراء هذا الباب سأعرف حقًا معنى الذلّ والعذاب.

– هكذا إذنْ أصبحت حظيّة الخليفة.

– أقمت في البداية وجريًا على عادات القصر مع النساء في جناح الحريم، ذاك المكان المقدّس في تقاليد المسلمين. استقبلتني القيّمة على الجناح وكنت أرتجف رعبًا، ومازلت إلى الآن أرى كوابيس في النوم فيخيّل إليّ أنّي أسمع صرير تلك الأبواب الثقيلة وهي تنغلق خلفي بابًا تلو آخر، وأنصت إلى ضحكات الخصيان البلهاء وهم يجرّدونني من ثيابي بعيونهم الوقحة.

أطلقت ياسمينة يديها وأخذت تتأمّل أصابعها بنظرة شاردة.

– إعذرني إذا لم أخض مطوّلاً في تفاصيل ما حدث لي خلال الأشهر الموالية لدخولي القصر فلاشكّ أنّك تعرف الكثير عن حياة الحرملك ومراسمه ونظامه الثابت المتوارث جيلاً بعد جيل. كانت الألسنة تجري بأغرب الإشاعات عن مزاج القادر وميولاته، بعضهم يقول إنّه يفضّل بنات البلد الأصفر لضيق فروجهنّ، وبعضهم يعزو إليه الولع بالمصريّات لبساطتهنّ، فيما يذهب البعض الآخر إلى أنّه مأخوذ بالإغريقيّات لشهرتهنّ بلين الجانب والمطاوعة في ممارسة الحبّ من حيثما أُوتِين، أي حتّى

بالطريقة التي تسمّونها أنتم أهل فارس بالدوفرود.

وجد ابن سينا صعوبة كبيرة في إخفاء قرفه.

– ولهذا السبب لم تنس القيّمة وهي تقدّمني إلى ظلّ الله على الأرض أن تمتدح له جذوري الإغريقيّة قبل أيّ شيء آخر.

– يا للدناءة...

لم يبد على ياسمينة أنّها انتبهت إليه.

– كنّ قد قمن بمرْطِ شعر جسمي كلّه وغسلنني بماء الورد ولم يتركن زاوية في جسدي لم يتعهّدنها بالتنظيف والتطييب، ثمّ كسونني بغلالة من الحرير وأسلمنني إلى أوّل ليلة في فراش القادر.

توقّفت لحظة ثمّ قالت وقد صرّت على أسنانها:

– ولم تكن تلك آخر الليالي، فقد تلتها أكثر من ألف ليلة، ألف ليلة تناهشتني خلالها الثورة والاستسلام والجنون، وأغرب ما في الأمر أنّ الأمير وقع في حبّي، فإذا هو متيّم بي، ولم تمض إلاّ أسابيع حتّى أصبحت" نور خطاه "و"بهجة قمره. "وهكذا عرفت روائع حياة السراي وكنوزه العجيبة وأندر أنواع الحليّ، فقد كنت المعشوقة التي يهون في سبيلها كلّ شيء، وطيلة السنوات الخمس التي أمضيتها بالمدينة المدوّرة رأيتُ عند قدميّ فراء تركستان وحرائر الصين وكشمير البلد الأصفر وكلّ ذهب بغداد، فهل فهمتَ الآن لماذا ضقت بما كان عليه احتفال الليلة من أبّهة وبذخ؟

توقّفت عن الكلام من جديد وسألته:

– أما زلت مصرًا على سماع المزيد؟

– لو توقّفت عند هذا الحدّ لكان ذلك أشدّ مرارة ممّا لو أنّك لم تقولي شيئًا.

مدّت البصر لحظة ناحية السهل حيث كانت الشمس تخترق ضباب القيظ.

– لا أدري يا ابن سينا إن كنت قد أحسست يومًا بذلك الشعور الغريب، حيث يحدث في بعض الحالات أن يصبح كرمُ البعض علينا أثقل على النفس من احتقارهم لنا. وهكذا كنت كلّما أجزل لي الخليفة في العطاء زاد حقدي عليه.

– لاشكّ أنّ عطاءه كان موازيًا لطلباته.

– وأيّ طلبات! كانت كلّ هديّة متبوعة بنصيبها من العذاب والإهانات، زحفت كالكلبة على طول البُسُط الحريريّة، ذقت لسعات السياط، لعقت نعال ظلّ الله، غسلتُ بدموعي جراح يديّ، إلى أنّ حلّ بي يوم فقلت إنّ الموت لاشكّ أهون من هذه الحياة.

شمّرت الكمّ عن يدها ومدّتها كاشفة عن معصمها لابن سينا.

– هل تذكر هذه الندوب التي على جسمي؟ لاشكّ أنّك تساءلت عن مصدرها.

مرّ أبو عليّ بإصبعه على أثر الجرح.

– بل إنّي عرفت مصدرها من أوّل وهلة.

– لم تزد محاولة انتحاري الفاشلة مولاي وسيّدي إلاّ حقدًا، صار أكثر طغيانًا وصارت رغباته أكثر إلحاحًا، ثمّ حدث ما لا يعقل، فقد أجبرني على الزواج منه، وهكذا تحوّلت الجارية البائسة إلى زوجة خليفة.

بهت ابن سينا وانعقد لسانه من الدهشة.

– لاشكّ أنّ أيّ واحدة غيري كانت ستشعر بسعادة غامرة، ولعلّي مجنونة بشكل خاصّ، فما أن أشرفت السنة الخامسة على نهايتها حتّى قرّرت الهرب من بغداد في أوّل فرصة، وواتتني الفرصة يوم جمعة بعد الأذان وكان القادر يخطب بالجامع الكبير. رحلت تاركة كلّ شيء، الذهب والحليّ والفراء والجواهر النادرة. اختلست حصانًا واجتزت المدينة كأنّني في حلم واتّجهت إلى الجبال. قضيت بأصفهان أسابيع إلى أن رأيت الرجال الذين أرسلهم القادر في البحث عنّي يدخلون المدينة، فنجوت منهم

بأعجوبة، واتّجهت إلى الديلم ثمّ واصلت طريقي إلى ميناء ديبول على ظفّة بحر الخزر حيث أقمت قرابة السنة.

– أخشى من تصوّر الوسائل التي لاشكّ أنّك احتلتِ بها على العيش.

هزّت رأسها صامتة وأمكن له أن يحزر كآبتها من وراء اللثام.

– لم يعد جسدي ملكي منذ زمن.

– والريّ؟ كيف أدّت بك الأمور إلى الريّ؟

– أصبحتُ على يقين الآن من أنّ الزوج الذي يُطعن في كبريائه ينقلب إلى وحش كاسر، فقد ظلّ القادر لا يكفّ عن طلبي، وسرعان ما اهتدت عيونه إلى أثري فاضطررت إلى الفرار من جديد، وكانت الريّ أقرب المدن إليّ، وهناك شاء الحظّ أن يعترض طريقي شخص اسمه أبو عليّ بن سينا.

ظلّ أبو عليّ صامتًا، ثمّ عمد إلى لثامها في حركة غلب عليها التأثّر فنحّاه جانبًا وطوّق وجهها بيديه مائلاً على شفتيها وقال بلطف:

– حبيبتي المسكينة، ليس بين السعادة والشقاء أكثرُ من نفَس، فلندعُ الله كي لا ينقطع بنا هذا النفَسُ أبدًا، ولنتوسّل إليه كي ينعم علينا أخيرًا بالطمأنينة.

ضمّها إليه وأضاف قائلاً:

– ليست حياتك في النهاية مختلفة عن حياتي، فأنا في السابعة والثلاثين من عمري ولم أخرج من تيه إلاّ لأدخل في تيه، وربّما كان لابدّ لنا من أن نلتقي لنبلغ معًا برّ الأمان، فهل هو همذان؟ أخيرًا؟

*

«سارت الأمور بالشيخ في بداية حياته الجديدة على أحسن حال، حتّى خيّل إليّ أنّ الله قد استجاب إلى دعائه.

وقد دأب على سيرة واحدة لا يحيد عنها طيلة السنوات الأربع التالية، لا يخلص من إلقاء دروسه إلاّ ليشخص إلى فحص المرضى بالبيمارستان فإذا فرغ من ذلك أكبّ على شؤون الوزارة. وكان يجمع كلّ ليلة في داره طلبة

العلم من نوابغ همذان، ومن عجائب الشيخ أنّي صحبته وخدمته خمسة وعشرين سنة، فما رأيته إذا وقع له كتابٌ مُجددٌ ينظر فيه على الولاء، بل كان يقصد المواضع الصعبة منه والمسائل المشكلة فينظر ما قاله مصنّفه فيها فيتبيّن مرتبته في العلم ودرجته في الفهم.

والأعجب من ذلك أنّه على كثرة مشاغله لم ينقطع لحظة عن الكتابة والتأليف، بل لم يكن يعجزه أن يكتب بالاقتدار نفسه وهو بين جولة في غرف البيمارستان واجتماع بالأطبّاء أو خوض مع طلبته في مسألة من المسائل، وهكذا أمكن له في ربيع سنة ١٠١٩ ميلاديّة أن يملي عليّ الصفحات الأخيرة من كتاب القانون، وهي الكتاب الرابع وفيه مقالات في الحميّات وأخرى في تقدمة المعرفة وأحكام البحران وأخرى في الأورام والبثور وأخرى في الجراحات وأخرى في الكسر والجبر وأخرى في السموم وأخرى في الزينة، ثمّ الكتاب الخامس في الأدوية المركّبة وهو الأقرباذين، ولم يمض أسبوع على فراغه منه حتّى أضاف إليه الشروح، ثمّ إنّي طلبت منه إتمام كتاب الشفاء، فصنّف طبيعيّاته وإلهيّاته في عشرين يوماً من العمل الدؤوب، وقد حصل له في هذه السنوات الأربع عدد كبير من الكتب سآتي عى ذكرها بالتفصيل في ختام هذه السيرة.

ثمّ إنّه أضاف إلى كلّ ذلك أرجوزة في الطبّ عجيبة مهداة إلى شمس الدولة، ولمّا كان التبسّط في شرح أسباب كتابتها لا يخلو في نظري من فائدة فقد رأيت أن أفسح المجال لكلمات الشيخ في تبيان ذلك، إذ يقول في مقدّمة هذه الأرجوزة:

"قال الشيخ الرئيس المتطبّب أبو عليّ الحسين بن عبد الله بن سينا لمّا جرت عادة الحكماء وفضلاء القدماء بخدمة الملوك والأمراء والخلفاء والوزراء ورؤساء القضاة والفقهاء بتصانيف المنظوم والمنثور، وتواليف الصنائع والعلوم، لاسيما شعراء الأطبّاء، فإنّهم كثيراً ما نظموا الأراجيز وألّفوا الكنانيش ليبين ألْكَنُهُمْ مِنْ راجِزِهم وماهِرُهم مِن عاجِزِهم، فأنتج

ذلك اطّلاع الملوك على القوانين الطبيّة والمناهج الحكميّة. ورأيتُ صناعة الطبّ بأرض فلانة عاريةً من محاضرات المجالس ومناظرات البيمنارستانات والمدارس، وقد استباح الطبَّ من لا مادّةَ له من فنونه ولا معرفة له بقانونه ولا صورة له في نفسه لا سيما مع قلّة درسه، فتصدّرَ وتشيَّخَ من لم يكن في الصناعة رسخ، فجريتُ على سَنَنِ القُدماء واتّبعتُ سُنَنَ الحكماء، فخدمتُ حضرة سيّدنا الوزير الفقيه القاضي الأجلّ السنيّ المحلّ، أطال الله بقاءه وأدام عزّه وعلاءه وكبت حَسَدَتَهُ وأعداءه، بهذه الأرجوزة المشتملة من الطبّ على جميعه ومن تقسيمه على بديعه، وكسوتُها رداء الكمال وحلّة الجمال بسهولة المضمون وخفّة الموزون، لتكون أيسرَ طلباً وأقلّ تعباً، وهو إذا نظر إليها بفهمه وحصلت في خزانة علمه، استعان منها على العلم الجليل بالجرم القليل، وميّز بين الصنّاع والرعاع والمبتدي والمنتهي والمحقّق والمخرق، وإلى الله أرغب في المعونة إلى ما يقرّب إليه ويزلف لديه، فهو المستعان وعليه التكلان[٢]".

هكذا تحدّث معلّمي.

وقد قسّم أرجوزته على قسمين: العلم والعمل، وهي بالنسبة إلينا نحن طلبة الطبّ كنز حقيقيّ، وهذه أقباس منها على سبيل الذكر، إذ تعرّض إلى الضروريّات فذكر الهواء أوّلاً والمأكل والمشرب ثانياً والنوم واليقظة ثالثاً ثمّ تحدّث عن الرابع من الضروريّات وهو الحركة والسكون فقال:

أمّا الرياضاتُ فمنْهَا المُعْتَدِلْ ... وينْبَغِي لمثْلِ ذَا أنْ يُمْتَثَلْ

فإنّهُ يُعَدِّلُ الأبْدَانَا ... ويُخْرِجُ الأثْقَالَ والأدْرَانَا

يُهَيِّءُ الجِسْمَ للاغْتِذَاءِ ... ويُصْلِحُ الصَغِيرَ للنَمَاءِ

وَهْوَ إذَا أَفْرَطَ يُسمَى تَعَبَا
يَسْتَفْرِغُ الرُوحَ ويَوُلِي النَصَبَا
ويُشْعِلُ الحَرَارَةَ الغَرِيبَةْ
ويَفْرِغُ الجِسْمَ من الرُطُوبةْ
وَيُضْعِفُ الأَعْصَابَ مِنْ فَرْطِ الأَلَمْ
ويَهْرِمُ الجِسْمَ ولَمْ يَأْتِ الهَرَمْ
ولاَ يَغرنَّكَ إفْرَاطُ الدعَةْ
فَلَيْسَ فِي الإفْرَاطِ مِنْهَا منْفَعَةْ
قَدْ تَمْلأُ الجِسْمَ بِخَلْطِ كَالقَذَى
ولاَ تُهَيِّي الجِسْمَ شَيْئًا للغِذَا

كما تحدّث عن خامس الضروريّات وهو الاستفراغ والاحتقان فقال:

وَالجِسْمُ يَحْتَاجُ إلى استِفْرَاغِ
مِنْ سائِرِ الأَعْضَاءِ والدِماغِ
فالفَصْدُ والدوَاءُ في الرَبِيعِ
للناسِ فيهِ غايَةُ المَنْفُوعِ
والقَيءُ يُستَعْمَلُ في المَصِيفِ
وتُخْرَجُ السَوْدَاءُ في الخَرِيفِ
فَغَرْغِرَنْ وَاستَعْمِل السواكَا
تُنَظِّف الأَسْنَانَ والأحنَاكَا
وَأَطلِقِ البَوْلَ وإلاّ فَالحَبَنْ
واستَخْرِجِ الطَمْثَ مِن إفْسَادِ البَدَنْ
وأَرسِلِ الجَوْفَ من القُولَنْجِ
فإنَّ بالإرسَالِ مِنْهُ تُنْجِي

واستَعْمِلِ الحمَّامَ للأوْسَاخِ
وَلاَ تَكُنْ عَنْ ذاكَ فِي تَرَاخِ
لِتُخْرِجَ الفُضُولَ مِنْ سَطْحِ البَدَنْ
وَتُنْظِفَ الجِلْدَ مِن أعْرَاضِ الدرَنْ
وأَطْلِقِ الجِمَاعَ لِلأَحْدَاث
لِيَسْلَمُوا بِذَاكَ مِنْ أخْبَاثِ
وَلاَ تُحَبِّبْهُ إلى النِحَاف
وَلاَ إلى الكُهُولِ والضِعَافِ
وَمَنْ يُجَامِعْ أثَرَ الطَعَامِ
فَعِدهُ بالنِقْرِسِ وَالآلامِ
وكَثْرَةُ الجِماعِ يُضْعِفُ البَدَنْ
وَيُورِثُ الأجْسَامَ أنْوَاعَ المِحَنْ[٣؟]

تلك مقتطفات من الأرجوزة الطبيّة التي نظمها الشيخ الرئيس أضعها بين يديك وكلّي رجاء أن تجد فيها بعض الفائدة لصحّتك وأن لا تقابلها بالهزء، ذلك أنّي لا أعلم متى سيتاح لك أن تقرأ هذه السطور ولا في أيّ مكان، وأذا أمكن لهذه النصائح أن تظلّ قائمة بعد ألف عام أو أكثر فلن يكون لفخري وسعادتي مثيل، بل إنّي سأطلّ من هناك، حيث أرجو أن يمنّ الله عليّ بمكان مع المنعمين في دار البقاء، وأن يهنئني بالعيش بين أشجار العنّاب التي نزعت عنها أشواكها، وأشجار الأكاسيا المصطفّة، والظلال الوارفة، رافعاً كأسي المترعة بخمر المختارين، راضي النفس قرير العين، شارباً على نخب أمير العلماء.»

كان طقس المدينة حارّاً خانقاً في تلك الليلة من ذي القعدة، وكان أبو عليّ مستمرّاً في الكتابة وقد تفصّد جبينه عرقاً، دون أن يبدو عليه الانتباه إلى ما كان فيه تلاميذه من جدل لم ينقطع منذ أكثر من ساعتين في شأن الشاي

ومصدره. ارتشف جرعة كبيرة من النبيذ الحامض مباشرة من الإبريق وعاد من جديد إلى الكتابة.

هتف ابن زيلة بصوت يكاد يصرخ:

– أيّها الشيخ الرئيس، اشرح لهذا الحمار المبردع الذي يدعى الجوزجاني كيف أنّ الشاي قادم حقّا من الصين.

قال الجوزجاني محتجاً:

– هذا التخريج يجنح إلى السهولة، ما أريده هو التحقيق والتدقيق.

غمس ابن سينا قلمه في المحبرة وعاد إلى ورقه دون أن يأبه لأحد، فكرّر ابن زيلة السؤال، وعندها انفجر أبو عليّ قائلاً:

– كفّوا عن هذا، فما علاقتي بأحاديث العجائز التي تخوضون فيها؟ ألا ترون أنّي مشغول؟

لاحظ المعصوميّ، وكان مصيباً:

– وما الجديد في ذلك أيّها الشيخ الرئيس؟ أما كنت منذ شهور تملي الكتاب الخامس من القانون على الجوزجاني وتشرح لي كرويّة الأرض في الوقت نفسه.

– شارتا بارتا... كلام فارغ.

كان ذلك كلّ ما أجاب به ابن سينا على ملاحظة تلميذه.

عاد الجماعة إلى الخوض في جدلهم وقد أحسّوا بشيء من الخيبة، وعاد ابن سينا إلى تسويد أوراقه، ولم يكن له أن يفرغ من ذلك ويضع القلم جانباً إلاّ مع انتصاف الليل.

– سأترككم الآن لأمثل بين يدي الأمير.

سأل ابن زيلة وقد ساورته الظنون:

– أ تطلب الأمير في هذه الساعة؟

– ما أريد أن أعرضه عليه لا يحتمل التأجيل.

أشار بإصبعه إلى رأس المخطوط، عارضاً العنوان على الجميع: كتاب

تدبير الجند والمماليك والعساكر وخراج الجند والمماليك.

همس الجوزجاني وقد انقلبت سحنته:

– ليحرسنا الله، فقد أكون على خطإ، لكنّ نفسي تحدّثني بأنّنا سنمشي عمّا قريب على حدّ السيف...

*

قال شمس الدولة بلسان خدِر:

– هل القضيّة بهذه الخطورة يا أخي؟ أنا منهك.

جلس ابن سينا صامتًا على إحدى الأرائك المفروشة بطنافس الحرير وأدنى منه عمودًا رخاميًّا صغيرًا كان عليه شمعدان ثمّ قال:

– اغفر لي اقتحامي عليك مخدعك يا شمس الدولة، وأغلب ظنّي أنّك ما أن تسمع إلى ما سأقرأه عليك حتّى تنسى ما سبّبه لك النهوض من إزعاج.

فرك شمسٌ عينيه وأصلح من جلسته بين الوسائد.

– حسنًا، ولكن أرجو أن لايطول الأمر أكثر من اللازم.

– قبل أن أقرأ عليك ما كتبته أودّ تذكيرك ببعض الأمور المتعلّقة بالجيش.

– ها أنت تخوض في الموضوع الذي أعرف مسبّقًا أنّه سيوقظ قرحتي.

– مرّت اليوم أربع سنوات على تسلّمي مقاليد الوزارة، وكانت هذه المدّة كافية كي أنظر في موضوع تنظيم العساكر من جميع وجوهه، وقد تبيّن لي بما لايدع مجالاً للشكّ أنّ الثمرة فاسدة.

قال شمس وقد بدا عليه الاكتئاب:

– نعلم ذلك أيّها الشيخ الرئيس ولا جديد في كلامك.

– لقد أصبح الجيش غولاً أخطبوطيًّا تتزايد طلباته المشطّة كلّ يوم، وكلّما زاد نفوذه على السلطة المركزيّة زادت الحاجة إلى مدّه برواتب أكبر، وما انفكّ ثمن الولاء يرتفع من أزمة إلى أخرى، ممّا أرهق خزينة الدولة وأنهك بالتالي كلّ همذان.

– يا أخي ما فائدة تكرار هذه الأمور المعروفة؟ أقول لك مرّة أخرى إنّه لا جديد في كلامك.

– ولكن أتعرف يا شمس الدولة أنّنا اضطررنا في المدّة الأخيرة إلى ممارسة الإقطاع لإشباع نهم مرتزقتنا، وأنّ الدولة لم تعد تملك أراضي تقطعها، وأنّ توقّف الفتوحات حرمنا من إضافة أراضٍ جديدة إلى حدودنا، ولم يعد ممكنًا مواصلة الشطط في الجباية وانتزاع الأراضي من أصحابها الشرعيّين دون المساس بهيبة الملك نفسه؟

– ولماذا كلّ هذا التخوّف؟ ألم نجد حلاً لهذه المسألة؟

– هل تقصد إرضاء الجند بدلاً من إقطاعهم الأراضي، بمنحهم الحقّ في جزء من الضريبة العقاريّة المسلّطة على السكّان؟

– أجل، وهكذا استتبّ النظام.

رفع أبو عليّ يديه إلى السماء ساخطًا:

– بل قل استتبّت الفوضى، فهل نسيت أنّ هذا الحلّ يعني إفقار الدولة وفراغ خزائنها؟ وأنّه يعني أيضًا وقوع أصحاب الأرض ضحيّة جشع فئة لا يهمّها شيء عدا التحصيل الفوريّ لأكثر ما يمكن من الأموال، وإن كان ذلك على حساب تخريب التربة وإفلاس الفلاّحين واغتصاب أراضيهم؟

– حسنًا، فماذا ترى؟

– أرى أمرين: أولهما أنّ هذه الأرض المسقيّة بالذهب والبضائع والرجال لا قِبل لها بتحمّل أعباء جيشها، وثانيهما أنّه لابدّ من الكفّ عن خصّ المرتزقة باقتطاع الضريبة العقاريّة.

طرف شمس الدولة بعينيه كأنّه لا يصدّق ما يسمع.

– مجنون! هل يكون وزيري قد فقد عقله؟

– بل لم أكن أعقل منّي الآن.

– هل تعرف ماذا يعني حرمان المماليك من هذه الضريبة؟ هل تتصوّر ما يمكن أن نتعرّض إليه بسبب ذلك؟ سنجد أنفسنا أمام ثورة عارمة.

– لكنّ عدم إصلاح أمور اقتصاد الدولة ينذر بخطر ثورة أكبر يا مولاي، فالغضب يحتدم من كلّ جانب والضيق يشتدّ بالجميع، وقد ضاق الفلاّحون وملاّكو الأراضي والشعب كلّه ذرعًا بما يحتكره البعض في هذه البلاد من حظوة وامتيازات ومكاسب، ولم يمنعهم عن الانفجار غير تقديرهم الكبير لك، ولكن إلى متى يستطيعون الصبر؟ إنّ مملكتك لاتزال هشّة، وقد خضت خمس حروب في أربع سنوات وها أنت تتأهّب من جديد للهجوم على الريّ لوضع حدّ للفوضى السائدة هناك.

اتّقدت عينا السلطان غضبًا لذكر الريّ:

– ليت الله يقذف بأخي ووالدتي إلى جهنّم، لن أرحمهما هذه المرّة، سألقي بهما معًا في زنزانات تباراك.

– لكنّ ذلك لن يحلّ مسألة المماليك.

– أنت الوزير، ومن حقّك القرار.

– ولكنّك صاحب الأمر يا مولاي، و...

قاطعه شمس الدولة وقد بان عليه التبرّم:

– أصغ إليّ يا ابن سينا، أنا واثق من أنّ حرصك على العدل هو دافعك إلى مثل هذا الموقف، وأعرف أيضًا أنّ هذه المسألة لابدّ لها من حلّ إن عاجلاً أو آجلاً، ولكنّي لا أجهل المخاطر التي تحفّ بحرمان العسكر من امتيازاته، فانظر في الأولويّات واتّخذ القرار المناسب.

– لابدّ من تغليب العدل على المصالح الشخصيّة.

– إذن فلتصنع ما بدا لك، لقد أبديت الكثير من الفطنة والبصيرة إلى حدّ الآن، ولن أبخل عليك بالدعم والمساندة، إلاّ أنّي أطلب منك أن تؤجّل الإعلان عن الاصلاحات التي تزمع عليها إلى ما بعد عودتنا من الريّ، فالمعركة ستكون صعبة وأنا في حاجة إلى تظافر جهود كلّ القوات.

– السمع والطاعة يا مولاي.

نفخ ابن سينا على الشمعدان واتّجه نحو الباب وكان يهمّ باجتياز العتبة

حين ارتفع صوت شمس الدولة من جديد:

– احترس على أيّ حال، وفكّر جيّدًا في العواقب، فلعلّ حالة سيّئة في ظلّ السلام أفضل من الرخاء في ظلّ القلاقل.

الهوامش:

١– مقتطف من مقدّمة " الأرجوزة في الطبّ " لابن سينا. (المعرب)

٢– من البيت رقم ١٨٩ إلى البيت رقم ٢٠٨ من " الأرجوزة في الطبّ " لابن سينا. (المعرب)

المقامة الثانية والعشرون

غزنة سنة ١٠١٩ ميلاديّة.

الحمد لله رب العالمين حسبنا الله ونعم الوكيل، وبعد

فهذه رسالة إلى أبي عليّ بن سينا، أحاطك الله مغبوطا بنيل ما تهواه وأسعفك بجميع ما تتمنّاه، لقد مرّ زمن طويل لم تقرأ لي فيه ولم تصلني أخبارك والظاهر أن رسائلنا تاهت بها السبُل فإذا هي تلتقي مرّة ويخطئ بعضها بعضا مرّات، فقد ظننتك بالريّ وإذا أنت بقزوين وأرسلت اليك بقزوين فإذا أنت بهمذان وفوق ذلك وزير، أما أنا فقد عشت بالهند أكثر ممّا عشت ببلاط الغزنويّ، وهاهي الصلة تتجدّد بيننا اليوم فكم أنا سعيد بذلك وكم أنا شاكر لله تعالى فضله وإنعامه علينا بتجدّد اللقاء.

بين يديّ الآن نسخة من كتابك القانون ولا تسعفني الكلمات للتعبير عن شكري وامتناني لتفضلّك بإرساله إليّ، وإنّه لعملٌ عظيم وأثرٌ خالد، كما لا يفوتني شكرك على ما مددتني به أيضا من نسخ لعدد من أعمالك الاخرى، وقد التهمتُ مختصر الفلسفة التهاما وفُتنت بمقالتك في النبض، وإنّي لأذكر اليوم حديثنا القديم ونحن بدار والدك وأنت تتخوّف من اقتحام التأليف فلا أتمالك عن الابتسام، كما أنّي قرأت باهتمام كبير مختصرك في الفلك وقد يهمّك أن تعلم أنّي قمت بناء على رغبة الملك بتشييد مرصد كبير أسميته حسب العادة يمين الدولة[1]

وسيسمح لي هذا المرصد إن شاء الله بضبط موضع غزنة من الأرض بدقّة، والحقّ أنّي لا أحاول هذا الامر لأوّل مرّة، فقد استطعت منذ عامين، وكنت بكابول مكتئبا ودون آلات وفي ظروف بائسة، أن أصنع ربعية[2] بسيطة برسم قوس مقسّم إلى درجات على ظهر لوح للحساب وباستعمال سلك رصاصيّ، وقد أمكن لي وفقا للنتائج التي حصلت عليها والتي يمكن أن أمدّك بها إذا رغبت في ذلك أن أضبط موقع المحلّة التي كنّا بها بدقّة،

وأنا مقرّ العزم على ضبط خطوط الطول وخطوط العرض الخاصّة باهمّ مدن دار الاسلام ومناطقها[٣].

وما دمت بصدد الفلك أريد لفت نظرك إلى كتاب الفلكي الهنديّ النابغة براهماغوبتا وإلى مجموعة أجزاء التاباهافارا، ذلك أن ما جاء فيهما لا يخلو في نظري من فائدة.

إنّ فريقا من علماء الهند يذهب إلى أن الأرض تتحرك وأن السماء مستقرّة لكنّ فريقا آخر يردّ على هذا الزعم بحجة أنّ الحجر والشجر ما كانت لتستقرّ على الأرض لو صحّ القول بحركة الأرض، فيردّ براهماغوتا بأنّ هذه النتيجة لا تحصل بالضرورة، ولعلّه يذهب إلى هذا الردّ بسبب قوله بأنّ الأجسام الثقيلة كلّها مجذوبة الى مركز الارض، أمّا أنا فقد رأيت أن أنبغ علماء الفلك القدامى والمحدثين ما زالوا يخوضون في مسألة حركة الأرض محاولين نفيها، لذلك اعتنيت منذ ستّة أشهر بهذه المسألة في كتاب مخصوص أسميته "مفاتيح الفلك"، ولعلّي أزعم دون غرور أنّي جئت فيه بما لم يستطعه الأوائل إن لم يكن من جهة التعبير فمن جهة فحص الموضوع من جوانبه المختلفة. غير أني أظنك تهتمّ أكبر اهتمام بالخبر الذي أسوقه إليك الآن: لقد وفّقني الله إلى ضبط محيط الارض. وصورة ذلك أنّي كنت بنندانة[٤] منذ عامين، فبدأت بتقدير ارتفاع جبل مجاور كان يتراءى خلف القلعة، ثم ضبطت انحناء الأفق المرئيّ بالقياس إلى ارتفاع ذلك الجبل، وكانت النتيجة ٦٣٣٨.٨٠: كم طول شعاع الارض[٥].

وقد اهتممت من ناحية أخرى اثناء تجوالي بأرض الهند بظاهرة الخسوف وبكيفيّة تقدير الأجزاء المضاءة من القمر، كما تعلّقت همّتي بضبط ترتيب للكواكب وفقا لأحجامها (والحقّ أنّ هذا الترتيب كان وفقا لدرجة إشعاعها) وقد أحصيت منها ألفاً وتسعة وعشرين نجما.

وأنا عازم من ناحية أخرى على تعميق دراستي لصخور الأرض الطباقيّة، ذلك أنّي مقتنع أكثر فأكثر بأنّ كلّ ما طرأ عليها من تغيير إنّما

تمّ منذ زمن بعيد جداً وفي ظروف من شدّة البرودة والحرارة ما زلنا نجهل عنها كلّ شيء.

ولكن عليّ أن أكفّ عن الحديث في أمر ما أُزمع عليه وما أنجزته فقد يذهب بك الظنّ إلى أنّي أصبحت على شيء من الاعتداد والزهو، ولأختم هذه الرسالة تجنبًا لذلك بالاقتصار على مدك بآخر أخبار المنطقة. لا أدري إن كنت تعلم بأنّ السلطان ابن مأمون وزوجته (وأسمح لنفسي بتذكيرك بأنّها ليست سوى أخت ملك غزنة) قد هلكا على إثر ثورة داهمت القصر، فما كان من محمود إلاّ أن أسرع بالانتقام لهما حاملاً على خوارزم مخمداً الثورة منصبًا أحد أتباعه على عرش ابن مأمون. وهكذا ترى أنّ مملكة الغزنوي في ذروة توسّعها.

أمّا بخصوص علاقتي بالسلطان فلن أفاجئك إذا قلت بأنّها ليست على ما يرام. إنّه طاغية دمويّ متعطّش الى السلطة، ونفسي تحدثني بأنّه يحلم بإمبراطورية لا تقلّ حجما عن إمبراطورية الإسكندر.

ولعلّك تتساءل عن دواعي مكوثي ببلاطه، إذن فاعلم أنّها تتلخّص في كلمتين: شغفي بالهند.[6] إنّه يملك عليّ كلّ أمري، ولن أجد أفضل من غزنة منطلقا لمواصلة رحلتي لمعرفة هذه البلاد، ولن أغادرها طالما حباني الله بالقدرة على تحمّل الإقامة فيها.

ثمّ إنّي مضطرّ إلى مكاشفتك بخبر محزن، فلاشكّ أنّك تذكر الفردوسي وشاهنامته، لقد رحل عنّا للأسف الشديد وتوفّي منذ أيّام، ولكنّي أتساءل وقد حظيت بالاطّلاع على كتابه إن كان ممكنا لصاحب عمل عظيم مثل هذا أن يموت. لقد استطاع أن يجمع في هذا الكتاب كلّ الأساطير التي تتحدّث عن هذه البلاد منذ ملوكها الأوائل إلى تاريخ فتحها على يد العرب أكلة السحليات. ولن أنسى أبدا وصفه لعشق زال وروذابه[7]، أو المرثيّة الرائعة التي نظمها في موت ابنه، وها أنا أعرضها عليك عساك تقف على قيمتها:

إلامَ أؤمّل في العيش رفدا
وجاوزت خمسا وستين عداً
تعلّمني الحادثات الرشد
حزينًا معنًى بفقد الولد
وكانت نواي فولّى الفتى
وخلّفني جسداً ميّتا
أُعجِلُ عَلَيَّ أحظَى به
فإن أحْظَ لَمْ آلُ في عتْبِهِ
لماذا تُولّي وتقسو علَيَّ
وكان الردَى نوبتي يا بُنَيَّ
لماذا تركتَ الرفيق الهَرِمْ
وكنتَ لهُ آسِيًا لم تَرِمْ
ألاقيتَ أتراب عُمْرٍ نضيرْ
فولّيتَ عنّي تحثُّ المسير[٨]

والحقّ أنّ علاقته بالغزنوي سرعان ما ساءت وتعكّرت، وقبل اسابيع من موته تجرأ الفردوسي على هجاء الغزنوي امام حاشيته موجها اليه هذه الكلمات الفظيعة:

"لو كان للملك أبٌ في الملوك لوضع على رأسي تاجا من الذهب، ولكنّ ابن الأمة لا يُرجى منه خير ولو كان أبوه ملكًا، فحتّام أطيل في هذا، لم يكن للملك مقدرة على الخير فلم يرفعني على العرش ولم يكن عظيم الأصل فلم يقدر على سماع أسماء العظماء[٩]"...

وإنّ من يعرف شيئا عن أصول الغزنويّ لا يخفى عليه ما كان لهذه الكلمات من وقع مهين.

وكما ترى فإنّ السعادة بالمقام في ظلّ أولياء النعم صعبة المنال، يشترك في ذلك العلماء والشعراء على حدّ سواء، إلاّ أنّي أرجو من الله أن تجدك

رسالتي هذه وأنت في أرغد العيش وأكمل السعادة، وكم أتمنّى لك النجاح والتوفيق في مهمّتك الجديدة، على أن تحذر من الوقوع في فخّ السلطة فهو فخّ قاتل بالنسبة إلى النفوس النقيّة...

أخوك ابن احمد البيرونيّ.

لم يضع أبو عليّ رسالة البيروني على الطاولة إلاّ بعد أن سمع طرقًا شديدًا على الباب.

– افتح أيّها الشيخ الرئيس، افتح بسرعة.

خيّل إليه أن الغرفة بأكملها تتناثر شظايا، ثمّ سرعان ما أطلّ الجوزجاني وقد جحظت عيناه وغاب الدم عن وجهه. كان يغمغم وقد أخذ منه الرعب كلّ مأخذ.

– لابدّ من الهرب أيّها الشيخ الرئيس، لابدّ من مغادرة المدينة.

– ماذا تقول؟ هل جننت؟

قبض الجوزجاني على ذراع الشيخ وسحبه نحو النافذة

– وأنت هل أُصبت بالصمم؟ ألا تسمع؟

وفيما كان أبو عليّ يتساءل عن جليّة الامر، كان الفتى يدفعه إلى حافة النافذة مشيرا إلى وسط الفناء إلى أسفل.

– قد تكون أُصبت بالصمم لكنّي لا اظنّك فقدت البصر أيضا.

عند ذاك انتبه أبو عليّ إلى ما يحدث، وكان قد أغرق في قراءة رسالة البيرونيّ فغاب عن كلّ شيء.

رجال مسلّحون من بينهم فرقة من المماليك وعدد من قادة الجند يلوّحون بقبضاتهم مشيرين إليه مهدّدين بالويل والثبور. كانوا يطالبون برأسه.

– ولكن ما الذي أصابهم؟

همّ الجوزجاني بالإجابة إلاّ أنّ رجالا ثلاثة اقتحموا عليهما الغرفة وقد

سبقهم وقع الاحذية العسكريّة الثقيلة، وكانوا مصحوبين بتاج الملك كبير أُمناء القصر.

- اتبعنا أيّها الشيخ الرئيس فالأمير يرغب في رؤيتك فورا.

دون أن يحاول الاستفسار عن الأمر، ألقى أبو عليّ بردة على كتفيه وسار في إثر الجنود. في الطريق فاجأه الاضطراب الغريب الذي عمّ القصر. كان ثمّتَ جنود من الحرس الخاصّ بشمس الدولة، وخدمٌ مفزوعون يتراكضون في كل اتجاه. بعد برهة كان يدخل غرفة البلّور حيث وجد الأمير في انتظاره وإلى جانبه القنصل وكبير الأمناء والأمير سماء الدولة وليّ العهد.

هتف الأمير:

- إنّها الكارثة، إنّها النهاية.

- نهاية ماذا؟ لكأنّ المدينة فريسة لكلّ جِنّ الكون.

قال تاج الملك بصوت مكتئب:

- لعلّك لم تخطئ فالمدينة حقًّا فريسة للجنّ وأكثر.

وصلتهم من الخارج أصوات أكثر حدّةً ووعيدا.

صرّ أبو عليّ على قبضتيه.

- هل يمكن أن تشرح لي الأمر ياشمس الدولة؟

تدخّل سماء:

- ألا تسمع؟

قال تاج الملك موضّحا:

- إنّهم يطالبون برأسك.

- هكذا خيّل إليّ، ولكن لماذا؟

رفع شمس الدولة عينيه إلى السماء وقد نفد صبره.

- هل فقدت الذاكرة يا ابن سينا؟ ألم تُصْدِر مرسومًا بإلغاء امتيازات الجند؟

– هو ذاك إذن؟

هتف تاج الملك حانقًا:

– وماذا كنت تتوقّع؟ هل يمكن أن تنتزع اللقمة من الفم الذي شرع في مضغها؟

إنقبضت ملامح أبي عليّ فجأة وانحنى ظهره. كانت علاقته مع كبير الأمناء دائما سيّئة، وكان دائم الشكّ في أنّ الرجل لم يستطب تسميته في منصب كان يطمع فيه لنفسه قبل قدوم الشيخ الى همذان.

قال بصوت منهك:

– اطمئنّ يا تاج الملك فلاشكّ أنّ الوزارة لن تبقى شاغرة بعد ذهابي.

ودون أن ينتظر ردّ الأمير اتّجه بخطوات سريعة إلى النافذة وأشار ناحية المتمرّدين.

– مولاي، ماذا تنتظر لتفريق هؤلاء الأوغاد؟

قال تاج الملك ساخرا:

– ومن الذي سيقوم بذلك؟ أنت؟ أم مولانا بيديه الخاليتين من السلاح؟

– ولكن ألم يبق لنا جنود مخلصون؟ هل يمكن أن تكون الثمرة قد فسدت تماما؟

قال شمس الدولة وهو يزمّ شفتيه:

– كلاّ، لم تفسد الثمرة تمامًا.

– فلماذا إذن لا...

– لماذا لا أشتّت صفوفهم؟ السبب واضح يا ابن سينا، لأنّي لست مجنونا، إنّ إراقة دم الجند بواسطة الجند أمر لن أسمح به لنفسي إلا إذا رأيت أن أتخلّى عن مفاتيح همذان.

قال سماء مضيفا:

– وهكذا ينتهي الملك ويتحوّل ميراث جدّي إلى رماد.

– ولكنّك لن تترك لهؤلاء المرتزقة ان يملوا عليك شروطهم؟ ألا تعرف يا

مولاي أنّك إذا رضخت لهم اليوم فإنّك تتنازل لهم عن المملكة؟

– لا تتظاهر بالسذاجة أيّها الشيخ الرئيس، إنّها ليست شرذمة متمرّدين، إنّه جيش يثور.

تكلّم الامير بحدّة ومرارة لم يعهدهما فيه من قبل.

– حسنا يا شمس الدولة، فما المطلوب منّي الآن؟

– السالار يطالب بإلغاء المرسوم.

– الأمر بسيط يا مولاي، فليكن للسالار ما يريد ولنحرق المرسوم في الساحة العامّة.

– ليس هذا كلّ شيء.

انتظر أبو عليّ أن يتمّ الأمير كلامه إلاّ أنّ القنصل هو الذي تدخّل هذه المرّة:

– إنّهم يطالبون برأسك أيضًا. قادة الجند مجمعون على المطالبة بقتلك.

– فهل أعتبر نفسي ميتا من الساعة يا مولاي؟

لوّح شمس الدولة بيديه في حركة غيظ.

– الله وحده يحيي ويميت ولا أرغب في لعب مثل هذا الدور.

– فما العمل إذن؟

– لقد فاوضتهم في أمرك.

– ماذا؟

– وأعدلتهم عن قتلك بنفيك عن الدولة.

– النفي؟

خيّل إلى أبي عليّ أن المرايا الدمشقيّة التي ازدانت بها جدران القاعة تهشّمت دفعة واحدة.

– اهدأ بالاً يا أبا عليّ فهي كلمة أقوى من نتائجها، والحقيقة أنّك ستتوارى في دار أحد أصدقائي، الشيخ أبي سعيد بن دخدوك، على بعد مائة فرسخ من المدينة، وقد هيّأنا لذلك كلّ ما يلزم، وهو مكان آمن وصاحبه

رجل مخلص وكريم وقادر على حفظ السرّ.

– ولكنّه امر فظيع ألاّ يكفيهم إلغاء المرسوم حتى يضيفوا إليه إهانة الترحيل؟

ردّ تاج الملك بسرعة:

– هكذا كان وليس لنا خيار.

– ماذا أستطيع أن أصنع؟ أصغ إليهم وهم يعوون مثل الذئاب الجائعة. إمّا أنت وإمّا المملكة.

غمغم القنصل:

– يبدو أنك رجل صعب لا يرضيه شيء أيّها الشيخ الرئيس.

– لأكن كما عنّ لي أن أكون فهذا امر لا يعني غيري وغير خالقي، طالما أنه الوحيد الذي يمدّ لي يد العون اليوم.

انفجر سماء الدولة صارخا:

– انت ظالم يا ابن سينا، فوالدي أيضا يمدّ لك يده بالعون، لقد حارب قادته وجنده ليُبقي على حياتك.

كانت صرخات الحشد تتصاعد وتزداد عنفا. اقترب ابن سينا مرّة أخرى من النافذة، ومن وراء ستائر القطيفة اخذ يرقب الوجوه المربدّة المتوعّدة وقد امتلأ قلبه بالمرارة.

– والمؤسف أنّ بعض هؤلاء مدين لي بعافيته...

ثم دار على عقبيه وقال بصوت واهن:

– حسنًا، ليكن ما تريدون.

بدا على شمس الدولة الارتياح.

– سترى يا أبا عليّ، لن تكون في حاجة الى شئ، سيصحبك أهلك وسآمر بمن يحمل إليك مخطوطاتك وآلاتك وسيسهر ابن دخدوك على تلبية كل رغباتك.

– أشكرك على ذلك يا مولاي، لكن دعني أتمنّ على الله ألاّ تندم يوما على

رضوخك للقوة والدناءة.

*

"لم يختلف ابن دخدوك عمّا وصفه به شمس الدولة، فقد كان رجلا دمثا بشوشا في الستّين من عمره تكشف عيناه عمّا في نفسه من رضىً وقناعة، ولاشكّ أنّه جرّب الكثير وخبِر الناسَ وعرف من المدن ما لا يحصى فلم يحتفظ من كلّ ذلك إلاّ بذكر ما هو جميل.

كان يمتلك ضيعة شاسعة جنوبيّ همذان تحفّ بها حدائق غنّاء مزهرة تعبق بروائح الورود والياسمين، وكان يقوم على أرضه بنفسه على الرغم من تقدّمه في السنّ حريصا على العناية بكلّ ورقة وكل نبتة.

وكان يحفظ عن ظهر قلب أجمل قصائد الشعر الفارسيّ لا تخفى عليه خافية من اعمال الدقيقي وبابا طاهر والرودكي، وكان يطيب له كلّ ليلة أن يقرأ علينا من الأبيات ما لاشكّ في روعته وجماله.

وقد طلب منّي الشيخ ومن محمود وياسمينة ألاّ نعيد أمامه ذكر شيئ ممّا حدث بهمذان، إلاّ أنّنا كنّا نعرف ونحن أدرى الناس به أنّ هذا الجرح الجديد الذي انضاف إلى جراحه القديمة لا يزال ينزف بداخله.

ثمّ أنّي اغتنمت فرصة انصرافه عن الوزارة أو انصراف الوزارة عنه فسألته شرح كتب ارسطوطاليس، فذكر أنّه لا فراغ له إلى ذلك في ذلك الوقت، وأضاف قائلا: ولكن إن رضيت منّي بتصنيف كتاب أُورِدُ فيه ما صحّ عندي من هذه العلوم بلا مناظرة مع المخالفين ولا اشتغال بالردّ عليهم فعلت.

فرضيت به فابتدأنا بالطبيعيات من كتاب سمّاه الشفاء وهو من الفلسفة بمثل ما هو كتاب القانون من الطبّ، فاذا أمكن لكتاب القانون أن يجعله سيّد العلوم الطبيّة فإنّ كتاب الشفاء سيجعله سيّد الحكمة.

ومرّت الأيّام وكان ابن دخدوك قد علّم الشيخ لعبة فاتنة اسمها لعبة البراهمان، وفيها بيادق تمثّل الفرسان والوزراء والأبراج والجنود وهم

يخوضون الحرب على رقعة بتربيعات، وتقول الأسطورة إن براهماناً هندياً اخترع هذه اللعبة للترويح عن أمير عربي، وكانت تسلية رائجة في المنطقة إلاّ أنّ لاعبيها المهرة كانوا نادرين بالنظر إلى صعوبتها وتعقيدها، وقد أمكن لابن سينا بفضل ذهنه الرياضيّ الخارق أن يبرع فيها بسهولة، وسرعان ما أخذ يقترح على مضيفه افتتاحات جديدة كانت تخيّب آمال العجوز في الكسب لكنّها تثير اعجابه الشديد.

وكان فارغا إلى جولة من هذه اللعبة وقد أدركَنا اليومُ الاربعون من منفانا، حين أقبل علينا ابن شمس الدولة بنفسه في طلب الشيخ لوقوع أبيه صريع نوبة جديدة من نوبات القولنج، فتبعه الشيخ على الفور.

لا أعلم شيئا بالتفصيل عمّا دار بين شمس الدولة وطبيبه حين التقيا بعد هذا الفراق الطويل، كلّ ما أعلمه أنّنا بعد أيّام وحين كاد القلق يذهب بنا كلّ مذهب رأينا بعثة جديدة تصل الضيعة معلنة أنّ الشيخ ينتظرنا بهمذان. كان الملك قد استوزره للمرّة الثانية".

الهوامش:

١- كان يمين الدولة أحد الألقاب العديدة التي خلعها خليفة بغداد على محمود الغزنويّ، وكان لابدّ للمرصد الذي أقامه البيرونيّ أن يحمل اسم الملك وليّ النعمة. (المترجم)

٢- الربعيّة أو ذات الربع، آلة لقياس الارتفاع الزاوي. (المعرب)

٣- سيقوم البيروني فعلاً بإنجاز هذا الجدول الذي ضبط فيه أكثر من ستّمائة موقع، أمكن بها أوّل تحديد علميّ لاتّجاه الكعبة، أو القبلة). (المترجم)

٤- قلعة نندانة التي ظلّ بعضٌ من أطلالها قائمًا إلى اليوم، كانت منتصبة في منطقة جبليّة على مسافة مائة كيلومتر من إسلام آباد، عاصمة باكستان الحاليّة). (المترجم)

٥- هذه النتائج التي أوردناها قصداً بحساب الكيلومترات حرصاً على المزيد من الوضوح، مدهشةٌ من حيث دقّتها. ولو قارنّاها بأرقام اليوم ٦٣٧٠.٩٨: كم، أو

٦٣٥٣.٤١ كم إذا انطلقنا من نندانة، لما تجاوز الفارق الـ ١٧.٥٧ كم. (المترجم)
٦- دامت رحلة البيروني إلى الهند أكثر من عشرين سنة. (المعرب)
٧- جاء في الشاهنامة أنّ زال بن نريمان وُلِد أبيض الشعر، فطرحه أبوه على أحد الجبال وربّته العنقاء بين أفراخها وسمّته دستان، ثمّ أنّ أباه ندم فاستردّه من العنقاء، وكبر الفتى وشارك أباه المُلْك، وكان لأحد ملوك الجوار ابنة اسمها روذبة أو روذاوذ، سمع بها وسمعت به فتحابّا عن السماع، وكان لعشقهما قصّة ذات أطوار. (المعرب)
٨- من كتاب الشاهنامة للفردوسي، ترجمة الفتح بن عليّ البنداريّ، تحقيق د. عبد الوهّاب عزّام، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، الطبعة الثانية١٩٩٣، الجزء الثاني، ص ٢٢٠. (المعرب)
٩- نقلنا هذه المقدّمة بشيء من التصرّف عن مقدّمة محقّق الشاهنامة، الطبعة المذكورة في الحاشية السابقة، علمًا بأنّ هذا الهجاء مشكوك في نسبته إلى الفردوسي).(المعرب)

المقامة الثالثة والعشرون

غصّت الغرفة بالدخان المتصاعد من الأراجيل وترنّحت رؤوس الموسيقيّين وهم يعزفون متربّعين على بُسُطِ الحرير. تناول الجوزجاني خرطوم النارجيلة من يد ابن زيلة وسحب نفسا طويلا ثم ناولها الشيخ الرئيس الذي مرّرها بدوره إلى أخيه محمود.

كان ربيع سنة ١٠٢١ ميلاديّة في مطلعه وكانت الليلة لطيفة رائقة أُفعم نسيمها بالروائح المنعشة المهدّئة للنفوس. أكمل الموسيقيّ عزفه مثيرا عاصفة من التصفيق وعاد ابن سينا إثر ذلك إلى مواصلة إملاء ورقات من كتاب الشفاء.

هكذا سارت الأمور كلّ ليلة منذ عام، أي منذ أن استردّ الشيخ حظوته لدى الامير. كان الشيخ يتكلم وكان الجوزجاني يدوّن ما يسمع منه لا يترك شاردة ولا واردة، سامحا لنفسه بين الحين والآخر بمقاطعة معلّمه راجيا منه توضيح هذه النقطة أو تلك، وكان ابن سينا نفسه هو الذي يتوقّف أحيانا عند بعض الجمل الصعبة فيتبسّط في تحليلها مستعينا بتجربته الخاصّة أو شارحا ما استغلق منها في ضوء الوقائع الملموسة.

انتصف الليل فوضع الجوزجاني قلمه وطوى المخطوط، ثم عبى مجلس الشراب بآلاته فاذا هم يفرغون الى أجود خمور قزوين وإلى أطيب المكسّرات، مع جدل لا ينقطع في مسائل الوجود ووجوهه والنفوس ومصائرها وما جاء به أرسطوطاليس وأفلاطون والفارابي، وظلّوا على ذلك حتى لم تبق لهم القدرة على شراب أو جدل، وداهمتهم خيوط الفجر الأولى مكلّلة أرجاء المكان بشفقها الأرجوانيّ فهمّوا بالانصراف، لحظتها عنّ للمعصومي أن يذكر رسالة البيروني الأخيرة، وكانت قد وصلت منذ أيّام وأصبحت حديث الجميع، وذلك أنّ البيروني اختار فيها لهجة غريبة متحدّيا الشيخ في الإجابة عن عشر مسائل في مواضيع شتّى من الطبيعة

والرياضيّات إلى علم طبقات الأرض والفلسفة، وقد ضمّن هذه المسائل نقدا حادا لعدد من أفكار كبير الفلاسفة بالنسبة إلى الشيخ: أرسطوطاليس العظيم، ومن يومها ظلّ مثقّفو همذان يترصّدون بفارغ الصبر أجوبة المعلّم، إلاّ أنّه ضنّ بها على الجميع.

وضع ابن سينا يديه في خاصرتيه وحدج تلميذه الشابّ بنظرة امتعاض وقال ملتفتا الى أخيه كانه يشهده عليه:

– كان من غير المتوقّع أن تمرّ هذه الليلة على خير دون أن يعكّر أحدهم مزاجي.

– ولكنّ خطاب البيروني ليس مجرّد رسالة أيّها الشيخ الرئيس، إنّه استفزاز صارخ، وعدم إجابتك على مسائله سيكون في نظر كلّ مثقّفي فارس ضربا من الاعتراف بالجهل.

علت محيًّا أبي عليّ ابتسامة متسامحة.

– جهل؟ آه يا صديقي، لا أدري متى ستتعلّم أن تدير لسانك في حلقك سبع مرات قبل أن تنطق بكلمات لا تقدّر لها وزنا. لماذا لا تكون مثل الخزامى التي تتفتّح مع النيروز؟[1] لماذا لا تكون قدحا وتستمتع ببساطة بلذائذ الخمر؟

ردّ المعصومي قانطا:

– فات أوان مواصلة الشرب ولم يحن وقت البدء فيه من جديد، وأنت لم تعوّدنا على مثل هذا السلوك فهل هي أسئلة صعبة الى هذا الحدّ؟

– لولا مكانتك عندي لأجبتك بأنْ لا شئ يفحم الأحمق غير الصمت عنه، أمّا الردّ عليه فلا يزيده إلاّ تجاسرا.

– هل تقصدني أنا أم أنّك تقصد صاحبك البيروني بهذا الكلام؟ نكاد نظنّ بأنّ هذه الأسئلة قد أحرجتك حقًّا.

احمرّت وجنتا أبي عليّ فقال غاضبا:

– بدأتم تصمّون أُذُنَيّ.

ثمّ دار على عقبيه فتوجّه إلى مكتبه وأخذ يفتّش في أوراقه ثمّ هتف ملوّحا بالرسالة في وجه المعصومي.

– تريد أجوبة؟ إذن فسيكون لك ما تريد، إليك بالرسالة ولتقرأ علينا مسائل البيروني بصوت عال، أريد ان يسمع الجميع.

ثم واصل متحمّسا ملتفتا إلى الآخرين:

– عودوا إلى أماكنكم، وأنت يا جوزجاني عد إلى قلمك.

خيّم الصمت على الغرفة فجأة فيما أخذ المعصومي يقرأ[٢]:

– يقول البيروني: "لِمَ جعل أرسطوطاليس أقاويل القرون الماضية والأحقاب السالفة في الفَلَك حجّة قويّة على ثبات الفلَك ودوامه، ومن لم يتعصّب ولم يصرّ على الباطل تحقّق أنّ ذلك غير معلوم، وما يحكى عن الهند وأمثالهم من الأُمم فهو ظاهر البطلان عند التحصيل لتعاقب الحوادث على سكّان المعمور من الأرض وأيضا لأنّ أشكال الجبال قد تغيّرت والحدوث ظاهر في بعضها."

لم يفرغ المعصومي من قراءة المسألة حتى أجابه ابن سينا موجّها كلامه إلى البيروني:

– يجب أن تعلم أنّ ذلك ليس من أرسطوطاليس بإقامة البرهان وإنّما هو شئ أتى به خلال الكلام، على أنّه ليس الأمر في السماء كالأمر في الجبال، وكأنّك أخذت هذا الاعتراض عن يحيى النحوي[٣] المموّه على النصارى بإظهار الخلاف لأرسطوطاليس في هذا القول، أو عن محمد بن زكريا الرازي المتكلّف الفضول في شروعه في الالهيّات وتجاوز قدره في بطّ الجراح والنظر في الأبوال والبرازات (وهو لا جرم قد فضح نفسه وأبدى جهله فيما حاوله ورامهُ) وأمّا قولك ومن لم يتعصّب ولم يصرّ على الباطل فهذه المغايظة والمخاشنة قبيحة لأنّه إمّا ان تكون قد وقفت على معنى قول أرسطوطاليس في هذا الفصل وإمّا أنّك لم تقف، فإن لم تقف فتحميقك واستخفافك بمن قال قولا لم تقف عليه محال، وإن كنت وقفت عليه

فعرفانك بمعنى القول كان يصدّك عن تعاطي هذه المجافاة فتعرُّضُكَ لما يصدّك عنه العقل فاحش لا يليق بك.

والآن هات المسألة الثانية.

– "لِمَ استشنعَ أرسطوطاليس قول من قال إنّه يمكن أن يكون عالَمٌ آخرُ خارج هذا الذي نحن فيه كائن على طبيعة أخرى، والحال أنّنا ما عرفنا الطبائع والاسطقسات الأربعة إلاّ بعد وجودنا إيّاها، كما أنّ الأكْمَهَ لو لم يسمع من الناس ذِكْرَ البصر لما أمكن أن يتوهّم من ذات نفسه كيفيّة البصر؟"

– أمّا هذه المسالة فليست هي حكاية قول أرسطوطاليس في كتابه" السماء والعالم "بإنكار وجود عوالم غير هذا العالم، لأنه لم يتكلّم فيه مع هذا القول، بل رأى أنّه لا يمكن أن يوجد عالم آخر فيه سماوات وأرضون واسطقسات موافقة لِما في هذا العالم بالنوع والطبع، فإذن يمكن أن تكون عوالم كثيرة فوق هذا العالم الواحد المشار إليه او المبيِّن العنصر.

ما أن انتهى المعصومي من اعتراضات البيروني على أفكار أرسطوطاليس ومن الاستماع الى أجوبة الشيخ عليها حتى عمد إلى طرح المسائل التي وضعها البيروني نفسه وكانت في الطبيعيّات.

– لِمَ صار الجَمَدُ يطفو على الماء مع أنّه أجزاء صلبة وهي أكثر صلابة من الماء وينبغي أن يكون لذلك أثقل منه؟

– ذلك لأنّ الماء عند جموده تنحصر فيه أجزاء هوائيّة تمنعه عن الرسوب إلى أسفل.

– كيف الإدراك بالبصر وكيف نبصر ما يكون تحت الماء مع أن سطح الماء صقيل والنور ينعكس عن الأجرام الصقيلة؟

– الإبصارُ عند أرطوطاليس ليس هو بخروج شعاع من العين، إنّما يحصل حين تتأثّر العين بصفات الألوان المرئيّة التي يتضمّنها الهواء الملامس، وفي هذا الرأي لا توجد عنده مشكلة للرؤية لأنّ الماء والهواء

جسمان تجتازهما الألوان إلى حاسّة البصر فتصبح الرؤية ممكنة.

– إذا كانت الأجسام تنبسط بالحرارة وتنقبض بالبرودة وكان انصداع القماقم الصيّاحة لغير ذلك، فلِمَ صارت الآنيةُ تنصدع وتتكسر إذا جمد ما فيها من الماء؟

– ذلك أنّ الانقباض يستدعي خلاءً، ولمّا كان الخلاء مُحالاً انصدع الإناء[4].

وهكذا لم تمرّ ساعة حتى كان الشيخ قد أجاب على أسئلة البيروني العشرة، ثمّ ختم حديثه متوجّها إلى المعصومي:

– أترك لك الآن أن تلحق بهذه الرسالة ما تراه صالحًا وأن تواصل الجدل مع صديقنا البيروني[5].

– فهل رضيتم الآن؟

أشار الجميع بالإيجاب وكان واضحا أنهم أُخذوا بحديث الشيخ.

– حسنا، فلتسمحوا لي بالانسحاب الآن. لقد حلّ الفجر ولم تبق لي فسحة من الوقت إلاّ لأتوضّأ وأتثبّت من عدّة السفر، فأنا مصاحب الأمير في حملته الجديدة، ونحن راحلون بعد ساعة.

تبادل ابن زيلة والمعصومي نظرات الدهشة وقال هذا الأخير متسائلا:

– راحلون بعد ساعة؟

– أجل، ولاشكّ أنّ الجيش الآن على أهبة التحرّك.

– ولكنّنا لم نعلم بذلك أيّها الشيخ الرئيس، فعلى من الحرب هذه المرّة؟

– على المرزبان أمير الطارم، ولكن لِمَ الدهشة؟

أحسّ ابن زيلة بحرج شديد.

– اغفر لنا إلحاحنا عليك منذ قليل في شأن مسائل البيروني، فلاشكّ أنّك كنت بحاجة إلى الراحة.

– ها أنت تتكلّم مثل أكلة العظايات، أما كنت راغبا في معرفة ردودي على البيروني؟

– بلى أيّها الشيخ الرئيس ولكن...

– إذن فلماذا هذه السحنة المضطربة؟ هل هالكم أنّكم لم تدعوني أُخلد إلى النوم؟ ألا تعلمون أنّي أحبّ السهر؟

توقّف لحظة ثمّ واصل بنبرة لا تخلو من سخرية:

– إلاّ أنّني لست متاكّدا من الشئ نفسه بالنسبة الى صديقنا البيرونيّ، وربّما كان عليك أن تطلب منه هو المغفرة فأغلب الظنّ أنّه لن يعرف طريقا الى النوم حالما تصله هذه الأجوبة.

*

هبّت الريح على آخر السحب الرمليّة المتراكمة في سماء سهل الطارم الأجرد، فتطايرت هذه السحب كأنّها لا تُقتلع من الأرض إلاّ لتقع مِزَقًا وأشلاء تحجب الجياد والرجال. عمّت الفوضى وأعشى النور العيون حتى لم يعد ممكنًا تحديد المسافات، وأصبح أبو عليّ عاجزا عن الحكم على الاحداث.

بدأ كلّ شئ قبل ساعة، لكنّ شيئا لم يتمّ كما كان متوقّعا له.

غادر عسكر شمس الدولة همذان مع الفجر وكانوا يستعدّون لاقتحام حدود الطارم، وقد ظنّوا وفقا لمعلومات الجواسيس أنّ المواجهة لن تتمّ إلاّ عند الخروج من آخر الممرّات الضيّقة المفضية إلى أرض المرزبان، على بعد فرسخين من قزوين، إلاّ أنّ الهجمة الأولى تمّت فيما كانت القوات قد توغّلت بكامل عددها وعُدّتها بين جبلين متناطحين كانا يشكّلان ما يشبه المضيق، وقد اتّضح أنّ رُماة المرزبان كانوا يتربّصون بهم أعلى الجبلين متخفّين على جانبَي المضيق، وما أن صار جنود همذان في متناولهم حتى أمطروهم بوابل من السهام من كلّ جانب، فقتلوا منهم خلقا كثيرا وأثاروا في صفوفهم رعبا لا يوصف، وخُيِّل إلى ابن سينا الذي كان راكبا في المقدّمة إلى جانب الأمير أنّ أجلهما قد حان، فقد اسودّ الشريط السمائيّ الرفيع الذي كان يبدو فوقهما من بين حافتي الجبلين، ووخطته آلاف الخطوط

الداكنة التي أمطرت الرؤوس بذؤاباتها القاتلة الغزيرة، إلى حدّ أنّها كادت تحجب نور الشمس، وكان لابدّ لشمس الدولة ووليّ عهده أن يُظهرا خوارق من الشجاعة والإقدام كي يُفلحا في جمع ما تشتّت من صفوف جيشهما ويخرجا بها من المضيق، إلاّ أنّ خيّالة المرزبان كانت في انتظارهما هناك أيضًا، وبات واضحا أنْ لا مفرّ من الهزيمة إلاّ إذا حدثت معجزة من معجزات الله تعالى، وذاك ما تمّ، فقد هبّت فجأة عاصفة رمليّة من تلك العواصف التي تعرفها الصحراء، ذكّرت الشيخ بما رأى عند عبوره الدشت الكبير.

لكأنّ الصحراء كلّها انقلبت فجأة سافيها على عاليها، وقد ارتفعت أصوات الأبواق في فوضى شاملة مخمدة أصوات القادة، وكلٌّ يحاول عبثا أن يحافظ على وحدة صفوفه، لكنّ الأوان كان قد فات، ولم يكن للمواجهة أن تحدث إلاّ في فوضى فظيعة، فإذا الجنود وقد أعمتهم الرمال يضرب بعضهم بعضا لا يميّزون بين عدوّ وصديق، فيما كان بعضهم يخبط محاولا الفرار لا يلوي على شيء، فإذا هو يتخوزق على أسنّة رماح تمسك بها أيدٍ غير مرئيّة.

كانت الرمال أمواجا تتلاطم شقراء هوائيّة تنبثق من بينها، بين الآونة والاخرى، سنّ رمح او حافة درع. وكانت حركة السيوف وسط تلك اللجّة الرمليّة لاهثة متعثّرة، لا تبدو منها غير ذؤابات السيوف مدوّمة في ذرّات الرمل، راسمة ما يشبه الدوائر التي سرعان ما تنغلق على نفسها وتغيب. أمّا الذين أضاعوا سيوفهم فقد تعانقوا في غبار كثيف، وأخذت أطيافهم تتقدّم وتتراجع ثم تدور حول نفسها. دوران الدراويش.

كم دامت معركة العميان هذه؟ لا أحد يعرف. إلاّ أنّ العاصفة هدأت أخيرا، وارتفعت الستارة شيئا فشيئا عن مجزرة بشعة تكدّست فيها الجثث المشوّهة على امتداد اكثر من ميل. كان سماء الدولة قد استطاع في الأثناء وبما يشبه الأعجوبة، أن يجمع شتات فرسان أبيه وينتحي بهم

جانبا، متحلّيا بصبر مثير للإعجاب، وما أن هدأت العاصفة حتى هجم بهم بحنكة كبار المحاربين على آخر فلول المرزبان.

حدث كلّ شيء بسرعة. ولم يكن في وسع جنود المرزبان المنهكين المحبطين التائهين سوى أن يذعنوا للهزيمة وأن يولّوا الادبار دونما نظام وعلى إثرهم الامير الشاب. وسرعان ما صوّتت الأبواق معلنة عن انتصار شمس الدولة. ولكن هل كان انتصارا حقًّا؟ لقد أفرغ الرجال قواهم كلّها في المعركة وأصبحوا مجرّد ظلال.

– أسرع أيّها الشيخ الرئيس، الأمير متعب.

كان المملوك قد أوقف جواده في دوّامة من الغبار وكاد يوقع ابن سينا ارضا.

– هل هو جريح؟

– لا أدري أيّها الشيخ الرئيس، لقد أُغمي عليه و. ..

لم ينتظر أبو عليّ أن يكمل الجنديّ حديثه، بل خفّ إلى جواده وهتف وهو يضع قدما في الركاب:

– سر وأنا على إثرك.

لكز المملوك حصانه واتّجه جنوبا وسرعان ما قطعا مسافة نصف الميل التي كانت تفصلهما عن معسكر الأمير.

فوجئ الشيخ بالهدوء الذي كان يحيط بخيمة شمس الدولة، فباستثناء جنديّي الحراسة وبعض القادة الذين كانوا يتحادثون بصوت خافت، لم يكن ثمّت ما يشي بالكارثة.

كان تاج الملك أول من رأى داخل الخيمة، ووراءه كان سماء الدولة جاثيا قرب أبيه الذي مُدّد على محفّة بسيطة.

هتف وليّ العهد حالما رآه:

– ها انت اخيرا ايها الشيخ.

ثمّ أشار بإصبعه ناحية والده.

- لم يعد إليه وعيه إلاّ الآن.

لم يحتج أبو عليّ إلى أكثر من نظرة سريعة كي يعرف أنّ الحالة لم تعد متعلّقة بنوبة قرحة، فقد كان وجه الأمير ممتقعًا بشكل مرعب، ومالت شفتاه إلى الزرقة، وخلت عيناه من أي بريق، ثم إنّه بالغضافة إلى ذلك وعلى الرغم من الحرارة الخانقة تحت الخيمة، كان يرتجف بجسمه كلّه.

همس شمس الدولة بصوت مختنق:

- ها قد جاء المنقذ.

هشّ ابن سينا في وجهه بحركة مُطَمْئِنة وأزاح اللحاف الصوفيّ الثقيل وألصق أُذُنَه بصدر المريض. كان النبض ضعيفا يكاد لا يبين. فخلع عنه نعليه وجسّ أطراف الأصابع فإذا هي متجمّدة. ثمّ جرّده من درعه الزرديّ وجسّ منطقة البطن فوجدها مشدودة متورّمة، لم يلمسها براحة يده حتى ندّت عن الأمير صرخة ألم.

غمغم شمس الدولة:

- هذه المرة ايها الشيخ.. ز

لم يستطع إكمال حديثه فقد أخذ يتقيّأ على دفعات.

هتف ابن سينا مسندا المريض:

- إليّ بحليب ساخن وبمزيد من الأغطية.

انتفض شمس الدولة وتهالك بثقله على المحفّة.

- لابدّ من التنفّس عميقا يا مولاي وحاول أن تسترخي.

- أحسّ بأنّ روحي واقفة على حافة شفتي يا أخي.

- إنّها ليست سوى نوبة مثل الأخريات، فلا تقلق يا مولاي، سأُعدّ لك لَعُوقًا سريعًا وسيخفّ الألم إن شاء الله.

أثناء الحديث كان ابن سينا يمعن النظر في لطخات القئ التي تناثرت على الرمل ولطّخت زيّ الأمير، وما أن لاحظ لونها الأسمر الضارب إلى الحمرة حتى فهم كلّ شئ: كانت القرحة قد انفجرت وكان شمس الدولة يفرغ من

دمه.

نهض من مكانه وأشار خفية إلى وليّ العهد كي يلحق به إلى الخارج.

ما أن اجتاز خصاص الخيمة وهمّ بالحديث حتى همس سماء الدولة:

– إنّها النهاية أليس كذلك؟

لم يكن أمام أبي عليّ إلاّ تأكيد الامر، وقد أحسّ بأسًى بالغ.

– للأسف، أجدني هذه المرّة عاجزا أمام مرضه.

قال تاج الملك بصوت كالأنين:

– ولكن كيف يمكن هذا؟ ألا يوجد...

– لا يوجد أيّ حلّ أيّها الحاجب. لا شئ يمكن عمله سوى أن نحاول التخفيف عنه.

– هل يمكن أن يصل همذان؟

– أستبعد ذلك. إنّه يغرق في دمه.

– ولكن ما فائدة علمك إذن يا ابن سينا؟ ما فائدة مهارتك التي لا تضاهى؟

– مولاي، لست سوى طبيب، أستطيع أن أخفّف من الألم لكنّ الله وحده يتصرّف في الحياة والموت.

كان واضحا ان الفتى يكابد اكثر ممّا تتحمّله طاقة البشر كي لا ينفجر باكيا.

قال بصوت مكتوم:

– علينا أن نرحل حالاً، وإذا كان لابدّ لأبي من أن يموت فليكن ذلك في مدينته وبين أهله.

*

كانت عودتهم إلى همذان أشبه بمسيرة المواكب الجنائزيّة، فقد تمطّت القافلة عبر الصحراء على مسافة أكثر من ميل، وكانت تتقدّم بخطى بطيئة واهنة تحت أشعة الشمس الضارية نهارا وتحت سماء النجوم الباردة

ليلا، وكان المعسكر يضطرم كل مساء حسب العادة في مثل تلك الظروف بمئات النيران الصغيرة، التي كانت تشير إلى القوافل العابرة بضرورة الصلاة إلى الله من أجل المريض المحتضر، وفي تلك اللحظات كانت الصحراء تشبه السماء.

انتقلت روح شمس الدولة إلى بارئها وهم على الطريق، وكانوا على مشارف الجبال على بعد فرسخين من المدينة، فشقّ القادة أزياقهم من الياقة حتى الحزام، وارتفع الصياح مريعا حين انبرى رئيس الحجّاب جريا على العادة فجرّد وليّ العهد من زيّه العسكريّ وقام بتمزيقه، وتركَهُ مكتفيا بسترة عليه أن يدخل بها القصر حيث سيكون له أن يرتدي ملابسه الملكيّة الجديدة كوريث للعرش.

سرى الخبر بين السكّان على الرغم من الساعة المتأخّرة، فخرج بعضهم الى الشوارع وأخذوا يندبون وجوههم، فيما طفق آخرون يضربون على صدورهم مولولين وقد ارتفع نواح النائحات. ما أن وصل الموكب إلى القصر حتى عمدوا إلى غسل الميت وتطهير جثمانه ثلاث مرات بماء معطّر بالسدر واللوتس، ثم سُدّت منافذه وأُلبس أحسن ثيابه قبل أن يُمدّد على مصطبة مفروشة بسجّادة كبيرة من الحرير، تربّع أمامها ملاّ وأخذ يقرأ صلاة الميت الماخوذة من "الأبستاق" وآيات من القرآن الكريم، بعد ذلك لُفّ شمس الدولة في كفنه وهو قطعة كبيرة من القماش القطنيّ لا خيطة فيها ثني طرفاها.

ومع الخيوط الأُولى للفجر تحرّك البلاط كلّه برفات الأمير إلى المقبرة.

أمام عربة الموتى السوداء المسدلة الستائر والتي كان يجرّها فرسان أشقران، سار سماء الدولة وإلى جانبيه ابن سينا وتاج الملك، يحفّ بهم موسيقيّون ينفخون في أبواق تصدر عنها أصوات متهدّجة تتداخل مع أصوات البكاء وعويل المارّة، وخلفهم خمسة من الخدم يحملون على رؤوسهم أطباقا كبيرة مغطّاة بالمناديل وفيها الصدقات الجنائزيّة التي

ستوزّع على الفقراء ترحّما على روح الميت، ووراءهم الحشد يتقدّمهم الرجال وحاملو الرايات التي لم يكن ثمّت ريح ينفخ فيها.

كان القبر جاهزا فوُضع فيه الميت دون تابوت وأُسند على جنبه الايمن ورأسه إلى الكعبة، وفي صمت مطبق تقدّم سماء الدولة فوضع على صدر أبيه عمامته وسيفه وسهامه وقوسه وأضاف إليها أحد الملالي بعض الزاد ثمّ شرع في إغلاق القبر.

– لا إله إلاّ الله.

كانت تلك آخر الكلمات التي تفوّه بها وليّ العهد عند رأس الميت، فتلاقفها عنه الجميع وأخذوا يردّدونها مثل الكورس.

رفع ابن سينا عينيه إلى السماء فحدّثته نفسه بأنّ سحبا رماديّة ثقيلة كانت في طريقها إلى همذان.

الهوامش:

١– عيد رأس السنة الفارسيّة، يصادف يوم ٢١ مارس / آذار١٠عيد رأس السنة الفارسيّة، يصادف يوم ٢١ مارسرآذار. (المترجم)

٢– عدنا في هذه الفقرات المتعلّقة بمسائل البيرونيّ وأجوبة ابن سينا عليها، إلى النصوص الأصليّة كما وردت في مجلّة التراث العربيّ الصادرة عن اتّحاد الكتّاب العرب بدمشق، العدد ٦ر٥ الخاصّ بمائويّة ابن سينا، السنة الثانية، مع شيء من التصرّف. (المعرب)

٣– هو يوحنّا فيلوبونوس johanna philopnos . (المعرب)

٤– الحقّ أنّه لابدّ من الاعتراف بأنّ إجابات ابن سينا هذه كانت بعيدة عن الصرامة العلميّة، وأنّ الكثير من شروحه قد تجاوزتها العلوم الحديثة. (المترجم)

٥– جُمعت هذه المراسلات في كتاب عنوانه السؤالات والجوابات، وقد أورد البيرونيّ اعتراضات على إجابات الشيخ فتصدّى لها المعصوميّ. (الجوزجانيّ)

المقامة الرابعة والعشرون

– اعذرني يا سماء الدولة ولكنّي لن أرجع عن قراري.

كان سماء الدولة ملك همذان وكرمنشاه الجديد جالسا على عرشه، فانحنى إلى الأمام وشبك أصابع يديه في حركة توتّر مفاجئة، بينما وقف بقربه تاج الملك كبير الحجّاب وظلّ ملازما الصمت.

– لست معك في هذا القرار أيّها الشيخ الرئيس. مرّ اليوم أسبوعان على وفاة والدي وأنت ما زلت مصرًا على عدم العودة إلى كرسيّ الوزارة، فماذا صنعت لك كي أستحقّ منك كل هذا؟ هل ضايقتك في شيء؟ هل مسست من صلاحياتك الوزاريّة؟

– لا مسؤوليّة لك في قراري يا مولاي، وثق أنّي لم اتأثّر في اتّخاذه بشيء من تصرّفاتك التي لا تشوبها شائبة. إلاّ اني لا أجد في نفسي القدرة على مواصلة القيام بأعباء الطبّ والوزارة والتعليم في وقت واحد. وأؤكّد لك أنّ جمعي بين العلم والسياسة منذ سنتين لم يكن سهلا. ولولا صداقتي لوالدك لما صبرت على ذلك طيلة هذا الوقت.

تغيّرت سحنة سماء الدولة ولعلّه استاء من كلام ابن سينا، فاغتنم تاج الملك الفرصة للتدخّل:

– هل تعني أنّك لا تحمل لأميرنا التقدير نفسه الذي كنت تحمله لوالده؟ هذا كلام جارح أيّها الشيخ الرئيس، وهو غير لائق بهذا المقام.

أحدّ الشيخ بصره في الحاجب وقد غلب عليه الامتعاض. لم يشعر بأيّ ميل نحو الرجل منذ رآه أوّل مرّة، وكان يعرف أنّ الآخر يبادله النفور نفسه، فضلا عن أنّ تاج الملك هو الذي خلفه على كرسيّ الوزارة أثناء أيّام منفاه الاربعين، ولاشكّ أنّه استطاب السلطة ولم ير إلى عودة الشيخ إلى حظوته بعين الرضى، وإذا كان قد استطاع ان يكظم عدوانيّته إلى حد الآن فها هو اليوم يطلق لها العنان.

أجاب بصوت هادئ:

– بل لا يوجد ما هو أقلّ لياقة من الأحكام تطلق جزافا أيّها الحاجب، فماذا تعرف عن مشاعري وأحاسيسي حتى تسمح لنفسك بهذا الكلام؟

ثم واصل حديثه مقبلا على الأمير:

– ثق يا سماء الدولة أنّي لا أكنّ لك إلاّ كُلّ الإجلال والتقدير، وإنّ مكانتك عندي لا تقلّ عن مكانة والدك رحمه الله وأسكنه فراديس جنانه، لكنّ المسألة تتعلّق بأمر آخر، إنّها تتعلّق بحرّيتي.

– حرّيتك؟ ما كنت أظنّ أنّ وزيرنا يعاني ما يعانيه مملوك بائس، ولا أنّ للقصر شبها بسجن من السجون.

– معاذ الله أن يكون ذلك قصدي يا مولاي، لكنّ الأمر متعلّق بعجزي عن التوفيق بين العلم والسياسة.

هزّ سماء الدولة رأسه وظلّ برهة مغرقا في التفكير قبل أن يقول:

– حسنًا، لا أستطيع استيزارك غصبًا، ولكنّي مصرّ على الاحتفاظ بالطبيب إن لم يكن بدٌّ من التخلّي عن الوزير، فهل تقبل بذلك أم أنّك تردّ عليّ هذه أيضا؟

– هذا شرف لن أردّه يا مولاي، أنا وعلمي كلّه تحت تصرفك ورهن إشارتك.

انبسطت أسارير الأمير.

– يسعدني ذلك، وإن كنت أرجو ألاّ نحتاج إليك كثيرا كطبيب.

– لا بأس عليك إن شاء الله، فأنت فتيٌّ قويُّ البنية أيّها الأمير، ولاشكّ أنّه سيمرّ وقت طويل قبل أن تحتاج إلى خدماتي.

– إن شاء الله أيّها الشيخ الرئيس، من فمك إلى باب السماء[1].

ثمّ التفت إلى رئيس حجّابه وقال بابتسامة لا تخلو من تكلّف:

– عليك أن تشكر صديقنا، فها أنت وزير من جديد.

*

تمطّت ياسمينة بخمول تحت لحاف الصوف ومنحت وجهها لأشعّة الشمس المتسلّلة من خلال الستائر المنفرجة.

– سامح الله أولئك الذين يدعون إلى حرمان المرء من هذه المتع الرائعة.

أرسلت راحتي يديها إلى خاصرتيها العاريتين والتصقت بأبي عليّ.

– إعلمي يا حبيبتي أنّ الأحمق لا يعرف من اللذّة إلاّ بقدر ما يعرف المزكوم من عطر الوردة.

كانا قد فرغا إلى جسديهما طيلة ساعتين باللهفة نفسها التي عرفاها عند أوّل لقاء، وقد أحكم كلٌّ منهما معرفته بالآخر، وصار في وسعهما أن يبلغا معًا قممًا من المتعة متجدّدة، تتخلّلها ألوان محكمة التمازج من اللطف والعنف والخجل والمجون.

وقعت يد ياسمينة عفوًا على الخرزة الزرقاء المشدودة إلى عنق صاحبها:

– ليبارك الله ذاك اليوم الذي أهدتك فيه تلك المرأة هذه التعويذة، وليتها تعرف كم ساهمت في سعادتي وسعادتك.

– عسى الله أن يبقي علينا هذه الحماية الخفيّة فلاشكّ أنّنا سنكون في أشدّ الحاجة إليها عمّا قريب.

تفرّست فيه ياسمينة مندهشة فواصل قائلا:

– أجل، نحن مقبلون على اضطرابات خطيرة وأخشى أن أكون وراءها هذه المرّة.

توقّع أنّها ستستفسره عن جليّة الامر فبادرها موضّحا:

– لقد أرسلت خطابا إلى أمير أصفهان قبل أيّام.

– إلى علاء الدولة؟

– أجل.

– قريب السيّدة؟

– وأحد أبناء عمومة ملكنا الجديد، البعيدين.

– ولماذا؟

– لأعرض عليه الخدمة.

– هل أضعت صوابك؟

– كلاّ يا قرّة عيني، فلم أكن يومًا أعقل منّي الآن. لقد طفق سماء الدولة يضيّق عليّ الخناق كي أقبل بالوزارة من جديد، وقد خبرت عالم السياسة بما فيه الكفاية كي أرى لزاما عليّ أن أنجو من براثنها. إنّها أشدُّ ما عرفت من الثمار مرارة. وأغلب الظنّ عندي أنّ الامير لم ينظر إلى رحيلي بعين الرضا.

– ولكنه أطلق سبيلك.

– عن مضض.

– وما أهمّية ذلك؟ لقد قبل بتخلّيك عن المنصب فممّ تخاف؟ إنه لاشكّ يعرف ما كان يكنّه لك أبوه من حبّ وتقدير، وهو يحترمك ويجلّك.

– ما أقصر ذاكرتك يا ياسمينة. هل نسيت ما حدث قبل أشهر، والضجّة التي أثارها مرسومي بحرمان العسكر من الامتيازات؟

– ذاك ماض فات وأنت لم تعد وزيرا.

– إذا كان شمس الدولة قد مات فإنّ الجيش حيّ لا يزال، وفيه من يحمل لي حقدا دفينا وظغينة لا تفتر، وكان الملك حائلا بينهم وبيني أمّا وقد مات فقد أصبحت هدفا لا حماية له وصار وضعي في هشاشة وضع المريض وهو بين يدي طبيبه.

– سيمنعك سماء الدولة مثلما كان أبوه يفعل.

– ثوبي إلى رشدك يا ياسمينة، فالأمير لم يتجاوز الثالثة والعشرين بعد، وهو أضعف من أن يكون له حضورُ أبيه، ثمّ إنّ في البلاط رجلا قتلته الغيرة منذ زمن وأعرف أنّه يتربّص بي الدوائر، وهو ليس سوى وزيرنا الجديد تاج الملك.

– هذا الطاجاكستاني الإمّعة؟ لا أظنّه الا عاجزا عن اتّخاذ أيّ قرار.

– وهذا خطأ آخر يا قرّة العين، فأنت لا تعرفين سرائر النفوس جيّدا،

سيخضع تاج الملك لأوّل ضغط يسلّطه عليه الجيش ولو طالبوه برأسي لما بخل به عليهم.

استلقت ياسمينة على ظهرها وأحدّت البصر في السقف المزخرف.

– أراك أغرقت في التشاؤم دفعة واحدة.

– كلاّ، بل صرت واقعيًّا.

– ومن أدراك بأنّ أمير أصفهان سيحسن وفادتك؟

– سمعت الكثير عن ولعه بالعلم والأدب. إنّه رجل طيّب وكريم، ولاشكّ أنّه أفضل أمراء السلالة البويهيّة.

– أصفهان...مرّةً أخرى سيكون علينا أن نرحل.

– اطمئِنّي، فقلبي يحدّثني بأنّها المرّة الأخيرة.

– ليسمع الله منك يا ابن سينا يا أخي، ولتحمده على أنّ المرأة التي تقاسمك فراشك لم تكن ضعيفة البنية أو جبانة.

ندّت عنه ابتسامة وهو يميل نحوها بحثا عن شفتيها.

– لا بأس يا حبيبتي، فلو كنت ضعيفة لبثثتك ما أملك من قوّة، ولو كنت جبانة لمددتك بما أملك من شجاعة، والحقّ أنّي أعرف كلّ المعرفة أنّ ما أملك من قوّة وشجاعة إنّما أتزوّد به منك أنت.

*

أرسلت عتمة الليل ظلالها إلى داخل قاعة البلّور.

شبك تاج الملك يديه على بطنه في هيئة الآسف وتقدّم من سماء الدولة بخطوات قصيرة.

– كنت واثقا بذلك يا مولاي، كنت واثقا بأنّ هذا الخبر سيدخل عليك الحزن، ولكن ما العمل مع جحود البشر ونكرانهم الجميل؟

نظر الأمير مرّة اخرى في الرسالة التي جاءه بها وزيره وأعاد قراءتها من جديد.

– أكاد لا أصدّق.

- الله وحده يعلم بالسرائر.

- عرضت عليه الوزارة فرفضها. طلب ما أراد فلبّيت له كلّ رغبة، ايفاءً بما كان بينه وبين والدي. فهل يكافئني بهذا الجحود؟ بعرض خدمته على غيري؟

إنكمش تاج الملك حتى خُيّل إلى الناظر أنّه يَضْمُر ويتقلّص، ونكس بصره متظاهرا بالغمّ الشديد.

- كان ذلك متوقّعا يا مولاي، فلا تنس أنّه لم يخف حقيقة مشاعره نحوك.

- لكنّه وعدني بألاّ يترك مهمّته كطبيب للبلاط، وكنت شاهدا على ذلك يا تاج الملك، ألم يعدني بذلك؟

- بلى يا مولاي، "إنّه شرف لن أردّه، وأنا وعلمي كلّه تحت تصرّفك ورهن إشارتك"، تلك كانت كلماته.

كمش سماء الدولة الرسالة بحركة حادّة.

- أكاد لا أصدّق.

- مع أنّ الخيانة واضحة وضوح الشمس يا مولاي.

- إنّه لا يدع لي مجالا كبيرا للاختيار، أين هو الآن؟

- مثل كلّ ليلة يا مولاي، في داره ومعه تلاميذه، وأَصْدُقُكَ القول إني كثيرا ما ارتبت في أمر اجتماعهم الذي لا يكفّون فيه عن احتساء الخمر والغناء الماجن والجدل في الإلهيّات، ناسين قول الله تعالى "ولا يُحيطون بشيءٍ من علْمه إلاّ بما شاء..." صدق الله العظيم.

ثنّى سماءَ الدولة على كلامه برفّة جفن فواصل الوزير حديثه بأكثرحدّة:

- والحقّ أنّ هذا ليس بغريب على من كانت تلك أصوله، فقد وصلتني عن ماضيه أخبار عجيبة، وعلمت أنّ أباه كان ممّن لبّى داعي الإسماعيليّة وأنّ أمّه كانت من أتباع الدين الفاسد.

- هل كانت نسطوريّة؟

- بل يهوديّة يا مولاي.

- ومن أين لك ذلك؟

- لدينا عيوننا يا مولاي. ثمّ إنّ الإشاعات تنتشر بسرعة في هذه البلاد، وقد أكّد لي ثقاة بأنّه لم يغادر الريّ وبلاط السيّدة إلاّ لافتضاح أمره.

- ولكنّنا لم نعرفه إلاّ مثال الشيعيّ المخلص.

صعر تاج الملك خدّه قليلا.

- للزنادقة حيل كثيرة يا مولاي، والواضح الآن أنّ الشيخ ليس سوى سارق سجادة.

تكلم بنبرة محايدة مقصودة، لم تزد الأمير إلاّ اقتناعا وحَنَقًا.

- إذن فليوقف حالا وليوضع من الغد في سجن قلعة فرودخان.

*

جاهد محمود كي يكبت رغبته في التثاؤب.

أصبحت هذه الاجتماعات ترهقه وأصبح من الصعب عليه وهو الفلاّح ابن الفأس والتربة أن يحضرها دون أن يتطرّق اليه الملل وهو يسمع إلى هذا الجدل المتواصل الذي لم يكن يفهم منه الكثير. على أنّ الامر اختلف قليلا هذه الليلة، فقد كانوا يتحدّثون في الشعر، وكان ابن زيلة باندفاعه المعهود يسأل الشيخ في امر رواية القصائد.

- نحن نعرف أنّ اغلب الشعراء القدامى كانوا أمّيين فكيف أمكن لأعمالهم أن تصلنا؟

- الفضل في ذلك راجع إلى الذاكرة، ذاكرة الرواة، فقد كان لكلّ شاعر راويته الذي يحفظ أشعاره.

سأل الجوزجاني:

- وهل صحيح أن النبيّ كان يكره الشعراء.

- لاشكّ في أنّ القرآن انتقد بعض الشعراء حين قال: "والشعراءُ يتّبِعُهُم الغاوون، ألم تَرَ أنَّهُم في كلّ وادٍ يَهيمون، وأنَّهُم يقولون ما لا يفعلون"...

والحقّ أنّ ذلك لم يكن مُستغربًا، فقد اتُّهم النبيُّ بالشعر، ويكفي أن ننظر في بعض السوَر خاصّة القديمة لنفهم سبب هذه التهمة، وكان لابدّ من الحرص على التماين، إلاّ أنّ القرآن استثنى من الشعراء المؤمنين، فقد جاء في الكتاب...: "إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكَروا الله كثيرا"... وقد استعان محمد بالشعراء للدعاية وهجاء الأعداء والسخرية منهم لِمَا كان للشعر في وقته من تأثير كبير في حياة الناس، وكان له شاعره الخاصّ حسان بن ثابت من قبيلة الخزرج المدنيّة، ولكن يكفينا من الثرثرة الآن، من يقرأ لنا شيئا من الشعر الجميل؟

انبرى ابن زيلة يقرأ أبياتا مترعة بالحزن الشفيف للأحوص الذي عانى الكثير بسبب مجونه وانتهى منفيًا في جزيرة من جزر بحر القلزم[٢] في خلافة عمر بن عبد العزيز. وفيما كان الجماعة يثنون على موهبة الشاعر نهض محمود من مجلسه واتّجه إلى النافذة المشرعة على الليل بحثا عن جرعة من الهواء النقيّ. كانت البساتين المجاورة تعطّر الليل بعبق الكافور والورد وكانت قبّة السماء ترتفع عاليا لتهوي إلى ما وراء الهضاب وكان كلّ شيء ساكنا في ذلك الهدوء الليليّ الناعم. لذلك ربّما صار لحوافر الخيل وقع غريب في تلك اللحظة، فانتبه محمود إلى كوكبة من المماليك وكانوا حوالي العشرة في أزياء السريّة الثالثة الزرقاء يتوقّفون غير بعيد من الحوض الكبير. ماذا جاؤوا يصنعون في هذا المكان وفي هذه الساعة المتقدّمة من الليل؟ ساورته الظنون فنادى أخاه فيما كان الجنود يترجّلون.

– أبا عليّ.

– ماذا هناك؟ ألا ترى أنّي...

– تعال فانظر قلت لك.

لاشكّ أنّ صوته كان من التوتّر بحيث لم يجد الطبيب بدًّا من التوجّه إلى النافذة.

– أنظر، أليس هذا الأمر غريبا؟

ألقى أبو عليّ نظرة على الحديقة التي عبث بهدوئها الآن وقع حوافر الخيل وحركة الأزياء العسكريّة.

– إنّهم مماليك. . وماذا في ذلك؟

– مماليك هنا؟ وفي هذه الساعة؟

– لعلّهم يبحثون عن شئ ما.

– أو عن شخص ما؟

خُيِّل إلى ابن سيناً أنّ السؤال لم يكن خاليا من قلق.

– ماذا أصابك يا محمود؟ هل تكون..

– أمسِكْ نَفَسَكَ فها هم يصعدون.

– وماذا في ذلك؟ هدّئ من روعك فقد بدأت تخيفني.

كان محمود قد تعلّق بذراع أخيه فتملّص منه أبو عليّ واتّجه إلى الباب.

– سنقف على جليّة الأمر.

– لا تفتح أرجوك.

كان توسُّلُ محمود من الحدّة بحيث خيّم الصمت على الغرفة فجأة وصُوِّبت إليه أنظار الجميع.

سأل الجوزجاني:

– ما الأمر؟

– لا شئ. أخي رأى جنًّا في الحديقة.

كان يوشك أن يضع يده على المقبض البرونزي حين ارتمى عليه محمود متوسّلا:

– لا تخرج يا أخي أرجوك. قلبي لا يحدّثني بخير.

همّ بالإجابة إلاّ أنّ الباب دوهم فجأة ووقعت إحدى فردتيه إلى الداخل بعنف شديد، فلم يجد أبو عليّ غير الوقت الكافي للتراجع إلى الوراء قبل أن يدهسه الخشب الثقيل.

وما هي إلاّ رفّة جفن حتى كان أربعة مماليك شاهري السلاح يقتحمون

الغرفة أمام نظرات الجميع المفزوعة، فيحكمون وثاق الشيخ، بينما وقف بقيّتهم على العتبة حائلين دونهم ودون أيّ محاولة للفرار.

نبح أحد الجند:

– أنت موقوف بأمر من الأمير.

– ما معنى هذا؟

– إنّه أمر الأمير.

حاول الشيخ عبثا أن يتخلّص من أيدي الجند وقد استشاط غضبا، ومرّ تلاميذه بلحظة اضطراب كاد بعضهم أن يجترئ فيها على المماليك، إلاّ أنّ قائد المجموعة سرعان ما حذّرهم:

– ليلزم كلّكم مكانه، وإلاّ فقسمًا بالنبيّ الطاهر ما بخلتُ بدمكم لحظة.

لم يبال محمود بالتهديد وانبرى إلى المملوك ساخرا:

– سريّة كاملة لإيقاف رجل وحيد وأعزل؟ حقّا ما أكبر شجاعة العسكر.

قوّص المملوك شفتيه في حركة ازدراء، ودون أن يتوقّع احد ذلك، وجّه لكمة مباغتة إلى وجه الفتى فطرحه ارضا، وقبل أن يجد فرصة للنهوض انقضّ عليه جنديّان فمنعاه من الحركة.

– أنصحك بحفظ لسانك إذا كنت لا ترغب في مصاحبة أخيك إلى جهنّم.

سأل الجوزجاني محاولا كبت غضبه:

– وإلى أين تحملونه؟

– إلى فرودخان غدًا فجرًا وإلى وقت طويل إن شاء الله.

هتف ابن سينا غير مصدّق:

– فرودخان؟

– هناك على الأقلّ تكفينا شرّك، ولعلّك بعد عشر سنوات تكون فقدت الرغبة في التطاول على حقوق العسكر المكتسبة.

وبعد أن ألقى نظرة أخيرة على الوجوه المفزوعة أشار إلى أعوانه بأخذ الشيخ.

*

كانت جدران الحبس تنزّ بالرطوبة وكان البرد شديدا، وكان ابن سينا جالسا في العتمة منذ ثلاث ساعات ضامًّا ركبتيه إلى صدره محاولا عبثا أن يسيطر على رعشات جسمه.

لقد جبت العالم يا ابن سينا وضربت بذهنك في الكون من هذا الطرف إلى ذاك وعرفت الوحدة وبذلت نفسك في الخمر والحبّ وظننت أنّك عرفت كلّ شيء، إذن فلتعلم أنّ كلّ ما عرفته إلى حدّ الآن لم يكن شيئا وأنّ كلّ ما تراه الآن لا شيء.

خشي أن ينال منه اليأس فأغمض عينيه وحاول جاهدا أن يفكّر في أجمل ما عاشه.

هل يكون أحدنا شيئا غير بيدق من بيادق لعبة البراهمان تلك؟ بيدق قد يعنّ للحكَم لحظةً يشاء أن يعيده إلى صندوقه؟

اصطدم أحد الفئران بقدميه فلم يحاول حتى طرده. كانت فكرة مجنونة قد بدأت تتسلّل إلى دماغه: وماذا لو أنّ البيدق قرّر أن يخرج على القاعدة؟ ان يراوغ الحكَمَ وينسحب من اللعبة؟ قبل الوقت المعيّن؟

فتّش في جيوب سرواله بصفة آليّة دون أن يكون متأكّدا ممّا يريد العثور عليه. وجد بعض الدنانير وورقة مكموشة ثمّ ارتفعت يده إلى خصره ففكّ حزامه كأنّه في شبه غيبوبة.

لمعت حلقة الحزام الفضيّة في العتمة ففتحها وتناول السلك الصغير ذا الذؤابة المكوّرة. داعبت سبّابته ببطء الحديد البارد ثمّ سرعان ما وضعه بين السبّابة والإبهام من كلتا يديه وأخذ يثنيه إلى أعلى ثمّ إلى أسفل حتى انقطع فصار له حدٌّ مسنون جارح.

وبالبطء نفسه، رفع كُمَّ صدريته مشمّرًا عن ساعده كاشفا عن معصم يده اليسرى متامّلا في جلدته كمن يراها لأوّل مرّة، هو، أدرى الناس بنسيج الأوعية الدمويّة ومجراها الحيويّ وهشاشتها البالغة.

بدا كأنّه يخلد إلى مهلة من التفكير، ثمّ وضع شفرة السلك الفضيّ على المعصم وأخذ يحرّكها أفقيًا، في ما يشبه اللذّة الغامضة، راسمًا على اللحم خيطا لا مرئيًا.

لِمَ كانت السعادة على هذا القرب من الشقاء؟

توقّف فجأة ثمّ وضع الشفرة أسفل الراحة بقليل وحفر في اللحم فانبثق خيط رفيع من الدم سرعان ما تلاشى مثل البخار الذائب على جنبات قدح من النبيذ المثلّج.

ودون أن يرفّ له جفن أخذ يوسّع الجرح وقد فاجأه أن لا يشعر بألم، وهَبْ أنّه تألّم، أما كان سيسكت ألمه؟ أليس هو الشيخ الرئيس أمير العلماء، ذو القدرات العجيبة على التخفيف من ألم الآخرين؟

ارتسمت على شفتيه ابتسامة حزينة فيما ازداد خيط الدم كثافة وبدأت القطرات الأولى تتساقط على البلاط.

أحسّ بالرضا فأرخى يده إلى جانبه وألقى برأسه إلى الوراء.

*

– لا حول ولا قوّة إلاّ بالله. ماذا صنعت بنفسك أيّها الشيخ الرئيس؟

كان وجه الجوزجاني الذي شوّهه الفزع أوّل ما وقعت عليه عيناه.

– كيف سوّلت لك نفسك هذا الأمر يا ابن سينا؟

تعرّف بعد ذلك على ملامح أخيه وقد أكبّ عليه، ولكن هل هو أخوه حقًّا؟

– ليكن الله في عوننا فلابدّ من إيقاف النزيف.

شعر بأنّهم يمسكون به من كتفيه أو لعلّهم كانوا يهزّونه.

– قل لي، أتوسّل اليك، هذا إذا لم تكن قد جننت بعد، قل لي كيف يتمّ إيقاف النزيف؟

أراد أن يتكلّم لكنّ الكلمات تاهت في رأسه.

– لقد جئنا لتحريرك، هل تسمعني؟ جئنا لإخراجك من السجن.

قال الجوزجاني هامسا:

- لم يعد أمامنا وقت طويل، لابدّ من الإسراع.

أراد أن يستجمع ما تبقّى لديه من قوّة إلاّ أنّه كان أمام حجاب كثيف. إحساس غريب بأنّ الأصوات والصور كانت تصله من الطرف الآخر للأرض. وخُيّل إليه أنّه يسمع مرّة أخرى صوت أخيه.

- أنا محمود أخوك، أرجوك أجبني، إنّك تفرغ من دمك، ستموت إذًا...

كان هناك لوح كبير بمربّعات. .. بيادق عملاقة يطوّح بها في الليل...

سيموت... ولكن لماذا يذكرون الموت؟ هل يمكن لأمير الأطبّاء أن يموت؟

أشار إلى حزامه بحركة عشوائيّة وارتفعت يده نحو كتفه.

- الربط... لابدّ من الربط.

غمغم بشيء يشبه هذه الكلمات... ولكن هل كان ذلك صوته حقا؟

شعر بيد ترفع ساعده وأحسّ ببرودة الجلد تعضّ على لحمه والآن ها أنّ أحدهم يرفعه من على الأرض. كانوا يحاولون جرّه خارجا.

هناك في الخارج صفع هواء الليل وجهه وأترعت روائح الورد رئتيه.

الهوامش:

١- عبارة محلّية تعني: سمع الله منك، وقد أوردناها على الرغم من عاميّتها التصاقًا بمناخ النصّ. (المعرب)

٢- يحمل اليوم اسم البحر الأحمر. (المترجم)

المقامة الخامسة والعشرون

أرخوا الأعنة للجياد وما أن اجتازوا سور القصر حتى انعطفوا يمينا إلى الجنوب في اتجاه باب الدباغين.

عبروا شوارع المدينة الضيقة وقد أدركتهم خيوط الفجر الشفقية الاولى. في ساحة البازار الكبير أدارت بعض الجمال أعناقها نحوهم ثم واصلت اجترارها في لامبالاة بينما نبح في وجههم قطيع من الكلاب وتفرس فيهم بعض التجار المبكرين بارتياب.

سرعان ما بلغوا الباب الجنوبي فعبروه دون ان يخففوا من سرعتهم.

كان أبو علي خلف أخيه على ظهر الجواد نفسه فطوّق حزامه بذراعيه وضم صدره اليه بقوة جاهدا كي يقاوم تلك الرغبة العارمة في الاستسلام الى الخدر الذي شلَّ عقله وأطرافه. كانت روائح متداخلة تتصاعد من السهل فقرر أن ينشغل بها مركزا عليها انتباهه كله محاولا تمييز رائحة شجر الرمان الخفيفة من رائحة أشجار اللوز الباهتة ورائحة الورد الناعمة من تلك اللاذعة التي يعبق بها الريحان.

لم يستطع بعد ان يفهم كل ما حصل له ولم تكن الجمل المتقطعة التي تبادلها الجوزجاني ومحمود والتي أمكن له أن ينتبه اليها كافية لتكوين فكرة كاملة عن مجرى الأحداث.

ركضوا حثيثا بلا توقف حتى انتصف النهار فقرر محمود ان يأخذوا قسطا من الراحة كي يتمكن أخوه من تناول قليل من الماء والغذاء وكي يعتني بتضميد جرحه. تراءت عن يمينهم واحة الفرغ قريبا من نهر الهار أحد الأنهار الصغيرة التي تشق الناحية فترجلوا هناك وأطعموا الشيخ شيئا من التمر الجاف مع حليب وعسل فاسترد بعض قواه وعندها أطلعوه على تفاصيل ما حدث.

هكذا علم ان ابن زيلة أفلح في إغراء حارس السجن الذي حبس فيه

بإعانتهم على تخليصه، وكانت الخطة ان يدعي الحارس بأنه دُوهِمَ على حين غرة فأُوثِقَ وسُلِبَ من مجموعة مفاتيحه، وقد قبل الحارس بتنفيذ الخطة دون ان يطلب مقابلا على ذلك فقد كان مجوسيا مثل ابن زيلة ووفيا لأبناء دينه، ولم يكن له ما يدين به لأكلة العظايات فضلا عن ضيقه بالمجوسيين الذين دخلوا في الإسلام.

في الأثناء كان المعصومي قد أخرج ياسمينة من القصر خلسة وأخذها الى دار ابن دخدوك، الرجل نفسه الذي آواهم قبل ذلك طيلة أربعين يوما.

سأل أبو علي، وقد ساوره القلق:

– إبن دخدوك؟ ولكن هل سألتموه رأيه؟

أشار محمود برأسه، أن: لا.

– هذا جنون. ليس للرجل ما يدفعه الى تعريض حياته الى التهلكة بسببنا.

– إنه يكنٌ لك الكثير من الإحترام والتقدير. ثم لا تنس انه كان صديق شمس الدولة.

– لنَدْعُ الله أن يكون على عهدنا به.

مر بيده شارد الذهن على الضمادة التي كانت تلف معصمه، وأضاف بصوت مختنق:

– ليس لنا خيار على اي حال.

أعطى اشارة الإنطلاق. ولم يدركهم الغروب حتى كانوا على مشارف الضيعة. والظاهر ان المعصومي وياسمينة وابن دخدوك كانوا يترصدونهم بفارغ الصبر واقفين على عتبة الدار فما ان رأوهم حتى سارعوا اليهم وكانت ياسمينة أسبق الجميع الى الشيخ فارتمت في حضنه وضمت نفسها اليه دون أن تنبس بكلمة وكأنها تبحث في حرارة جسمه عمًا يؤكد لها انها في حضنه حقا. وما ان ابتعدت عنه قليلا حتى انتبهت الى معصمه المضمد فهمّتْ بالسؤال إلا ان شيئا في نظرات الجوزجاني وابن

زيلة منعها من الخوض في الامر.

أقبل ابن دخدوك بدوره على ابي علي فحياه بتأثر:

– مرحبا بك يا ابا علي وكم كنت اتمنى ان تعود بك الى بيتي ظروف أفضل من هذه، لكن الانسان في أغلب الأحيان مسير لا مخير، اليس كذلك؟

– السلام عليك يا اخي. لكم اشعر بالحرج الشديد لهذا الإزعاج، وأعتقد ان من واجبي محادثتك في الأمر.

– هوّن عليك يا شيخ، فصاحباك حدثاني بكل شئ. لندخل الآن وسيكون للحديث أوان فيما بعد. لقد برد الجو ولا شك انكم جائعون.

جلسوا سبعتهم حول طاولة منخفضة من الخشب المطعّم، كان الخدم قد شرعوا في ملئها بمختلف أطباق الطعام. وسرعان ما ناول ابن دخدوك الشيخ قدحا من الشراب.

– ها أنت ترى أني لم أنس ميولك.

ثم اضاف مبتسما:

– أما زلت على مهارتك في تحريك الرخّ والوزير؟

– لا أظن ذلك للأسف، فالقلاع والوزراء لم تعد من صلاحياتي.

قد يكون ابن دخدوك فهم التلميح، الاّ انه لم يفصح عن ذلك.

جاء أحد الخدم بطبق من الرز بنوى الصنوبر وآخر عليه سمك يعبق بالزعفران.

– كلوا يا أصدقائي، فغذاء الجسم يعين العقل على التدبير.

أقبلوا على وجبتهم في جو يشوبه شئ من التوتر. ألّمتْ ياسمينة بالطعام الماما وقد انعقد بطنها قلقا وحيرة وكانت لا تنفكُّ تعيد النظر بالرغم عنها الى الضمادة المحيطة بمعصم أبي علي وحاول ابن دخدوك ان يدخل شيئا من المرح على الجو سائلا الشيخ عن آخر أعماله إلاّ أن محاولته كانت بدون حماس.

أخيرا قال الشيخ:

– ألحق ان شيئا لا يحزنني في كل هذا الذي حدث أكثر من بقاء أوراقي وكتبي في القصر، وأخشى ان يتلفوها دون أن يرف لهم جفن.

رد ابن دخدوك مهدئا من روعه:

– لا أظن ذلك فسماء الدولة لا يخلو من عقل على صغر سنه وهو يعرف قيمة ما أنجزته، ولا أظنه يأذن بضياع كنز مثل هذا الى غير رجعة، ولا انه يرضى بإتلاف ما كان أبوه فخورا بأنه أُنجز في بلاطه.

قال ابن زيلة:

– الله وحده يعلم بالمستقبل ولكن ماذا عن الحاضر؟

– داري هي داركم ولكم أن تثقوا بذلك.

سأله ابن سينا:

– ولكن هل انت مدرك لخطورة الامر؟ لا شك ان البحث قد انطلق الساعة وان عيون تاج الملك انتشرت في كل ثنايا الجبال لا تترك بقعة لا تطلبنا فيها وقد يداهمنا جنده عما قريب في هذه الدار.

– ذلك جائز ولكن ماذا في وسعنا ان نفعل؟ ان المستقبل بيد الله وحده على رأي ابن زيلة.

قال الشيخ مصححا:

– وهو بيد أمير أصفهان أيضا. لقد كاتبته سرا منذ عشرة أيام أطلب خدمته والمسير اليه والإنضمام الى جانبه والظاهر ان رسالتي لم تصله وان الوزير قطع عليها الطريق والاّ فكيف علم بأمرها؟ وأرى لزاما علينا أن نطلع أمير أصفهان على جلية الأمر.

قالت ياسمينة معترضة:

– ولماذا مكاتبته من جديد؟ إذا كنت واثقا بطيبته وفضائله فلماذا لا ترحل الى أصفهان من الغد؟

– ليس الأمر مأمون العواقب، فالرحلة الى أصفهان صعبة محفوفة

بالمخاطر وسيكون من العبث أن نغامر بها ثم نجد الباب موصدا أمامنا. كلا، أنا أقترح حلا آخر...

إرتشف جرعة من قدحه، وقال وهو ينحني الى الامام:

– بيننا وبين أصفهان حوالي المائة فرسخ، ويسهل على الراكب الخفيف عبور هذه المسافة في ستة أيام أو سبعة، لذلك أرى أن يرحل اثنان منا فحسب الى هناك مع مطلع الفجر، وسأرفقهما برسالة أخرى الى علاء الدولة أكتبها هذه الليلة.

قال محمود:

– الفكرة ليست سيئة، ولكن هذا يعني إن على الرسولين أن يعودا بالجواب وهو ما يجعل مكوثنا هنا يطول مدة خمسة عشر يوما على الأقل.

سأله الجوزجاني:

– وهل لنا خيار اخر؟ لا أرى غير هذا، أو أن ننتظر القبض علينا دون أن نحرك ساكنا.

قال ابن دخدوك:

– لا تحرمنا من هذه المتعة يا محمود. بقي الآن ان ندعوا الله كي لا يغتنم الزردشتي الطريق الطويلة الى أصفهان كي يقتل ابن الاسلام.

تدخّل ابن سينا قبل أن يجد محمود الفرصة للرد او الاحتجاج:

– ليكن لهما ذلك يا محمود، ولندع الله.. لندعه خاصة كي لا يفرغ صبره، فلا شك أنه لم يُدْعَ بمثل هذا القدر قبل الآن.

*

خيم الليل على دار ابن دخدوك وكانوا قد خاضوا في شتى المسائل كعادتهم حتى ساعة متاخرة ثم آوى كل منهم الى غرفته ما عدا الشيخ الذي استسمحهم في البقاء وحيدا لبعض الوقت.

تركته يا سمينة لوحدته أول الأمر إلاّ انها لم تطقْ صبرا فخرجتْ تطلبه حتى وجدته جالسا في ركن من الحديقة ملقيا رأسه الى جذع جميزة،

متأملا في النجوم.

جلست حذوه دون أن تنبس بكلمة وانتظرت حتى بادرها هو بالكلام.

– قد يصح القول في النهاية انني لست من الأشخاص الذين يُنصح بمخالطتهم.

قالت مرسلة أصابعها في شعرها دون انتباه:

– أعتقد ان الله حباك منذ الولادة بموهبة فريدة، ولعلك حياتك لم تكن في صورتها سوى انعكاس لفرادة هذه الموهبة.

– ولكن لماذا؟ لماذا انا؟ لماذا هذا التمزق المستمر؟ منذ بلغت السادسة عشرة من عمري وأنا لا أرى طرقا تتفتح أمامي الاّ لتطير مثل الأوراق الميتة، ففيم أذنبت؟ ها أنا في الأربعين دون أن أنجز شيئا. أصبحت في نصف المسافة التي تفصلني عن الضفة الأخرى حيث ينتهي كل شيء، ولا أرى في هذا السيل الجارف من حولي غير التيه والمنفى والنميمة.

صمت لحظة ممسكا أنفاسه قبل أن يضيف بما يشبه الهمس:

– لم يبق لي سواك...

ثم رفع يدا نحو السماء.

– أحب الليل. أحبه الليل الى حد اليأس. إنه اللحظة المعجزة التي تتمازج فيها الكائنات بالأشياء. كل شيء في الليل شبيه بكل شيء. يصبح الأمير النائم توأما لخادمه. يصبح الأب نسخة من ابنه. يكف الكون عن التنفس ويهدأ الهمُّ كما تهدأ العواصف. كان ينبغي ألا تعيش الكائنات إلاّ ليلا.

وضعت يدها بحنان على معصمه الجريح:

– كيف استطعت ان تفعل ذلك أنت امير الأطباء الذي ولد لدفع الموت؟

تحرك في العتمة وضم ركبتيه الى صدره مطلقا يده بلطف:

– أذكر مريضة من مرضاي، من تلك اللواتي ينعتن عادة بنساء السوء كان ذلك منذ زمن طويل بيبمارستان بخارى. كانت حاملا وأرادت

التخلص من الجنين الذي في بطنها. لم أفهم ساعتها الأمر. كنت في الثامنة عشرة.

– واليوم؟

– اليوم يسكنني الشك يا ياسمينة السؤال الكبير الذي اطرحه على نفسي اليوم هو التالي: اذا لم يكن للبشر قرار في أمر ولادتهم فلماذا لا يكون من حقهم البتُّ في أمر موتهم؟ ألسنا نتخلص من الثوب إذا اهترأ؟

توقف عن الكلام لحظة قبل ان يقول بصوت يائس:

– لقد اهترأت حياتي يا ياسمينة.

اغرورقت عيناها بالدموع فيما هو يتحدث، ولم تلبث ان طوقت وجهه بيديها وقالت بلهفة وحماس:

– لا تعد الى هذا الكلام أرجوك. ليست هذه كلماتك فأنا أراك لكني أنصت الى رجل غريب. تحدثني لكني اسمع صوت رجل اخر لا أعرفه، يخرج من بين شفتيك. قل لي الحياة ايها الشيخ الرئيس، قل لي الشمس والماء الجاري ومقاومة العذاب والسقم وكل ما عهدته منك. ألا ترى انك اذا ضعت فأنا من سيتوه، واذا ألقيت بنفسك الى البحر فأنا من سيغرق، واذا تكلمت عن الموت فأنا من سيموت؟ أتوسل اليك ايها الشيخ الرئيس..

ولم تكد تنطق بالكلمات الاخيرة حتى اخذتها رجفة فانفجرت باكية دافنة رأسها في كتفه.

*

أفاق من الغد وهو على المزاج نفسه. لم ترتح نفسه ولم تنبسط أساريره، فودع ابن زيلة والمعصومي وظل يرقبهما طويلا، واقفا لا يتحرك، متابعا ببصره الى اللحظة الاخيرة سحابة الغبار الضئيلة التي اثارتها حوافر جواديهما قبل ان يبتلعهما الأفق فانتظرتُ حتى غابا عن الانظار ودنوتُ منه فأريته حزمة من الأوراق.

– هل تعرف ما هذه ايها الشيخ الرئيس؟

بوغت، وقد قطعت عليه تأملاته ثم تناول الاوراق فتفحّصها.

– كتاب الشفاء؟ ولكن كيف وصل الى هنا؟ ظننت اننا تركنا الكتب كلها بالقصر.

– انه الكتاب الوحيد الذي وجدت سعة من الوقت لحمله.

ردّ علي الاوراق مثنيا عليّ في شرود، وتوجّه الى الدار، فسرت على اثره.

– انه لم يتم بعد ايها الشيخ الرئيس.

– سنعمل على اتمامه ذات يوم.

– متى؟

– ذات يوم.

– ولم لا تتمه اليوم ايها الشيخ الرئيس؟

لكنه تخطى عتبة الدار دون ان يجيبني بشيء.

مرت على ذلك سبعة ايام من الكآبة والعقم قضاها الشيخ مراوحا مكانه لا يفرغ من ملاعبة مضيفه لعبة البراهما الا لمعاقرة الكأس بإفراط لم نعهده منه. وكانت تصدر عنه بين الحين والآخر جُمَلٌ غير مفهومة ينقض بعضها بعضا وكلمات شديدة المرارة في شأن العالم والبشر، مكررا لكل من يشاء الإصغاء ان السعادة ليست شيئا بذاته انما هي لا تعدو ان تكون فاصلا قصيرا بين حالتي شقاء. ثم لم يلبث ان غلب عليه التجديف ناعتا الأنبياء، غفر الله له، بشتى النعوت، مشككا في النصوص المقدسة، ذاهبا الى استحالة التوفيق بين الفلسفة والدين. وسرعان ما صبّ جامّ غضبه على الأديان كلها، فإذا هي في نظره سبب كل البلايا والحروب، مناديا بأن الإيمان بما جاء به أرسطوطاليس لا يمكن الاّ ان يقود الى نفي القول بخلق العالم. ولم يكن في كل ذلك الاّ متصديا لنفسه مناقضا لما ظل طيلة حياته يدافع عنه من نظريات.

وما ان ادركنا صباح اليوم الثامن حتى حصل امر غير مفهوم. فقد أفاق باكرا على غير عادته وأسرع يطرق بابي:

– انهض يا أبا عبيد. خذ قلمك وأوراقك فلدينا عمل لم نفرغ منه بعد.
ولما ظللت أنظر اليه مبهوتا أضاف قائلا:
– هل ينبغي عليّ ان أُخرجك بنفسي من تحت اللحاف؟ هيا تعال.
كان قلبي يخفق بقوة، وكانت يداي ترتعشان من اللهفة.
أملى علي الشيخ يومها في قريب من عشرين جزءا مقدار الثمن رؤوس المسائل من كتاب الشفاء وبقي فيه يومين حتى كتب رؤوس المسائل كلها بلا كتاب يحضره ولا أصل يرجع اليه، بل من حفظه وعن ظهر قلبه.
ثم ترك تلك الأجزاء بين يديه وأخذ الكاغذ، فكان ينظر في كل مسألة ويملي عليّ شرحها، فكنا نكتب في كل يوم خمسين ورقة، حتى أتى على جميع الطبيعيات والإلهيات، ما خلا كتاب الحيوان.
ولم نفرغ من ذلك حتى ابتدأ بالمنطق. فأملى عليّ منه جزءا. كنا آنذاك في اليوم الثالث عشر من إقامتنا بدار ابن دخدوك في الثالث من جمادى الاخرة...
تساقط الثلج ندفا كبيرة رصّعت المشهد واضاءت السماء بلطخات متوهجة، فيما بدت الحديقة وكأنها تجمدت فجأة في ثوب من البياض البهيج.
في الاثناء، كانت أشباح غامضة تتقدم في جنح الظلام بخطوات حذرة. كانوا جنودا، بل عشرات من الجنود اختلطت ظلالهم في العتمة بجذوع الاشجار العارية. كم مرّ عليهم من الوقت وهم في هذا المكان؟ كانت أحذيتهم الثقيلة تغوص في الثلج محدثة أصواتا مختنقة، فيما كانوا يحتلون مواقعهم حول الدار.
في الداخل، كان محمود والجوزجاني قد استسلما الى إغفاءة خفيفة، وكانت ياسمينة قد فرغت لتوها من تناول رشفة من الشاي المنعنع جالسة عند قدمي الشيخ تسمع اليه وهو يقرأ على مضيفه شيئا مما في كتاب الشفاء عن الشعر.

لم يتفطن أحد منهم الى الجند يقتربون من الدار. لم يلفت انتباههم شيء، لا حركة، ولا نأمة. لا شيء عدا التساقط المتواصل لندف الثلج في سكينة الليل.

ثم ارتفع صهيل حصان. فتوقف ابو علي عن القراءة وتبادل النظرات مع ابن دخدوك. في الوقت نفسه تقريبا جمدت ياسمينة قدح الشاي على حافة شفتيها فيما ظل محمود والجوزجاني غافيين. وكان لابد من الطرقات الشديدة على الباب كي يصحوا من النوم. وكان ابو عبيد أول من سأل، قافزا من مكانه:

– هل سمعتم؟

هزّ ابو علي ومضيفه رأسيهما بالإيجاب.

تضاعفت الطرقات على الباب.

وقف ابو علي وقال بصوت أدهشهم هدوؤه:

– أخشى ان الساعة قد حانت يا جماعة.

نهض الجوزجاني وياسمينة بدورهما. وهمّت الفتاة التي لم يكن وجهها أقل امتقاعا من محمود، بالإتجاه ناحية الباب. الاّ ان ابن دخدوك التحق بهما فأزاحها عنه.

– إبقي الى جانب الشيخ، سأرى من الطارق.

وكان على محمود ان يتدخل هذه المرة هاتفا بصوت مكتوم:

– هل جننت؟ وماذا لو كانوا رجال سماء الدولة؟

قال ابن سينا:

– لا عليك يا اخي. فلا قِبَلَ لنا بشيء اذا كان على الباب من ذكرت.

– ألا نحاول شيئا؟

– لا عليك، قلت لك...

طُرِقَ الباب من جديد. وكانت الطرقات اكثر عنفا، ففتحه ابو علي بنفسه. وفجأة، إنفرج الباب عن تاج المُلك في هيئته الداكنة.

انحنى له الشيخ.

– الوزير بنفسه يا له من شرف كبير يا مولاي...

لم يرد عليه الوزير بشئ بل اكتفى بالاشارة الى اعوانه:

– خذوه.

اشار ابو علي بحركة من يده الى المماليك الذين تدافعوا اليه بالوقوف.

– لحظة من فضلكم.

ثم اضاف محدا بصره في الوزير:

– هل لي ان اطمع في رجاء وحيد؟

– تكلم.

– صاحبتي واخي وتلميذي لا اريد ان يطردوا مثل المتسولين فهل يمكن ايواؤهم؟

– تلك أوامر الأمير. فقد أمر بأن يقيموا بأحد أجنحة المدرسة.

صرخت ياسمينة:

– كلا. لا أريد. أريد ان أظل مع الشيخ.

أشار اليها ابو علي بأن تلزم الصمت. وأضاف متوجها الى الوزير:

– ثمة شئ آخر. كتبي. أود ان يُسْمَحَ لي بأخذها معي.

– تلك أيضا أوامر الامير. كل ما هو لك، سيصحبك.

همس ابن دخدوك:

– هذا يوم مشؤوم. ليس ابن سينا من يوضع في السجن، بل المملكة.

كان الوزير على وشك إجابته بحدة، الاّ انه لم يجد الوقت لذلك. فقد ندت عن احد المماليك صرخة إنذار. كان محمود يجري باتجاه النافذة.

صرخ ابو علي:

– لا تفعل ذلك يا أخي.

الاّ ان الأوان كان قد فات. فقد تخطى الفتى النافذة، وأخذ يجري في الثلج لا يلوي على شئ.

– أوقفوه.

خفَّ الجميع الى الباب.

إخترق الخنجر الهواء فلم يصطدم بشيء، الآ بظهر محمود. في وسط ظهره تماما.

رأوه يتشنج فجأة ويمد يديه نحو السماء كأنه يحاول ان ينشب أصابعه في العتمة، قبل ان يتهالك على الارض وقد غاص وجهه في الثلج.

– محمود. . لا.

نحّى الشيخ كالمجنون كل الذين حاولوا اعتراض طريقه، وأخذ يجري بأقصى سرعة الى حيث سقط أخوه. ودون ان يعير انتباها الى الجند الذين خفُّوا للحاق به، جثا قرب الفتى، فنزع الخنجر من ظهره بحركة جافة، وأداره على ظهره.

– بحق الله، ليس أنت...

لم يكد محمود يمسك بيد أخيه، حتى كانت عيناه قد انفتحتا على العدم.

*

همذان، مدينة الأسوار السبعة، والألوان السبعة، لم تعد الآن غير نقطة غامضة في خط الأفق البعيد، فيما كان السهل يمتد الى الأسفل، تائها في شفق الفجر.

ترنّح ابو علي على حصانه، وقد أوثقت يداه الى الخلف وحفَّت به كوكبة المماليك. أمامه امتدت الطرق الى ما لانهاية. لم يمض وقت طويل حتى كانوا يبلغون نجدا محاطا بهضاب تسد الأفق.

كان إقليم " جرا " قليل الشجر والخضرة. وسرعان ما كان عليهم ان يعبروا شعابا رملية انتشرت فيها الأعشاب الشوكية. ثم دخلوا فيما يشبه الممر الطويل بين جرفين هائلين من الصخور الصفراوية الداكنة. سار الجميع طويلا بمحاذاة سفح الجبل الى ان انعطف فارس المقدمة الى اليمين. فجأة، تراءت على المرتفعات اسوار عالية منصوبة على قمة جبل

سوداء: فرودخان. فرودخان، الشبح المرعب بأبراجه المرصعة برؤوسس أُروبيات ذوات قرون مذببة.

هتف تاج الملك:

– ها هي دارك الجديدة.

هزّ ابن سينا رأسه، وقال بنبرة في برودة الثلج:

– شكرا على الضيافة أيها الوزير.

ثم أضاف بصوت كالهمس:

– دخولي في اليقين كما تراه
وكل الشك في أمر الخروج...

المقامة السادسة والعشرون

"أما اسمي ونسبي فحي بن يقظان وأما بلدي فمدينة بيت المقدس وأما حرفتي فالسياحة في أقطار العوالم حتى أحطت بها خبرا ووجهي إلى أبي وهو حيٌّ وقد عَطَوتُ منه مفاتيح العلوم كلها فهداني الطريق السالكة الى نواحي العالم حتى زويت بسياحتي آفاق الأقاليم[1]"

توقف ابن سينا عن الكتابة، وسار بضع خطوات في اتجاه النافذة ضاما الى صدره طرفي معطفه الصوف. تكورت أصابعه التي شققها البرد حول قضبان النافذة وسرح بصره بعيدا أمامه في المشهد المتلفع بالشفق على مَدّ النظر. ها هو سجين منذ شهرين لا مهرب له من سجنه الضيق غير النظر من هذه النافذة الى ذاك المشهد حتى أمكن له ان يحفظ كل ركن فيه، كل تعرجات شعابه الصخرية المحفورة مثل الندوب الدامية على سفح الجبل، كل ظلال حجارته الخبازية والحمراء القاتمة الناشبة على جنبات الهضاب، كل أنفاس ليله البهيم.

شهران وهو سجين... ستون يوما بلياليها...

والغريب ان الألم كان أقل حدّةً مما توقع، وان الجرح كان أقل عمقا مما توجس، فكأن الانسان متى لمس قاع الهاوية تلاشت عن أذنيه جلبة اليأس مخلية المكان لشساعة الصمت. ولعل في ذلك ما يفسر وجهة كتاباته الأخيرة: كتاب الهداية، الذي أهداه لأخيه رحمه الله وقد شرع في كتابته ليلة وصوله الى فرودخان وأتمّه في الليلة نفسها. ثم هذه الحكاية الصوفية التي أسماها حي بن يقظان والتي أرادها وصفا لرحلة النفس في اتجاه الشرق. والشرق بالنسبة اليه، اسم آخر للحرية.

نفخ في يديه اللتين جمدهما البرد القارس الجاثم على الحجرة على الرغم من وجود مجمرة صغيرة، وعاد الى مجلسه أمام الطاولة ذات الساقين المعوجتين.

. . "ثمة منطقتان غريبتان تقع إحداهما في ما وراء الغرب وتقع الاخرى

في ما وراء الشرق ولكل واحدة منهما حد يفصلهما عن الاخرى فلا احد يخرج من هذه الى تلك ولا احد يقدر على عبور الحد الا المختارون من الخلق اولئك الذين اكتسبوا قوة ليس اكتسابها من طبيعة البشر"..

أعتقد ان الله حباك منذ الولادة بموهبة فريدة، ولعلك حياتك لم تكن في صورتها سوى انعكاس لفرادة هذه الهبة..

ما الذي جعل صوت ياسمينة يقتحم عليه وحدته في هذه اللحظة؟

سمع صرير الباب وهو يدور على محوريه فكف عن الكتابة، لم يكلف نفسه عناء الالتفات للتعرف على القادم فلا شك انه حارسه "كريم" الذي اعتاد منذ شهرين ان يأتيه كل فجر بقدح من الشاي الساخن مع قطعة من الخبز المدور. ولا شك انه مثل كل صباح سيقول له: "أسعد الله صباحك ايها الشيخ"، فيجيبه: "وصباحك يا كريم" ثم يتبادلان بعض الكلمات عن قساوة الشتاء هذا العام وعما يعانيه عسكر الحامية من ظروف صعبة، وعن قوافل التموين التي حبسها الثلج في مضيق بنسامه، ولعله يمده كما اعتاد ان يفعل في بعض الاحيان النادرة بآخر أخبار الأمير وهمذان، ثم يغادره كي لا يرجع الا بعد صلاة الظهر حاملا معه الغداء.

أوصد الباب وأحاط ابو علي قدح الشاي براحتيه طلبا للدفء وقد جال في خاطره ان شهر رجب ببرده هذا قد طال أكثر مما ينبغي وكأنه يرفض الرحيل.

ثم مرت الايام وحل شهر شعبان فلطف الجو وشرعت مياه الانهار في إذابة جليدها وانسابت العيون مثل الشريط على بطن السهل الدافئ وأمكن لأشعة الشمس ان تتسلل بين الحين والآخر من خلال الضباب الصباحي. وكان من نتائج تحسن الجو ان سُمِحَ لأبي علي في الأسبوع بجولة قصيرة تحت الحراسة على طول ممر دوريات الحرس واحيانا في الساحة المربعة التي تتوسط القلعة. وسرعان ما أضحت هذه الانفلاتات القصيرة أمرا لا غنى عنه فقد أمكن له ان يَمْتَحَ منها خيرا عميما وكأنه يُبعث من جديد في كل جولة.

إغتنم فرصة هذا الشهر ليفرغ من قصة حي بن يقظان. ثم شرع في تصنيف كتاب القولنج. وما ان حل شهر رمضان حتى شرع في تصنيف كتاب الأدوية القلبية.

وعلى الرغم من وَهَنِ جسمه واعتراضات حارسه فقد أصر على أداء فريضة الصيام كاملة دون نقصان. ولم يفطر الاّ بظهور هلال العيد في سماء "جرا."

أدركه شهر شوال وهو منهمك في وضع مقالة في القضاء والقدر تحدث فيها برصانة وبلاغة عن أسرار التدبير الإلهي التي يعجز العقل البشري عن إدراكها. ومنها قوله:

... "وإن من شأن الزمن أن يمحو من الذاكرة الآلام ويطفئ الضغينة ويهدئ الغضب ويخمد الأحقاد فإذا الماضي كأن لم يكن وإذا العذاب المضني والخسائر الفادحة أمور غير ذات بال. وذلك ان الله لا يفرق بين الجزاء والعطاء ولا بين ما يَمُنُّ به على خلقه من واسع رحمته وما تكافئهم به الدهور في مرورها فإذا هو يقدّر لصروف الدهر أن تمحو كل ما يصل الأسباب بالمسببات"..

طوى أوراقه ونهض عن الطاولة فاتجه الى فراشه وكان حصيرا من القش المضفور فتمدد عليه طلبا لقسط من الراحة. كان قد أمضى الليل كله في الكتابة حتى أدركه الفجر، ولم يلبث أن سمع صرير الباب وهو يدور على محوريه. تساءل إن كان سيأتي عليه يوم جديد لا يسمع فيه هذا الصرير وان كان سيشتاق يوما الى هذا الصوت المنكر. وكان مخلدا الى خواطره تلك حين انتبه الى تأخر كريم عن موعد كل يوم، فأصاخ السمع مترصدا وقع خطاه الأليفة وهو يصعد الممر الآجري الطويل، فلم يسمع غير الصمت. والغريب ان تأخر الحارس عن موعده لم يُثِر في البداية في نفس أبي علي غير بعض الفضول، الاّ ان هذا الفضول سرعان ما تحول الى قلق شديد، حتى انه تعجب من ان يدخل عليه أول تغيير طارئ على طقوس حبسه كل هذا الاضطراب. ثم تحول العجب الى ثورة على نفسه فأغمض

عينيه المحمرتين من طول التفرس في الكلمات على ضوء المصباح الخافت، وحاول الاسترخاء.

لم يفق من اغفاءته الا حين انتصف النهار فانتبه الى ان الحارس لم يظهر بعد. نهض عن حصيره بتثاقل وقد تسمرت عيناه دون قصد على الباب الخشبي المتين وظلتا لا تحيدان عنه. مرت بخواطره آلاف الأسئلة دون ان يعثر على مبرر معقول لهذا الغياب المفاجئ. وماذا لو أنهم قرروا فجأة أن يتركوه يموت ميتة الكلاب؟

الحق انه كان بعيدا عن واقع الامور. وكيف له ان يتخيل لحظة ما كان يدور من أحداث عجيبة في تلك اللحظة بالذات على بعد عشرة فراسخ من هناك تحت أسوار همذان؟ وَهَبْ أن رسولا جاءه بالخبر اليقين، فهل كان سيصدق؟

كان علاء الدولة أمير أصفهان، يعلن الحرب على سماء الدولة ووزيره تاج المُلك.

*

عَمَّ الاضطراب الجميع داخل أسوار المدينة ذات الألوان السبعة.

تمترس السكان مفزوعين في بيوتهم، وأمر تاج الملك بإرتاج أبواب المدينة الأربعة. وكان بإمكان الجميع ان يروا المشهد المخيف لجيش أصفهان وهو يتحرك على مسافة لا تزيد عن الميل. في المقدمة ظهر علاء الدولة ممتطيا حصانه متلففا بدرعه الزردي المتوهج تحت اشعة الشمس واضعا على رأسه عمامة مهيبة في لون العاج شبيها برستم وهو يتأهب للفتك بالعفريت. والحق ان الرجل كان مهيبا في الاربعين من عمره تحف بوجهه لحية داكنة في شكل طوق ويلفت الانظار بجبينه العريض وخاصة بعينين واسعتين تميزهما زرقة فاتحة شديدة النقاء. ولعله كان أجدر من يعبر عن مهابة المُلك من بين جميع ملوك سلالته، باستثناء مؤسسها.

توجه الى قائد جيشه بصوت مرعد:

– إليَّ بالمُنجِّم أيها السالار.

- ولكننا على أهبة القتال ياروح الدولة و..
- قلت لك ادعُ منجّمي. أريد ان أراه فورا.
تكلم بنبرة لا تحتمل الاعتراض.
- السمع والطاعة يا مولاي.
حثّ القائد جواده واتجه في دوامة من الغبار ناحية مساعده فأبلغه بأمر الامير قبل ان يعود الى موقعه.
اقترب منه علاء الدولة وسأله وهو يتفحص أسوار همذان:
- ألمْ ننسَ شيئا من العتاد اللازم للحصار؟
- كلا يا مولاي. فقد نفذنا اوامرك وجلبنا ما يلزم من المنجنيقات والقذافات الخفيفة والدبابات و...
- ليس هذا ما أقصد. انا أسال عن المهم.
- اطمئن يا مولاي فقد أعددنا المئات من الجرار الفخارية خصيصا لذلك.
- حسنا. تابع تطويق المدينة. اريده حصارا محكما يعجز الفأر عن اختراقه.
رفع السالار رأسه في خيلاء.
- إعتمد عليّ يا مولاي.
ثم وقف على ركابيه وقال مشيرا الى رجل قصير القامة كان يعرج متقدما منهم وسط غبار الجياد:
- هاهو مُنجّمك يا مولاي.
ألقى الامير على القادم نظرة من على كتفه ثم أدار لجام جواده بحركة سريعة وانعطف يمينا.
- اقترب يا "يان بوي" انا في حاجة اليك.
حاول المدعو "يان بوي" ان يحث خطاه في مجهود بدا فوق طاقة البشر وسرعان ما وقف عند قدمي الامير واضعا يده على قبعة غريبة مرصعة بالجلاجل وقد بدا عليه الامتعاض. كان قزما تقريبا ضيق العينين تغلب

على سحنته الصفرة وتخط وجهه التجاعيد، وما ان تكلم حتى ظهرت له لكنة عجيبة.

– ألم أقرأ لك الطالع البارحة ونحن نتأهب للرحيل؟ النجوم لها أوقاتها يا مولاي بعكس الجواري اللواتي يمكن ان ندعوهن في أية لحظة.

ثم أضاف بلهجة لا تخلو من حَنق:

– وكذلك المنجمون.

– أعرف آراءك في هذا الامر، وهي لا تهمني في شئ. ما يهمني هو ان أعرف.

سأله القزم في صوت كالأنين:

– أن تعرف ماذا؟ لقد قلت لك كل شئ.

– أعد على مسمعي ما قلت.

ندت عن "يان بوي" آهة يتحرك لها الصخر ولم يملك الاَّ ان يستجيب للامر.

– بعد فحص الـ "يي كينغ" والمنازل القمرية عند حلولها بالـ...

– دعك من الثرثرة يا يا بوي وهات المفيد.

شبك القزم يديه تحت كُمَّيه الطويلين من الحرير وقال بنبرة جافة رافعا رأسه:

– سيولد النصر مع غروب الشمس.

– وفي أي جبهة يولد؟

– في جبهة أصفهان.

– حسنا. الآن اريد ان تؤكد لي ذلك بخط الرمل.

– خط الرمل؟ هنا؟

– وفورا. هيا.

فتش يان بوي في جيوب فَرَجيَّته السندسية واظهر ثمانية احجار نَرْدٍ منظومة في سِلْكَي شَبْهَان، اربعة في كل سلك، ثم قرفص عند قدمي الامير مغمغما بأدعية مبهمة، ثم ألقى بالحجارة في الرمل على طريقة القبايطان[٢].

فأمعن النظر في الاعداد ونسبها وعلاقاتها، ثم نهض قائلا:

– طالع السعد غالب على طالع النحس، ونصرك لا ريب فيه.

– حسننا اذن. فسنهجم على المدينة بدلا من ان نحاصرها.

ضرب علاء الدولة بعقبيه على جنبي حصانه واتجه الى قلب الجيش فيما ظل يان بوي يتابعه بعينين متعبتين.

وسرعان ما جلجلت الابواق الواحد بعد الاخر من جهات الاسوار الاربع فاستجابت لها هتافات عارمة وتحرك حملة السلالم كالرجل الواحد تحت حماية النَّبالة.

الى اليمين، أبعد الى الغرب، امتدّ صَفّان من المشاة على مسافة تقرب من ربع الميل رافعين دبابة هائلة من خشب سوريا في هيئة رأس الكبش، واتجهوا بها ناحية باب الفخارين، فيما كانت مجموعة اخرى تقوم بالشئ نفسه من الناحية الشرقية متجهة الى باب الصيادين.

من وراء شرفات الاسوار كان يمكن للعين ان تحزر أشباح رُماة تاج المُلك وهم يتأهبون لإمطار المهاجمين بوابل من السهام.

قال الوزير كمن يفكر بصوت عال وقد وضع يده فوق عينيه اتقاء للشمس:

– انهم يتقدمون الى المسلخ بأنفسهم. وما أن يصيروا على مرمى سهامنا حتى يقذف بهم عزرائيل الى جهنم.

– أمر لا يعقل. لم أكن أتصور ان علاء الدولة يضع تهديداته موضع التنفيذ.

– ولا انا يا مولاي. فهل يعقل ان تُشَنَّ حرب من أجل رجل واحد، حتى وان كان أمير العلماء؟ هذا فوق التصور.

– دع عنك هذا الهذر يا تاج الملك، فقد يكون امير أصفهان غاضبا حقا لمنعنا ابن سينا من الإلتحاق به وحبسنا له بفرودخان، الا اني لا إخال هذا السبب كافيا لشن حرب. والحق اني لا اظن الشيخ سوى تَعِلّة، فأنا أشك منذ مدة طويلة في إن لعلاء الدولة نوايا توسعية[٢].

– لا شك في ذلك يا سماء الدولة لا شك في ذلك ولكن الله سينصر الحق.

ثنى الامير على كلامه دون اقتناع كبير ومرت بخاطره صورة ابن سينا حبيسا في تلك القلعة الكئيبة الباردة فتساءل ان كان فعلا على حق الا ان صوت تاج الملك وقد اعتراه القلق أعاده الى الواقع.

– أمر غريب. ماذا يفعلون؟

إنحنى الامير الى الامام ليرى الى جيش الاعداء بوضوح أكبر.

كان مشاة أصفهان قد توقفوا عن الاقتراب من الاسوار.

سأل سماء الدولة وقد اشتدت به الحيرة:

– لماذا كفوا عن التقدم؟

– لا ادري، لعلهم..

– ولماذا لا نرشقهم بالسهام؟ أطلب من الرماة ان يتحركوا.

– هذا غير ممكن يا مولاي. فما زال العدو أبعد من مرمى سهامنا.

انحنى سماء الدولة الى الامام أكثر متطلعا الى الجيش المقابل وقد توجس شرا.

خيم الصمت ثقيلا على المشهد كله. واشترك الجيشان في الانتظار القَلِق نفسه، لا فرق بين العسكر الجاثم على السهل والآخر الرابض على اعلى الاسوار. وحدها تلافيف هشة من الرمال الذهبية كانت تتحرك ملامسة سطح الارض متنقلة على دفعات بين الصخور التي لفحتها الشمس.

فجأة، اخترقت السماء كرة نارية مصحوبة بصفير خانق.

هل كانت شهابا؟ ام برقا ام صاعقة؟ لم يعرف الامير ولا وزيره حقيقة الامر.

طارت الكرة فوق الاسوار لا يوقفها شئ الى ان وقعت وسط الحدائق ملهبة الاشجار واحواض الزهور التي لم تكد تتفتح.

وسرعان ما ارتفع صراخ أحد الجنود:

– النفط. .ليحرسنا الله.. انهم يرموننا بالنفط(٤)..

شدَّ الامير وزيره من جبّته وسأله مفزوعا:

- ماذا يقول؟ عمّ يتحدث؟
كان تاج الملك يرتجف كالقصبة وقد شارف على الموت فرقا الا انه حاول ان يتمالك نفسه.
- النفط يا مولاي هو خليط من الكبريت والقير (القطران) وملح البارود وغيرها من المواد الحارقة التي اجهلها. انه من اختراعات اليونان.
- ولكن كيف امكن لهم ان يضربونا عن هذا البعد؟
- اظن ان رجال علاء الدولة يضعون النفط في جرار فخارية.
- هذا لا يفسر الامر.
- انتظر يا مولاي.
أحَدَّ الوزير البصر في الافق الى موقع على مسافة من الاسوار.
- انظر الى هناك يا مولاي، في الوسط الى الخلف بقليل من هضبة المترب.
- وماذا هناك؟ انا لا أرى شيئا.
- بل أنظر جيدا يا مولاي، انها منجنيقات وقاذفات و...
ظلت جملة الوزير معلقة، فقد علا صفير كرة لهبية ثانية ثم ثالثة ورابعة اخترقت جميعها سماء القلعة مضرمة النار في كل ما وقعت عليه.
على طول ممرات دوريات الحراسة الرابطة بين أبراج القلعة تفشى الرعب في عسكر همذان. ولم يتردد بعض الرماة في التخلص من اقواسهم وجعباتهم بحثا عن مكان آمن يلجؤون اليه.
في بضع لحظات، غطت سحب من الدخان الكثيف ارجاء المدينة حاجبة الرؤية.
- لا بد من عمل شئ يا تاج الملك.
هبط الوزير بل قل تدحرج عبر ممر الدوريات وحاول بصوت خنقه اليأس وبحركات لاهثة ان يجمع شمل الجند دون جدوى.
كانت الكرات اللهبية تتهاطل باستمرار ضاربة كيفما اتفق، متحطمة على الجدران او وسط الشوارع الملتوية.

وسرعان ما انهمرت على المكان امطار من الرماد.

تلك هي اللحظة التي اختارها مشاة أصفهان كي يستأنفوا زحفهم على المدينة. وبسرعة عجيبة شاهد المدافعون رؤوس السلالم وهي تطل على شرفات الاسوار ومن خلفها وجوه اعدائهم فيما كانت ترتفع جلبة ارتطام الدبابات بباب الفخارين وباب الصيادين وكأنها نبض قلب عملاق أخذ يدق فجأة تحت الاسوار.

ركض تاج الملك في اتجاه الامير ووجهه يتفصد عرقا وقد كساه الرماد فصرخ بأعلى صوته محاولا مغالبة الجلبة المرعبة:

– ضاع كل شيء يا مولاي لابد من الفرار. لم يبق امامنا حل اخر.

– الفرار؟ ولكن الى اين؟ ما هي الا لحظات وتقع المدينة كلها في يد علاء الدولة؟

– لابد من مغادرة همذان؟

كرر سماء الدولة يائسا:

– ولكن الى اين؟

استرجع الوزير انفاسه وقال بصوت يكاد لا يسمع:

– اعرف مكانا آمنا يا مولاي.

جحظ الامير بعينيه مدهوشا.

– صدقني يا مولاي... تعال قبل ان يفوت الاوان.

الهوامش:

١– رسائل ابن سينا في أسرار الحكمة المشرقية، الجزء الأول، رسالة حي بن يقظان مع شرح مختار اعتنى بتصحيحه ميكائيل بن يحيى المهرني طبع في مدينة ليدن بمطبعة بريل سنة ١٨٨٩م.

٢– أمضيت الليالي الطويلة صحبة يان بوي وهو يضرب النرد على هذه الطريقة مرارا وتكرارا وقد كشف لي الكثير عن فنه هذا إلاّ انني أستميح القارئ عذرا في إيثاري الإيجاز وذلك ان التبسيط في شرح طريقة القبايطان قد يأخذ المقال الى أبعد مما يتطلبه المقام. (الجوزجاني)

٣– الظاهر ان علاء الدولة أراد بهذا الهجوم أن يتخلص من حامية ديلمية لجأت الى همذان وكانت تهدد مملكته إلاّ ان المعلومات تنقصنا حول هذا الموضوع كما ان الجوزجاني لم يمدنا بأي توضيح. (المحقق)

٤– يعرف في الغرب باسم النار الغريغورية. (المحقق)

المقامة السابعة والعشرون

لم يظهر الحارس الا مع موعد الإفطار حين غابت الشمس وراء الشعاب الضيقة. دخل عليه متجهم الوجه ولم ينبس بكلمة.

– اين كنت طيلة هذا الوقت؟ كدت أيأس من رؤيتك نهائيا.

صرّ كريم على اسنانه مغمغما بكلمات غير مفهومة وناوله افطاره، خبزا ورزا مرشوشا بالحليب الرائب المنعنع مع قدح كبير من الشاي بسكر. كرر عليه الشيخ السؤال لكن الحارس لم يخرج عن صمته. ولم يلبث ان غادر الحجرة ملوحا برأسه وقد بدا عليه الانشغال.

الآن تاكد ابو علي من ان امرا خطيرا قد حدث وبدلا من ان تطمئنه زيارة الحارس ضاعفت من التوتر الذي صاحبه طيلة النهار وكان عليه ان يقوم بجهد كبير لازدراد لقيمات الرز القليلة. ثم نحى الطبق جانبا وعاد الى طاولته محاولا استئناف الكتابة دون جدوى، فقد كان مشتت الذهن مشغول البال ولم يجد حلا غير العودة الى حصيره من جديد بحثا عن ملاذ في النوم.

هل كان صرير الباب وهو يدور على محوريه هو ما صحاه من النوم؟ ام صوت المفتاح في القفل؟ ام انه لم ينم اصلا؟

في عتمة الحجرة التي داهمها الليل حزر بالباب يفتح وشاهد ملامح طيف ترتسم على المساحة الفارغة بين العارضتين. وسرعان ما تبين شخصا آخر يلتحق بالأول حاملا في يده شمعدانا. فنهض عن الحصير متحفزا.

اقترب منه الطيف ببطء وتوقف لحظة وسط الحجرة ثم التحق به حامل الشمعدان مضيئا الغرفة والوجوه في الوقت نفسه، فانعقد لسان ابي علي من الدهشة وهو يتبين ان زائره لم يكن غير سماء الدولة.

لم يتعرف على الشخص الثاني ولعله كان احد الحراس.

– السلام عليك ايها الشيخ الرئيس.

– وعليك السلام يا سماء الدولة.

كانت المفاجاة من الحدة بحيث تكلم ابو علي بنبرة محايدة تكاد تكون رتيبة.

اوقد الحارس المصباح الزيتي الذي كان موضوعا على الطاولة وغادر الحجرة بأمر من الامير تاركا الباب مواربا.

تفحص سماء الدولة المكان شارد الذهن قبل ان يجلس على مقعد صغير بلا ظهر مانحا جانب وجهه الى عيني ابي علي الذي كان ينظر اليه غير مصدق.

– اراك ناحلا بعض الشئ. انه مكان موحش.

– الهواء طيب هنا يا مولاي وانا احمد الله.

أمسك الامير عفويا بقلم كان على الطاولة الى جانب المحبرة واداره مرات بين اصابعه.

– وهل كانت الوحدة مثمرة؟

– اجل، فقد كتبت الكثير.

كان لهب القنديل الخافت امامه يزيد ملامح الامير كآبة.

قال وهو يثبت النظر في القلم الدائر بين اصابعه:

– همذان الآن فريسة للحديد والنار. لقد خسرنا الحرب.

– أي حرب يا مولاي؟

– امير أصفهان أصبح سيد المدينة.

اضاف بعد لحظة:

– كأنك لم تبتهج بالخبر.

– وهل توقعت ان ابتهج به؟

التفت اليه دفعة واحدة دائرا فوق المقعد وأحَدَّ فيه البصر قائلا بشئ من الغلّ:

– ألم تكن أغلى أمانيك خدمة علاء الدولة؟ ألم تتآمر من أجل ذلك؟

– اعتقد يا مولاي ان كلمة مؤامرة لا صلة بها بأمر لم يتعد تبادل الرسائل.

– وماذا لو ان هذا التبادل قد تسبب في حرب؟

– هذا محال يا مولاي لا شك ان ثمة سببا اخر.

تحرك سماء الدولة في العتمة مانحا الشيخ شطر وجهه مرة اخرى.

– لولا يقيني بأني لن اغنم من ذلك سوى ارتياح موهوم وقصير العمر لاعترضت عليك على الاقل لأفرغ فيك جام غضبي، لكني اعرف انك على حق يا ابا علي فما انت سوى حلقة من سلسلة، ولعلاء الدولة اسباب اخرى دفعته الى محاربتي، اسباب اعرفها واستطيع الخوض فيها لولا اني مرهق وان الوقت فات.

فرك اجفانه ببطء براحتيه وقال خاتما حديثه:

– يا لسخرية الاقدار. لو كنا في ظروف اخرى لكان الامر شبيها بالنكتة، أليس كذلك؟ من الليلة اصبح للسجين والسجان المصير نفسه. انا وانت من الان محبوسان بقلعة فرودخان. ألا تراه امرا مضحكا؟

– لا ادري ان كان الامر مضحكا يا مولاي، لكن الاكيد انه غير عادي.

نهض سماء الدولة عن مقعده وسار خطوات باتجاه النافذة.

– خيم الليل ولم يعد ممكنا ان نرى المشهد من هنا ومن يدري؟ لعل هذا افضل.

– مولاي ماذا عن صاحبتي وتلميذي ابي عبيد؟

– لا شك انهما فرا من القصر مثل الجميع كان من الصعب حتى على القطة ان تهتدي الى جرائها في تلك الفوضى العارمة والرعب الشديد، لكني اؤكد لك انهما لم يشكوا من شئ طيلة هذه الاشهر الاربعة.

صر ابو علي على اسنانه.. ابو عبيد.. ياسمينة... هل سيراهما ذات يوم؟

– اراك لا تسألني عن تاج الملك؟

ولما ظل ابو علي ملازما الصمت فقد اضاف الامير:

– صديقك الوزير بخير ولا شك انه الآن ينعم بنوم عميق في احدى حجرات هذه القلعة.

توقف لحظة قبل ان يضيف بنبرة لا تخلو من سخرية:

– لا شك انك فرح لهذا الامر...

– قلبي خال من الحقد يا مولاي. قلبي الان ليس فيه سوى الحزن، الحزن من اجل صاحبي وصاحبتي ومن اجل همذان ومن أجلك انت...

– اذن فلا شك ان الوحدة تقود الى الحكمة ولا شك اني لم اعرف الوحدة بالقدر الكافي. على اي حال، تأخر بنا الوقت واشعر بالتعب يطبق على كتفي فلتصبح على خير يا ابن سينا.

– تصبح على خير وعافية يا مولاي.

هم ابن سينا بالوقوف لتحية سماء الدولة فوضع هذا الاخير يده على كتفه ومنعه من ذلك.

– نحن لسنا في البلاط ايها الشيخ الرئيس هل نسيت؟ نحن لسنا سوى رفيقي سجن.

*

مر اسبوع دون ان يرى الامير الشاب مرة اخرى ولم يعلم عنه ولا عن همذان شيئا غير نتف من الاصداء وصلته عن طريق الحارس كريم. هكذا عرف ان علاء الدولة لم يبرح المدينة ولكنه أحجم عن قصد فرودخان ضنا بمئات الارواح التي لا بد من دفعها ثمنا للهجوم على وكر نسور مثل هذا.

لم يحل اليوم العاشر حتى اقتحم عليه تاج الملك خلوته متجهم السحنة زائغ العينين فجلس مرتبكا على المقعد الصغير وقال كمن يبحث عن كلماته:

– جئت اطلعك على خبر قد يفرحك. فقد اصبحت همذان حرة من جديد واضطر علاء الدولة بفضل الله ان يرجع على عقبيه وهو الساعة في طريقه

الى اصفهان. وهكذا ابتسم لنا الحظ من جديد.

قال ابن سينا بهدوء:

– الحمد لله. اذن سيعود سماء الدولة الى عرشه.

– أجل. ونحن راحلون بعد ساعة.

– فهل تعرف ان كان صاحبي وصاحبتي بخير؟

– كلا، ولكن...

أصلح الوزير من وضع عمامته على رأسه واضاف بالارتباك نفسه:

– الأفضل ان تتاكد من ذلك بنفسك.

– ينبغي لذلك ان يمنحني الله تعالى جناحين من عنده، فهل نسيت اني سجين؟

– مصيرك بين يديك، وانت من يملك الحسم في امر مصاحبتنا الى همذان او البقاء سجينا.

– ماذا تقصد؟

– أقصد الحرية المشروطة. فذاك ما جئت اعرضه عليك بأمر من الامير. انه يطلق سراحك شرط ان تقبل العودة الى ما كنت عليه من خدمة البلاط والاشتغال بالطب والتدريس.

تفرس الشيخ في مخاطبه بارتياب.

– ولا شئ اخر؟

– بل عليك ان تلتزم ايضا بالكف عن مراسلة امير أصفهان.

ارتبك ابو علي فداعب لحيته شارد الذهن واخذ يحاول النفاذ الى ما يختفي وراء عرض تاج الملك وقد تنازعته شتى الخواطر. ترى ماذا وراء هذا التسامح المفاجئ؟ ما الذي يطمعون فيه منه بعد؟ على اي حال فالخيار واضح: اما ان يقبل واما ان يقنع بالذبول في هذا السجن الى ان يلفظ آخر انفاسه. ثم فكر في ياسمينة وابي عبيد وكان يعرف انه لن يراهما من جديد الا اذا غادر هذا القبر.

– انا موافق. ولتبلغ الامير شكري وامتناني.

– انه ينتظر منك ما هو أكثر من الامتنان. ولك ان تحمد الله على انه وضعك امام امير على هذه الدرجة من التسامح.

لم يكن ابو علي في حاجة الى ان يسأل تاج الملك عن رأيه في تسامح اميره.

وقف الوزير واضعا حدا لخواطر ابي علي وقال مشيرا الى الكتب والاوراق التي كانت تغطي ارضية الحجرة.

– سآمر بأخذ كل هذا الى القصر، فلا شك ان هذه الكتب أحب اليك من كل ملوك فارس.

– انا صاحب هذه الكتب ايها الوزير وانا لم اخن نفسي قط.

حاول تاج الملك جاهدا ان يكتم انتفاضه واحد البصر في عيني الشيخ هامسا بنبرة غامضة:

– لا تنس ان الكتاب لا يختلف عن البشر كلاهما يمكن تدميره بألف طريقة...

*

لم يكن معلمي هو الذي عثر علينا في همذان التي عصفت عليها احداث الايام الاخيرة بل كنا نحن من عثر عليه وذلك انا ما ان فررنا من القصر انا وياسمينة حتى لجانا الى دار عطار اسمه ابو غالب كان الشيخ كثيرا ما يرسلني اليه في طلب العقاقير والحشائش النادرة فاقمنا في ضيافته مدة حتى علمنا بعودة جيش اصفهان على اعقابه ورجوع الامير سماء الدولة الى عرشه وشاعت اخبار عن استصحابه الشيخ ابن سينا وانه سرحه من حبسه بفرودخان ورد اليه اعتباره طبيبا ومدرسا. فهرعنا الى السراي والقلب يرجف وكم كانت سعادتنا عظيمة ونحن نرى الشيخ ناحلا بعض الشئ اي نعم الا انه حي يرزق.

واعترف اني كنت خائفا منه على حياته طيلة ايام سجنه فقد فعلها مرة ولم اكن امن ان لا يعيدها ثانية محاولا الهرب من العذاب الى الموت وكانت

الليالي تمر علي طويلة ملاى بكوابيس ارى فيها صورا موحشة لمعلمي وهو يقع في هاوية بلا قرار واذا لم تكن ياسمينة قد فاتحتني بشيء من ذلك فانا واثق بان الظنون ساورتها في الامر نفسه.

ثم ان الله يعطي وياخذ وقد بت واثقا مع مرور الايام بانه لا يمنح احدا المجد الا ابتلاه بما يساويه من بلاء.

ما ان اجتمعنا ثلاثتنا ول ليلة بعد ذاك الفراق الطويل حتى تيقنت من ان الشيخ لم يحد عن قراره مغادرة همذان بل ان ما جد من احداث لم يزده الا عزما على عزمه.

وكان اليوم الثامن من ذي الحجة حاسما في التعجيل بشروعه في تنفيذ ما وطن عليه النفس فقد تلقى يومها رسالة سرية من امير اصفهان يحثه فيها على الشخوص اليه مؤكدا له انه ملاقيه بالاكرام والاعزاز وان في ذلك شرفا له ولبلاطه وهكذا تاكدنا ان كان ثمة ما يدعو الى الشك من ان المعصومي وابن زيلة قد قاما بمهمتهما على احسن وجه.

ولم يبق امامنا الا ان نذلل العقبة الاخيرة التي تحول بيننا وبين اصفهان الحراسة المشددة التي ما فتئ جنود تاج الملك يحيطون بها الشيخ منذ عودته من فرودخان وقد كان لي في هذا الامر نصيب...

– ولماذا لا نتنكر في زي الصوفية؟ فلا شك ان احدا لن يتعرف علينا ونحن في تلك الثياب الصوف ثم ان الجميع يجل هؤلاء الزهاد ولا احد يتعرض لهم بسوء.

– لعلها فكرة جيدة يا ابا عبيد...

قالت ياسمينة مذكرة:

– وكتبك واوراقك؟ كيف نخرج بها؟ سنحتاج الى حصان للمتاع وربما الى بعض البغال.

– لن نعدم حيلة لتسريبها خفية الى خارج القصر.

– ومتى الرحيل؟

– خير البر عاجله. وارى ان نرحل بعد غد العاشر من ذي الحجة يوم عيد الأضحى[1]، فلا شك ان الجميع سيفرغ الى مشاغل العيد وان الحراسة ستخف بعض الشئ الا اننا نحتاج الى دليل فالطريق الى اصفهان لا يخلو من مخاطر.

قال الجوزجاني:

– اعتقد ان الابن الاكبر لابي غالب يفي بالغرض فلنتوكل على الله ولندعه كي يسدد خطانا فالرحلة ستكون صعبة ولكم تبدو لي اصفهان فجاة وكانها في اقصى العالم.

هز ابو علي رأسه وقد شرد ذهنه فجأة وارتفعت يده الى عنقه فتكورت الاصابع على الخرزة الزرقاء التي لم تغادره من سنوات. وفيما كان تلميذه يتحدث كان هو يسترجع كلمات سكنت ذاكرته من زمان بعيد:

إحذر يا صديقي. احذر من سهول بلاد فارس ومن قباب أصفهان المذهبة، فهناك سيقف بك الطريق. يومها سيكون الى جانبك رجل اسود الروح، لتحل لعنة شيفا على ذكراه الى ابد الآبدين...

*

"اجتزنا حدود المدينة حوالي منتصف الليل. كنا انا والشيخ في زي الصوفية وهو عبارة عن ثوب من نسيج الصوف غليظ يتحزم عليه بحبل وكانت ياسمينة ترتدي عباءة شبيهة بالمسوح وقد عمد كل منا احكاما للتنكر الى الامساك بركوة وهي قصيعة خشبية يستعملها عادة المتسولون وبعض الصوفية لتقبل الحسنات. كان ابن ابي غالب قد سبقنا بخمسة جياد محملة بالزاد والمتاع والكتب وقد حرصنا ان يبتعد عنا مسافة كافية كي لا يشك احد في اننا قافلة واحدة.

بلغنا سفح همذان دون عائق ومن ثم انعطفنا الى الجنوب الشرقي باتجاه جبال اغروس. اذن فقد بدات رحلتنا نحو الحرية وكنا نعرف اننا لن نبلغ هدفنا قبل ان نعبر نيران جهنم وثلوج الليل وجفاف الصحراء

ورطوبة الهضاب الخانقة.

ما ان اجتزنا اسد اباد حتى انهمرت علينا امطار من البرد، الحبة في حجم البيضة، وكان ذلك عجيبا في مثل هذا الفصل، فلم نجد بدا من العودة على اعقابنا باذلين قصارى الجهد كي نسيطر على فزع مطايانا لائذين بجامع القرية الذي لم نغادره الا عند الفجر.

لم تغرب شمس اليوم الاول من رحلتنا حتى كنا على مشارف جبال اغروس تلك الحيطان الصخرية الهائلة التي تبدو ذراها متوغلة في السحاب وفيما كنا نصعد في المسالك الجبلية الوعرة كانت الارض المرخوطة بالزراعات والسهل المترامي الاطراف يتمددان الى تحت ليغيبا في ضباب النهار بينما كان الافق يختفي وراء الصخور المحيطة بنا من كل جانب والمشرفة علينا من علوها الشاهق والغائصة في الغيوم وبين هذه وتلك كان مسلكنا الملتوي كالثعبان يبدو بلا بداية ولا نهاية معلقا بين ضبابين وكنا نفاجا بين الحين والاخر باحد الشلالات هابطا من ذرى غير مرئية مختفيا وراء منعطف ردم او هوة او باحدى الصخور الهائلة ذات اللون الاحمر القاتم الشبيهة بالعماليق فنضطر الى الالتفات حولها محاذين وهدة الجبل.

سرنا النهار كله وسط طبيعة ميتة لا حياة فيها الا للريح كانت السحب القليلة ذات المظهر القطني جامدة في موقعها من السماء وكانت السماء بصلابتها المعدنية تضفي على الجو المحيط شيئا خانقا وشديد الغموض وكنا نلتفت الى الوراء فلا نرى غير قمم جرداء وتلال مقفرة تتشابك وتتداخل في شساعة الفضاء القاحلة.

ادركنا الليل ووقعت ياسمينة فريسة للحمى والتشنج وكان على الشيخ ان يهيئ لها لعوقا من البنج والعسل كي تعرف طريقها الى النوم.

ظل المشهد على حاله في اليوم التالي ولم نر في طريقنا غير الرمال والحجارة والصخور وكان الشيخ على غير عادته من رباطة الجاش

والاستخفاف بالمخاطر فقد بدا لي متوترا شديد التوتر يكاد لا ينبس بكلمة فيما عدا بعض التعليقات بين الحين والاخر على كابة المشهد او قساوة المناخ.

وما ان غابت شمس اليوم الثالث حتى حدثت الحادثة.

كنا قد عبرنا لتونا احد الجداول الموحلة وشرعنا نهبط منحدرا شديد الانحدار في اتجاه قرية استانة وكانت الطريق قد ضاقت ضيقا شديدا حتى خيل الينا اننا نسير على حد السيف وصارت الجياد تتقدم بصعوبة كبيرة منزلقة في كل خطوة مسترجعة توازنها في اخر لحظة كنت اعرف لن على يميننا هوة بلا قرار فاتحة فمها للظلمات لذلك فقد اليت على نفسي ان لا افكر فيها ومثل الجميع اغمضت عيني من شدة الخوف والقيت ظهري الى الخلف كي لا اقع عن ظهر الحصان وارخيت الى مطيتي العنان اذ لم اجد افضل من ان اسلم لها امري كله ولم افتح عيني الا على صرخة ابن ابي غالب وهو يطلب النجدة صرخة يتفطر لها القلب سرعان ما تلاشى صداها كان ام تكن كان جواد الفتى الذي ظل يتقدمنا طيلة الرحلة قد فقد توازنه فجاة وغارت من تحت حوافره الارض او هكذا خيل اليه فشبا مخوضا في الهواء بقائمتيه الاماميتين ولم يقع حافراه على الارض من جديد الا وقد تصدع المكان كله فلم يجد في انتظاره غير الفراغ وهكذا لم تكن امامنا الا ان نرى بعيوننا الجاحظة المفزوعة الفارس وحصانه يهويان الى حيث لا قرار.

اضطرنا الليل الى التوقف كان احساس فظيع بالوحدة قد انضاف الى حزننا الشديد لموت الفتى المسكين اصبحنا بدون الدليل ثلاثة عميان تائهين في هذه الشساعة المعادية فهل نصل اصفهان يوما؟

كان الشيخ اول من تمالك نفسه.

– لقد نجوت من الدشت الكبير وقاومت محمودا الغزنوي وتخلصت من سجن فرودخان واقتربت من الموت المسافة الكافية لرفض الاستسلام

له وليس لي اي رغبة في ترك عظامي تهترئ في جبال ارغوس.

سألت ياسمينة وقد داخلها الاضطراب:

– ولكن كيف نهتدي الى طريقنا في هذه المتاهة الموحشة؟

– هل نسيت ان لي بعض المعرفة بالفلك؟ لن نكون اقل من البحارة الذين يهتدون الى طرقهم في بحر الظلمات وهو اكثر رعبا من كل صحارى فارس سنجد طريقنا.

بعد ليلة عسيرة لم ننم فيها الا قليلا استانفنا رحلتنا وفي مقدمتنا الشيخ كان يتابع الشمس نهارا فاذا جن الليل لم يلفت عينه عن الشعرى اليمانية و..... وكنا نراه يترجل احيانا فيخط بعض الارقام في الرمل ثم يتقدمنا من جديد.

هل اتحدث عن ويلات الساعات التالية؟ هل اتحدث عن الارهاق الممض والحرارة الحارقة والمنعطفات والعطش ولسعات الريح ووهج الشمس؟ لا اظن ان لأحد من البشر القدرة على وصف ما رأيناه ولا املك للتعبير عن هذا العجز غير كلمات الكتاب الكريم فليغفر لي الله ان ذكرتها في موقع قد لا يليق بمقامها الطاهر: ولو انما في الارض من شجرة اقلام والبحر يمده من بعده سبعة ابحر ما نفدت كلمات الله ان الله عزيز حكيم.

فهل يقيض لي الله يوما ان اقدر على وصف الوان العذاب والرعب التي كانت نصيبنا حتى بلوغنا اخر حدود جبال بختياري حيث طالعنا من بطن الارض وادي زايندارود والنهر الذي يقال له الماء الحي وحديقة كل السعادات سهل اصفهان؟

امام جمال المشهد وجلالته وهو ينكشف عند اقدامنا نسينا تعبنا واطرافنا المنهكة وشفاهنا المتيبسة.

آلاف من السواقي تجري في الضوء محفوفة بالقصب يتمايل ويرتعش لمداعبات العصافير ذات الالوان العديدة. عدد لا يحصى من حقول القمح تمنح ذهبها لبياض زهور الخشخاش وهي تتفتح اكمامها للازورد

السماء وعلى امتداد النظر لا شئ غير اشجار وجنبات وبساتين فواكه ومربعات من الخضرة الداكنة والفاتحة المترامية على المنحدرات من حيث تنبثق الوان الحجارة المغرة والسمراء والشقراء.

اغرورقت اعيننا بالدموع دون ان نملك لها ردا. كم انتظرنا هذه اللحظة، كم حلمنا بها؟

أصفهان. هاهي الحياة تبدأ من جديد.

لحظتها حدث شئ غريب ما زلت لا اذكره الى اليوم الا وداخلني شئ من الاضطراب.

كان الشيخ واقفا الى جانب ياسمينة فالتفت اليها فجاة وطوقها بذراعيه وبحث عن شفتيها في سورة عارمة حتى خيل الي انه يريد احراقها لا تقبيلها.

لم يدهشني ذلك فقد عزوت فورانه الى الابتهاج ببلوغ اصفهان الا انه سرعان ما جثا على ركبتيه وجذب اليه الفتاة فاحمرت وجنتاي انزلقت يداه الى تحت ثوب ياسمينة فرفعتاه حتى الخصر كاشفتين عن اعلى الفخذين اللذين لوحتهما الشمس مختفيتين بها بين الاعشاب المرتفعة فاشحت عنهما بوجهي وقد اضطربت اضطرابا كبيرا فيما كان معلمي يباشر امره...

الهوامش:

١- عيد الأضحى لمن لا يعلم من أبناء الغرب هو من أهم طقوسس الإسلام ففي هذا اليوم يذبح جمل أو ثور أو كبش أو تيس وهو طقس لإحياء عمل إبراهيم إلاّ ان الإسلام يضع إسماعيل موضع إسحق التوراتي. (المحقق)

المقامة الثامنة والعشرون

أصفهان...

أصفهان المدينة العالية.[1] أصفهان الوردة المتفتحة.

أصفهان التي اعتاد الجميع ان يسميها الرأس فيما اعتبرت فارس وكرمان يديها، وأذربيجان والري قدميها.

أصفهان المحفوفة بأكثر من ثلاثة آلاف قرية، والمتلألئة وسط مراعيها الخصبة وحقول الشعير والذرة وأوراق التبغ والفوة والزعفران وما لا يحصى من الجداول والأقنية التي يتهادى بينها نهر الذهب زايندارود ممتدا الى سباخ الجفخوني الساكنة.

ما ان اجتازوا حدود اليهودية[2] حتى لعلعت أصوات الأبواق من على الأسوار وارتفعت هتافات البهجة والترحيب وانطلقت زغاريد النسوة فيما كان باب المدينة الغربي يكشف عن موكب استقبال فخم ضم ندماء الامير وخواصه وكل اعيان البلاط وكانوا في ابهى حللهم وعلى رأسهم علاء الدولة ووزيره رحمن ورئيس حجابه ومن خلفهم الخدم بأطباق نحاسية حملت بالثياب والهدايا.

انحنى رئيس الحجاب والوزير احتفاء بالشيخ فيما ظل الامير واقفا واضعا يده على صدره وقد بدا عليه التاثر وما ان اقبل عليه ابو علي حتى قال وقد أشرق وجهه بابتسامة صادقة عفوية:

– مرحبا بك يا ابن سينا. انه ليوم مشهود تفخر به أصفهان وانه لشرف كبير ان تحل بيننا فاعلم ان هذه الارض أرضك من اليوم واني لا أجهل شيئا عما لقيته في الماضي من عذاب ومنفى واعرف ما عانيته طيلة سنوات من وعثاء الطرق وما ضاق به قلبك من صَغار الامراء فثق ان كل ذلك قد صار نسيا منسيا من اليوم.

اشار الى اسوار مدينته وواصل حديثه بحماس:

– وراء هذه الاسوار ستجد شاطئ الامان الذي بحثت عنه وحدائق الظلال الوارفة من الهدوء والسكينة اللتين طالما حلمت بهما. وهذا انا علاء الدولة اعدك بذلك. لن أدع لأحد ان يزعج راحتك من الساعة، فاكتب ايها الشيخ الرئيس واعمل لخير فارس وعظمتها، لا يشغلك عن ذلك شاغل بعد الآن.

تاثر ابو علي للصدق الواضح الذي شع به حديث الامير وعلى الرغم مما عرف به من رباطة جأش في احلك الظروف فقد انعقد لسانه للحظة ولم يقدر على الاجابة الا ان عينيه كانتا تطلعان الامير على كل ما يشعر به ضيفه من امتنان.

ثم اخذوهم في موكب فخم الى محلة يقال لها كونكنبذ في موقع متوسط بين القصر والجامع حيث امر الامير ان ينزلوا في دار عبد الله بن بيبي. كان المكان هادئا يتوسط حديقة غناء تحف بها عيون الماء وتعبق ارجاؤها برائحة الياسمين واندر انواع الزهور. وكانت للدار غرف لا تحصى فيها من الفرش والآلات ما يحتاج اليه. منها قاعات للجلوس عديدة غلفت حيطانها بالحرير الخام وحجرة للتاليف والكتابة أثثت برفوف من خشب سوريا في انتظار مخطوطات الشيخ. وكان في انتظارهم بالدار عدد من العبيد والطباخين وحرس خاص بالشيخ يقومون على خدمته في كل ما يحتاج اليه.

همس ابو علي مداعبا تعويذته في غير انتباه:

– اكاد لا اصدق انني في اليقظة، ومع ذلك فان نفسي تحدثني لأول مرة في حياتي بأن هذه هي نهاية التيه واننا ابدا لن نشد الرحال بعد اليوم وان السعادة الدائمة اصبحت في متناول ايدينا.

ارتمت ياسمينة في حضنه فعانقها مغمضا عينيه مصغيا الى انفاسها تتخلل خرير مياه العيون الجارية.

في المساء أقيمت على شرفهم مأدبة فاخرة واغتنم الامير الفرصة ليقدم

للشيخ وجوه بلاطه من رجال الحكم والادب وعلماء أصفهان، وكان من بينهم الفقيه اللغوي ابو منصور الجبان[٣]، ورسامون وكتاب ورياضيون جاؤوا من اطراف الاقليم وكلهم رغبة في التعرف الى الشيخ. لم يأكل الشيخ الكثير ليلتها فقد تهاطلت عليه الاسئلة من كل جانب ودار الحديث في الفلك والطب وعلم الجبر والفلسفة وغيرها من المواضيع.

كانت السهرة في ذروتها وكان الشيخ جالسا بين يدي الامير فجرى في اللغة مسألة تكلم فيها الشيخ بما حضره فالتفت اليه ابو منصور الجبان وقال له بلهجة لا تخلو من احترام الا انها لم تنجح في اخفاء شئ من العدوانية:

– لقد استمعت اليك يا ابن سينا بإعجاب صادق واستطبت الكثير مما قلته، ولكن اسمح لي بأن أكاشفك بأمر: انت فيلسوف وحكيم ولكنك لم تقرأ في اللغة ما يرضي كلامك فيها.

توقف لحظة فأحنى كتفيه متصنعا التواضع وأضاف كأنه يُشهد الجميع على كلامه:

– ليس لأحد ان يبلغ درجة الكمال في كل ما يعرض اليه، والشيخ لم يأخذ كفايته من علوم اللغة لذلك فلا تثريب عليه ان كان له فيها بعض النقص.

التفت الجميع كالرجل الواحد ناحية الشيخ منتظرين رده وكم كانت دهشتهم عظيمة حين رأوه لا يعترض على رأي الجبّان.

– انت على حق في ما قلته يا ابا منصور، ولا احد هنا يجهل انك سيد هذه العلوم الذي لا يبارى وانا معك في القول بان اللغة فن لا يجيده الا القلة ولا شك اني مستفيد منك بالكثير في هذا المجال.

ألقت الدهشة ظلالا من الصمت على الجميع بعد كلمات الشيخ، وتبادل الجوزجاني نظرات الحيرة مع المعصومي وابن زيلة، فالشيخ لم يعودهم على مثل هذا التواضع. واذا كان الامير لم يعلق بشئ فان عينيه كانتا

تنمان عما ساوره من ظنون.

الا ان الشيخ تجاهل كل ذلك واسرع يغير الموضوع في محاولة مكشوفة للتخفيف من توتر الجو، وسرعان ما اتصل بهم الحديث من جديد. مرت على ذلك ساعتان وشرع بعض الضيوف في الاستئذان بالانصراف وبدا للجميع ان ما حدث بين الشيخ والجبان قد طواه النسيان فاقترب علاء الدولة من الشيخ وطلب منه ان تكون ليالي الجمعات مجلس النظر بين يديه على غرار الليلة ثم ودع ضيوفه وغادر المكان. وكان الشيخ يهم بالانصراف ايضا حين اقترب منه شخص ظل طيلة الوقت صامتا منعزلا فعرفه بنفسه:

– السلام عليك ايها الشيخ الرئيس. انا يوحنا العسلياري، وانا طبيب الـ....

قطع حديثه فجاة ليضيف مختارا كلمة اخرى:

– بل كنت طبيب الامير.

رد ابو علي تحية الرجل متفرسا فيه. كان يرتدي قفطانا اسود في سواد عينيه وكان طويل القامة في الاربعين من العمر ذا قسمات حادة وبشرة تميل الى البياض وكانت له لحية رفيعة تحيط بذقنه وشفته العليا فيما كان جبينه يعلن عن جمجمة هائلة عجيبة الحجم ملساء لامعة. وقد أحس الشيخ بشيء غامض يشع من هيئة الرجل لم ترتح له نفسه.

– يوحنا العسلياري... اسم غريب لعلك لست عربيا؟

– كانت امي عربية لكن ابي ولد في بلاد الروم، وانا مثله. وقد تعلمت الطب في برغامة ومنها انتقلت الى الاسكندرية ثم الى بغداد لإحكام معرفتي بهذا الفن. ثم اشتغلت بالتدريس بمدرسة جنديسابور قبل ان استقر بأصفهان وانا هنا منذ عشرين سنة.

– ولماذا حدثتني بصيغة الماضي عن وظيفتك كطبيب خاص للامير؟

– وهل الامير بحاجة الي الآن وقد اصبح في خدمته أمير العلماء؟

- مقاومة الالم والامراض لا تستغني عن احد مهما كان عدد المشتغلين بها وانت طبيب مثلي ولا بد ان نعمل معا لما فيه خير الجميع.

- انا لا املك نبوغك ايها الشيخ الرئيس لقد استمعت جيدا الى ما قاله صديقنا الجبان منذ قليل ولا ادري ان كان على حق فيما اتهمك به من نقائص في فقه اللغة الا اني اعترض على قوله بأن ليس لأحد ان يبلغ درجة الكمال في كل ما يعرض اليه، فانت قادر على هذا الكمال يا ابن سينا وتصانيفك شاهدة على ذلك. اما انا فمن اولئك البشر الذين يعانون طيلة حياتهم محاولين انجاز الصغير من الامور دون ان ينجحوا في ذلك جل الوقت. ولمثلك ان ينجز من الامور اعظمها لذلك فلا مندوحة لمن كان مثلي من الانسحاب.

اعترض ابو علي على كلامه:

- بل تبقى الى جانبي فانا اصر على ذلك ولنعمل معا بالقصر او بالبيمارستان.

واضاف حازما:

- لا شأن للموت والمرض بحالاتنا النفسية.

أغرق الطبيب برهة في التفكير كالمتردد قبل ان يقول:

- حسنا. سأعمل الى جانبك ما دامت تلك رغبتك.

ثم انحنى ببطء مضيفا:

- كنت اعرف رجل العلم وها انا اليوم اكتشف الانسان ذا القلب الكبير.

لم يرفع ابو علي عينيه على الرجل حتى غاب وراء ستائر الحرير المقصب الثقيلة التي تفصل قاعة الحفلات عن بقية القصر.

وما ان خلا الشيخ الى نفسه حتى انقض عليه المعصومي وابن زيلة فلم يترك لهما فرصة الكلام:

- لا تحاولا، فانا اعرف مسبقا الاسم الذي يقف منكما على طرف

اللسان: الجبان. ولكني اعلمكما من الان بأنني لن أجيب.

– ولكن ايها الشيخ...

– عبثا تحاولان. ثم ان الساعة متأخرة وصار لزاما علي ان ألبي داعي فراشي.

وأضاف مطوقا خصر ياسمينة وقد افترت شفتاه عن ابتسامة:

– وان أجيب نداء امراتي...

والحق انه لم يغمض له جفن ولا نظر الى ياسمينة مجرد النظر ذلك انه ما ان دخل حجرته حتى هرع الى مخطوطاته التي كانت بعد في الصناديق. لم تعلق ياسمينة بشئ بل تجردت من ملابسها صامتة وانسلت الى تحت اللحاف ولعل اخر ما لمحته قبل ان يطيح بها النوم طيف الشيخ وهو يفتش في اوراقه بغيظ مسعور لم تره عليه من قبل ثم انه جلس الى مكتبه وشرع في الكتابة على ضوء مصباح خافت ملقيا بالكلمات على الكاغذ مثل رسام يقذف بألوانه كيفما اتفق مسودا الاوراق الواحدة تلو الاخرى لا يتوقف الا ريثما يتأمل فكرة من الافكار ثم يعود الى كتابته المحمومة من جديد.

واصلت الكواكب سيرها في سماء اصفهان وتارجحت زهور حدائق كونكنبذ في الليل مغلقة اكمامها في انتظار الفجر وامسكت اشجار الجميز والنخيل انفاسها وقد تحولت الى جنود حراسة تحت النافذة الوحيدة المضاءة في ليل اصفهان.

حين فتحت ياسمينة عينيها كان هو قد استسلم للنوم مسندا راسه الى الاوراق وبين اصابعه القلم لا يزال فنهضت وغطت كتفيه بلحاف من الصوف وربتت على قفاه بحنان قبل ان تبحث لها عن موضع عند قدميه كي لا تكون بعيدة عن نومه.

لم يمض من الوقت الا قليل حتى افاق فرأى صاحبته ومد يده فأنهضها برفق هامسا في نبرة عتاب:

– حبيبتي، لا ينبغي ان يصيبك جنوني بالعدوى.

– فات الاوان ايها الشيخ الرئيس لقد تغلب الحب على الجبر والبلاغة.

قال فجاة مشيرا الى احدى الاوراق:

– هذه الرسالة يجب ان توجه اليوم الى خراسان. سآمر بذلك على الفور.

نط من مجلسه متجها الى الباب فاثارت لهفته فضول ياسمينة ولم تقدر على منع نفسها من النظر في فحوى الرسالة فاذا هي موجهة الى مدرسة خراسان وفيها يستدعي الشيخ بكتاب تهذيب اللغة لابي منصور الازهري راجيا ان يمدوه به في اسرع وقت.

في اليوم نفسه رسم الشيخ الخطة التي عليها ستسير حياته اليومية بأصفهان طيلة السنوات القادمة وقد حرص على تطبيقها بحذافيرها لم يخرج عليها الا مرات قليلة ولاسباب قاهرة.

كان يقضي الصباح في عيادة المرضى بالبيمارستان فاذا انتصف النهار فرغ الى القاء الدروس في العلوم والفلسفة بالمدرسة، اما الليل فكان يخصصه للتأليف والبحث. وكانت ليالي الجمعات مجلس النظر بين يدي الامير حسب رغبته وكان يحضرها سائر العلماء على اختلاف طبقاتهم والشيخ في جملتهم فما كان يطاق في شئ من العلوم.

مرت على هذا الحال ثلاث سنين اشتغل فيها الشيخ بتتميم كتاب الشفاء ففرغ من المنطق والمجسطي وكان قد اختصر اقليدس والارثماطيقي والموسيقى واورد في كل كتاب من الرياضيات زيادات رأى ان الحاجة اليها داعية اما في المجسطي فاورد عشرة اشكال في اختلاف المنظر واورد في آخر المجسطي في علم الهيئة اشياء لم يسبق اليها واورد في اقليدس شبها وفي الارثماطيقي حسنة وفي الموسيقى مسائل غفل عنها الاوائل.

الا انه كثيرا ما كان يخلو بنفسه بين الحين والاخر معتكفا مكبا على عمل يراه شديد الاهمية ويحيطه بالسرية التامة لا يكاشف به احدا لا

المعصومي ولا الجوزجاني ولا ابن زيلة ولم يتح لهؤلاء ان يقفوا على جلية الامر الا في آخر يوم من شوال.

كانت ليلة جمعة وكانوا مجتمعين بين يدي الامير كعادتهم لم يتخلف عن المجلس احد الا ابن سينا الامر الذي لم يحصل قبل اليوم طيلة ثلاث سنوات ولم تمض ساعة حتى كان قبل عليهم في ملابس كساها الغبار وتحت ابطه كيس من جلد الماعز.

قال منحنيا بين يدي الامير:

– المعذرة يا مولاي فلا شك ان هيئتي هذه وتخلفي عن المجلس مثار لكل لوم الا اني اكتشفت شيئا لا يخلو من اهمية أود عرضه عليك.

أشار اليه علاء الدولة بمواصلة الحديث.

– كما أود عرضه على فقيهنا الجليل ابي منصور، بعد اذنك يا مولاي، فالامر يهمه بالدرجة الاولى.

اقترب الشيخ من الجبان فحياه بأدب.

– خرجت هذا الصباح الى صحراء السمل للصيد بالباز فانشغلت بمطاردة سنجاب نخل رائع فتهت عن الطريق فإذا انا على مشارف واحة غير بعيد من هضاب الخرج، في تلك الناحية المليئة بالمغارات ذات الاشكال الغريبة، ولعلك عرفتها؟

أجابه الجبان موافقا وقد شرد ذهنه:

– كان الارهاق قد بلغ مني كل مبلغ فقررت ان آخذ قسطا من الراحة لتناول شئ من الزاد والماء، وهناك على طرف الواحة عثرت على هذه المجلدة من بين اشياء اخرى تافهة لا شك انها من مخلفات احدى القوافل.

فتح الكيس واظهر كتابا مجلدا اهترأ جلده وكساه الغبار.

وفيما تناول الجبان المجلدة واخذ يقلبها واصل الشيخ قائلا:

– الحق اني لم اقع على هذا المصنف حتى حاولت فك رموزه، الا انني عجزت للأسف الشديد عن البتّ في مصدره. وحدثتني نفسي بأنك الوحيد

القادر بما أوتيت من إحكام فقه اللغة، على ارشادي الى صاحب هذا المخطوط.

قطب الجبان حاجبيه وسارع فورا الى المزيد من النظر في الاوراق التي بين يديه.

كان الجميع من حولهما قد ركنوا الى الصمت بدافع من الفضول فيما كان الجوزجاني والمعصومي وابن زيلة يتساءلون عن سر هذا السلوك الغريب الذي ندّ عن الشيخ خاصة الجوزجاني الذي كان يعرف حق المعرفة ان معلمه لم يخرج الى اي مكان طيلة اليوم فضلاً عن انه يكره كل ما يتعلق بالصيد.

مر وقت طويل. فقرر الامير ان يتدخل وقد نفذ صبره.

– والان يا جبان ما رأيك؟

قال اللغوي بعد لحظة اخيرة من التامل:

– ليس في الامر سر يا مولاي، فالمجلدة تجمع بين ثلاث قصائد، واحدة لابن العميد، والثانية للصابي، والثالثة للصاحب[٤].

تلعثم قليلا، الاّ انه أضاف بشئ من الحرج:

– اما المضمون فأعترف بأني أراه مبهما، كي لا اقول انه غير قابل للفهم.

– هل تعني انك لم توفق الى فهم مقاصد هذه القصائد؟ ألا يمكن ان تحدد لنا على الاقل في أي موضوع هي؟

– يبدو لي انها تخوض بشكل ما في علم الاعراب والنحو، لكنها عصية على الفهم.

هتف علاء الدولة مدهوشا:

– أليس هذا هو ميدانك الذي لا يباريك فيه أحد؟ ألست خبيرا بهذه المادة؟

– بلى يا مولاي، ولكنني اكرر ان اسلوب هذه القصائد مستغلق، واني

لم أقف لها على معنى.

قال ابن سينا ملحفا في السؤال:

– ومع ذلك فأنت تبدو متأكدا من مصدرها. هل هي حقا من وضع الثلاثة الذين ذكرتهم؟

– لا شك في ذلك. هم، ولا أحد غيرهم.

– هل يمكن ان تشرح لنا سبب وثوقك هذا؟

أحد الجبان بصره في الشيخ، واجاب بنبرة المتسامح:

– السبب واضح. لا يوجد كاتب عربي واحد الا وانا قادر على معرفته من اسلوبه.

عندها رد عليه الشيخ بنبرة قصد الى ان تكون على جانب من التفخيم:

– اذن يؤسفني يا اخي ان أعلمك بان هذه القصائد لم يكتبها احد ممن ذكرت.

ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتي الفقيه.

– لن اؤاخذك على هذا الراي فلعل جهلك بهذا العلم هو الذي حملك عليه.

– اكرر لك انك على خطأ فيما ذهبت اليه.

قال الجبان شابكا يديه:

– حسنا، فلمن هذه القصائد حسب رأيك؟

– لي انا.

– ماذا تقول؟

لم يبق احد في القاعة الا شعر بقشعريرة تسري في جسمه فيما هب الجبان صارخا:

– هذا الادعاء لا يخلو من وقاحة أيها الشيخ الرئيس[٥].

لحظتها اظهر ابن سينا اوراقا من ثنايا بردته وتوجه بها الى الامير.

– لمولاي ان يتثبت من الامر بنفسه، وسيجد طي هذه الاوراق ست قصائد اخرى كتبتها بخط يدي على طريقة كتاب آخرين معروفين. اما فيما

يتعلق بالمضامين التي رأى الجبان انها مستغلقة غير مفهومة فهي ليست من اختراعي انما هي مقتطفة من أحد أهم المؤلفات في فقه اللغة وليس صاحبه سوى ابي منصور الازهري.

قال الجبان لاهثا وقد أسقط في يده:

– ظننتني لم أغفل عن شئ مما كتبه الازهري...

– لا عليك يا أخي، ففقه اللغة علم واسع.

واضاف بنبرة ماكرة لا تخلو من تلميح:

– ثم لا تنس ان ليس لأحد ان يبلغ درجة الكمال في كل ما يعرض اليه.

وقف الحاضرون كلهم على ما شعر به الرجل من إذلال، فبدا على ملامحهم خليط من الحرج والاعجاب.

مرت لحظات ثقيلة قبل ان يقرر الفقيه التسليم والاعتذار وقد فعل ذلك بكثير من النبل:

– حسنا ايها الشيخ الرئيس، هذه عملتي وردت الي بمهارة لا املك امامها غير الانحناء لصاحبها. فلتقبل اعتذاري ولتتأكد من صدق اعجابي وان كنت لا اعرف كيف أمكن لك في ثلاث سنين ان تبلغ في اللغة هذه الطبقة التي قلما يتفق مثلها.

وضع ابن سينا يده على كتف الفقيه وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة أخوية وقال بصوت أراد له ان يكون مسموعا من الجميع:

– هوّن عليك يا أخي، فلا سيد هنا لعلوم اللغة غيرك. انما هي لعبة خضتها وهي في متناول أي كان، فأنا لم أكن في هذا الامر أكثر من مجرد منتحل.

وأضاف مبتسما في شئ من الحزن:

– واخشى ألاّ أُذكر في المستقبل إلاّ بهذه الصفة.

شعر الجميع بالارتياح لحوار الشيخ والفقيه. ولم يتمالك الامير نفسه عن التصفيق بشكل عفوي، فحاكاه كل من في القاعة مستملحين فيما يبدو ما آل اليه المقلب الذي دبره الشيخ ونفذه امام انظارهم.

وحده العسلياري لم يحرك ساكنا، بل ظل منزويا في ركن من أركان القاعة وقد كست ملامحه برودة الجليد.

في الاسابيع التالية صنف الشيخ كتابا في اللغة سماه لسان العرب[٦] لم يصنف في اللغة مثله. ثم شرع في تأليف كتاب النجاة الذي أراده مختصرا للشفاء، وأيسر طريق الى الإلمام بفلسفته.

الهوامش:

١- تقع أصفهان على ارتفاع ١٧٠٠ مترا عن مستوى سطح البحر. (المحقق)

٢- توجد هذه القرية على مسافة ثلاثة كيلومترات غربي أصفهان وقد تكون جالية يهودية كبيرة استقرت بهذا المكان على أيام نبوخذنصر، إلاّ ان هناك من يذهب الى ان زوجة أحد ملوك الفرس وكانت يهودية قد أنزلت أبناء قومها في هذا الموقع. (المحقق)

٣- يقول المؤرخ السامانى إن الجبان لقب يطلق على البدو الذين حذقوا العربية ويضيف ان هذه الكلمة تعني أيضا الصحراء. (المحقق)

٤- إبن العميد: توفي سنة٩٧٧ م وكان أحد وزراء الامير ركن الدولة وعرف بأسلوبه الجيد في الرسائل.
الصابي: ما زال حيا يرزق ساعة كتابة هذه السطور وكان رئيس حجاب معز الدولة وعرف بنثره المحكم.
الصاحب: ما زال على قيد الحياة هو أيضا وكان من وزراء مؤيد الدولة وهو كاتب مشهود له وكانت له أياد بيض على الكثير من الأدباء العرب والفرس. (الجوزجاني)

٥- للجوزجاني في رسالته التي تضمنت سيرة ابن سينا وصف آخر لهذه الأحداث وهاهو يتحدث عما جرى بعد اعتراض الجبان على الشيخ بأنه لم يأخذ من علوم اللغة كفايته فيقول: فاستنكف الشيخ من هذا الكلام وتوفر على درس كتب اللغة ثلاث سنين واستدعى بكتاب تهذيب اللغة من خراسان من تصنيف أبي منصور الأزهري فبلغ الشيخ في اللغة طبقة قل ما يتفق مثلها وأنشأ ثلاث قصائد ضمنها ألفاظا غريبة في اللغة وكتب ثلاث كتب أحدها على طريقة ابن العميد والآخر على طريقة الصابي والآخر على طريقة الصاحب وأمر بتجليدها وإخلاق جلدها ثم أوعز للأمير بعرض تلك المجلدة على أبي منصور الجبان وأشكل عليه الكثير مما فيها فقال له الشيخ إن ما تجهله من هذا الكتاب فهو مذكور في الكتاب في الموضع الفلاني من كتب اللغة وذكر له كتبا معروفة في اللغة كان الشيخ قد حفظ تلك الألفاظ منها وكان أبو منصور مخرفا فيما يورده من اللغة غير ثقة فيها ففطن الى ان تلك الرسائل من تصنيف الشيخ وان الذي حمله عليه ما جبهه به ذلك اليوم فتنصل واعتذر اليه. والفرق واضح هنا بين ما ذكره المحقق وبين ما ذكره الجوزجاني ولعل المحقق قد وقع على نسخة اخرى غير التي عدنا اليها عند الترجمة. (المترجم)

٦- ولم ينقله الى البياض ثم توفي وبقي الكتاب على مسودته لا يهتدي أحد الى ترتيبه. (الجوزجاني)

المقامة التاسعة والعشرون

قصف الرعد وأومض البرق في سماء أصفهان.

– ايها الشيخ الرئيس.. ايها الشيخ الرئيس. .إنهض أرجوك.

كانت ياسمينة اول من استيقظ على وقع الطرقات والصراخ.

– بسم الله الرحمن الرحيم. ما الأمر يا ترى؟

ازدادت الطرقات عنفا بعد ان علتها زمجرة الرعد لحظة، فهرع ابو علي الى الباب، وما ان فتحه حتى فوجئ بأحد خدمه وقد بدا عليه الفزع.

– المعذرة ايها الشيخ الرئيس لكن الامير أرسل أحد حراسه في طلبك على عجل فزوجته في حالة خطرة.

أجابه ابو علي دون تردد:

– قل له اني قادم فورا. وأسرج حصاني.

أغلق الباب وشرع في ارتداء ملابسه فيما كانت ياسمينة تتأمله بعينين أثقلهما النعاس.

همست وهي تلقي برأسها على الوسادة:

– الظاهر ان الطبيب لا يختلف كثيرا عن العبد سواء اشتغل بعلاج الامراء أم الشحاذين.

ثنى ابو علي على حديثها مغمغما بكلمات غير مفهومة، محكما تكوير عمامته. وما هي الا لحظة حتى كان يتجه الى القصر تحت وابل من المطر.

*

كانت الاميرة ليلى مضطجعة على سرير كبير تعلوه قبة من خشب سوريا حفرت عليها آيات من القران الكريم. وكانت الغرفة عبقة برائحة العنبر وقد حفَّ بسرير المريضة عدد من الاشخاص من بينهم نسوة أربع يرتدين الحجاب، والطبيب العسلياري، والامير علاء الدولة، الذي كان ممسكا بيد زوجته وقد امتقع وجهه بشكل مرعب. عند قوائم السرير

وُضِعت مجمرة نحاسية عليها كِفْتٌ من الماء المغلي يتصاعد منه البخار فيختلط بدخان العنبر ناشرا في ارجاء الغرفة ما يشبه دانتيلا من الضباب.

هتف به علاء الدولة ما ان رآه:

– أسرع ايها الشيخ الرئيس. .انها توشك على الموت.

في الوقت نفسه تراجعت النسوة الى الخلف كاشفات لأبي علي عن مشهد غير متوقع.

كانت الاميرة ليلى مستلقية على ظهرها كاشفة عن بطن مدور منتفخ، وقد ألصَق ساقاها العاريتان بفخذيها مفحجتين وهي فريسة لآلام المخاض، ولم يكن عليها سوى غلالة من الحرير تستر نصفها الأعلى ملتفة على النهدين.

ما ان انحنى عليها حتى اصيب بصدمة ثانية. كانت أكثر من جميلة. كان وجهها الرائع على الرغم من تفصده عرقا، آية من آيات الكمال، حتى انه فكر في ان الجمال نفسه قد استلهم من هذه المخلوقة كل ما جعله يؤثر في البشر. في عينيها المحمومتين نامت بحيرتا زمرد، فيما بدا ثغرها ثمرة ممنوحة للعين او رمانة ترتعش تحت اشعة الشمس. والغريب ان هذا الجمال لم تَشِبْهُ شائبة على الرغم من الألم الشديد البادي على ملامح المرأة.

ندت عنها صرخة، وتشنج جسمها كله كأنه وقع على جمر لاهب.

– انا أموت.. الرحمة يا رب.. ساعدوني..

همس الامير بصوت كالأنين:

– أنقذ زوجتي يا ابن سينا. أتوسل اليك.

قال العسلياري في نبرة لا تخلو من برود:

– اخشى يا مولاي ان الامر قد قضي بعد ولا يمكّن حتى لمعجزة إلهية ان تغير من الحقيقة شيئا. فقد مال الجنين برأسه عن محاذاة فم الرحم وتهيأ الى الخروج برجليه فتعسرت الولادة ولا بد من التضحية به اذا أردنا

ان نحتفظ بأمل في انقاذ الأم.

– لا سبيل الى هذا الأمر. منذ خمس سنوات وانا انتظر وريثا للعرش. خمس سنوات، هل تسمع؟ لا يمكن لعرش أصفهان ان يظل خاليا من بعدي. كلا. هذا أمر لا سبيل اليه.

– لكن يا مولاي...

– لا أريد ان اسمع المزيد. عليكم بإنقاذ زوجتي وطفلي.

رفع العسلياري يديه الى فوق في حركة استسلام والتفت الى ابي علي:

– إشرح له الامر ايها الشيخ الرئيس. حاول ان تجعله يفهم ان الطب علم وليس صانع معجزات.

دوت صرخة اخرى في الغرفة العاجة بالضباب وانتفض جسم المرأة فجأة كأنه يتلقى نطحة كبش، ثم تهالكت على السرير دفعة واحدة وتحولت انفاسها الى ما يشبه الحشرجة.

تكورت اصابع الامير على كُمّ ابي عليّ.

– قل لي ان هذا الحمار الرومي على خطأ. قل لي انه مجرد أحمق دعي.

تجهم وجه ابي علي واغرق برهة قبل ان يجيب:

– انا آسف يا مولاي، ولكني اظنه على صواب، فلابد ان يموت الجنين اذا اردنا ان تعيش الزوجة.

– كلا.

كان رد الامير أقرب الى الصراخ.

– كلا. ابصق هذه الكلمات من فمك، فلا يليق بأكبر اطباء فارس ان يتحدث عن الموت.

تدخل العسلياري محتجا:

– وماذا في وسعنا ان نفعل يا علاء الدولة؟ ليس لدينا حل اخر.

في الأثناء كان ابو علي لا يرفع بصره عن المرأة جاسا البطن مرارا وتكرارا محاولا تحديد وضع الجنين على وجه الدقة. وما ان فرغ من ذلك

حتى اتجه الى الامير فقال بصوت يغلب عليه التردد:

– ربما كان هناك حل آخر يا مولاي.

أشرقت عينا الامير السوداوان دفعة واحدة.

– وربما أمكن لنا ان ننقذ الجنين وأمه، ما دامت تلك هي رغبتك.

هَمَّ الامير بالكلام، الا ان ابا علي أوقفه بإشارة من يده:

– قلت ربما، يا مولاي.

أحَدَّ البصر في الامير واضاف دون مداورة:

– علما بأن حظوظ النجاح تكاد تكون منعدمة.

سال العسلياري مذهولا:

– فيم تفكر؟

– في جراحة لإخراج الجنين عن طريق شق البطن.

– عملية قيصرية؟[1] هذا جنون نحن..

أمره علاء الدولة بالصمت، وأقبل على الشيخ فسأله:

– هل ينجو الجنين؟

– لا شك في ذلك.

– والـ...

استبق ابو علي السؤال فاسرع مؤكدا:

– كما قلت لك سابقا، ان حظوظ النجاح في انقاذ الإثنين معا تكاد تكون منعدمة. وليست الجراحة في حد ذاتها هي السبب بل نتائجها التي لا يمكن ان تكون دون خطورة على حياة الاميرة، ذلك اننا مكتوفو الايدي امام الأخلاط الملوثة التي يتوقف عليها حكم القدر.

دار الامير على عقبيه وطوق رأسه بيديد.

– القدر. .يا لقسوته في بعض الاحيان.

خيم الصمت ثقيلا على الغرفة لا يقطعه شئ فيما عدا حشرجة الاميرة، الى ان ندت عنها صرخة جديدة أكثر حدة من الاخريات، فقال علاء الدولة

بصوت مختنق:

- لابدّ لأصفهان من وريث. لابد ان تعيش أصفهان...

قال العسلياري:

- وماذا لو كانت طفلة؟

- ليكن. فلا شك انها ستمتلك صفات سلالتنا. إمض في ما أزمعت عليه ايها الشيخ الرئيس. حبيبتي ووريثي أمانة بين يديك.

تدخل يوحنا العسلياري معترضا على الامر بشدة:

- أُلِحُّ يا مولاي على التأكيد بأن هذا الامر جنون. لقد جُربتْ هذه العملية مرارا، وكان مآلها الفشل في كل مرة.

قال علاء الدولة بصوت فاجأهما بهدوئه:

- دعك من لغوه ايها الشيخ الرئيس وافرغ الى شغلك.

- هل انت مستعد لتقبل النتائج مهما كانت؟ هل انت واثق بذلك؟

- قم بعملك.

كانت تلك اجابة الامير الوحيدة.

- مادام الامر كذلك فلا مجال لإضاعة المزيد من الوقت. اريد ان يغادر الجميع الغرفة ولا اريد الى جانبي غير امرأتي، فارسلوا في طلبها.

سأله العسلياري وقد احتقن وجهه:

- ولكنها ليست طبيبة...؟

- لقد ساعدتني في السابق وتعرف ما الذي عليها ان تفعل. ولكني سأحتاج اليك انت ايضا، ومن البديهي ان وجودك الى جانبي لن يقدر بثمن.

وافق الطبيب متنفسا الصعداء فيما سألهما الامير وقد بدا عليه القلق:

- وهل علي ان أنسحب انا ايضا؟

- اعتقد ان ذلك أفضل للجميع يا مولاي.

لم تخل اجابة ابن سينا من الأدب والتوقير، الا انها كانت على قدر كاف

من الحزم لم يجد معه الامير بُدًّا من الإذعان.

التفت الشيخ الرئيس الى النسوة الحاضرات:

– اريد الكثير من القماش. مناشف نظيفة ومناديل ولحافا كبيرا. اريد ان تغطسوا الكل في ماء مغلي. احتاج ايضا الى مجمرة اضافية والى إبريق خمر.

أسرعن الى تنفيذ اوامر الشيخ في رفرفة براقع شفافة، وسار في اثرهم الامير قائلا بعد ان القى نظرة اخيرة على وجه زوجته الشاحب:

– سأرسل في طلب امرأتك، كان الله في عونك.

كفت مجامر الطيب عن ارسال دخان العنبر في فضاء الغرفة، وبدت الاميرة في كامل عريها مضطجعة على اللحاف المعالج بالماء المغلي الذي فرش تحتها وقد اطاحت بها جرعة الخشخاش الذي تناولت منه قرابة ربع المَنّ[٢] متغلبة على وعيها وآلامها في الوقت نفسه. كانت ياسمينة قد هيأت مجال الجراحة، منظفة المنطقة أعلى العانة بقليل بواسطة منشفة مشربة بالخمر. وأمام عيني العسلياري اللتين ملأهما الفضول والرعب في الوقت نفسه، وضع الشيخ على بطن الاميرة المكور رأس السكين المدبب الذي أحكمت تحميته في نار المجمرة.

تريث لحظة للتأكد من ان ليلى كانت مغرقة في النوم. ثم أعمل السكين بحزم في البشرة الجلدية متابعا الشق في خط أفقي طويل عند قاعدة السرة. كان خيط رقيق من الدم قد انبثق فورا على طول الاثر الذي خلفه السكين في جلدة البطن فأشار الشيخ الى ياسمينة فتناولت كلابة واخرجت بهما من المجمرة القريبة مكواة ذهبية سرعان ما احرقت بها في رباطة جأش طرفي الجرح الذي فتحته الشفرة الحديدية.

كف الدم عن النزف فعاد الشيخ الى عمله متوغلا هذه المرة في العضلات البطنية قاطعا الاوتار العضلية بحذر وبطء. وفيما كانت ياسمينة تواصل الكيّ خلفه، كان هو يواصل توغله في اللحم أبعد فأبعد.

كان الزمن قد توقف عن السير، او هكذا بدا الامر. ولم يعد يسمع غير زخات المطر وهي تتواتر على نوافذ القصر. ولم يلتفت الشيخ الى العسلياري الاّ حين فرغ من فتح جدار البطن.

– الآن لابد من توسيع الشق قدر الطاقة.

كان الطبيب على اهبة الاستعداد فأسرع الى تناول مبعد نحاسي بعرض اربع بوصات وأولجه في الشق وشرع في تبعيد شفتي الجرح.

همس ابو علي:

– برفق، والاّ اتسع الفتق على الراتق.

هز العسلياري رأسه بالايجاب، وقد شابَهُ شئ من الاضطراب.

أومض البرق مخترقا السماء فأضاء في لحظة خاطفة الوجوه المتفصدة عرقا كاشفا في الوقت نفسه عن المشيمة، حيث بدا الجنين ساكنا في بحر من السوائل.

هتفت ياسمينة فجأة مشيرة الى الاميرة:

– انها تفيق.

التفت الشيخ جزعا، فلاحظ ان المرأة بدأت تطرف بعينيها فعلا، فيما تشنجت أصابع يديها.

قال العسلياري وقد طار صوابه:

– لابد من سقيها جرعة أخرى من الخشخاش.

– كلا. فلن تقدر على ابتلاع شئ. لقد خدرت عضلاتها ولو سقيناها شيئا لاختنقت به أو قاءته. لا خيار امامنا الاّ ان نتمّ الجراحة في أسرع وقت داعين الله ان تتحمل الامر أطول مدة ممكنة.

عاد الى عمله بتصميم أكبر ففتح الغشاء الواقي فيما كانت السوائل تندلق على المشيمة.

كان الجنين هناك في قاع الرحم منكمشا على نفسه لا يتحرك، وكان من السهل الحدس بنبضات قلبه المسرعة الحثيثة الشبيهة بحبات الرمل وهي

تتساقط في قاع ساعة رملية.

سألت ياسمينة وقد استبد بها القلق:

– هل هو...؟

– كلا انه ما زال في عالمه، مخلدا الى النوم.

أمرها ابو علي بصبّ شيء من الخمر على يديه. ثم اقترب من القدر وتردد قليلا قبل ان يغطسهما حتى المعصمين في الماء المغلي.

كتمت ياسمينة صرخة، عاضّة على شفتها السفلى وأشاحت بوجهها.

أخرج الشيخ يديه المدخنتين من الماء وأولجهما ببطء في بطن الاميرة المفتوح. وبحذر شديد وكأنه يمسك بأثمن كنوز الكون، رفع الجنين، ساحبا في الوقت نفسه الحبل السري، مهيبا بالعسلياري ان يقطع الحبل.

– هيا يا يوحنا. إقطع الحبل بسرعة.

جمد الطبيب كالمذهول ولم يحرك ساكنا. وكان على ياسمينة ان تخف الى سكين قريب فتقطع به آخر صلة بين الأم وطفلها.

آنذاك نطق العسلياري مغمغما:

– سامحني ايها الشيخ الرئيس، ولكني...

لم يأبه له ابو علي، بل أمسك بالجنين من قدميه وقلبه على رأسه وضرب عجيزته براحة يده. لم يحدث شيء في البداية. ثم ندت عن الرضيع صرخة، وسرعان ما انفجر بالبكاء حالما نفخ الهواء رئتيه.

سلّمه الشيخ الى ياسمينة قائلا:

– والآن علينا ان نهتم بالأم.

تناول إبرة كانت صاحبته قد أدخلت فيها خيطا طويلا من جريد النخل مشربا بالخمر، وحمّى رأس الإبرة على المجمرة ثم أقبل على الاميرة، والظاهر انها كانت قد أغرقت في النوم من جديد، فقد عادت اصابع يديها الى الارتخاء.

في الاثناء كان العسلياري الذي ثاب الى رشده قد سحب المبعد وتراجع

الى الخلف مخليا المكان للشيخ، فما كان من هذا الاخير الاّ ان عكف على تقطيب الجرح. ومرة اخرى توقف الزمن عن سيره، فيما لاحت زخّات المطر تتباعد متجهة الى سهول فارس. وما ان فرغ الشيخ من عمله حتى تململت الاميرة من جديد فاتحة عينيها هذه المرة قائلة بصوت متقطع:

– أشعر بألم شديد. أحس بنار تقطّع احشائي...

أقبل عليها الشيخ فجسّ نبضها وقال مطمئنا:

– لا تخافي فكل شيئ على ما يرام والطفل بخير.

سألت بصوت خافت:

– الطفل؟

– أجل، لقد أنقذناه.

همّ بأن يضيف: وسننقذك ايضا، الاّ انها فقدت الوعي من جديد.

– يجب ان تسقى حالما تستعيد وعيها شيئا من البنج مع دقيق الحديد في حليب ساخن. اما الآن يا ياسمينة فعليك ان تدهني الجرح بطبقة من الحناء. ولكن الحذر كل الحذر من قطع أي جزء من الخيط.

سأله العسلياري:

– ثم ماذا؟

– لاشيئ سوى ان ندعو الله تعالى ان يقدر لها الحياة فلم يعد في وسعي ما أعمله.

ودون المزيد من الانتظار اتجه بخطى حثيثة نحو الباب الذي كان يعلم ان علاء الدولة خلفه على أحرٍّ من الجمر، وما ان دفع فردة الباب حتى قفز الامير من مكانه مقبلا عليه.

– أبشر يا مولاي لقد استجاب الله الى دعائك وصار لعرش أصفهان وريث. إنه ولد.

*

تلت ذلك اسابيع طويلة تأرجحت خلالها الأميرة بين الحياة والموت.

وخيل إلى معلّمي ألف مرة انها توشك على الهلاك. وخيل اليه ألف مرة انها تبلغ شاطئ السلامة. وكان قد امر ببساط فوضعه عند سريرها وأقام عليه، لا يفارقها لحظة، طاعما شاربا في الغرفة نفسها ملتزما بأن لا يغادرها قبل ان تتعافى. ولعله كان يتصور من نفسه حاجزا يحول بينها وبين ملاك الموت، ما ان يحس بها تضعف حتى يهفو اليها بجماع جسمه وعقله فكأنه ينفخ فيها من روحه.

لم يكن يعرف الكثير عما كان يدور داخل جسم الاميرة من معارك طاحنة. وقد أسرّ لي بأن مجمل احاطته بالامر لم يتعد بعض الحدوس كتلك التي تعتمل بها نفس الناظر الى حركات الكون وسير الافلاك، وانه كثيرا ما ضاق بعجزه واغتاظ من جهله فأمكن له من ثم ان يقف على قصور العلم امام بعض اعراض الطبيعة. ولكم تناهشته الاسئلة دون ان يجد لها الجواب الشافي. لماذا نوبات الحمى المفاجئة؟ لماذا تتسارع دقات القلب بغتة بهذا العنف؟ ما الذي أنشأ حول الجرح هذه الدمامل المليئة بتلك المادة الصفراوية؟ اي اسلحة يملكها جنود الجسم المخفيين لمقاومة اعنف الهجمات؟ كان يعرف ان نجاح مثل هذه الجراحات ضرب من المحال وكادت الحمى بعد العملية بأيام ان تودي بحياة الاميرة، فكيف نجت ليلى؟ ولماذا؟ هكذا امكن لمعلمي ان يخرج من هذه التجربة باستنتاج وحيد: اذا كان الجميع سواسية امام المرض فإن الله يمنح البعض قدرة على الانتصار حيث لا يملك الطب غير الاذعان الى الهزيمة.

لم يمض شهر وثلاثة ايام على الولادة حتى امكن للاميرة ان تنهض من فراشها وتغادر مخدعها وقد اعتراها بعض الهزال الاّ ان جمالها الخارق لم يتبدل منه شيئ.

كان الامير قد اطلق على ولي العهد اسم شمس الملوك.[3] وقد اسرع ليلة نهوض زوجته من فراشها اول مرة الى اقامة مأدبة عظيمة ظل شحاذو أصفهان يلهجون بذكرها على ابواب الجامع الكبير بعد ذلك بسنين ومنح

الشيخ صناديق ثلاثة ملئت قطعا ذهبية ولم يكن نجمه أظهر منه في ذلك اليوم ولا ذكره احظى بالاجلال والاعزاز. وما كان لاحد ان يقف على ذروة مجد هذا العلو دون ان تحف به المخاطر فقد كان الحسد والغيرة ينموان في الظل كما ينمو السم في شوكة العقرب ولن تلبث اللسعة ان تصبح قاتلة ذات يوم.

الا ان معلمي واصل عمله لا يأبه الى شئ من ذلك. وقد حصل طيلة السنين الثلاث التالية تجارب كثيرة فيما باشر من المعالجات وعزم على تدوينها في كتاب القانون. وكان قد علقها على اجزاء فضاعت قبل اتمام كتاب القانون ولم اقف على سر ضياعه.[٤] من ذلك انه صدع يوما فتصور ان مادة تريد النزول الى حجاب رأسه وانه لا يأمن ورما يحصل فيه فأمر بإحضار ثلج كثير، ودَقّه ولفّه في خرقة وغطى به رأسه. وفعل ذلك حتى قوي الموضع وامتنع عن قبول تلك المادة وعوفي. ومن ذلك ان امرأة مسلولة من خوارزم امرها ان لا تتناول شيئا من الادوية سوى سكنجبين السكر حتى تناولت على الايام مقدار مائة مَنٍّ، وشُفيت.[٥] والظاهر ان عامل السن لم يكن له وقع على الشيخ وهذه حكاية تشهد بذلك. كان معلمي ايامها على مشارف الخمسين وكان قد صنف بجرجان المختصر الاصغر في المنطق الذي وضعه بعد ذلك اول النجاة ووقعت نسخته الى شيراز فنظر فيها جماعة من اهل العلم فاشتبهوا في مسائل منها فكتبوها على جزء وكان القاضي بشيراز من جملة القوم فانفذ بالجزء الى ابي القاسم الكرماني صاحب ابراهيم بن بابا الديلمي المنشغل بعلم المنطق والباطن (التناظر) فأضاف اليه كتابا الى الشيخ ابي القاسم وانفذهما مع ركابيّ قاصد، وسأله عرض الجزء على الشيخ وتَنَجُّزَ جوابه.

فحضر الشيخ ابو القاسم في يوم صائف من اواسط محرم عند اصفرار الشمس عند الشيخ وعرض عليه الكتاب والجزء فقرأ الشيخ الكتاب ورده عليه وترك الجزء بين يديه والناس يتحدثون وهو ينظر فيه. ثم

خرج ابو القاسم وامرني الشيخ بإحضار البياض[٦] فشددت له خمسة اجزاء كل واحد عشرة اوراق بالربع الفرعوني[٧] وصلينا العشاء وقدم الشمع وأمر بإحضار الشراب وأجلسني وابن زيلة والمعصومي[٨] واقبل هو وابتدا بجواب تلك المسائل وكان يكتب ويشرب الى نصف الليل حتى غلبني وتلميذيه النوم فأمرنا بالانصراف.

عند الصباح حضر رسوله يستحضرني فحضرت وهو على المصلى وبين يديه الاجزاء الخمسة فقال خذها وصرْ بها الى الشيخ ابي القاسم الكرماني وقل له استعجلت في الاجابة عنها لئلا يعوق الركابيّ.

فلما حملتها تعجب الشيخ ابو القاسم كل العجب وصرف الفيج[٩] واعلمهم بهذه الحالة وصار الحديث تاريخا بين الناس.[١٠]

وقد وضع في حالات الرصد آلات ما سُبق اليها وصنف فيها رسالة.

ثم انه اشرف على الثانية والخمسين من عمره وهو قويّ القوى كلها وقوة الجماع من قواه الشهوانية اقوى واغلب وكان يشتغل فيه كثيرا. واجدني مضطرا على الرغم من حيائي الشديد ان اضيف بأن ياسمينة قد خبرت ذلك عن قرب ولم يفتها ان الشيخ كان يأتيها ويأتي غيرها سخيا على النسوة جميعهن. ولعلها لم تسكت عن ذلك الا لعلمها يقينا بان الأسد الهصور لا يتحول الى قط أليف.

وكثيرا ما تساءلتُ، غفر الله لي وللجميع، عما يمكن ان يكون قد حصل بين الشيخ والاميرة، لما احسست به من ناحيته من ودٍّ يشبه العبادة بعد ان انقذها من بين براثن الموت، فهل جمع بينهما جامع؟ وهل صارا حبيبين؟ علم ذلك عند الله وحده.

وقد قيل للشيخ في الجماع وفي كثرة المأكول والسهر فقال: ان الله تعالى قد وفر لي في قواي الظاهرة.فأنا أوفي كل قوة حقها...

*

مسعود..؟

كانت الحرب تدق على ابواب فارس. ومن اعلى ابراج الحراسة تطايرت اشارات الانذار عابرة الحدود متنقلة بين الثغور الى ان بلغت المدينة مرددة الخبر المشؤوم نفسه دون انقطاع: ابن محمود الغزنوي يزحف على أصفهان.

ما ان انتشر الخبر حتى خلت الاسواق وامتلأت الجوامع وتحصن بعض السكان في بيوتهم تحسبا من الهجوم التركي.

كنا في شهر ذي الحجة سنة ١٠٣٧ ميلادية.

لم يفاجأ أحد بهجمة ملك غزنة التوسعية الجديدة، فقد استولى على همذان منذ سنتين واضعا حدا لمُلْك السيدة وابنها، ومن يومها بات واضحا ان الدور آتٍ على أصفهان لا ريب فيه. لم يشك في ذلك علاء الدولة ولا احد من مستشاريه. بل ان الامير قد امر قبل سنة بتشييد سور جديد حول المدينة ولم يبق مجهولا غير موعد الغزو.

كان ابن محمود الغزنوي قد تعلم الكثير من خيبته قبل سنوات امام اسوار همذان لذلك فقد حرص على إعداد العدّة وتكوين جيش قوي وتجهيزه بما يستلزمه الحصار من دبابات ناطحة وفيلة هندية كان شهود عيان يؤكدون بأنها في ارتفاع الاسوار. وقد بات من رأي الجميع ان مسعودا صار لا يقهر.

وقف علاء الدولة على شرفات الاسوار مسندا مرفقيه الى الحجارة وقد تجهم وجهه وبدا عليه شئ من الاحباط، الا ان العارفين به كانوا على يقين من ان عزيمته لم تفلّ.

استنشق طويلا ثم التفت الى قادة جنده وقال بصوت مَنْ اتخذ قراره:

– لقد قرّ عزمي على امر اعرف انكم ستعترضون عليه، الا انني لا ارى حلا غيره. لابدّ من تسليم أصفهان.

اضطرب القادة كما توقع، وبدا على ملامحهم الذهول. غير انه لم يترك لهم الفرصة للاحتجاج:

– لا قِبَلَ لنا بصدّ الغزنوي. لقد سقطت همذان في يده خلال يومين ولن نصمد اكثر منها، الا اننا نستطيع المحافظة على جيشنا اذا نحن خرجنا به الى مأمن ريثما نتدبر الامر. وهكذا يبقى لنا أمل في استرجاع مدينتنا.

– نسلّم أصفهان دون قتال؟

كان الوزير منهارا.

أجابه علاء الدولة:

– نسلم أصفهان من أجل ان تحيا أصفهان، فأنا افكر في طلب النجدة، ربما من خليفة بغداد.

سأل رئيس الحجّاب وقد امتقع لونه:

– ومتى تأمر بالانسحاب؟

– الليلة. فلا مجال للمزيد من اضاعة الوقت اذا اردنا الإفلات من شباك الغزنوي.

ثم التفت الى قادة جنده:

– اجمعوا العسكر وخذوا ما استطعتم من الماء والزاد. سنخرج مع الغروب.

انحنى القادة امام أميرهم كالرجل الواحد واستاذنوا في الانصراف.

كانت الشمس تشير الى منتصف النهار.

– هل علي ان أتخلى عن معظم تآليفي؟

– تلك هي الاوامر ايها الشيخ الرئيس. ومهما فعلنا فإننا لن نستطيع حملها جميعا.

أضاف العسلياري:

– ثم ان الامير ألحّ على التخفّف من كل ما من شأنه ان يعوق حركة الجيش.

احس الجوزجاني بما يعتمل في نفس معلمه فقال محاولا تخفيف الامر عليه:

– لن تضيع كتبك ايها الشيخ فنحن عائدون الى كونكنبذ ان شاء الله.
– من فمك الى باب السماء يا ابا عبيد.
اشار الى الرفوف التي كادت تنوء بالكتب:
– انها حصاد عمر كامل يا جوزجاني، واسأل الله ان لا تمس بسوء.
قال العسلياري:
– ومن الذي سيتعرض اليها بسوء؟ قد تكون هذه المكتبة في نظرك كنزا لا يقدر بثمن لكني واثق بأن جند اعدائنا سيفضلون عليها الحليّ والتحف الثمينة.

اومأ الشيخ برأسه دونما اقتناع كبير، ثم أذن بالرحيل.

بعد يومين، كان مسعود يدخل أصفهان على رأس جيشه الجرّار. والذي حصل بعد ذلك كان فوق ما يتصوره العقل. فقد عاث الجيش الغزنوي فسادا في المدينة ولم يسلم منهم شئ. نهبت الدكاكين وخرب القصر واغتصبت النسوة والاطفال واحرقت المدرسة وأرخيت الاعنّة للفيلة ترتع في الساحات والبساتين محطمة في طريقها كل شئ، ولم تنج دار ابن سينا من ذلك الدمار.

كان مسعود يعرف حقد ابيه على الشيخ الرئيس لذلك حرص على ان يذهب بنفسه الى دار عبد الله بن بيبي بكونكنبذ، وكانت اوامره واضحة: كل ما له صلة بالشيخ يجب ان يحمل الى غزنة، اما الدار فيجب ان تدكّ دكّا ويمحى اثرها من على وجه الارض. وهكذا انتزعت المكتبة وارسلت محتوياتها الى الطرف الاخر من فارس في اقاصي تركستان.[11]

عجز محمود عن إركاعه، وهاهو مسعود يثأر لأبيه، سالبا الشيخ أعز ما يملك.

كان ابو علي مع جيش اصفهان بناحية "تستر" من اقليم خوزستان حين وصله الخبر. لم يفصح وجهه عن اي صدمة او حزن الاّ ان عينيه اعتمتا فجأة كأن ليالي الكون كلها صبت فيهما دفعة واحدة. وقد ظل طيلة الايام

التالية صامتا لا ينبس بكلمة مقضيا الساعات الطوال في سكون يشبه الخدر او السبات زاهدا في الطعام مفرطا في افراغ اباريق لا تحصى من نبيذ البسر.

مر عليهم شهر الآن منذ ان غادروا أصفهان. شهر وهم يتنقلون من معسكر الى آخر على أمل القرار المنتظر: استعادة مدينتهم. ولكن الانتظار طال دون جدوى على الرغم من علمهم بأن مسعودا غادر المدينة تاركا واليا عليها. والحق ان علاء الدولة كان يتحيّن الفرصة المناسبة ولم يمرّ يوم دون ان يمده جواسيسه بأخبار عن المحتل الا ان الاهمّ من ذلك، والذي كان يجهله الجميع ان المدد القادم من بغداد كان على وشك الوصول، وان النجدة المنتظرة بين ساعة واخرى لم يكن على رأسها سوى القادر، خليفة بغداد نفسه.

*

قلب ابو علي الابريق، واخذ يهزه هزا لعله يكشف عن قطرة اخيرة.

– انتهى. لقد اتت الحرب على الخمر.

أمسك بيد ياسمينة وربّت عليها بحنان.

– من حسن الحظ اني املك جسدك لإطفاء عطشي.

ظلت ملازمة الصمت فسألها:

– ما بك يا روحي؟ هل انت حزينة؟

– لست حزينة يا ابن سينا، بل غاضبة، لانك مجنون.

أرسلتْ اصابعها في شعره الذي وَخَطَهُ الشيب ثم تابعت بسبابتها الغضون التي حفرها الزمن على طرفي عينيه.

– لقد استطاع الزمن ان يترك اثاره على جسدك الا انه لم يقدر على جنونك. انت ما زلت طفلا يا ابن سينا.

– وهل تريدينني عجوزا كسيحا مقرفا؟

– كلا، بل اريدك أعقل.

ندت عنه ضحكة مشوبة ببعض الحزن.

– ليتك تعلمين يا ياسمينة عدد الذين يدعون لانفسهم انهم عقلاء، في حين انهم ليسوا سوى متعَبين.

– انا واثقة بأنك لو متَّ وفتحوا جسدك لوجدوا الخمر اكثر من الدم.

– الظاهر انك لن تري هذا اليوم يا عزيزتي، فأنا خالد لا أموت.

حان الآن دور ياسمينة كي يشرق وجهها بابتسامة فيما واصل الشيخ بحماس طفولي:

– سأبوح لك بسرّ. كنت واثقا وانا طفل بأن البشر اذا ظل منتبها ومحترسا فإنه لا يمكن ان يموت وانه لا يموت الا عن غفلة او عدم انتباه، لذلك فأنا أظن نفسي من الخالدين.

لم تتمالك نفسها عن الضحك امام كل هذه البراءة.

– اذن فلا شك انك ستعيش الف عام يا ابن سينا.

تسللت يده الى صدرها من تحت القماش الحريري الرقيق وتكورت اصابعه على استدارة النهد.

– وما جدوى الف عام اذا حرمت من هذا؟

– اذن فلا خيار لك يا مولاي، عليك ان تحافظ عليّ ايضا.

– أعاهدك على ذلك.

طوّقها بذراعيه، وهوى بها على البساط المفروش على الرمل.

– تعالي يا روحي، ولنقتطف شيئا من فاكهة الخلود...

الهوامش:

١– إعتاد اللاتينيون منذ ذلك العهد أن يسموا الأطفال المولودين على هذه الطريقة بالـ قيصر أو الولد القيصري. (المحقق)

٢– يساوي المن الواحد ستة أرطال تقريبا. (المحقق)

٣– ظاهر الدين شمس الملوك وقد جلس على عرش الري وهمذان بعد وفاة أبيه سنة ١٠٤١ ميلادية. (المحقق)

٤- هل يكون يوحنا العسلياري وراء ضياع تلك الأجزاء؟ (المحقق)

٥- بسؤالنا أهل الذكر رجح لدينا ان هذا العلاج لا يخلو من غرابة. (المحقق)

٦- يقصد: الكاغذ. (المترجم)

٧- كلمة تطلق على نوع من الورق استعمل مبكرا في العالم الإسلامي. (المحقق)

٨- في النسخة التي بين أيدينا يقول الجوزجاني: وكان يكتب ويشرب الى نصف الليل حتى غلبني وأخاه النوم ولم يذكر ابن زيلة ولا المعصومي وهذا يعني ان محمودا لم يمت على يد تاج الملك ولعل للمحقق رأيا آخر. (المترجم)

٩- الفيج: رسول السلطان الذي يسعى على رجليه وهو أيضا الخادم، والكلمة معربة عن بيك الفارسية وتعني كذلك الجماعة من الناس.(المترجم)

١٠- كأني بالجوزجاني يجمّل الحقيقة فقد ذكر المؤرخ العربي ابن الفندك ان ابن سينا والشيخ أبا القاسم تبادلا كلمات على جانب كبير من الحدة. (المحقق)

١١- هكذا قدر على الكثير من مؤلفات معلمي أن تضيع كلها أو تتلف أجزاء منها. (الجوزجاني)

المقامة الثلاثون

- ايها الشيخ الرئيس.

تعرف ابو علي على صوت العسلياري يهتف به من خلف خُصاص الخيمة فشدَّ اللحاف على عري صاحبته.

- ماذا هناك يا يوحنا؟

- الامير يدعونا الى خيمته.

- الان؟

- فورا وقد الح على ان تكون مصحوبا بامرأتك. الظاهر انه قد اقام مأدبة على شرف احدهم ولا أدري مَنْ هو بالضبط، الآ ان المعسكر في اضطراب كبير.

مسح ابن سينا العرق عن جبين ياسمينة وهمس بنبرة مرحة:

- مأدبة؟. لعل هناك خمرا ايضا...

تظاهرت بصفعه فابتعد عنها ضاحكا.

- اسبقنا الى هناك يا يوحنا. نحن قادمان.

سألت ياسمينة وهي ترتدي ثيابها:

- ما الذي يدعو الامير الى اقامة مأدبة في مثل هذه الظروف؟

- لعله سيعلن عن العودة الى اصفهان.

أومأت برأسها دونما اقتناع، وواصلت الاستعداد للخروج.

كانا يهمّان بمغادرة الخيمة حين لاحظ انها عادت الى حجابها مثلما كانت تفعل عند خروجهم من الري، فوضع يديه حول كتفيها.

- حبيبتي. انزعي عنك هذا الحاجز الذي يفصل بيني وبينك. انه إساءة بالغة الى جمالك. وقد مرت على الامر خمس عشرة سنة، فما الذي تخافين منه الان؟

ترددت لحظة، ثم كشفت عن وجهها هامسة بلطف:

– انت على حق. كان ذلك منذ أكثر من خمس عشرة سنة..

*

لم يدخلا خيمة الامير حتى أحست بان الارض تنشق تحت قدميها. كان امامها هناك بشحمه ولحمه، متهالكا على وسائد الحرير.

لو رأته في جهنم او في اقصى الارض، في وضح النهار او في قاع العتمة، لعرفته فورا.

انه القادر، خليفة بغداد. جلادها، ورمز شقائها الاكبر.

كان الصلع قد عرف طريقه الى رأسه وتفشت الغضون في وجهه المنتفخ وصار كبير الكرش، الاّ انه هو هو، لا شك في ذلك.

وكان عليها ان تتعلق بساعد ابي علي كي لا تقع ارضا.

فهمس في اذنها مدهوشا:

– ماذا اصابك؟

ارادت ان تقول شيئا الا ان الكلمات لم تخرج من حلقها.

رآه علاء الدولة فهتف مرحبا فاتحا ذراعيه بحرارة:

– اهلا وسهلا بالشيخ الرئيس. تعال انت وزوجتك. اقتربا. انه يوم مشهود حرصت على ان تكون من الاوائل الذين يقاسمونني الاحتفال به. نحن عائدون الى أصفهان.

همّ بالاقبال على الامير الا ان ياسمينة تسمرت في مكانها لا تحرك ساكنا.

– حبيبتي ما الامر؟ انك...

لم يجد الفرصة لإكمال جملته. فقد قفز الخليفة من مجلسه امام دهشة الجميع ودوى صوته في ارجاء الخيمة مثل قصف الرعد:

– مريم؟

جحظت عينا علاء الدولة وبدت على العسلياري الدهشة، ووقف ابن سينا مذهولا.

كان القادر قد اقترب منهما. وتعرفت ياسمينة رائحة فمه الكريهة التي طالما سكنت لياليها مثل الكوابيس.

ظل يكرر بصوت مرتعش غير مصدق:

– مريم. .مريم. .بسم الله الرحمن الرحيم..

ثم سرعان ما صرخ في حقد ظاهر:

– ايتها الكلبة الرومية، هنا اذن كنت تختفين طيلة هذه السنوات؟

لا شك ان ابن سينا لم يقف على حجم الكارثة الا في تلك اللحظة، اما علاء الدولة فقد خيل اليه انه واهمٌ في ما يراه وان ما يحدث امام عينيه ليس حقيقيا وانه لا يعدو ان يكون حلما سيصحو منه بعد لحظات. امسك بذراع الخليفة، وكانت تلك حركة بعيدة عن الادب لم يكن ليسمح بها لنفسه في أي ظرف آخر:

– ما الامر يا ظل الله على الارض؟

– هذه المخلوقة زوجتي. لقد هربت من القصر منذ خمس عشرة سنة حاملة معها نفائس لا تقدر بثمن من ممتلكات والدي رحمه الله وطيب ثراه وادام ذكره.

صرخ ابن سينا:

– هذا كذب.

فالتفت اليه الخليفة وهو يكاد يختنق:

– ايها الشقي، كيف تجرؤ؟

ثم دار على عقبيه متوجها الى علاء الدولة فيما يشبه الصراخ:

– من يكون هذا الوقح؟

غمغم الامير وقد صار وجهه في بياض القطن:

– انه الشيخ.. الشيخ الرئيس ابو علي بن سينا، اكبر علماء فارس و..

– لا يهمني ان كان عالما او شحاذا، اريد ان اعرف ما صلته بمريم؟

اجاب ابو علي بصوت قوي:

– انها زوجتي.
– وهل تقسم على ذلك امام الله؟
– امام الله وامام عباده.
كنس القادر الهواء بيديه.
– غبار. زواجكما ليس اكثر من ذرات غبار. هذه الحية لم تخرج من ذمتي، وكان ينبغي ان ارمي عليها يمين الطلاق ثلاثا حتى يمكنها الزواج ثانية، الامر الذي لم يحصل، وهذا يعني انها الان زوجتي شرعا ومن حقي ان استردها منك وآخذها الى بغداد حيث كان ينبغي ان تبقى.
– لا سبيل الى ذلك.
كان ردّ ابي عليّ فوريا، ودون تردد.
ثم اضاف ملتفتا الى علاء الدولة محاولا السيطرة على ارتجاف يديه:
– مولاي، نحن نستجير بك ونطلب حمايتك.
صَرَّ الامير على اسنانه مفزوعا، ولم يجبه بشئ فألحَّ ابو علي:
– مولاي.
ظل الامير ملازما الصمت.
– لقد انقذَ زوجتكَ من الموت فهل نسيت؟
كانت ياسمينة هي التي توسلت اليه هذه المرة وقبل ان يجد صاحبها الفرصة لمنعها من ذلك ارتمت عند قدمي الامير باكية.
– الرحمة يا مولاي. لا تتركني لهذا الرجل. إفعل ذلك من اجل ولدك الذي انقذه الشيخ من الموت، ولي عهدك الذي انت مدين به للشيخ.
ثم رفعت عينين ضارعتين في اتجاه العسلياري.
– قل له يا يوحنا. ذكّره بواجبات العرفان.
لكن العسلياري اشاح عنها بوجهه كالشامت، بل كأنه لم يعش طيلة الوقت الاّ على أمل مثل تلك اللحظة.
في الاثناء، اقترب الخليفة من الامير واحدٌ فيه البصر قائلا بصوت في

برودة الجليد:

– امامك خيار واضح: جارية في كفة، ومدينة في الكفة الاخرى. كلبة من كلاب الروم مقابل خلاص أصفهان، فاخترْ.

توقف لحظة قبل ان يضيف:

– ولا تنس ان لا خلاص لمدينتك بدون جيوشي.

تحول الامير الى تمثال من الملح. ولولا شفتاه المرتعشتان لخيل الى الجميع انه تحجر. لزم الصمت طويلا حتى لم يعد لابي علي اي شك في الاتجاه الذي سترجح اليه الكفة، فأمسك بساعد ياسمينة وسحبها قاصدا الخروج.

في اللحظة نفسها تقريبا صرخ علاء الدولة مشيرا بيده:

– ايها الحرس.. اقبضوا عليهما.

*

منحوهما مهلة الى الفجر. وهاهو الفجر يدق على ابواب السهل، ولن تلبث الشمس ان تطل على كثبان الرمال الصهباء.

كانت اقدامهما مشدودة بالسلاسل وقد أُجلسا وجها لوجه على مسافة تمنعهما من التلامس وكان كل منهما يحاول عبثا ان يبحث عن عمر جديد للزمن في عيني الآخر.

توسلت اليه ياسمينة للمرة الالف:

– لاقبل ارجوك. اقبل من اجلي.

– ولكن كيف كيف تطلبين مني ان اقوم بشئ كهذا لا استطيع الا تفهمين؟

– ولكنك تعرف ما ينتظرني هناك لقد قلت لك كل شئ. سيكون علي ان اتحمل جسدا آخر غير جسدك، ان اتنفس رائحة اخرى غير رائحتك. هذا الموت الذي تضن به علي الان سأعيشه كل يوم، سأواجهه كل ساعة.

كتمت شهقة. صارت عاجزة عن البكاء وغارت في مآقيها الدموع

وجففت ريح الليل عينيها. توسلت من جديد:

- ارجوك يا مولاي ويا حبيبي اعطني قارورة من قواريرك من تلك التي تقتل اثناء النوم فلا ننتبه الى وقع خطوات الموت. لا اريد ان اعاني من جديد ما عانيته في السابق، لا اريد...

- اطلبي مني ان اموت فداءا لك، اطلبي مني ان افديك ببصري، خذي يدي، خذي جسدي كله، ولكن لا تطلبي مني ان أقتل حياتي بيدي، ان اخمد طوعا النفس الذي تحيا به روحي.

- هل ترفض ذلك لأنك عاهدتني على المحافظة علي؟ هل ترفض ذلك لانك وعدتني بأن أعيش الف عام؟

- اسكتي ارجوك.

- الرحمة ايها الشيخ الرئيس، انا أحلك من عهدك فخلصني، اتوسل اليك.

لم يعد يملك القوة للرد عليها. كان محطما يائسا يخامره احساس فظيع بأنه لم يعد سوى رصيف صخري بائس ترتطم به امواج من الحجارة.

ارتفع خصاص الخيمة فجاة مفسحا الى ضوء النهار المتوهج.

وخيل اليه في ما يشبه الحلم انه يسمع صوتا يقول:

- حان الوقت.

واحس باشباح تقتحم عليهم الخيمة فسمع نفسه يغمغم:

- لحظة. امهلونا لحظة ارجوكم.

كانت الاطياف قد انحنت بعد على ياسمينة فكرر متوسلا:

- لحظة فحسب بحق الله...

ترددت الظلال برهة ثم انسحبت الى الخارج وخلت لهما الخيمة من جديد.

وفي ما يشبه الحلم الحلم نفسه الذي لم يصح منه بعد زحف ابو علي باتجاه خُرْجِه وفتش فيه قليلا حتى عثر على بغيته.

قارورة صغيرة من المرمر، مدّ يده بها الى ياسمينة.

المقامة الواحدة والثلاثون

ظل الجيش يتقدم طيلة ثلاثة أيام تحت سماء معدنية تاركا أصفهان الى يساره متجها الى الشمال لغربي فقد غير علاء الدولة خطته في اللحظة الأخيرة وما ان أعلمه جواسيسه بأن همدان خلت إلا من حامية غزنوية صغيرة حتى قرر ان يبدأ باسترداد المدينة التي خسرتها السيدة أولا.

سار الفرسان في المقدمة وتبعهم المشاة، وعلى اثرهم الجمال المثقلة بالزاد والمتاع فيما كان الشيخ مسبوقا بالعسلياري وابن زيلة يحث جواده للحاق بصاحبيه وقد بدت مجموعتهم غريبة عن سائر الجيش. بعد قرابة الفرسخ مال الشيخ فجأة على عرف مطيته وأخذ يتقيأ على دفعات ثم سرعان ما وقع على الرمال الجافة.

كان أبو عبيد أول من انتبه الى تخلف الشيخ فأدار عنق جواده وخفّ اليه فوجده طريحا على الرمل وقد انكمش على نفسه وشد على بطنه بيديه ساكنا يعتصر وجهه الألم.

– ما بك ايها الشيخ الرئيس؟ ما الذي يؤلمك؟

التحق بهما العسلياري فترجل بدوره في هيئة المهتمّ

– هل تشعر بوجع في بطنك؟

لم يجد أبو علي الفرصة للإجابة، فقد عاوده الصرع وانقبض جسمه كله وسرعان ما تقيأ وكان قيؤه معقدا ضاربا الى السواد.

سأل الجوزجاني مفزوعا ممسكا بيد معلمه:

– ماذا علينا ان نفعل للتخفيف عنك، قل لي؟

نحاه العسلياري جانبا وأكب على جس نبض الشيخ.

همس ابو علي بصوت يكاد لا يسمع:

– كم؟

– مائة وعشرين...

– وهل النبض غزالي أم سريع؟
بل غزالي، ولكن لا خوف عليك فلا شك انه سوء هضم ناشئ عن طعام فاسد اكلته و...
قاطعه الجوزجاني بحدة:
– هدا غير ممكن، فالشيخ لم يضع في فمه شيئا مند غادرنا المعسكر.
رد العسلياري مؤكدا:
– بل هو سوء هضم.
خف عنه الصرع وكفّ وأمكن له أخيرا ان ينهض. لكنه ما ان تفرس في القئ الذي كاد يبتلعه الرمل حتى بدا عليه الإنشغال.
ومثلما اعتاد ان يفعل آلاف المرات مع الآخرين أدخل يده تحت ثوبه واخذ يجس بطنه حول منطقة المعدة.
قال بعد برهة:
– لا بأس العسلياري على حق. لا شك انه سوء هضم.
لم يضف شيئا، بل سار مترنحا نحو جواده يكاد يسقط أرضا مع كل خطوة. وما ان همّ بوضع رجله في الركاب حتى عاوده الصرع مرة اخرى فتلوى من الالم صارا على اسنانه كي لا يصرخ.
هتف الجوزجاني متوسلا:
– لست في وضع يسمح بالسفر ايها الشيخ الرئيس دعنا نعالجك، ارجوك.
– في المحطة القادمة. لا تقلق.
– ولكن يا ابن سينا..
– ساعدني على الركوب قبل ان تهلكنا الشمس، هيا يا ابا عبيد.
لاحظ العسلياري بنبرة متعالمة:
– على اي حال نحن لا نملك هنا ما نحتاجه للعلاج ولا بد من الالتحاق بالقافلة.

أحكم الشيخ جلسته على السرج وحث جواده في اتجاه مؤخرة الجيش التي كاد يذهب بها الأفق.

*

لم يأذن علاء الدولة بالتوقف ونصب الخحيام الآ بعد ان شرع شفق الغروب في الاختفاء وراء الطرف الاخر من الارض تاركا خلفه سماء ارجوانية فاقعة تذوب فيها ذيول طويلة من نثار السحاب مائلة الى البياض.

وما ان نصبت خيمته حتى اسرع الشيخ الى التمدد لاهثا متقطع الانفاس.

قال بصوت خافت:

– انا بحاجة اليك يا يوحنا.

– امرك يا ابن سينا.

– اظنني عرفت مرضي ولا بد من الاسراع بوقفه عن التقدم.

– وعلى اي علاج ازمعت؟

– هو علاج كريه للاسف يجب ان تهيئ لي حقنة شرجية. واتخذ دانقين من بزر الكرفس ودانقا من الخشخاش في جملة الحقنة.

– حقنة من الافيون؟

– بل من الافيون والكرفس لا تحاول ان تفهم فأنا أعي جيدا ما اقول.

– اتمنى ذلك ولكن دعني اذكرك بان دانقا من الافيون لا يخلو من خطورة على القلب.

– هذا خطأ يا يوحنا فأنا اعرف الكميات التي يحسن الوقوف عندها وهي في حدود خمسة دوانق وانا كما ترى بعيد عنها كل الابعد.

تدخل الجوزجاني مؤكدا:

– هذا صحيح انها ارقام استنتجها الشيخ من تجارب قام بها في السنين الاخيرة وكنت شاهدا عليها بنفسي، فلتنفذ أوامر الرئيس.

ابتسم العسلياري في هيئة المستسلم.

– حسنا. فلا امير للاطباء غيره على اي حال، أليس كذلك؟

نفذ يوحنا ما أمره به الشيخ الا ان العلاج ظل دون اثر فطلب منه الشيخ مع منتصف الليل ان يعيد الكرة مضاعفا الكميات. وكان لا بد من حقنة ثالثة لتظهر اولى علامات التحسن، ويستطيع الشيخ اخيرا ان يخلد الى النوم.

أفاق مع الخيوط الاولى للفجر فلمح طيفا ينحني عليه. كانت حواسه تحت سيطرة الأفيون فجاهد طويلا قبل ان يتبين في نصف العتمة ملامح امير أصفهان.

– علمت انك مريض..

– انا الان احسن حالا يا مولاي.

– انزعجت لذلك كثيرا.

قاطعه ابو علي:

– متى نصل الى أصفهان؟

تغيرت سحنة الامير وتقطب جبينه وبدا عليه الانشغال.

– الطريق الى أصفهان لم تعد سالكة، فقد حال بيننا وبينها الأكراد. جيش صغير يحتل قرية الكرج[1] على رأسه تاش فراش احد القادة التابعين للغزنوي ونحن مضطرون الى محاربته لأن تغيير الطريق سيجعلنا نخسر وقتا ثمينا، فهل انت واثق بقدرتك على المضي معنا؟ استطيع ان اضع حرسا في خدمتك لتنتظر هنا ريثما نفرغ من القتال.

– هل نحن على مسافة طويلة من الكرج؟

– مسيرة يومين وليلتين.

– إذن فسأمضي معكم.

– سيكون علينا ان نعبر الهزاردري الوديان الألف ولعلك تعرف ما معنى ذلك.

– لا عليك يا مولاي اهتم بجيشك.

هز الأمير رأسه.

– أغلب ظني انك لن تعود عن قرارك؟

– كما قلت لك يا مولاي اهتم بأمور الجيش ولا تخف علي.

– ليس هذا ما عنيت بل قرارك الانصراف عن خدمتي حال بلوغنا همذان.

– لقد تم ذلك وانتهى الامر يا مولاي وها انت ترى اني لست الى جانبك.

ازداد وجه علاء الدولة تجهما.

قال بعد برهة من الصمت:

– العفو من الإيمان يا ابن سينا وقد رجوتك العفو وها انا ارجوك من جديد. امامك الان رجل عفر التراب وجهه.

نهض ابن سينا قليلا عن فراشه.

– مولاي، لقد اصبحت اصم اعمى فكيف تريدني ان اعفو؟ انا الان لا اسمع رجاءك ولا اراك.

قال الامير:

– لكم افهم ألمك.

سكت لحظة قبل ان يضيف:

– ولو دخلت قلبي لرأيت كم انا شريك لك فيه.

أغمض ابو علي عينيه ولاذ بالصمت.

عبروا الأودية الألف التي تحدث عنها الامير بعد ان قاسوا الشدائد في الطريق. كانت منطقة شاسعة قاحلة جرداء وكانت الخرافات تجعل منها المكان الذي قتل فيه رستم العفريت وتعزو عقمها الشديد الى الانفاس السامة التي كان العفريت ينفخ بها على الارض. ولم يجدوا جيشا كرديا بل جيشين. كان الجيش الثاني في انتظارهم على مسافة عشرة فراسخ من همذان بضواحي إداج لذلك اضطر علاء الدولة وعلى الرغم من انتصاره السهل على جيش الكرج الى ان يعسكر بجنده طيلة ثلاثة ايام للراحة

وتضميد الجراح واستجماع القوى.

صار الشيخ احسن حالا فاغتنم الفرصة ليملي على تلميذه الاوراق الاولى من كتاب اراد ان يضمنه خلاصة آرائه في وجود الذات الالهية وآخر ما وقف عليه من امور العلم والفلسفة وكان يعتبر هذا الكتاب الذي أسماه "الحكمة المشرقية" بمثابة الوصية التي قد تسلط الضوء على ما غمض من اعماله السابقة وتجيب على اسئلة الناظرين في كتبه في ما يقبل من أيام. في الأثناء لم ينقطع عن تناول الحقن التي كان يهيئها له العسلياري وقد طلب منه الشيخ ان يضيف شيئا من المثروديطوس.[٢]

وكان كثيرا ما يتوقف عن الاملاء فجأة محدا ببصره في المدى اللانهائي كمن ينتظر شيئا يطل من الافق وكان الجوزجاني يحفظ لتلك اللحظات حرمتها محترسا من أن يداهم عليه خواطره بأي سؤال والحق انه كان يعرف تمام المعرفة أن لا فائدة من السؤال فاماذا يحاول ان يعيد معلمه الى حقيقة ارض اداج وهو يعلم انه تائه في مكان ما على ابواب بغداد...

ارتحل الجيش مع نهاية اليوم الثالث قاصدا الحامية الكردية الثانية آخر العقبات في طريق همذان. وكان لعذه الرحلة الجديدة أسوأ الاثر على صحة الشيخ فقد عاودته النوبات وصارت أشد وبلغت ذروتها في الليلة التي سبقت المعركة حتى ان الشيخ امر العسلياري بزيادة الكميات في الحقنة وجعلها اربعة دوانق من الافيون وخمسة دراهم من بزر الكرفس. واذا كان الطبيب قد نفذ اوامر الشيخ دون نقاش فان الجوزجاني لم يحجم عن الاحتجاج الشديد.

– هذا جنون ايها الشيخ الرئيس لن يتحمل جسمك هذا العلاج.

لم يأبه أبو علي لاحتجاج تلميذه وظل يراقب القتال من الغد مقاوما الالم حتى ان المعركة لم تنته الا وهو قد حقن نفسه في يوم واحد ثماني مرات ولعل ذلك هو المنعرج الذي انقلبت فيه اموره الى مصيرها المحتوم.

سقط مغشيا عليه وظل فاقدا الوعي طيلة ست وعشرين ساعة. ثم افاق

فرأى الجوزجاني نائما عند قدميه وكان لم يفارقه لحظة فصرخ بصوت مدو:

– انهض يا ابا عبيد امامنا عمل لابد من اتمامه.

ترك تلميذه مدهوشا وغادر الخيمة فهتف الجوزجاني وهو يسير في اثره:

– هل فقدت صوابك يا ابن سينا؟

لم يكن الشيخ منتبها اليه. كان ينظر الى المشهد المتفتح امامه كمن يرى الى الطبيعة لاول مرة. كان المعسكر قد اقيم على طرف واحة توسطها غدير محفوف بالقصب والنخيل فاتجه الشيخ الى الماء فورا وما ان بلغ ضفته حتى تجرد من ثوبه وخاض في الماء عاري الصدر حتى بلغ الماء حزامه.

– لماذا لاتفعل مثلي بدلا من ان تبحلق في كالجرو الصغير؟ لا شك ان رائحتك النتنة قد فاحت من بعيد يا ابا عبيد.

– هل نسيت مرضك؟ سيدركنا الليل عما قريب وسيجمد البرد عظامك.

– عم تتحدث؟ أي مرض؟

وامام انظار الجنود الذين جلسوا قريبا من الغدير وظلوا يراقبونه في مرح، اخذ الشيخ يخبط في الماء مثيرا عجاجة من الحبيبات الشفافة صارخا بأعلى صوته ووجهه الى السماء:

– الله اكبر.. لم يمد في عمري سواه.. الله اكبر..

*

حين رجعا أدراجهما الى الخيمة كان الليل قد داهم الصحراء ماحيا حدود الواحة وضفائر النخيل، وكان هلال رمضان قد احتل موقعه في كبد السماء محيطا المشهد بسطوع اللؤلؤ.

– انظر يا ابا عبيد، كم يبدو كل شئ جميلا ونبيلا. في الليل تختفي الحقارة ويحتجب القبح. لماذا ينبغي على النهار ان يطرد الليل؟ لماذا؟

رد الجوزجاني بعفوية:

– لان تلك هي ارادة الله.

– لعلك على حق، لكنني اتمنى ان يكون الامر مختلفا في الجنة.

– ايها الشيخ الرئيس.. هل تسمح لي بسؤال؟

– طبعا يا ابا عبيد، ألست صديقي؟

– هل ما زلت واثقا بوجود حياة اخرى بعد الموت؟

توقف ابو علي عن السير وحدج تلميذه بنظرة استنكار:

– هذا النوع من الاسئلة لا فرق بينه وبين الاهانة او الخطيئة. اجل انا واثق بذلك بل واكثر مما كنت. انا واثق بخلود الروح والاّ فأي لعبة عابثة هذه التي يمارسها الخالق تعالى...

استنشق طويلا قبل ان يضيف:

– وأي وحشية ضارية...

كانا قد صارا على باب الخيمة، الا ان ابا علي عدل عن الدخول وفضل ان يلقي بجسمه على الرمل.

– الجو لطيف ولا اشعر بحاجة الى النوم ولا الى الكتابة.

– ولكن عليك ان تخلد الى الراحة فقد غادرك المرض الا انك ما زلت ضعيف البنية.

– انا بخير يا ابا عبيد، لقد انتصرت على المرض.

– ليسمع منك الله ايها الشيخ الرئيس.

رفع وجهه الى السماء المرصعة بالنجوم وانشد بصوت كالهمس:

– ما الذي بقي لي من شبابي فيما عدا الآهة وألم الذنوب؟ آه يا شبابي اين انت؟ للاسف ايها الشيخ، اجل ماذا فعلت بشبابك؟

فوجئ الجوزجاني بان يراته يذكر هذه الابيات للفردوسي الا انه لم يقل شيئا. مرت برهة من الصمت خلا فيها كل من الرجلين الى خواطره.

فجأة قال ابو علي:

– لا بد لي من امرأة الآن.

جحظ الجوزجاني بعينيه واخذ يتفرس في معلمه وقد ساورته في عقله الظنون.

– اذهب فأتني باحدى جواري الامير. اعتقد اذا لم تخني الذاكرة انه ما زال محتفظا بتلك المصرية الصغيرة ذات البشرة الشبيهة بلون العنبر.

– لا تقل لي انك جاد في الامر يا ابن سينا؟

– هيا يا ابا عبيد. جسدي عطشان واذا لم أشف غليله عاد اليه المرض. اسرع.

– لا حول ولا قوة الا بالله. الآن ثبت عندي انك تبحث عن الموت.

– انت احمق يا اخي. اذهب فآت بتلك المصرية وكف عن قرع اذني.

– ولكنها لم تتجاوز الخامسة عشرة.

– كفى! هذا امر.

نهض ابو عبيد متثاقلا مضطرب الملامح وسار مقوس الظهر قاصدا خيمة الجواري.

*

وثب عليه للمرة الثالثة. كانت الوثبات قد تعاقبت الواحدة تلو الاخرى، والواحدة اكثر عنفا من الاخرى وأطول.

تسلل ضوء لبني من بين اهداب الخيمة فداعب وجهيهما اللذين التمعا عرقا. كان ثمة شئ مربك في اجتماع هذين الجسدين وقد اختلط عمراهما وضاعا في العتمة. توهج جسد الشيخ ولم يعد هزاله المرعب ظاهرا للعيان واستمد وجهه النحيل من نضارة الشباب ألقا جديدا وكانت شفتاه المييبستان تقضمان شفتي الفتاة فيتشرب كيانه كله بمذاقهما الفريد. كان لريقها في فمه مذاق بطيخ فرغانه وكان لأسفل بطنها عبق ورود بخارى الذي لا يضاهى.

– ها انت اخيرا. انت الظمي الذي جئت منه ومنك استمد حياتي هذه

اللحظة.

حدجته بنظرات من لا يفهم واربكتها كلماته الغامضة الغريبة وكيف لها ان تفهم؟ و كيف لها ان تعرف معنى تلك الكلمات البعيد الذي لا يملك سره سواه؟

حين تهالك عليها خائر القوى بعد الوثبة الرابعة سمعته كأنة يبكي.

*

في اليوم الموالي، وقف الجيش على ابواب همذان كان اليوم أول جمعة من شهر رمضان.

وضع الشيخ على محفة يجرها فرسان أشقران.

كانت الشمس تتقدم من جهة الغرب وقد ارتفع صوت المؤذن داعيا الى صلاة العصر.

اشار ابن سينا بيد مرتجفة الى تلميذه:

– اقرأ عليّ الخطاب من جديد. اقرأه عليّ مرة اخرى

– اطلبي مني ان اموت فداء لك اطلبي مني ان افديك ببصري خذي بيدي خذي جسدي كله ولكن لا تطلبي مني ان اقتل حياتي بيدي ان اخمد طوعا النفس الذي تحيا به روحي. اجل يا ملكي وحبيبي كنت علبى حق ساعيش الف عام سنعيش الف عام معا.

ياسمينة

– هي اذن حية ترزق؟

اضاف الجوزجاني:

– وحرة طليقة.

– ولكن كيف؟ كيف امكن ذلك؟

حرك التلميذ رأسه يمنة ويسرة.

– لا ادري ولم يفض الي الرسول بشئ عدا هذا الخطاب.

– لايهم اين هي الان. المهم انها على قيد الحياة. لقد كان الله رحيما

بعباده.

انتابه السعال حادا وعنيفا وظهر شئ من الدم على طرفي فمه.

وجد القوة ليهمس في اذن تلميذه:

– المدبر الذي كان يدبرني قد عجز عن التدبير والان لا تنفع المعالجة.

اغرورقت عينا ابي عبيد بالدموع ولم يستطع التفوه بكلمة. كان يرفض التسليم بالامر لم يفهم ما حدث بعد التحسن الذي شعر به الشيخ بالامس كي تنقض عليه العلة من جديد بحدة اكبر وعزم اشد.[٣]

– احتفظ لنفسك بما تراه ووزع بقية متاعي على الفقراء والمساكين لا اريد ان يبقى شئ من ذهب او غيره في صناديقي.

ضاقت انفاسه فاضطر الى التوقف قبل ان يواصل الهمس:

– حاول ان تجمع تصانيفي. انا اعهد بها اليك يا ابا عبيد عسى الله ان يقدر لها المصير الذي تستحق.

صمت برهة واغمض عينيه

– الان يا ابا عبيد يا صاحبي ويا قرة عيني لم يبق الا القرآن. اسمعني كلمات القرآن..

ثم انتقل الى جوار ربه ورحمته ودفن بهمذان في سنة ٤٢٨ هجرية الموافق لسنة ١٠٣٧ في تقويم النصارى وكان جميع عمر امير الاطباء ٥٧ سنة لقاه الله صالح اعماله واحسن منقلبه.

ثم ان رسولا جاء من الغد فعلم الجميع ببالغ الدهشة ان الخليفة القادر قد قبض في طريق العودة الى بغداد.

كانت يد مسمومة قد دست له السم..

الهوامش:

١– الكرج من ضواحي همذان وكان في الناحية أكثر من ٦٦٠ قرية في تلك الأيام. (المحقق)

٢- معجون يرجع اسمه الى الملك ميثريدات الذي اعتاد تناوله ليكتسب مناعة من السموم. (المحقق)

٣- يلمح الجوزجاني في السيرة الى ان العسلياري قد يكون تعمد الخروج على العلاج الذي حدده له الشيخ وهذه كلماته: فأمر يوما باتخاذ دانقين من بزر الكرفس في جملة الحقنة طلبا لكسر ريح القولنج فطرح بعض الأطباء الذي كان يتقدم هو اليه بمعالجته من بزر الكرفس خمسة دراهم لست ادري أعمدا فعله أم خطأ لاني لم أكن معه. (المحقق)

هذه الرواية

ابنُ سينا واحدٌ من بين قلّةٍ من نوابغ العصور السالفة الذين وصلتنا أهمّ مؤلّفاتهم، إضافةً إلى صورة واضحة عن حياتهم الشخصيّة، وذلك من خلال الصفحات التي تركها لنا تلميذه وتابعه أبو عُبيد الجوزجانيّ الذي صاحبه في حلّه وترحاله، والذي وصف لنا في قرابة العشرين صفحة ما تعرّض إليه معلّمه من ظلم الملوك وسطوة الأمراء وتعب الجسد في مرام النفس الكبيرة.

وقد استغلّ جيلبرت سينويه هذه السيرة القصيرة لإنجاز عمله الضخْم، فأَجْرَى نَصَّ هذه الرواية على لسان "أَبي عبيد الجوزجاني" (...).

29.00



منشورات الجمل